سلسلة الآثار الكاملة ـ ١٦ـ

العودة إلى الذات

الشهيد الدكتور علي شريعتي

ترجمة ودراسة وتعليق

د. إبراهيم دسوقي شتا

مراجعة

حسين علي شعيب

دار الأمير

العودة إلى الذات

بسم الله الرحمن الرحيم

إسم الكتــاب : العودة إلى الذات

إسم المؤلــف : د. علي شريعتي

دراسة وترجمة: د. إبراهيم دسوقي شتا

تنضيد وإخراج : زهرين

تصميم الغلاف: بشير محمد

الترقيم الدولي : ISBN 978-9953-494-12-8

الطبعة الأولى : ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م

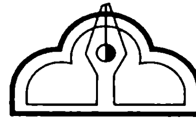
الطبعة الثانية : ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

(بعد تدمير الدار خلال حرب تموز ٢٠٠٦ م)

الناشــــــــر : دار الأمير للثقافة والعلوم ش.م.م

التوزيع في العراق:

دار الباقر ـ النجف الاشرف هـ :07801263579



دار الأمير للثقافة والعلوم

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر ـ بيروت ـ لبنان

تلفاكس: 49 64 27 1 961+

ص.ب: 113/5551 الحمرا ـ بيروت ـ لبنان

Website: //http:/www.daralameer.com

E-mail: daralameer@daralameer.com



مؤسسة نشر آثار الدكتور علي شريعتي

تلفاكس: 2232729 21 98+

ص.ب: 6516-19395 طهران

www.shariati.com

وتستمر دار الأمير ...

إذا كانت مسؤولية المثقف تجاه أمته وتحديات لحظتها التاريخية هي الهم والرسالة التي حملها علي شريعتي، فإن نشر فكر الوعي الحضاري بدوره مسؤولية، إذ كيف يصل هذا الفكر للناس دون ناشر مسؤول؛ يعطيه العناية ويكفل أن يظل هذا الزاد الثقافي حاضراً في الوعي؛ متاحاً للأجيال لتنهل منه في صياغتها لرؤى التجديد والنهضة وتستثمره في حركة التغيير وصناعة المستقبل.

وقد وعت دار الأمير هذه المسؤولية منذ تأسيسها عام ١٩٩١م، وحملتها بأمانة، وتحملت تبعاتها المادية والمعنوية في مواجهة حسابات السوق وفكر الجمود، ورغم الدمار الكُلّي الذي لحق بالدار في حرب تموز ٢٠٠٦م، والذي كان أول ضحاياها كتب علي شريعتي التي أحرقتها صواريخ الهمجية الصهيونية؛ حين دكّت مقرّ دار الأمير في بيروت ومعرض الدار في بنت جبيل، فإن إرادة البقاء وعزيمة الإنتصار بقيت متوهجة، وها هي دار الأمير تستأنف دورها ونضالها بعد أشهرٍ معدودةٍ من العدوان، وتقدم من جديد فكر شريعتي في إخراج متميز، وتنهض من بين الركام مستعيدة دورها المسؤول في نشر ثقافة العودة إلى الذات، والنهضة، والمقاومة في مسيرة الفلاح التي شعارها: **إلهي علمني كيف أحيا . .، أمّا كيف أموت، فإني سأعرفه**. والحمد لله الذي نصر عبده.

محمد حسين بزي

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، رب المستضعفين وقاصم الجبارين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد

فأعود للمرة الثالثة إلى ترجمة أعمال المفكر الشهيد الدكتور (علي شريعتي)، في المرة الأولى ترجمت بحثه القيم «بناء الذات الثورية» والذي نشر ضمن كتابي «الثورة الإيرانية: الجذور والأيديولوجية»، وفي المرة الثانية ترجمت بحثه «المفكر ومسؤوليته في المجتمع»، وفي هذه المرة الثالثة أعود إلى هذا المفكر العظيم داعية الأصالة ورسول الفكر الإسلامي العصري، ومنظر الثورة الإيرانية المظفرة، ويحتوي هذا السفر الذي بين أيدينا على:

القسم الأول: العودة إلى الذات: وهو عبارة عن محاضرة ألقاها في جامعة جنديسابور، ثم طبعت بعد ذلك في أوروبا مع محاضرة أخرى عنوانها «نيازيهاى إنسان امروز: احتياجات الإنسان المعاصر». وأعيد طبعها ضمن مشروع حسينية الإرشاد لنشر كل تراث الكاتب الشهيد مع القسمين الباقيين من هذا الكتاب، وهو الذي اعتمدت عليه في ترجمتي هذه.

القسم الثاني: العودة إلى أي ذات، وهو كتاب ينشر ضمن هذه المجموعة لأول مرة كتبه الكاتب الشهيد في أخريات حياته.

وغني عن الذكر أن فكر شريعتي ليس فكراً محلياً، بل هو فكر يهم كل العالم الثالث «أو الثاني كما يحب أن يسميه شريعتي»، ويتناول قضايا تهم كل مفكري العالم الإسلامي في هذا الجزء من العالم والعصر من الزمن. ولا أريد هنا أن أخل بالكتاب عن طريق عرضه، بل أتركه بين يدي القارىء طالباً منه أن يلقي نظرة إلى الكتاب، ثم يلقي نظرة حوله أياً كان بلده، وأياً كان النظام الذي يعيش في ظله، وأنا واثق أن قضايا سوف تتفجر في ذهنه طالما أمضته وحيرته، وأن أصناماً سوف تتحطم أمام عينيه طالما سدت أمامه أفق الرؤية، وأنه سوف يجد نفسه بعد قراءة الكتاب أشد غضباً لكنه أوضح رؤية، هذا ولم أتدخل بشخصي هنا اللهم إلا ببعض الهوامش التي تبين للقارىء العربي بعض ما قد يخفى عليه من التاريخ ومن الشخصيات الإيرانية، أو لكي أحول نظره حيث يعيش. هذا ومني الجهد ومن الله التوفيق، والسلام على من يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

دكتور/ إبراهيم الدسوقي شتا

أستاذ اللغات الشرقية

كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

علي شريعتي: حياة وفكر

بقلم الدكتور إبراهيم دسوقي شتا
أستاذ اللغات الشرقية
كلية الآداب ــ جامعة القاهرة

لا شك في أن ثورة إيران الإسلامية أهم أحداث القرن الرابع عشر الهجري قاطبة إن لم تكن أهم الأحداث في تاريخنا المعاصر، بل إن الانتصار المحيّر لهذه الثورة سوف يكون مجال بحث وأخذ ورد ونقاش مستمر بين الباحثين في العالم، ذلك أنه ـ وربما لأول مرة في التاريخ ـ تقف أمة مستضعفة خالية الأيدي مفتوحة الصدور إلا من سلاح واحد تملكه، وهو الإيمان في وجه قوى طاغوتية، وتقف وتصمد ولا تبخل ببذل الروح والدم حتى تجندل في النهاية كل القوى الطاغوتية، وتُلقي بها في مزبلة التاريخ، وهذا في حد ذاته يثبت أن سلاح الإيمان غير قابل للهزيمة، ويبرهن تماماً إلى أي حد تستطيع البلاد الإسلامية أن تستفيد من هذا السلاح القديم الجديد، الخفي والمتروك، لكنه كالنار تحت الرماد يومض ويحيا في قلب الأمة.

هذا الأصل الإسلامي للثورة، أي الأفكار الإسلامية التي فجرت الثورة وفي الوقت نفسه فجّرتها الثورة فتحولت من خلالها إلى قوى حية وفعالة، هو بلا جدال أهم أصول الثورة، لأنه مهما قيل عن اتجاهات الثورة، ومهما كان الهجوم الذي تتعرض له من عدو حاقد أو منافق مشفق أو مدّعي أخوّة لكي يشوه من وجه الثورة، فإن الثورة

الفكرية التي واكبت الثورة الفعلية سوف تبقى وتنتشر، ذلك أن تأثير مفكري الثورة «**علي شريعتي**» «**وآية الله الطالقاني**» «**وآية الله مطهري**» «**وغيرهم**» في نشر الفكر الثوري، وتحويل المبادىء إلى تيارات حية في قلب الأمة لا يقل تأثيراً إن لم يزد عن دور أولئك الذين بذلوا الأرواح.. في الميادين وإن كان علي شريعتي أبعد أثرا.. لقد كان الحاضر الغائب في ساحة الصدام، ذلك أنه كان قد استشهد قبل انفجار الثورة بعدة شهور.

ولد علي بن محمد تقي شريعتي في «مزينان» وهي قرية من قرى سنروار في منطقة خراسان تقع على حافة الصحراء الكبرى المعروفة باسم «دشت كوير» سنة ١٣١٢ هـ. ش [ديسمبر سنة ١٩٣٣م]، كان أبوه محمد تقي شريعتي من كبار المفكرين والمجاهدين الإسلاميين، أسس في مدينة مشهد بالاشتراك مع عدد من رجال الدين المناضلين «مركز الحقائق الإسلامية» (كانون حقايق إسلامي)، وقام بنشاط واسع في تنقية أصول التشيع مما علق بها عبر القرون من (الدخيل) والخُرافة.. كما قام بتوعية الجماهير بالدور الحقيقي للدين في المجتمع، وفي مثل هذه البيئة، وفي كنف مثل هذا الأب شبَّ (علي شريعتي)، مهتماً منذ طفولته بقضايا الدين والأمراض المنتشرة في المجتمع، مدركاً أن مبادىء الدين الموجودة في الكتب التي تُدرّس شيء، وتلك الشعائر التي يمارسها الناس شيء آخر، أمّا التشيع الحقيقي فهو شيء ثالث مختلف تماماً، وبالرغم من اكتشافه هذه الحقيقة في سن صغيرة، لم يقم كما قام غيره بالفرار من الدين والنفور منه ونبذه ظهريا.. كان يرى أن الدين في حاجة إلى ثورة تقوم بتحويله من عامل ضعف وخمول إلى عامل قوة وطاقة وحياة.

إلى جوار ذلك لم يعكف شريعتي على البحث المُجرّد

فحسب، بل انضم إلى جناح الشباب في الجبهة الوطنية وهو لم يزل بعد صبياً، وبعد سقوط **مصدق** انضم إلى حركة المقاومة التي أسسها **آية الله زنجاني وآية الله طالقاني ومهدي بازركان،** وعندما ضربت بعنف سجن شريعتي ستة أشهر ولم يكن قد تخرج بعد من كلية الآداب (سنة ١٩٥٨) وعندما تخرّج من الجامعة من كلية الآداب بدرجة الإمتياز في السنة التالية برغم كل هذه الظروف، أُرسل في بعثة إلى فرنسا (سنة ١٩٥٩).

وتُعد سنوات فرنسا من أكثر السنوات خصباً في حياة شريعتي القصيرة العريضة، كان شاباً ذا ضمير طاهر ذكيا يقظ القلب، مسلماً حقيقياً يعرف تماماً قيمة كونه مسلماً حقيقياً، عرف تراثه جيداً، وحمل معه زاداً غنياً وفياضاً وقيماً من الثقافة الإسلامية، وبالتالي لم يتعرض شريعتي لتلك الصدمة التي يتعرض لها المبعوثون من العالم الفقير المستضعف عندما يتعاملون مع العالم الغني المستكبر لأول مرة، فتكون نتيجتها أن «يتغربوا» و «يفرغوا من الداخل» و«يتشبهوا» دون مقاومة. لم يحس بنفسه قط «كمسلم» ضئيلاً أو صغيراً أو متخلفاً أمام الجبروت الغربي، لم يفقد شخصيته الإسلامية وذاته الحقيقية، بل على العكس كانت فرصته سانحة لكي يعرف شريعتي عن قرب حقيقة الحضارة الأوروبية، والشخصية الغربية وكبرياءها وغرورها، ووسائل الاستعمار الجديد، وسياسة السلب والنهب والتسلل وطحن الإنسان. وعلى أساس من هذا الفهم وضع شريعتي أهم نظرية في فكره الحي الثوري، وهي نظرية العودة إلى الذات، ومرة أخرى وبعد ما يقرب من مائة سنة من **السيد جمال الدين الأفغاني والكواكبي ومحمد عبده**، يثبت علي بن محمد شريعتي أن المسلم الصادق المؤمن، العارف بأصول الفكر الإسلامي، والمتفهم للإسلام جيداً،

لا يمكن أن يحوّل وجهه عن الإسلام أو أن يرضى عنه بديلاً. وإن الحضارة الغربية مهما كانت «عالمية» ومسيطرة ومتسلطة لا يمكن أن تصلح للمسلم الحقيقي، بل إن المسلم الحقيقي يستطيع أن يدرك نقاط الضعف في الحضارة الغربية وأن يستغلها لصالح الإسلام، على الأقل عندما يقوم بمقارنة هذا الذي يُقدّم على أنه «الحل الأخير» بما جاء به الإسلام منذ أربعة عشر قرناً من الزمان. وهكذا فعل شريعتي عندما اختار علم الاجتماع الديني ميداناً لتخصصه، وكأنه كان يستشرف المستقبل عندما رأى أن تلك الشعوب الإسلامية المقهورة، لن تتحرك إلا بالدين، ولن تنجو إلا بالإسلام. فنال الدكتوراه في علم الاجتماع الديني، كما نال دكتوراه ثانية في تاريخ الإسلام. وفي فرنسا واصل نشاطه السياسي، فأسس فرع أوروبا **لحركة تحرير إيران** التي أنشأها بازركان وطالقاني سنة (١٩٦١)م، وشارك مشاركة فعالة في دعم الثورة الجزائرية، وتعرف على مناضلي العالم الثالث من أمثال **إيما سيزار وفرانز فانون** الذي قام بنقل جزء من كتاب «معذبو الأرض» إلى اللغة الفارسية، كما سجن في فرنسا لمدة ثلاثة أيام، إذ كان ضمن المقبوض عليهم خلال المظاهرات التي اندلعت في فرنسا احتجاجاً على مصرع **لومومبا**.

وفي منتصف الستينات عاد شريعتي إلى إيران، وعلى الحدود ألقي القبض عليه، ثم أطلق سراحه بعد فترة، عُيِّن مدرساً بجامعة مشهد. حسناً: كان شريعتي يستطيع آنذاك أن يكون أستاذاً مثل بقية الأساتذة، مفكراً مزيفاً ومفرغاً من الداخل، وناقداً وعالماً بالغرب، ودليلاً متطوعاً للتنوير والتغريب، ذا حيثية وأموال ووجه متألق في وسائل الإعلام، متحدثاً في كل محفل، وخطيباً لكل مجلس، لكن متى يمكن للمسؤول الملتزم ذي الهدف المحدد الواضح أن يكون

أهلاً لهذه الأمور؟! عاد شريعتي وبدلاً من أن يقوم بترجمة «الوجود والعدم» لسارتر، ويشتهر كفيلسوف «وجودي» ترجم «سلمان الفارسي» لماسينيون. وبدلاً من أن يكتب عن أقطاب الغرب كتب عن «أبي ذر الغفاري». وبدلاً من أن يتحدث عن الأصول، التي لم تكن موجودة سوى في خيال الإعلام (الشاهنشاهي)، وفلاسفة الماركسية الشاهنشاهية المفسّرين لعهد «أعتاب الحضارة العظمى»، أخذ يلقي الدروس والمحاضرات العامة ذات الهدف التنويري الديني. وكم من الأحجار ألقاها في ذلك المستنقع الآسن الذي كان غائباً في نوم الغفلة، وفجأة خلال هذا الحلم (الشاهنشاهي) عن «حضارة الشاه العظمى» التي تقوم بإحياء عظام ملوك جاهلية إيران، يُعلن الشاب أن إيران لا تملك سوى حضارة الإسلام. لا علماء ولا شعراء، ولا فلاسفة، ولا أدباء فيها إلا أولئك الذين ينتسبون إلى الإسلام، ويصبح ذلك الشاب الذي يبلغ نيفاً وثلاثين سنة حجر عثرة، ليس بالنسبة للبلاط فحسب، بل بالنسبة لرجال الدين المنتسبين إلى البلاط «أولئك العمال الهواة للظلمة»، والذين كانوا يجاهدون في تلقين الناس «إسلاماً مزيفاً ضعيفاً متوائماً مع الطواغيت مؤدياً إلى النوم». . وكان صوت شريعتي مخلصاً، عالماً، بعيد الغور، بسيطاً في نفس الوقت، بحيث كان عدد المشاركين في ندواته ومحاضراته لا يقل عن ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف مشترك، ولم يكن هناك بد سوى طرد الشاب «الخطر» من الجامعة ونقله إلى إحدى القرى النائية معلماً في المدارس الابتدائية. لكن «لا بأس»، إنه لم يفقد صفته كمُعلّم على كل حال، فلم يهن ولم يستسلم، والناس يقطعون الفيافي لكي يستمعوا إليه. فتستسلم السلطة وتنقله مدرساً في جامعة طهران، على

الأقل لكي يكون تحت سمعها وبصرها قريباً من أعوانها وجواسيسها.

في سنة (١٩٦٩) كانت «حسينية الإرشاد» قد افتتحت لكي تكون مركز إشعاع إسلامي، ويركز فيها شريعتي كل نشاطه، ملقياً محاضرات منتظمة عن الإسلام وتاريخ التشيع، مصححاً من خلالها المفاهيم السائدة، ملقياً بثقل الإسلام عاملاً لشحذ الهمم والتعبئة الفكرية والسياسية في أوساط الشباب، ومؤسساً لخمس لجان للإشراف على النشاطات المتعددة: لجنة لتاريخ الإسلام ولجنة لتفسير القرآن، ولجنة للأدب والفن، ولجنة للغة العربية لتصحيح منابع التراث الشيعي، ولجنة للغة الإنجليزية لحمل رسالة الإسلام العالمية ونشرها. والتف حول حسينية الإرشاد جيل كامل من الشباب، نعم، لقد حول المجتمع كله إلى جامعة يلقي فيها دروسه ومحاضراته. ومرة أخرى أثبت شريعتي أنه هو نفس الأستاذ اليقظ الصامد. وملأ ذلك الرجل الفريد رسالته، وبأسلوب واضح ومفهوم استطاع أن يجعل من قضايا الإسلام قضايا يومية، وفي دروس معرفة الإسلام (إسلام مشناسي)، جلا الإسلام في ضوء بقية الأديان والمذاهب الفلسفية المعاصرة، وهيأ أرضية مناسبة تماماً للثورة الفكرية، وطرح «التشيع العلوي» في مقابل «التشيع الصفوي التقليدي»، وصار وحده جيشاً يقاتل «التغرّب» و«التشبه» و«عبادة الشاه» و«المفكرين المزيفين»، ويقف بالمرصاد للعملاء في لباس رجال الدين ووعاظ السلاطين و«استغلال الدين ضد الدين». وقامت عليه الدنيا وقعدت، فهو حيناً يتهم بأنه وهابي، وحيناً يتهم بأنه زنديق، وهو يقف لكل حملة مفنداً دعاويها، فاضحاً ما وراء أستارها. ولا تجد السلطة بداً من إغلاق حسينية الإرشاد (سنة

١٩٧٣)، وتقوم بالقبض على شريعتي ووالده، ويبقى في السجن ثمانية عشر شهراً متعرضاً لصنوف العذاب، ويتدخل المسؤولون الجزائريون فيفرج عنه سنة (١٩٧٥) لكنه يوضع تحت المراقبة ويمنع من أي نشاط. وتسمح له السلطة ـ لأمر في نفسها ـ بالرحيل عن إيران في مايو سنة ١٩٧٧، ويسافر إلى لندن. وبعد شهر من إقامته في لندن يعثر عليه ميتاً، ميتة غامضة تعلن عنها السلطة أنها نوبة قلبية، والكل يعلم أنها من تلك النوبات المصطنعة التي دبّرتها السلطة عشرات المرات لأعدائها. ولا تسمح لجثمانه بأن يدفن في إيران، فينقل إلى دمشق ويدفن في الحرم الزينبي، شهيداً شاباً كشهداء الثورة الحسينية التي طالما اعتبرها نموذجاً يحتذى. ويترك لنا حوالى مائة وعشرين عملاً ما بين فلسفي وأدبي وتحريضي، لكنها كلها تتخذ من جذوة الإسلام القبس الذي يضيء الطريق أمام جماهير الشباب، وتؤدي إلى انخراط جيل كامل من الشباب في صفوف الحركة الإسلامية في إيران، ويكون في موته أكثر حياة وأكثر حضوراً.

ابراهيم دسوقي شتا

القسم الأول

العودة إلى الذات

عندما تتحد الصفوف:

حضرات السادة المحترمين، أيتها السيدات أيها السادة، أعزائي الطلاب. إنني سعيد لأنني ولأول مرة في هذا المكان ـ وهو بيتي الروحي والمعنوي ـ أرى أناساً هم أهلي في الروح وفي المعنى، وهم فقط الذين يمنحون حياتي معنى وهدفاً واتجاهاً وفلسفة للبقاء.

إن مجتمعنا مثل كل مجتمع آخر، وزماننا مثل كل زمان آخر، قد تقولبا واستقطبت أفكارهما، وشكلت عقائدهما، فهما ذوا أنماط معينة واتجاهات محددة، فالمتدين والمفكر والمتعلم والعامي والصفوي والرجعي والتقدمي، لكل منهم قالبه المحدد وعلاقاته المعلومة ولغاته المفهومة، بحيث يفهم كل منهم الآخر. وكل من يريد أن يكون موفقاً في هذا العصر أو عنصراً مفهوماً في المجتمع عليه أن يكون ذا نمط فكري يصل به إلى هذا النجاح، عليه أن يرفع لافتته الفكرية، وكما يقول الكتاب التقدميون اليوم: على كل فنان أو كاتب أن يحدد انتماءه الطبقي ـ وهذا قول صادق للغاية ـ فإن على كل فرد أن يحدد قاعدته الاجتماعية، وأية جماعة ينتمي إليها بحيث يجد له مؤيدين محددين ومتميزين في المجتمع.

وكل شاعر أو كاتب أو مفكر أعلن عن قاعدته الاجتماعية قائلاً: إنني متدين أو مفكر علماني أو اعتنق أيديولوجية كذا، أو ارتبط بقطب كذا أو بجناح كذا، سوف يفهمه الناس ببساطة ويدركون ما يقول، وبالتالي سوف يجد من يؤيدونه في فكره. لكن بعضهم لا يجدون الفرصة لاختيار قالب من بين هذه القوالب الموجودة سواء كانت الدفاع عن الدين أو رفضه، أو ممارسة الفكر، أو اعتناق نظرية من النظريات أو الارتباط بقطب من الأقطاب أو جناح من الأجنحة، أو تحديد رؤية معينة أو عقيدة معينة أو اتجاه معين، وعلى كل حال فأمثال هؤلاء إذا انطلقوا من الدين فإن رجال الدين هم أول من يسيء فهمهُم، وإذا تحدثوا منطلقين من فكر مستنير وطرحوا قضايا على أساسه فإن المفكرين هم أول من يسيء فهمهم ويكيل لهم التهم.

مثل هؤلاء غالباً ما يبقون وحداء غرباء أُسيء فهمهم، ولا يملكون الضوابط المعلومة للاختيار، وهم بالقطع أناس محبطون، إنهم عندما ينظرون إلى كل الأجنحة المختلفة يدرون أنهم لا يستطيعون الانضمام إلى جناح ما بنسبة مائة في المائة، وعندما ينظرون إلى الأيديولوجيات التي تعد آخر ما ظهر ومن ثم باتت تسيطر، لا يستطيعون اعتناق واحدة يعرفون بها في المجتمع بنسبة مائة في المائة، وعندما ينظرون إلى ما هو باسم الدين، لا يستطيعون التسليم له لأنه تقليدي ومخدر. مثل هؤلاء الناس عندما ينظرون إلى المجتمع، ويرون أن هناك عوامل صارت عبر عدد من القرون سبباً في انحطاط البشر، وارتبطت برباط وثيق بأفكارهم

وآدابهم ومعنوياتهم، يخرجون بنتيجة وحيدة فحواها أنه ينبغي أن تمر قرون عديدة حتى يتبدل ما رسخ في أفكار الناس وصار سبباً في جمودهم وركودهم إلى وعي وحركة وفكر صحيح. لكن الواقع يبين لنا خلاف ذلك: ففي آسيا وأمريكا اللاتينية كانت هناك دول تعتبر منتدى قمار للغرب، دول كانت بؤرة فساد خاصة للرأسماليين الغربيين، دول كانت قد وضعت أعظم مواهبها وأعظم أحاسيسها في خدمة العمالة للأجنبي، دول كانت عبر قرون من الاستعمار قد اعتادت على عبادة الأجنبي والاستسلام أمام قوته، بل وأخذت هي نفسها تؤمن بذلها وضعة أصلها، ولو أن عالم اجتماع نظر في سحنة هذا المجتمع، لم يكن ليحدوه أدنى أمل في أن حركة ما سوف تحدث في هذا المجتمع ولعدة قرون تالية.

معجزة الإيمان والوعي:

أجل، في مثل هذه المجتمعات، حدثت فجأة معجزة، وأية معجزة مثيرة للدهشة لم يستطع علماء الاجتماع فهمها، فإن المجتمع الذي كان يحس بالفساد حتى أعمق أعماقه وبالاهتراء والجهل والغفلة حتى النخاع، وبتكرار ما هو مكرر وعبادة التقليد وعبادة الوهم، والعبودية، قد نهض فجأة وجرت في عروقه دماء الحياة الحارة، فتحرك، وألقى من فوق وجهه بهذا القناع المبتذل، وفي الجيل نفسه اتخذ سحنة إنسان حر متيقظ ومسؤول ومصمم، ومن أعمق أعماق مجتمع ميت ليس إلا مقبرة تاريخ ومرحاض له، ظهرت الحياة فجأة، وظهرت الحركة.

فجأة، نفخ عامل روحي في هذه الأجساد الذابلة النحيلة بحيث أحدث هذه الحركة، ومنتديات قمار الغرب الشهيرة نفسها، وتلك الدول نفسها التي كانت بؤرة فساد وقمار وتهريب دولي، تبدلت فجأة إلى مجتمع من الحياة والفكر والحركة والوعي. لا شك أن سبب المعجزة هنا عامل واحد وهو الوعي، لكن ليس ذلك الوعي الذي يرد في المنشورات الدورية، أو الذي يستورد طبقاً للموضة، أو يشكل مثل صندوق من المواد الغذائية وتوضع عليه علامته التجارية ويصل من الغرب فيستهلكه المفكرون، أو يصير مفكراً وواعياً كل من يستهلكه، لكنه الوعي المستقل لجماعة من الجماعات تصل إلى وعيه فجأة على أساس من تاريخها وتناقضاتها ومشكلاتها، وبالتأثير على عوامل انحطاط المجتمع فيها، هذا الوعي يطلق شرارة في كل مجتمعها بحيث يصير كل فرد فيها «برومثيوس» الذي كان يقبس النار الإلهية ويأتي بها إلى أرضه ويوصلها إلى قومه فيهتك أستار الظلمة ويبدد برودة الشتاء، وتنتشر هذه الشرارة، ثم تجذب أنظار المواهب والأبطال والتاريخ وجهودهم إليها، هذه الشرارة هي الوعي المقترن بالعشق والإيمان، هذا هو نوع الوعي الذي يحدث فيخلص المجتمع الذي كان قد توقف عدة مئات من السنين بل عدة آلاف من السنين، توقف إلى درجة أن كل المفكرين وعلماء الاجتماع فيه بل حتى الذين يتصفون بالشوفينية كانوا يقرون بتفاهتهم ويعوون في عوالمهم الخاصة، بل إلى درجة أن العالم كله كان يعتبره مجتمعاً مبتذلاً خلق أصلاً لكي يركبه الاستعمار الغربي، ذلك الوعي يحدث فيه

قوة معنوية تفعل فعل سحر مثير للدهشة، فتقضي على كل الأشياء التي كان قد اشتد رسوخها في علاقاته الاجتماعية عبر ألف سنة بل عبر آلاف السنين، وصارت جزءاً من نظامه الحاكم الموروث ومعتقداته الدينية الموروثة والتقليدية، فراح في سبات عميق حبيس هذه القوالب القديمة، فإذا به ينتقل به من الموت إلى الحياة ومن السكون إلى الحركة.

هذه هي التجربة التي كانت أمام الجيل الشاب بعد الحرب الثانية، ومنحت كل المفكرين المحبطين الأمل، وعلى كل المفكرين الذين لا يفكرون في مستوى تحليل الواقع سطحياً، ولا يصابون نتيجة لذلك باليأس الاجتماعي أو اليأس الفلسفي أن يؤمنوا بأنه من الممكن أن تحدث هذه الحركة العظيمة المعجزة في مجتمعاتهم، وبالرغم من كل عوامل الإحباط والتناقض فيها تحولها من أجنحة متفرقة في سبيلها إلى التفرق والتلاشي إلى مجتمعات سعيدة، تقف على قدمها كمجتمعات إنسانية، إنسانية بالمعنى الذي يقصده فرانز فانون بقوله: مجتمع ذو عرق جديد وجلد جديد وفكر جديد.

قلت في طهران منذ فترة: إنني لم أكن قد صادفت هذه المعجزة العظيمة طوال عمري، ولم تبد هذه الظاهرة أمامي في سنوات (٥٥ و٥٧ و٥٨) وربما (٦٠). حتى ارنست رينان المفكر الإنساني كان يقول: إن الغرب هو جنس أصحاب العمل وان الشرق هو جنس الفعلة، ومن هنا فإن الطبيعة تكثر في إعداد جنس الفعلة وتقلل من أعداد جنس أصحاب العمل. وكان السيد

زيجفريد يقول: إن للغربي عقلاً صناعياً وإدارياً خلاقاً للحضارة، أما الشرقي فذو عقل عاطفي متوسط عاجز عن الفكر والنظام والاستنتاج العصري، وكان موريس تورز رئيس الحزب الشيوعي الفرنسي واحد عظماء قادة الحركة الشيوعية الدولية، بل واحد من أبرز الوجوه المعدودة البارزة في هذه الحركة يقول: إن الناس في الجزائر وإفريقيا وشمال إفريقيا ليسوا شعوباً بل إنهم لا يزالون في دور التكوين، أي أن سيطرة الاستعمار الفرنسي عليها ذات هدف، ولا بد لهؤلاء من أن يعيشوا فترة في أحضان الإمبريالية الأم القاسية ويربوا على يديها من أجل أن يصيروا شعوبا متحضرة، هذا هو فكر السيد الاشتراكي، ثم رأوا كيف أن هذه الأمة نفسها التي كانوا يطلقون عليها اسم الجرذ الصحراوي، كم من التغير أحدثته في نفسها بمعجزة الوعي المقترن بالعشق والإيمان.

وأنا نفسي رأيت فرنسا التي كان كل فخرها أنها مهد الحرية وحرية الفكر على مستوى العالم، وباريس التي كانت تفخر بأنه في كل مقهى من مقاهيها كانت تنعقد نطفة واحدة من الثورات العظيمة في العالم، باريس التي كانت تقول أن أحضانها مفتوحة لكل الأيديولوجيات وكل الحركات وكل الثورات، باريس التي كانت تعتقد أنها قوية لدرجة أن تتقبل دون خوف أكثر الأفكار والمدارس الفكرية والقوى العالمية الثورية، باريس التي كانت تحتوي على كل هذا العدد من المكاتب والصحف الناطقة بألسنة القوى الفكرية والأيديولوجية من قبيل: مكتب الملكيين مؤيدي أسرة لويس والمطالبين بإعادة الملكية، والعدميين الفوضويين وحتى أتباع

فلسفة اليوغا والثوريين الأفارقة والتابعين لأمريكا اللاتينية وما إلى ذلك، باريس التي كان فخرها هو هذا، وكانت تنشد أراجيز الفخار أن فيها حضارة أوروبية وديمقراطية غربية وليبرالية قومية، أجل: باريس نفسها التي لم تكن قد أقامت علاقة سياسية بعد مع الدول الثورية في آسيا لكنها تطبع وتنشر صحفها، في باريس هذه نفسها ذهبت ذات يوم لأشتري مجلة ثورية أفريقية، فقيل: إن وزارة الثقافة الفرنسية قد صادرتها لأنها ذات أثر منحرف وسيىء في أفكار الشباب والمفكرين وأنها من عوامل الخطر.

إذن: كيف حدث في أمة ليس لها حق الحديث، اللهم إلا بما يوضع في أفواهها من كلمات تأتي من لندن وباريس وامستردام على حد قول سارتر، إن اجتمع بعض «الأولاد» وأصدروا مجلة تخشى فرنسا من انتشارها فيها؟

هذه هي المعجزة التي يصنعها الإيمان والوعي، هو الذي يجعل الخيوط التي نسجها النساجون المسيطرون عبر التاريخ بالرغم من مجتمع ما أنكاثاً ويحرقها ويجعلها رماداً... ونموذج لكل أولئك الذين لا يريدون أن يمكنوا لقالب من القوالب القديمة أو المستوردة من أوروبا، ويريدون أن يفكروا بأنفسهم ويفهموا ويختاروا، ولا يبقون مجبرين في مجتمع لا ملاذ له ولا قاعدة ولا موقف، ويبين لهم أن عليهم أن يأملوا في أنهم لو استقاموا وعملوا عملاً متواصلاً، وصاروا جديرين، لاستطاعوا أن يستردوا ما حرموا منه من قيم، أو بكلمة واحدة يعيشون، ويبنون حياتهم على أساس من الفكر، ويتنفسون ويموتون على أساس من إيمانهم، ينبغي أن

يأملوا في أن شرارة العشق والوعي تتألق في قلب هذا الجمود والنوم والفرقة فجأة، وفجأة أيضاً تذيب جمود الشكل المكتئب الذي يجعل المفكر السطحي يائساً، ومن بين الانحطاط، وجهل عدم الأصالة وعدم المسؤولية، يقوم فجأة مجتمع ذو جسد واحد وهدف واحد وحركة واحدة على أساس وعي مقترن بالعشق والقوة.

حسناً، أُريد هنا أن أطرح قضية أساسية، أتناول قضية أساسية مطروحة الآن بين المفكرين، بين مفكري آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وطرحت أخيراً في إيران[١] وهي قضية: العودة إلى الذات. وفي البداية ينبغي أن أوضح أنني إن كنت أنطلق من الدين وأنطلق من الإسلام فإن منطلقي إسلام معدل أو لحقه الإصلاح، وأعيد فيه النظر بوعي ومرتكز على حركة نهضة إسلامية، هذه الرؤية الدينية لم تتأت لي عن طريق أنني جلست ووضعت أمامي الفرق المختلفة والأديان المختلفة، ثم درستها واحداً بعد الآخر، وبعدها اعتقدت بالإسلام «كدين أسمي» لكنني سرت في طريق آخر. وإني إذ أعلن هذا الطريق هنا، فلأن المفكرين أو الطلاب الذين لا يعتقدون بالدين هم الذين يستطيعون الإنصات إلى دعوتي ويستطيعون قبولها، بل إن كل مفكر مستنير وذي وعي مستقل ويريد أن يؤدي خدمة لوطنه ومجتمعه، ويحس برسالته الفكرية

(١) بالرغم من أنها طرحت في إيران قبل أن يطرحها المفكرون الأوروبيون أو يطرحها الأفارقة على الخصوص إلا أنها نسيت، ولكنها الآن وبعد أن طرحت في أوروبا سرعان ما بلغت تأثيراتها وذيولها إلى محافل المفكرين في إيران أيضاً.

تجاه جيله وعصره، يستطيع أن يسلك هذا الطريق نفسه الذي سلكناه. الخلاصة أنني لا أطرح قضية الدين في المجتمع بهذا الشكل على أساس فكرة ما أو عاطفة ما، لأن منطلقي من الدين من نوع يستطيع معه حتى مفكر علماني أن يأتي وينطلق معي منه، والفرق بيني وبينه أن منطلقي يعد إيماناً ومسؤولية اجتماعية، بينما يستطيع ذلك المفكر أن يشترك معي من موقع المسؤولية الاجتماعية فحسب.

على كل حال، أُريد هنا كمفكر مسؤول عن عصره وجيله أن أحدد الهدف من مسؤوليتنا، وأن أحدد الدور الاجتماعي الملقى على عواتق المفكرين والمتعلمين والمثقفين في المجتمعات الآسيوية أو الإسلامية[١]. وذلك على أساس الشعار نفسه الذي قبله المفكرون الدينيون وغير الدينيين ـ خصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية ـ مثل عمر اوزجان وإيما سيزار وفرانز فانون ويوجين يونسكو، فهم يعتقدون أن من حق كل مجتمع أن يكون المفكر فيه مرتكزاً على تاريخه وثقافته، وعليه أن يلعب دوره كمفكر ويقوم برسالته على أساس تاريخ السواد الأعظم وثقافته ولغته، أجل على أساس هذه المبادىء الثلاثة.

على كل حال فإن شعار العودة إلى الذات، شعار لم يطرح الآن في عالم المتدينين، بل إن أكثر المفكرين التقدميين العلمانيين

---

(١) لا شأن لنا بما قالوا، أو بما كتبوا في منشورات مملاة من الخارج ووزعوه وفرضوه كأيديولوجية.

من أمثال إيما سيزار وفي إفريقيا مثل فرانز فانون وجوليوس نيريرى وجومو كينياتا وسنغور في السنغال[١] وكاتب ياسين الجزائري وجلال آل أحمد[٢] في إيران هم الذين طرحوا هذه القضية لأول مرة. هؤلاء هم الذين طرحوا شعار العودة إلى الذات، ولا يعتبر

(١) المترجم: على مدى هذا الكتاب يذكر الزعماء الأفارقة الذين أمسكوا بمقاليد الحكم في بلادهم بعد استقلالها الصوري على أساس أنهم من كبار المفكرين الأصلاء، في حين أنه مهما كانت لبعضهم بعض الاجتهادات الفكرية علينا أن نلاحظ عدة نقاط من أهمهما أن أغلب هؤلاء الزعماء قد تقلدوا الزعامة في بلادهم على أساس اختيار شعبي عام أو سابقة ممتدة في الكفاح بل كان معظمهم مباركاً من السلطة الاستعمارية ربيباً لها، أما في جيشها أو في جامعاتها، ومعظمهم من الجيل الأول المرتد من أسر مسلمة، ولا أدري كيف فات علي شريعتي أن معظم هؤلاء مسيحيون من أبوين مسلمين، وأن بعضهم يحكم شعوباً أغلبيتها مسلمة وهو مسيحي، وجواز السلطة الوحيد أنه مسيحي، أما «أفريقانية» سنغور فهي «أفريكانية» فرنسية للاستهلاك العالمي وهدفها الوحيد الحيلولة دون أفريقيا وواحد من أهم مقومات ثقافتها وهو الإسلام، ولا أدري أيضاً كيف لم يلحظ شريعتي المصير الذي لقيه بعض حكام أفريقيا الذين حاولوا الحفاظ على إسلامهم من تشنيع وتلويث ثم إقصاء، وأفضل هؤلاء الحكام هم بالفعل الذين يتظاهرون بالفكر ووضع النظريات، وهم أرحم حالا من الميجورات الذين انقلبوا في يوم وليلة إلى جنرالات ثم سلطوا على شعوبهم بمساعدة الفرقة الأجنبية، ويعمل التبشير العسكري في بلادهم على قدم وساق، بينما يحرم المسلم في بلاد غالبيتها من المسلمين من أبسط الحقوق المدنية، ليس نيريرى وسنغور وكينياتا ذوي الروابط الوثيقة جداً بإسرائيل بالنماذج والمثل التي تضرب هنا، بل هم من وجوه الاستعمار الجديد.

(٢) المترجم: جلال آل أحمد (١٩٢٨ ـ ١٩٧٤) كاتب وناقد وباحث إيراني معاصر. بدأ ماركسياً في حزب توده، يعد متابعة التيار الثقافي عنده نموذجاً لأزمة المثقف الإيراني المعاصر، خرج من حزب تودة بعد فشله في التعبير عن الشعب الإيراني، ووجد ضالته في الحركة الإسلامية التقدمية، يعد كتابه «غرب زد كي: الابتلاء بالاستغراب» من أخطر الكتب التي كتبت عن الغزو الفكري في إيران المعاصرة. توفي فجأة في كوخ له على بحر الخرز وفاة مشكوكاً في أمرها.

واحداً منهم نمطاً دينياً، فهم من الشخصيات البارزة في الحركة الفكرية العالمية ومن القادة المعادين للاستعمار في العالم الثالث وممن ينعمون بقبول كافة الأجنحة. إذن، على أساس هذه الدعوة نأتي إلى إيران، في مجتمعنا هذا، وفي جيلنا هذا، بين هذا الجيل وفي هذا العصر، لنأت ولنطرح هذه القضية، وعلى هذا الأساس، حينما تطرح قضية العودة إلى الذات بالنسبة لي أنا المفكر الديني وبالنسبة لك أنت المفكر العلماني ـ وكلانا مشترك في المسؤولية الاجتماعية ـ وقد بلغنا نقطة تفاهم مشتركة، سوف تتبدل القضية من العودة إلى الذات إلى العودة إلى ثقافة الذات، وفي مسيرة هذه الدراسة سوف نصل إلى:

«العودة إلى الثقافة الإسلامية والأيديولوجية الإسلامية» وإلى الإسلام لا كتقليد أو وراثة أو نظام عقيدة موجود بالفعل في المجتمع، بل إلى الإسلام كأيديولوجية وإيمان بعث الوعي وأحدث المعجزة في هذه المجتمعات، ليس الأمر في الحقيقة استناداً على دين موروث أو إحساس روحاني جاف. على أساس شعار المفكرين الذي طرح على المستوى العالمي، وعلى أساس تلك القضية التي تناولها مؤلف كتاب «المسيح يصلب من جديد»[١]، على أساس هذا الشعار نفسه أقول في إيران «الحسين يستشهد من جديد». أُريد أن أوضح معنى «العودة إلى الذات» حسن جداً، هذا هو شعار الجميع، شعار إيما سيزار في أمريكا

---

(١) ترجم هذا الكتاب إلى الفارسية، وأوصي كل الإخوان بقراءته. المترجم: وترجم أيضاً إلى العربية، ونشرته هيئة الكتاب.

اللاتينية، وشعار فرانز فانون مواطن جزر الأنتيل، علينا أن نوضح الأمر بطريقة أخرى في هذه المنطقة المتميزة ثقافياً وتاريخياً وجغرافياً، وإلا أصبح شعار العودة إلى الذات شعاراً مبهماً وعمومية ذهنية، كما أصبح اليوم ظاهراً في صورة مبتذلة تهدف إلى إلغاء أصالة البشر الثقافية في العالم كله من أجل إرساء دعائم المبدئية المطلقة لقيم الغرب.

فالغرب منذ القرن الثامن عشر يريد بمساعدة علماء الاجتماع والمؤرخين والكتاب والفنانين بل والثوريين والإنسانيين فيه أن يفرض على العالم النظرية القائلة بأن الحضارة واحدة هي هذا الشكل نفسه من الحضارة التي صنعه الغرب وعرضه على الدنيا قائلاً: إن على كل من يريد أن يصير متحضراً عليه أن يستهلك الحضارة التي نصنعها، وإذا أراد أن يرفضها فليظل وحشياً وبدائياً. والثقافة أيضاً ثقافة واحدة هي ثقافة الغرب، وعلى كل من يريد أن يكون صاحب ثقافة في القرن العشرين أن يشتري الثقافة من الغرب كما يشتري البضائع من الغرب، كما أن كل إنسان يريد أن يمتلك تليفزيون يشتريه من الغرب ويأتي به إلى منزله، عليه أيضاً عندما يريد أن يكون صاحب ثقافة، وعندما يريد أن ينمي القيم الثقافية في نفسه، أن يقبل هذه الأنماط التي يفرضها الغرب، وإلا فهو فاقد للحضارة والثقافة أي بدائي ووحشي. إذن: إما أن تبقى بدائياً أو متحضراً غربياً، هذان هما المصيران المحتومان، وعلى كل إنسان أن يختار واحداً منهما، كل جهد الغرب في القرنين الأخيرين كان مبذولاً لخلق هذا الإيمان بالغرب وعدم الإيمان بالذات. ومن هنا

يقول السيد موريس تورز: إنه لا يوجد شعب باسم الجزائر في أفريقيا، لكنه شعب في طور التكوين، ذلك لأنه يريد أن يتجاهل تماماً حضارة شمال أفريقيا العظيمة التي أخرجت منذ عدة قرون أعظم الفلاسفة وأعظم علماء الاجتماع في العالم ومؤسس علم الاجتماع، وحينما كانت هناك حضارة عظيمة في شمال أفريقيا، كان كل ما لدى الغرب هو «أغاني رولان» وكانت آدابه عبارة عن أغانٍ شعبية تغنى للقوافل المسيحية المتجهة إلى بيت المقدس، في ذلك الوقت كان المكان الوحيد المتحضر في أوروبا هو أسبانيا، التي كانت تلميذة مقلدة للمغرب أي شمال أفريقيا، لكن هؤلاء يريدون محو كل الحضارات، حتى يفرضوا على العالم أنماطهم التي صنعوها، وكانت كل تلك الغارات والمذابح التي اجتاحت كل الأمم من الصين إلى مصر، تلك الأمم التي صنعت حضارات عظيمة في التاريخ.

بالنسبة للغرب، تعد الزراعة الأحادية «أي الاقتصار على محصول واحد» من معالم الاستعمار، لأن الاستعمار يعتبر نفسه سيد الدنيا ويعتبر العالم مزرعة له، ومن هنا فإن توحيد المحصول في دولة ما واحد من معالم الاستعمار، فهو يرى على سبيل المثال أن إنتاج قصب السكر في كوبا جيد، فيأمر بأن تزرع كل الأراضي بقصب السكر، وعندما لا يجد الشعب فيها خبزاً يأكله عليه أن يستورد القمح من أمريكا، أو الشعب المسلم في شمال أفريقيا، مادامت لديه شمس ساطعة، ينبغي أن تختفي كل محاصيله وأن يزرع الكروم فقط والتي تستخدم في تقطير الخمور، ومن هنا نجد

أنه عندما أمسك سكان شمال أفريقيا بزمام الأمور، وجدوا كل أراضيهم قد زرعت بالكروم (بالرغم من أنهم جميعاً مسلمون ولا يشربون الخمر أصلاً وليس لديهم ما يأكلونه).

وهناك تشابه لفظي دقيق وطريف جداً وهو أن كلمة culture الفرنسية تعني الزراعة وتعني أيضاً الثقافة. وتوحيد الزراعة والحاصلات في العالم الغربي، وتوحيد الحضارة والثقافة والتاريخ في الدنيا كلاهما من فعل الاستعمار، وكما يقومون بتوحيد المحاصيل في البلاد المستضعفة بحيث تموت جوعاً إن لم تبع محصولها للغرب، فمن ناحية «الزراعة المعنوية» أي الثقافة ينبغي أن تمحي كل زراعة العالم الثقافية، التي كان فيها عبر عدد من القرون وعبر آلاف السنين مواهب بشرية وتجارب متنوعة، وأنتجت فنوناً وأذواقاً متنوعة وألواناً من الجماليات ومعنويات عظيمة وثقافات روحية، كلها ينبغي أن تمحى وتأتي «جرارات» الاستعمار الثقافية فتحصد كل حضارات آسيا وأفريقيا وإيران وكل المجتمعات الإسلامية من أجل أن تزرع فيها الثقافة الغربية فحسب. وعلى الأمم مهما كان أصلها وتاريخها وحضارتها أن تكون جميعاً في صورة أوان خالية متشابهة لا تحتوي على شيء اللهم إلا حلق مفتوح ظامىء وفوهة خالية من أجل أن توصل فقط وفقط بذيل هذه الآلة الغربية التي تنتج الفكر وتنتج الاقتصاد فتمتصها، من أجل أن تصير عامل استهلاك لا عامل إنتاج، ومادامت الحضارة تعني استهلاك منتجات الغرب، فبالتالي كل من يستهلك منتجات الغرب يكون متحضراً، ومن أجل أن يصيروا مستهلكين لإنتاج الغرب،

على الجميع أن يعتقدوا أن ثقافتهم المحلية وشخصيتهم المحلية غير ذات مفهوم، وأنهم لا يستطيعون بناء حضارة أو صناعة ثقافة، وأن عليهم من أجل أن يكونوا متحضرين أن يقبلوا أدوات الغرب وأنماطه وقيمه. ومن هنا نرى أنه لا يوصف إنسان في مجتمعنا بأنه متحضر إلا إذا كثر استهلاكه، وليس إذا سمت أحاسيسه وعواطفه، أو يقال: إن طهران صارت أكثر حضارة بالنسبة للأعوام الثمانية عشرة السابقة لأن الناس في سنة (١٩٥٥) كانوا منحطين لدرجة أنهم كانوا يستهلكون فقط سبعة عشر أو ثمانية عشر ظفراً صناعياً، أما الآن فقد تضاعف هذا العدد خمسمائة مرة، أو أن معدل سلعة أخرى قد، تضاعف آلاف المرات أما أولاء الأمهات اللائي كن يربين أمثال «ستارخان»[١] وغيره في حجورهن وكن يصبغن شعورهن بالحناء، فقد كن غير متحضرات.

وهذا الشاب الأفريقي الذي كان يفخر بجواده وكلبه وغنمه قبل أن يدخل الاستعمار أفريقيا لم يكن متحضراً، أما الآن وقد ذهب الفرنسيون إليهم، فإن رئيس القبيلة وقد استبدل جواده بسيارة غربية، يجلس إليها ويقودها وهو سعيد لأنه متحضر. وكان أحد السادة يقول: إن الله بالرغم من أنه أعطى هذا الأوروبي المال والقوة والذكاء قد حكم عليه بأن يذهب إلى المناجم والمصانع وأن يصنع السيارات والآلات لينتفع بها المسلمون.

---

(١) المترجم: ستارخان بطل من أبطال الحركة الدستورية (١٩٠٥ ـ ١٩١١) تصدى للقوات الروسية في تبريز وقاومها عسكرياً، وزحف بقواته إلى طهران لانقاذ الدستوريين. انظر الثورة الإيرانية الجذور والأيديولوجية للمترجم.

على كل حال، ينبغي على الصيني والياباني والإيراني والعربي والتركي والأسود والأبيض أن يتحولوا جميعاً إلى مخلوقات فارغة خالية، مستهلكين محتاجين، كل فخرهم وعظمتهم وتجلي إنسانيتهم ومثلهم في الاستهلاك الغربي. . . ومن هنا فعلى كل القيم والمفاخر الأخرى التي تنتسب إليها هذه الأمم أن تمحى، بحيث يبلغ الإنسان العظيم درجة يفخر فيها بسلعته المعدنية، وينبغي أن تحدث كارثة دولية عظيمة حتى يفرغ هؤلاء البشر المرتبطين بكل المذاهب والتواريخ من ذواتهم. وإخلاء الذات مصطلح وجودي، لكنه ليس من وجودية سارتر، بل من هايدجر وياسبرز (ياسبرز وجودي ديني عظيم) اللذان أهتم بهما كثيراً. ماذا يعني إخلاء الذات أو تفريغها؟ يقول هايدجر: إن لكل إنسان وجودين، أحدهما الـ«أنا» كموجود حي في المجتمع، وبهذا الوجود يحسب من بين المجتمع، وحينما يقال: إن تعداد إيران ثلاثون مليون نسمة، فإنا واحد من أفراد هذا المجتمع الذي يشكلونه، أحس أني واحد من هذه الملايين الثلاثين. وكل البشر سواء في هذا الوجود، كل منهم له قدر من الاستهلاك والوزن والقوام والذوق وأشياء أخرى، وهذا هو الوجود المجازي للإنسان، أما الوجود الآخر فهو ـ على حد قول هايدجر ـ الوجود الأصلي أو الحقيقي، والوجودية قائمة على أساس هذا الوجود، أي مبدأها هذا الوجود، وذلك لأن الوجود البدائي الذي يوجد عند الجميع، ويصنعه الوالدان بالتعاون معاً هو الوجود الأول، أما الوجود الثاني فهو لا يوجد

عند بعضهم أصلاً، وهو على درجات فيمن يوجد عندهم، هذا الوجود الثاني وجود تصنعه الثقافة وتخلقه عبر التاريخ، وهذا هو الوجود الحقيقي والواقعي والإنساني عند الإنسان. فالوجود المجازي هو الوجود الذي كون في فترة العمر المكتوب في بطاقة هويتي: ثلاثين سنة أو أربعين سنة، لكن الوجود الحقيقي أو الأصيل هو الوجود الذي تبلور في طول التاريخ وتكوين الثقافة وإيداع الفن وصناعة الحضارة، ذلك الشيء الذي عندما أضعه أمام الثقافات الأخرى، أمام الغرب أو الشرق، أمام الأمريكي أو الأفريقي فيعطيني هوية ثقافية هو الوجود الثاني، وبهذا الوجود الحقيقي أستطيع عندما أقف في مواجهة الإنجليزي أو الفرنسي أو الأمريكي أو الصيني أن أقول «أنا» كما يستطيع هو أن يقول أنا، ولكل منهما معنى يشير إلى وجود واقعي وعيني ومميزات وقيم محددة، هذا هو الوجود الذي خلق على مر التاريخ، ويتحقق في الوجودات المجازية فرداً فرداً، وليس التعليم والتربية إلا تدعيم الوجود الحقيقي وتربيته وتنميته في الوجود المجازي، وتربية تاريخ أمة ما وثقافتها داخل الأبدان المذكورة في بطاقة الهوية ومزجها بها، هذه الشخصية هي شخصية «الأنا» الإنسانية، وهي التي تميزني عن غيري، لكن الـ «أنات» الأخرى سواء، وتستطيعون أن تتصوروا شخصيات ما ذات وجود مجازي لكنها لم تكن قد منحت الفرصة بعد لبلوغ الوجود الحقيقي، لأن الوجود الحقيقي من صنع يد الإنسان نفسه، وعن طريق العوامل الثقافية والتاريخية لذاته التي يربي

نفسه على أساسها، ومن هنا يقول سارتر: إن الوجود المجازي من صنع الطبيعة أو الله وإننا بأنفسنا نصنع الوجود الحقيقي، الوجود الحقيقي هو ماهيتي وهويتي الإنسانية وشخصيتي الثقافية، وكل من يملك شخصيته الثقافية الخاصة إنسان مستقل ومنتج، والإنسان المنتج هو الذي يصنع الفكر والأيديولوجية والإيمان والحركة كما يصنع العربة، وهذا هو ما أقوله: ما لم تصل الأمة إلى مستوى الإنتاج المعنوي والفكري والثقافي، فإنها لن تستطيع أن تصل إلى مستوى الإنتاج الاقتصادي، وإذا وصلت إليه ففي مستوى ما يفرضه الغرب، وفي صورة خادعة أي في صورة استعمار جديد، وإلا فإن المجتمع المنتج هو نفس المجتمع الذي يفكر بنفسه ويخلق بنفسه مثله وذهنه وقيمه وفنونه ومعتقداته وإيمانه ووعيه الديني وآراءه التاريخية والإجتماعية ونظامه الطبقي واتجاهاته الجماعية، هذا المجتمع الذي يصل إلى الانتاج الصناعي والاستقلال السياسي يصل إلى إنتاج رأس المال وإنتاج الحضارة المادية، ومن هنا لا يوجد مجتمع قط يراد به ألا يصل إلى الانتاج الاقتصادي الصناعي إلا وسلبت من أجياله في البداية إمكانية الانتاج الفكري والذهني، ومن أجل ألا يستطيع جيل قط أن يصل إلى استقلاله في مواجهة الغرب الحاكم المطلق على العالم، ينبغي أن تدمر فيه كل قواعده الأساسية الإنسانية والثقافية التي تمنحه شخصية مستقلة للأنا الإنسانية الحقيقية وأن يحول إلى إنسان غث وفارغ مغسول ومكنوس ومدهون، مثل قبر الكافر مزدان الظاهر، أما في الباطن فغضب الله عز وجل.

يصف مولانا جلال الدين[١] هذا الصنف من الناس بأنه مثل قبور الكفار. فقبر المؤمن باطنه نور وظاهره خراب وقبر الكافر ظاهره زخرف وزينة وأحجار قيمة وباطنه قهر الله عز وجل، وهذا النوع من البشر الذي يصنعه الغرب في الأمم غير الغربية نوع مغسول ومكنوس ومدهون ومزدان في ظاهره، لكنه في الباطن خال وغث ولا محتوى فيه.

وهناك نظرية جدلية عند سوردل تشير إلى العلاقة بين الشرق والغرب في إطار الاستعمار الثقافي وفحواها أن: على الغربي ألا ينكر ثقافة الشرقي وتاريخه وشخصيته لأنه حينئذ يتخذ موقف الدفاع، بل عليه أن يقوم بعمل يجعله يعتقد أنه مرفوض ويعتقد أنه عرق من الدرجة الثانية وأن الغربي هو الجنس الأعلى والدرجة الأولى، وأن للغربي عقلاً يفكر ويصنع وعلى الشرقي فقط أن ينظم الشعر وأن ينسج نظريات العرفان «التصوف». ومن هنا فإن أغلب مستشرقينا يوجهون كل اهتمامهم لمخطوطات الصوفية عندنا ويحققون الواحدة منها عشرات المرات (في حين أن ٧٩٪ من مخطوطاتنا العلمية تتحلل في المكتبات وتأكلها الفئران ولا يعلم عنها أحد شيئاً)، هذا من أجل أن يجعلوا الشرقي يفهم أنه كان يهتم فحسب بالأحاسيس المجردة الأثيرية الغيبية، وعليه عندما يعود إلى الحياة وينزل إلى الأرض أن يتبع نظمهم، فهو محتاج إلى سلعهم

---

(١) المترجم: مولانا جلال االدين محمد بن حسين البلخي الرومي (٦٠٤ ـ ٦٧٢) شاعر الصوفية الأكبر. من أشهر أعماله: المثنوي «ترجم جزء منه إلى العربية على يد محمد عبد السلام كفافي» ديوان شمس الدين التبريزي.

الاستهلاكية. وقد قسموا الكون إلى قسمين: العالم المادي وهو ميتة وجيفة ويخص الغربي، وعالم المعنى والأبدية وما وراء الطبيعة وكلها لك أيها الشرقي، (هكذا قسموا بين عالمي الشرق والغرب. إن فكرة القومية التي تظهر في القرن العشرين ليست من قبيل المصادفة، كيف تظهر هذه الفكرة الجاهلية في القرن العشرين؟ كانت معتقد العربي الجاهلي وجاء الإسلام وقضى عليها، فكيف تبعث من جديد فكرة سمو الغرب وفلسفة الأنوية «اعتباره نقطة الانطلاق»؟ Egocentrisme والغربوية Occidentalisation؟) والجواب: من أجل أن نفهم فحوى أطروحة العرقية والعنصرية هو: أنه عندما يفهم الشرقي أنه من جنس أدنى في الدرجة الثانية ويعتقد أن الغربي من جنس أعلى وفي الدرجة الأولى وصانع للثقافة، فإن علاقته به سوف تشبه علاقة الطفل بأمه، علاقة من هذا الصنف سوف تقوم تلقائياً بين المستعمَر «بفتح الميم» والمستعمِر «بكسرها»، فالمستعمر يسمي دولته «الوطن الأم»، أما الآسيويون والأفارقة فهم أطفال مفتقرون إلى التربية عليهم أن ينشأوا في حجره، وفي جدلية سوردل تقوم هذه العلاقة: العلاقة بين الأم والطفل، فالأم تنهر طفلها، والطفل يلوذ بحضن الأم خوفاً منها وطلباً للأمان، وهذه الجدلية تمحو نفسها بنفسها وتصير عامل جذب وتبعية، وعندما يحس الشرقي أنه غثاء وهباء، منتسب إلى دين منحط، ومنتم إلى عرق ثقافته وجمالياته وفنونه وأشعاره ونظمه الاجتماعية وتاريخه وشخصياته التاريخية ومفاخره الماضية كلها منحطة وأنه لا يملك شيئاً قط، يحس تلقائياً بالعار،

ويتهم نفسه بأنه من عرق منحط، ومن أجل أن يدفع هذه التهمة عن نفسه، يتشبه بالغربي، حتى يقول بعد ذلك: لست من هذا العرق المتهم، إنني من صنفكم، ويتظاهر بأنه يشبههم في الحياة والسلوك والتصرفات والحركات والسكنات والزينة وأسلوب العيش، ومن هنا فالتقليد ظاهرة نتجت عن جدلية سوردل في العلاقة بين الشرقي والغربي.

العودة إلى الذات:

بناء على هذا: اليوم وقد أخرج الغرب كل البشر من قواعدهم الذاتية والثقافية ومن قدرتهم على التوالد الذاتي والانفعال الداخلي وجعلهم في صورة عبيد محتاجين أذلاء ضعفاء ملتصقين ومقلدين، ما الذي ينبغي عمله؟ الشعار الذي طرحه المفكرون في الخمسة والعشرين عاماً الأخيرة كآخر تجربة ثقافية مضادة للاستعمار هو العودة إلى الذات، حسن جداً لكن النقطة التي أريد أن أركز عليها هي: العودة إلى أي ذات؟ ما تقوله إيما سيزار أو ما أقوله أنا في إيران؟ ذلك لأن ذاتها تختلف عن ذاتي، وحينما أقول أنا هنا، أو تقول إيما سيزار أو فرانز فانون كمتعلم أفريقي أو من جزر الأنتيل: العودة إلى الذات، فإننا هنا نفترق عن بعضنا، في حين أننا إذا أخلينا من ذواتنا كما يقول ياسبرز فنحن ثلاثة من المتأوربين المتعلمين في فرنسا، وكل منا في هذه الناحية يشبه الآخر، لأننا كلنا مرتبطون في هذا بالغرب، وكنا كلنا مقلدين متشبهين، لكننا الآن ونحن نريد أن نعود إلى قواعدنا الثقافية، ينبغي أن يفترق كل عن الآخر. على كل منا أن يعود إلى منزله،

ولذلك على كل منا نحن المفكرين عندما نقول: «فلنعد إلى ذواتنا» وكلنا مشتركون في هذا، على كل واحد منا أن يطرح أمام نفسه هذا السؤال: أي ذات؟ وهذه هي القضية التي لم تطرح في إيران.

عندما طرح المفكرون الأفارقة قضية «العودة إلى الذات»، كان الشعار الذي ينادون به مختلفاً عن الشعار الذي ينادي به مفكرو العالم الإسلامي وإيران، ففي أفريقيا طرح الاستعمار قضية الثقافة بصورة وطرحها في الأمم الإسلامية والشرق المتحضر بصورة أخرى، وما طرحه مفكرونا المعاصرون في الخمس عشرة سنة الأخيرة هو تماماً ترديد لأطروحة إيما سيزار وفرانز فإنون وأمثالهما، في حين أن ترديدها بالنسبة لنا لا يمثل علاجاً للداء (بالرغم من أنني أؤمن تماماً بهذه الأطروحة)، وذلك لأن الغربي تحدث معنا ـ نحن المسلمين والإيرانيين والشرقيين ـ بأسلوب وتحدث مع إيما سيزار السوداء الأفريقية بأسلوب آخر. فهو يخاطب الجنس الأسود قائلاً: إن عقلك لا يمكن أن يصنع متحضراً، فالأجناس في الدنيا صنفان: جنس صانع للحضارة وجنس غير صانع للحضارة والجنس الذي لا يصنع الحضارة يستغل لخدمة الجنس صانع الحضارة ويستعبد له. لكنه لا يقول لنا: لستم من صناع الحضارة. بالمصادفة إنه يجاملنا كثيراً ويغرر بنا حتى نخدع ونذوب خجلاً. فقد جاء الغربيون وأنفقوا أعماراً من المشقة على نقوش حجارتنا حجراً حجراً، وتعبوا، واكتشفوا الآثار، وأعظم مؤلفاتنا ومخطوطاتنا طبعت في لندن وباريس وقدمت على أنها أعظم آثار العالم الثقافية، وللسيد «جب» موقف

من أجل طباعة مخطوطاتنا القديمة، إذن فهم يعتبرون تعظيم تراثنا من أعمال البر، إذن فنحن لم نحقر، بل إن الغربيين يعظموننا دائماً ويهتمون بماضينا أكثر من اهتمامنا به. الغربي نفسه الذي يقول للزنجي المفكر: لست صاحب ماضٍ، كنت دائماً عبداً، عبداً للعرب أو للمصريين والآن أنت عبد للأوروبي. إذن فماذا يصبح معنى العودة إلى الذات؟ إنه يقول للأفريقي: لست صاحب حضارة، لكنه يقول لنا: كنتم أصحاب حضارة. يقول له: إنك لا تستطيع أن تصنع حضارة، لكنه يقول لنا: لقد صنعتم حضارة، من هنا أنكر على الأفريقي حضارة ماضية، أما بالنسبة لنا فقد مسخ ماضينا والمسخ أسوأ من الإنكار، ليته قال لنا: لم يكن لكم في الماضي دين عظيم، ولم يكن لديكم حضارة أو علم أو كتاب أو آداب، لم يكن لديكم شيء قط، حتى نثبت لجيلنا أننا كنا نمتلك كل شيء، إنهم لم يفعلوا ذلك. إنني حين أقول الماضي فلست أقصد الماضي الذي قبر، بل أقصد الماضي الذي لا يزال يوجد، الماضي الذي هو «كلاسيكية» حية والذي هو محسوس الآن نحيا به. هذا الماضي نفسه الذي يصنع شخصيتنا الثقافية والذي ننطلق منه، أجل، الماضي نفسه الذي مسخوه أمام عيوننا ويصورونه في صورة سوداء منحطة ومقززة وقبيحة، إنه يقول لإيما سيزار: ليس لديكم شيء قط، ويقول لنا: لديكم كل شيء، لكنه يصور أمام عيني سحنات مقززة بحيث أهرب من هذه السحنات نفسها إلى أحضان الغربي. والآن لماذا لا يواجه الشاب الأفريقي مشكلة الهرب من القديم إو الرجعية أو الهرب من الماضي؟ المفكر

الأسود يفخر ببساطة بكونه أسود وبكونه أفريقياً وحتى بكونه قبلياً، هذا بالرغم من أن ماضي الأفريقي ليس ماضياً يبعث على الفخر(١) في حين أن المتعلم الإيراني المسلم الشرقي لا يشبه الإيرانيين أصلاً ولا يشبه المسلمين أصلاً، إنه يهزأ بكل شيء ويتظاهر بالتفرنج.

كان أحدهم قد جلس إلى جواري في الطائرة، فقلت له: أعطني جريدتك، ورأيت أن لهجته قد أصبحت أوروبية بحيث لا يستطيع الحديث معي، وقلت في نفسي: بالقطع من كثرة ما أقام في الخارج نسي الفارسية، ولكن بعد ذلك كان أحد الأوروبيين يطلب منه شيئاً فرأيت أنه أيضاً لا يعرف لغة أجنبية، انظروا إلى التظاهر. كم رأينا من الناس قضوا سنتين أو ثلاث سنوات في أوروبا وبأي فخر يقولون إنهم نسوا الفارسية، وأنا أرد عليهم قائلاً: أيها الأحمق، وأنت على هذا القدر من الاستعداد بحيث تنسى في

---

(١) المترجم: تعد أفريقيا الشرقية والوسطى حضارياً جزءاً من الحضارة الإسلامية، وقد دامت إمبراطورية مالي الإسلامية ثلاثة قرون، وكانت (تمبكتو) عاصمتها حاضرة من حواضر الإسلام شأنها شأن بغداد ودمشق، كما كانت شنقيط إلى عهد قريب جداً مركزاً لعدد كبير من المشايخ الذين خدموا العلوم الإسلامية. والعلاقة بين إيران وشرق أفريقيا علاقة حضارية وثيقة جداً ظلت دائمة لعدة قرون، ولا أدري كيف صدق المفكرون الأفارقة هذا الافتراء القائل إن أفريقيا لم تكن ذات يوم مركز ثقافة وحضارة، ولم يفطنوا إلى أن هذه الأكذوبة قد وضعت خصيصاً لفصل أفريقيا عن العالم الإسلامي، وإفهام الأفارقة أنهم كانوا مجرد عبيد للعرب لتبرير عبودية أوروبا لهم وضرب الإسلام من الظهر ومن هنا نرى شريعتي يعتبر أفريقيا جزءاً منفصلاً عن العالم الإسلامي، وإن صدق هذا على جنوبها فهو لا يصدق على شرقها ووسطها وشمالها.

ثلاث سنوات اللغة التي تعلمتها في خمس وعشرين سنة، كيف إذن تعلمت اللغة الأجنبية في ثلاث سنوات؟ لماذا هذا التظاهر؟ مم تخاف؟ إنه يخاف من نفسه، إنه ضائق بنفسه وبكل ما تنسب إليه نفسه وبكل ما يذكره ومن يذكره بانحطاطه وقبحه، إنه ممتن لكل من لا يذكره بنفسه، يهرع إليه ويفخر بصداقته أو التظاهر بصداقته، لأنه لا يعلم العرق الذي ينتمي إليه.

هذه الذات لماذا إلى هذا الحد هي قبيحة أمام عيوننا ومنفرة، بحيث إن كل من ينتسب إليها وكل من ينتسب إلى ثقافتنا أو ماضينا، وكل من ينتسب إلى ديننا حتى كعقيدة وحتى في صورة تخصص علمي يتهم بين نسل الشباب لماذا عندما يطرح مفكر هنا شخصية أبي ذر الغفاري ـ وهو شخصية لو طرحت اليوم في أوروبا لاعتبرته القوى التقدمية فيها كشخصية ثورية وتقدمية عظيمة ـ يتهمه الشباب هنا وجيل المفكرين بعبادة الماضي؟ لكن إذا جاء هذا الشخص نفسه وترجم أغاني «بليتس» البغي اليونانية إلى الشعر الفارسي فسوف يقدم كشخصية عصرية وتقدمية ومستنيرة لماذا يقوم جيلنا من المفكرين وهو ملتزم وذو أيديولوجية يفكر في مصير مجتمعه وذو التزام اجتماعي وطبقي بإنفاق كل حياته في قضية الشعر الجديد والشعر القديم والفن للفن أو لغير الفن والسيد يونسكو والسيد جوزيف دو كاسترو؟ ليست أبحاث اجتماعية هذه التي يقوم بها مفكرونا بل هي أقذر أنواع الهيروين التي تزرق في دماء هذا الجيل مرة ثانية. لماذا يتظاهر هذا المفكر الذي يعتبر نفسه ملتزماً صاحب رسالة ومسؤولية بقراءة بيكيت في حين أن بيكيت

ليس سوى «بوق عليشاه»[1] على الطريقة الغربية؟ وهو عامل التخدير نفسه الذي حقنوا به دماء الإيرانيين في القرنين السادس والسابع الهجريين ليسمموا هذا الدم، فهم يستوردونه اليوم على صورة لعبة بيكيت، وعن طريقها يتظاهر مفكرونا أصحاب النظرة الطبقية والأيديولوجية العلمية، وكل ما في الأمر أن بيكيت إنسان لا علاقة له بي ولا بتلك الذات، أما أبو ذر بالرغم من أنه رجل ثوري من الناحية الإنسانية والاجتماعية وحتى الطبقية ومنطلقه منطلق طبقي، فلأنه منسوب إلينا، منسوب إلى تلك الذات، علينا أن نهرب منه. من هنا قاموا بمسخ ماضينا أمام عيوننا، لكنهم بالنسبة للأفريقي محوا ماضيه تماما.

ذات مرة عقد في مشهد مؤتمر لتعليم الدين حضره معلمو الدين من كل الأقاليم، ودعيت لإلقاء محاضرة، فقلت: سوف أحدد موضوع الحديث من البداية فإن قبل سوف أُلقي المحاضرة. وسألوني: ما هو؟ قلت: بحث بشأن اقتراح إلى وزارة التعليم وتنفيذه سهل جداً ولا يريد خبيراً ولا تلزمه ميزانية وهو إلى جوار ذلك أعظم خدمة للإسلام وهو: أن تلغى برامج تعليم الدين في المدارس، وتوضع الرياضة البدنية محله. لأنه إن لم يوجد شيء يمكن أن يقال بعد ذلك للسادة المتخرجين والمتخرجات شيء عن الدين ويقال لهم: هذا هو الدين، وهذه هي الرؤية وهذا هو

(١) المترجم: يضرب بوق عليشاه في الفارسية مثلا على الحديث ظاهر الجلد والذي يبدو أنه يحتوي على فكر في حين أنه لا يعدو مجرد شقشقة لسان أو تخريف تحت تأثير مخدر، وعليشاه علم علي الدرويش الذي لا يعي ما يقول.

الوعي، والخريج سوف يفهمها بدوره على أنها قضايا جديدة، لكن: ما الذي يجري الآن عندما تطرح قضية الدين؟

كنت ذات مرة أقدم بحثاً عن الإمامة في ميدان علم الاجتماع وفلسفته في «الكوليج دي فرانس»، والبحث عن الفلسفة الشيعية والمكان كنيسة الجزويت، وعندما انتهيت من إلقاء البحث في الكنيسة، طلب مني الحاضرون أن أواصل الحديث في جلسة أخرى، وهكذا استمرت الجلسة إلى الصباح. وفي بيئة جامعية مثل الكوليج دي فرانس عندما طرحت قضية الإمامة كان كل الماركسيين والاشتراكيين والوجوديين والكاثوليك والمتدينين وغير المتدينين يفهمونها كفلسفة علم الاجتماع السياسي ويستطيعون إدراكها. لكني عندما أتحدث في مجتمع إيران الديني يكون ما حدث هو العكس تماماً، وإذا كنت في جامعة طهران فإنني أستطيع أن أنطلق من الدين أكثر مما أستطيع في جامعة مشهد، وإذا كنت في كلية الهندسة أستطيع أكثر أن أتناول قضايا دينية، ويستطيعون فهمها أكثر مما أكون في كلية الآداب أو في كلية المعقول والمنقول. عندما قلت في الكوليج دي فرانس في جامعة السوربون، إن رجلاً بطلا في ثورة كربلاء، كان وفياً إلى هذا الحد، وجاهد إلى هذا الحد، ولعب دوره بهذا الشكل، ومات برجولة بهذا الشكل، صفقوا لي، (لأنها أمور لم تمسخ في أذهانهم كما مسخت في أذهان هؤلاء).

وبالنسبة لثقافتنا يوجد سوء الفهم المسبق نفسه، وليتها لم تمسخ، ليت الأوروبي كان قد قال لنا: إنكم لا تملكون ثقافة وأدبا وعرفاناً وحضارة وديناً، إذن لكنا قد اكتشفناها وأعدنا جيلنا إليها

بكل احتياجاته وبكل شعوره وبكل وعيه. لكننا الآن عندما نريد الحديث تفيض العيون والأحاسيس والمشاعر بالكراهية، ثم نفر نحو الأنماط الغربية، ومن هنا على إيما سيزار أن تقول: لنعد إلى ذواتنا وأنفسنا، أما أنا فينبغي أن أقول: إلى أي ذات ينبغي أن نعود؟ أينبغي أن نعود إلى هذه الذات الممسوخة التي علمونا إياها؟ لا، لا يمكن العودة إليها. ما هو عبادة للتقليد وعبادة للقديم ورجعية ليس جديداً.

ألا تعلمون أنه توجد الآن حركة عودة إلى الذات؟، ذات يوم ذهبت لزيارة أحد السادة العصريين جداً الذين قاموا بالعودة إلى ذواتهم، وهناك رأيت أنه وضع عراقة حمار «ما يوضع تحت السرج» أمام حجرة الضيوف في منزله، قلت: أيها السيد المحترم، هل هذا يعني العودة إلى الذات؟ لماذا وضعت عراقة الحمار هنا؟ ينبغي أن تضعها أمام غرفة نومك، هذا النوع من العودة إلى الذات عودة إلى الذات على الطريقة الأمريكية، منذ أن جاءوا واشتروا هذه العراقات واشتروا أيضاً الخرز البدائي قبيح الشكل وعلقوه في رقاب زوجاتهم، اكتشفنا أنفسنا، انظروا إلى الاستحمار، الاستحمار الجديد:

إذاً إلى أي ذات نعود؟ إلى أي ذات؟ هل نغرق في مفهوم وهمي مطلق يسمى: الإنسانية؟ والعالمية اليوم كذبة يراد بها محو الشخصية الثقافية الحقيقية للجميع، حتى تَمحى في إنسانية وهمية كاذبة لا وجود لها، إن الإنسانية تعني اشتراك كل الأمم في معنى واحد وفي حقيقة واحدة أي اشتراك الإنسان خاوي الوفاض مع الإنسان الرأسمالي، اشتراكنا نحن المحليين المفرغين من ذواتنا

والمفتقرين إلى ثقافة معك أنت الذي يعد كل وجودك ملكاً لك، وحينذاك سوف تكون العلاقة بيننا علاقة السيد بالتابع، علاقة أحد طرفيها مفلس وعامل وأداة والطرف الآخر غني ورأسمالي. ومن هنا فالغربي فقط هو من له وجود أو بتعبير سارتر: يوجد فقط خمسمائة مليون من البشر ومليارين ونصف من المحليين، وبتعبير الاستعمار: الفرق بين الإنسان والمحلي هو الفرق بين الغربي والشرقي. إذن: إذا أراد الشرقي أن يكون شريكاً مع الغربي على أساس «الإنسانية» يكون قد أذاب نفسه وشخصيته الحقيقية في نظام وهمي عابد للبشر وكاذب وخيالي، ومحا شخصيته الأصيلة وأصالته الذاتية، وطالما ظللنا على حد قولهم محليين وهم بشر، يعد أي نوع من الشركة الإنسانية معهم خيانة لوجودنا، وعلينا أن ننفصل عنهم وأن نتقيهم، لأن علاقتهم بنا، لا تعدو علاقة المستعمر بالمستعمر، وأية علاقة يمكن أن تكون هذه؟ علاقة من يمتص بمن يمتص «بضم الياء»، بين من يقوم بالإنتاج وبين من ينبغي عليه أن يستهلك، بين من ينبغي أن يتحدث ومن ينبغي أن يسمع، بين من عليه أن يتحرك وبين من عليه أن يتبع ويقلد، علاقة بين قطبين متنافرين، ومن ثم فهي ليست علاقة في الحقيقة بل رباط كاذب لا وجود له، مثل علاقات من قبيل العرقية والأخوة الوطنية... وكل هذه علاقات كاذبة يراد إقامتها بين قطبين عدوين متنافرين لصالح القوي ولضرر الضعيف، هذه ليست علاقة وإن وجدت فهي عداوة، فمن المسلم به أن الدودة التي تمتص تكون شريكة في دم الإنسان الذي تقوم بامتصاصه، هذه الشركة في الدم شركة بين عدوين.

على كل حال، هذه الروابط روابط عداوة يريد الاستعماريون إقامتها باسم العرق أو القومية أو الدين بين القطبين العدوين في العالم: الاستعماريين والمستعمرين، وذلك الذي يعتبر نفسه إنساناً ويعتبرنا محليين، ويعتبر نفسه عقلاً ويعتبرنا نحن أحساساً وشعوراً كيف يمكن أن يكون على علاقة معنا، مثاله برتراند راسل «ولست أتحدث عن مستغل أو استعماري عالمي بل أتحدث عن أحد المناضلين في سبيل الحرية المشهورين عالمياً»، إنه يقول: النفط ملك الحضارة، ليس ملك حسن أو حسين أو قبيلة كذا أو شعب كذا، ملك الحضارة وملك الصناعة وملك البشرية، ما هي الخلاصة من هذا القول؟ إنه يريد أن يقول: إنه ليس ملكاً لكم، إنه ملك من يستطيع استهلاكه من أجل الإنسانية، هل تستطيعون استهلاكه؟ أبداً، إذن فهو ملكنا. وهذه هي علاقتنا بالغرب في ظل الإنسانية. إذن إلى أي ذات نعود؟

إذا عدت إلى الذات القومية، فإنني سوف أسقط فريسة للعرقية والفاشية والجاهلية القومية وهذه عودة رجعية. لا أُريد أن أقول: الفضل عند الإيرانيين فحسب، لكني أريد أن أقول إن تاريخي يدل على أنني فنان وعلى أنني صنعت فنا، أريد أن أقول إنني إنسان وإنني تركت في التاريخ علامات تدل على أنني إنسان وخالق فنون، وعلى أنني خالق نبوغ. ومن ثم: إذا كان في الأمر عودة إلى العرق فهي عرقية وفاشية ونازية، نوع من الشوفينية الجاهلة الحمقاء، عودة إلى نوع من القومية المحلية وعودة إلى قلاع عبادة التقليد بضيق أفق، عودة إلى الجمود القومي والقبلي.

لا نريد أن نعود إلى العرق. لا نريد أن نعود إلى القلاع المحلية الكلاسيكية، ولا نريد أن نسوق الإنسان إلى عبادة الدم والتراب، فقد جاء أربعون ومائتان وألف من الأنبياء يدعون هذا الإنسان المتكبر العنيد إلى عبادة الله مظهر الجمال المطلق، وهو لا يطيع، والآن نريد كمفكرين أن ندعوه إلى عبادة التراب لا، هل العودة إلى الذات تعني العودة إلى ذاتنا الثقافية والمعنوية والإنسانية التي اكتشفنا أنها تبلورت في حضارة ما أو في عصر ما، أو في دين ما أو في ثقافة ما في عصر خاص؟ إننا نملك ذاتاً قديمة ترجع إلى العصر الأكميني أو العصر الساساني أو العصر الأشكاني وعصور قبلها، فهل نعود إليها؟ انتبهوا من فضلكم إلى هذه النقطة لأنها آخر ما أتحدث فيه، وهي نقطة حساسة جداً. هذه الذات ذات قديمة وعتيقة ذات سجلت في التاريخ، ذات قطع أمد طويل من القرون علاقتنا بها، تلك الذات الأكمينية القديمة ذات موجودة في التاريخ يستطيع المؤرخون وعلماء الإجتماع وعلماء الآثار والعلماء عموماً اكتشافها وقراءتها وفهمها[١] لكن أمتنا لا تحس بأن هذه الذات هي

---

(١) هذا يمكن الرد به أيضاً على دعاة الفرعونية، أولئك الذين يتجاهلون ألف عام وأكثر من الحضارة الحية المستمرة المؤثرة، ويجاهرون بإثم يبلغ القول أن الدعوة إلى التوحيد خرجت من مصر في عهد الفرعون اخناتون وعلى يده، وأن مصر فرعونية الحضارة والجنس. حقيقة أن الفراعنة تركوا لنا آثاراً ملء السمع والبصر، لكن ما هو تأثيرها الفعلي على المصريين المعاصرين؟ وماذا نملك الآن مما يمكن أن يسمى فرعونياً من مقومات الحضارة والثقافة؟ هل نملك كتاباً واحداً في الطب أو الأخلاق أو الأدب أو الشعر أو الفلسفة؟ الخ، هل نملك شبه رؤية كونية عن الفراعنة؟ هل نملك تصور الدين متكامل إلا عبادة العجول والفراعنة؟ هل نعرف لغتهم؟ حتى الآثار العظيمة في الصعيد، أليس السكان هناك لا يزالون يسمونها «المساخيط»؟. المترجم.

ذاتها، وليس لشخصيات تلك الفترة أو أبطالها أو مواهبها ومفاخرها وأساطيرها حياة أو حركة أو نبض بين أهلنا، فقد جاء «مقص» الحضارة الإسلامية ووضع حداً بين ذاتنا قبل الإسلام وذاتنا بعده، بحيث أصبحت ذاتنا قبل الإسلام قابلة للرؤية والدراسة على أيدي العلماء المتخصصين في المتاحف والمكتبات فحسب، وأمتنا لم تعد تذكر عنها شيئاً قط، انظروا إلى النقوش والآثار التي توجد بين الناس عندنا أي نوع من الإحساس عندهم بالنسبة لها؟وكيف يعرفونها وماذا يعتبرونها؟ إنهم يقولون إنها من كتابة الجن. وهذا يجعلنا نعلم أنه لا توجد بينهم وبينها أدنى علاقة. الخلاصة: إن هذه العودة إلى الذات التاريخية التي ندعو إليها، لا تعني العودة إلى عراقة الحمار، بل هي العودة إلى الذات الموجودة بالفعل والموجودة في قلب المجتمع وفي وجدانه، تصير مثل مادة ومنبع من منابع الطاقة، تفتت على يد مفكر وتستخرج وتحيا وتتحرك، هي تلك الذات الحية. ليست تلك الذات العتيقة القائمة على عظام نخرة، هي تلك الذات القائمة على أساس الإحساس العميق بالقيم الروحية والإنسانية عندنا، والقائمة على أرواحنا واستعداداتنا، والموجودة في نظرتنا إلى الأمور، لكن الذي صرفنا عنها هو الجهل والانقطاع عن النفس، وجعلها الجذب إلى ذوات أخرى مجهولة، لكنها على كل حال لا تزال حية ذات حياة وحركة، وليست كلاسيكية ميتة تتبع علم الآثار.

هذه الذات تنبع من صميم الناس، فهل هي ذات دينية؟ هل هي ذات إسلامية؟ أي إسلام؟ وأي مذهب؟ أهو المذهب الشيعي؟

هنا أقول: نعم، ثم أقول على الفور: أي تشيع؟ نحن نعلم أن هذه الذات الثقافية عندنا ذات تجلت في العالم كذات عظيمة عن طريق جامعاتنا الموجودة في الألف سنة الأخيرة وفي آدابنا طوال الألف سنة الأخيرة، وعن طريق مفاخرنا وتاريخنا وحضارتنا ومواهبنا واستعداداتنا المتنوعة من عسكرية ورياضية وعلمية وفلكية وأدبية وعرفانية في هذه الألف سنة أو الألف ومائة سنة الأخيرة، بحيث أستطيع أمام أوروبى ينتسب إلى عصر النهضة أن أقول له: إنني فرد منتسب إلى ثقافة إسلامية عظيمة وهؤلاء البشر، وهذه الشخصيات، وهذه الحضارة والشخصية وهذا الاستعداد للتوالد والخصب والمواصلة فيَّ وفي حضارتي، لكن المهم هو: أي إسلام وأي مذهب؟ هل هو ما هو موجود الآن؟ هل هو ما هو موجود الآن في صميم المجتمع بصورة تكرارية وعفوية؟ إن العودة إليه من قبيل تحصيل الحاصل.

والآن يعيش قومنا على أساسه ويعملون، ويؤمنون به، لكن لا فائدة منه قط، بل إنه في الوقت نفسه عامل من أهم عوامل الركود فيهم، وعامل من عوامل عبادة التقليد وعبادة الجهل وعبادة الأشخاص وعبادة الماضي وتكرار ما هو مكرر. إن ما هو موجود الآن باسم الدين يرد البشر، ليس عن مسؤولياتهم الفعلية فحسب، بل ويمنعهم عن الإحساس بأنهم مخلوقات حية في الدنيا. هذا الدين نفسه الموجود لا يستطيع أن يواجه الناس بحساسياتهم ومشكلاتهم.

ومن هنا نرى أنه من على بعد ألف كيلو متر يكتب أحدهم:

سيدي: إن لدي مشكلة صعبة لي عدة أيام أبحث عن حلها، والآن انظروا ما هي مشكلته؟ إنه يقول: إننا حين نقول أن آدم وحواء هما أول البشر، وهما أول من ولدا بشراً، فكيف تزوج أبناء حواء وآدم وبناتهما وهم أخوة؟ وكأنما يريد أبناء حواء وآدم وبناتهما الزواج الآن، والمأذون لم يرض والأمور معطلة، أجل، هذا هو الدين نفسه الذي نقل المشكلات والمثل والتفكير من مرحلة ما قبل الموت إلى مرحلة ما بعد الموت ولا شأن له بهذه الدنيا. مع هذا الدين يقوم الإنسان بكل ما يقوم به من عمل من أجل الآخرة، أما بالنسبة للدنيا فلا إحساس بمسؤولية أبداً، لا من أجل نضجه ولا من أجل حياته الاجتماعية ولا من أجل القيام بمسؤولياته. هذا الدين نفسه الذي يعتنقه كل مفكر اجتماعي ويعرفه.

والأن أقولها كلمة صريحة: إن منطلقنا هو الذات الإسلامية نفسها، وينبغي أن نجعل شعارنا هو العودة إلى هذه الذات نفسها، لأنها الذات الوحيدة القريبة منا من بين كل الذوات، وهي الثقافة الوحيدة التي لا تزال حية حتى الآن، وهي الروح والإيمان والحياة الوحيدة في المجتمع الآن ذلك المجتمع الذي ينبغي للمفكر أن يعمل من خلاله ويعيش وينبض. لكن ينبغي أن يطرح الإسلام بعيداً عن صورته المكررة وتقاليده اللاواعية العفوية وهي أكبر عوامل الانحطاط، بل ينبغي أن يطرح في صورة إسلام باعث للوعي تقدمي ومعترض، وكأيديولوجية باعثة للوعي وقائمة بالتنوير، حتى يبدأ من هنا هذا الوعي، وهو مسؤولية المفكر دينياً كان أو علمانياً، وذلك من أجل العودة إلى الذات، والبدء من

الذات، بحيث ترسخ على أكثر الأسس عمقاً في واقعنا الروحي وشخصيتنا الحقيقية الإنسانية، لأنه حي وموجود في قلب المجتمع، ويتغذى من هذا الكنز ويقف على قدميه، وفي الوقت نفسه وعن طريق تغيير ما، يتحول الإسلام من صورة تقليد اجتماعي إلى صورة أيديولوجية، ومن صورة مجموعة من المعارف العلمية تدرس إلى إيمان واع، ومن صورة مجموعة من الشعائر والطقوس والأعمال التي تؤدي لنيل ثواب الآخرة إلى أعظم قوة تهب الإنسان قبل الموت المسؤولية والحركة والميل إلى التضحية، ويتحول إلى استخراج مادة عظيمة تستخرج الوعي والعشق من صميم هذا المجتمع، ويقوم المفكر بمعجزة «بروميثيوس» في جيله، ويبدي المعجزة المتولدة من الوعي والإيمان عن طريق هذه الطاقة فيتبدل الجمود فجأة إلى حركة والجهل إلى وعي، وهذا الانحطاط الذي دام بضعة قرون إلى بعث وحركة ونهضة يؤدي إلى ما يشبه القيامة، وبهذا الشكل يعود المفكر سواء كان دينياً أو علمانياً إلى ذاته الواعية الإنسانية القوية، ويقف في مواجهة الاستعمار الغربي، وبقوة الدين يوقظ مجتمعه، ويحركه فيقف على قدمه إنساناً منتجاً، في صورة جيل يواصل حضارته وثقافته وشخصيته المعنوية، ويجلي بني جنسه جميعاً واحداً واحداً في صورة «برومثيوس» يأتون بالنار الإلّهية إلى الأرض.

والسلام

القسم الثاني

العودة إلى أي ذات

مصير الأفكار:

إن مصير الأفكار بيننا أيضاً مثير للشفقة، فالأوصياء على الفكر ـ ونتيجة لوصايتهم يدعون أن لديهم ما يقال ـ هم أنفسهم نفس الفريقين المتشاحنين منذ القدم، وقد اشتبكا معاً في الخمسين سنة الأخيرة، وأضاعا أعظم الفرص في «جعجعة بلا طحن»، وفي تلك السنوات الغالية التي اغتنمت فيها كل الأمم الأسيرة الفرصة ـ تشتت المستعمرين واختلال الموازين الدولية بين الحربين وظهور الفاشية وثورة أكتوبر وخروج أمريكا من عزلتها الدائمة ـ وقام المفكرون الأحرار وأهل الفكر فيها بإيقاظ أممهم وأقاموا قواعد وحدتهم الاجتماعية على أساس إدراك الذات والتفاهم القومي وإحياء روح الجرأة والرؤية النقدية والوعي السياسي والثقافي، وظهروا بين أقوامهم، وجاهدوا في تعلم لغتهم والإحساس بآلامهم والامتزاج بصميم وجدان مجتمعهم، وأعادوهم من حالة السلبية وموقف الدفاع و«قبول الأمر الواقع» إلى البناء والهجوم ومرحلة البحث عن مثل، وعن طريق استخراج المنابع المجهولة والمتحجرة لثقافتهم، وانطلاقاً من قواعد منسية في شخصيتهم القومية، وتعبئة للقوى المعنوية وإحياء للعناصر الثورية والإيجابية

في دينهم وعند أقوامهم وتاريخهم، هيأوا الأرضية لحركة مضادة للاستعمار، وانتفاضة للنجاة وثورة اجتماعية عميقة ذات جذور.

أما في وطننا، فإننا نجد الرجعيين والعصريين، فريقا في دفاع عن دين لم يكن يعلم عنه شيئاً، وفريقاً في كفاح من أجل إقرار مدرسة فكرية لم يكن يدري عنها شيئاً، وقاما بمعارك مقززة وصراعات قبيحة، كانت نتيجة المنتصر فيها هزيمة الأمة، وكانت هزيمة المنهزم فيها أن هزيمته أيضاً كانت تنسحب على الوطن، وأشد وأنكى من هذا مصيبة، أن هذه الحرب لم تنته، وصارت إلى شكل من نتيجته أننا ابتلينا معاً بمصيبتين: هزيمة المهزوم وانتصار المنتصر.

في منتصف القرن التاسع عشر، تماماً في السنوات نفسها التي أخذت دول أوروبا تنصب خيامها السياسية والاقتصادية والثقافية في دول آسيا وأفريقيا بعد غزوها عسكرياً، وكان المفكرون المستنيرون والعلماء والكتاب في أوروبا يتحدثون عن الاستغلال، وكانت الحرب الطبقية والتحررية والعمالية والكفاح ضد الرأسمالية مشتعلة في أوروبا الغربية والوسطى وإنجلترا، وكانت تطرح قضايا من قبيل المجتمع الحر الإنساني الذي يتمتع بالمساواة والاشتراكية والنقابية ورفض سيطرة الدولة والمجتمع الطبقي، وكانت تصدر كتب من قبيل «الملكية سرقة» و«فلسفة الفقر»، وكانت المانيا وفرنسا وإنجلترا مسرح صراع طبقي، ونقابي، وكان البحث دائراً، حول الثورة الطبقية وشخصية الشعب وإقامة الملكية الجماعية بينما كان كل ذلك دائراً، كان عدد من أئمة

الزمان «المهديين المنتظرين» يظهر في كل دولة إسلامية، وفي إيران ظهر اثنان منهم بينهما عشرون سنة، ادعى الثاني منهما النبوة ثم الألوهية[١]، وكان وطيس البحث قد حمي حول خلافة (ميرزا على محمد)، وقامت الحرب بين الأزلية والبهائية حول مسألة الإمامة وحول مسألة «باب المهدي المنتظر» وبشارته ببعثة ميرزا (حسين علي بهاء)، وإدغام الإمامة والنبوة والألوهية في وجود «النقطة الأولى»[٢].

وفي مكان آخر كان كشف عالم الأثير والهوريقليا عند الشيخ أحمد الأحسائي[٣] واختراع الركن الرابع في جنس الإمام، والتنقيب في أعمدة الروايات والأخبار الموجودة في بحار الأنوار[٤]

(١) من الطريف أن نعلم أنه في تلك الأيام نفسها التي ظهر فيها المنشور الشيوعي في أوروبا وبلغت النهضة العمالية أوجهاً، ظهر إمام الزمان في إيران. وأيضاً في نفس هذه الأيام تكررت لعبة أدعاء الإمامة في سبعة عشر مكانا آخر في الدول الإسلامية.

(٢) المترجم: المقصود هنا قيام ميرزا علي محمد الباب بادعاء الإمامة ثم تفرع البابية من بعده إلى أزلية وبهائية، وتطور الأخيرة إلى البهائية المعاصرة بعد هجرتها إلى عكا وسقوطها في يد الصهيونية والماسونية، فاستغلت فكرة وحدة الأديان والدعوة إلى الحب والسلام بينها لضرب الإسلام ولا تزال تعمل تحت الشعارات نفسها.

(٣) المترجم: الشيخ أحمد الاحسائي المتوفى ١٢٤١هـ. مؤسس الطائفة الشيخية، وصاحب «جوامع الكلم» و«شرح الزيارة»، كفر من الفقهاء الأثني عشرية لآرائه المبتكرة حول الإمامة.

(٤) بحار الأنوار موسوعة فقهية تاريخية للشيعة الأثني عشرية ألفها ملا محمد باقر المجلسي المتوفي سنة ١١١٠هـ، جمع فيها كل ما وصل إليه «وما لم يصل» من أخبار عن الشيعة الأثني عشرية، ويعد من نتاج العصر الصفوي الذي كان يؤصل التشيع الأثني عشري في إيران بشكل أو بآخر. المترجم.

من أجل اكتشاف علائم ظهور الإمام الثاني عشر عند الشيعة الأثنى عشرية وخصائصه من أجل مطابقتها على مدعي المهدية، ثم الصراع بين قوى الفقهاء والشيخية والصوفية وكارثة اشتعال الحرب بين البابية والبهائية، والهرج والمرج في كل المدن وكل القرى، والتضحيات والمذابح، وأنواع الجدل الفقهي والكلامي حول هذه المسائل نفسها وفي خضم هذه المعمعة إذا بالدستور يصدر فجأة بصدور عدد من الفتاوى، مثل البرق ومض، ومثل الريح مضى، وقامت الحرب العالمية الأولى.

ومنذ ثلاثين سنة عندما دارت رحى الحرب العالمية الثانية، واشتبك البول في صراع مع الغائط، وأخذ الغرب المستعمر بمعاصيه فنزلت عليه نازلة الفاشية، وقامت أفريقيا وآسيا تستردان الروح، وأخذت كل أمة في جبهة صريحة وصامدة بل ومسلحة تهاجم الاستعمار الجريح المتفرق وجهاً لوجه، وفي العالم الذي كان يسمى بالثالث[1] سابقاً طرحت قضايا من قبيل تاريخ الاستعمار

---

(١) في رأيي أنه نظرا لتداخل التكتلات العالمية، وتغير العلاقات السياسية بين الأقطاب (حيث كانت أمريكا وأوروبا تعتبران قطباً واحداً للرأسمالية، والاتحاد السوفييتي والصين وأوروبا الشرقية قطباً للشيوعية، وامريكا اللاتينية وافريقيا وآسيا التي لم تكن قد وصلت إلى مرحلة الرأسمالية أو اعتنقت الشيوعية تسمى بالعالم الثالث) هذه التسمية وهذا الوصف لم يعد له مصداق أو معنى. وحتى هم أنفسهم يعترفون بهذه الحقيقة ولكنهم عندما يعترفون، يريدون أيضاً تفسير هذه الواقعية التي لم يعودوا بعد يستطيعون كتمانها بشكل فيه بعض التطرف، وهذه خاصية بارزة وشائعة في اللغة الاستعمارية، فهم يقولون: إن العالم الآن لا ينقسم إلى معسكرين بل ينقسم إلى خمسة معسكرات امريكا وأوروبا المستقلة عن امريكا والصين والاتحاد السوفييتي=

وأنواعه وأهدافه وحيله وجرائمه، والمعاهدات المفروضة وطرق فسخها، وفي العالم الإسلامي كانت حركة سيد جمال الدين في حينها تتقدم في جبهتين: جبهة سياسية وجبهة ثقافية، وكان الوعي التقدمي الإسلامي المضاد للاستعمار يعبىء قوى واسعة من الشعب. أما في مجتمعنا بعد الحرب كانت أعظم الشعارات التي تطرح من قبل المتدينين هي المطالبة بالسيطرة من جديد على المدارس القديمة، وإحياء اللحى والعمائم التي ضاعت، والعودة إلى التكايا، وإقرار «إنشاد الروضة»(١) في المنازل، وتشكيل هيئات الدق على الصدور والضرب بالسلاسل ولفها مغلقة بالأقفال حول الأجساد(٢)، وإعادة «عورات» المسلمين إلى الملاءات السابقة،

= والقوى المستقلة التقدمية للعالم غير الملتزم «الثالث سابقاً». وفي هذا الشعر المخمس توجد حقيقة بلا شك، ولكنهم استعملوا بعض المغالطة في هذا المخمس السياسي، إذ انهم أولوا ببعض الاحتيال واقعاً سياسياً وجعلوه واقعاً اجتماعياً، وهذه قاعدة رائجة إذ يجرعون الناس الباطل على أنه حقيقة ببعض الاحتيال، وهذا كما يتحدثون عن النظم الاجتماعية الداخلية، إذ يرفضون التثليث الحاكم الذي يبدو أمام الناس في صورة طبقة واحدة متحدة، استناداً إلى بعض الاشتباكات الداخلية التي تكون حادة أحياناً بين الأجنحة الثلاثة: السياسية والاقتصادية والدينية، حتى يخمدوا الوعي الذاتي الطبقي بين الناس ويفرقوا بين الجبهات.

(١) المترجم: المقصود بإنشاد الروضة، قراءة سير آل البيت ومقالاتهم في المناسبات الدينية أو لمجرد التبرك في المناسبات، والاسم مأخوذ من أول كتاب كتب في هذا المجال وهو «روضة الشهداء» لحسين الواعظ الكاشفي من أوائل وعاظ الصفوية، وقد تلاه عدد كبير من الكتب في هذا المجال منها طوفان البكاء للجوهري.

(٢) من طقوس احتفالات المحرم عند الاثني عشرية المتبعة في إقامة العزاء أو التعزية أو المصيبة لآل البيت. المترجم.

وفتح حجرات التجارة القديمة[١]، وعودة الدين إلى خلاصة الحساب للشيخ بهائي وحاشية ملا عبد الله والرسائل والمكاسب والمبحث الحيوي عن العتق، والمشاكل الضرورية عن الإجارة، وطرح دقائق باب الطهارة والنجاسة، وحل المشكلات الموجودة والمحتملة في العلاقة بين السيد و«العبد»، والخلاصة: العودة إلى الوراء عشرين سنة لا ألف وثلاثمائة سنة كما كان أتباع السيد جمال الدين يعلنون.

(١) المترجم: الحجرة: عربية، والمقصود بها الحجرة التي كان التاجر القديم يدير منها أعماله التجارية وتعد من ملامح التجارة على النظام القديم في إيران في مقابل الشركات والمحلات العصية في شمال المدينة.

المصلحون التقدميون:

لكن: ماذا فعل مصلحونا التقدميون؟ أيضاً قاموا بنوع من اللعب بفكرة إمام الزمان وصناعة الرسل، لكن بطريقة عصرية تصلح للزمان من قبيل: تدوين قرآن «ورجاوند بنياد»[١] وكتابة الكتب في دحض الإمام الصادق، وبدء الكفاح المستميت ضد الكلمات العربية والخط الفارسي، وإلقاء تبعة انحطاط الأمة وفقرها وكل المصائب والمظالم فيها على «جيد معشوقة الشاعر حافظ الشيرازي»، واعتبار شعر سعدى ومثنوى جلال الدين السبب الرئيسي في سوء أحوال الناس واستغلالهم، وإقامة احتفالات «حرق الكتب» وتحديد مبادىء الحرية القومية والرقي الاجتماعي والهدف الثورى للأمة: بتغيير الخط «إحلال الخط اللاتيني محل الخط العربي»، وإجازة يوم الأحد محل يوم الجمعة، واعتبار العملاء الأجانب والعناصر الأجنبية التي سيطرت على مجتمعنا هي الألفاظ ذات الأصل العربي، ونتيجة لذلك فمن أجل العودة إلى الذات والكفاح ضد العملاء المعادين لإيران تقرر: إدانة الألفاظ

(١) المترجم: من كتب إيران قبل الإسلام.

الرائجة التي يفهمها كل إنسان والتي ظلت ألف عام لغة تخاطب وأدب وثقافة وتاريخ وإيمان عند الناس، وطردها من المجتمع، واختلاق ألفاظ شبيهة بألفاظ الجن لتحل محلها، واعتبار أن علل مصائب القوم في الحجاب واللحى واللبادة والكرسي[١]، وتحريم التلفظ بكلمة ليس أصلها الممتد لألف عام «آربا» ومن ثم فهي لا توافقنا ونحن من أصل «آري» فلتقلب شيرين إلى «شلب» وعنصر إلى «آخشيجان» ومستقيم إلى «سيخكى» ودائرة إلى «كردكى» ومنطق إلى «منتر»، وهذا يعني إصلاح المجتمع ونجاة الأمة وحرية الناس وتقدمهم وإحياء الثقافة والكفاح ضد الأجانب، وطرد العناصر الدخيلة.

والخلاصة، في هذه البيئة الراكدة، وفي تلك الأيام التي كان الاستعمار يجاهد فيها ليرسخ ويبقى ويمد جذوره في أعماق مجتمع الأمم الشرقية وفكرها وذوقها عن طريق قلب قيمها الثقافية والتاريخية وشخصيتها المعنوية والدينية ومسخها ومحوها، وفرض انماط حياته الفردية والاجتماعية عليها، فإن طريق خلاصنا هو ما يقوله ذلك المفكر المستنير المصلح العصري التفكير: «فلنلق بقنبلة الإستسلام للأوروبي في هذه البيئة ولنفجرها، والخلاصة: لنصبح أوربيين من قمة الرأس إلى خمص القدم»[٢].

(١) الكرسي: وسيلة شعبية للتدفئة، وهو عبارة عن فرن يقام وسط الحجرة وتترك فيه فجوة لوضع مواد التدفئة، ويغطى بالأغطية المبللة. المترجم.

(٢) من أراجيز العلامة تقي زاده الحماسية، وهو الذي كان شديد التظاهر إلى هذه الدرجة إبان الحركة الدستورية، وهو نفسه صورة مجسدة للتاريخ المعاصر وتمثال حي لكل=

الثوريون اليساريون:

وذلك الجناح الآخر انمفكر المستنير عندنا، جناح اليساريين الثوريين السياسيين، انعكاس الحركة الاشتراكية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في الغرب والنصف الثاني من القرن العشرين في الشرق، لم يكن على هذه الدرجة من السذاجة بحيث يلتصق باللحى والعمائم من أجل الحفاظ على الإسلام والأمة في زمان طرحت فيه الفلسفة والعلم مشكلة الله وطرحت فيه أوروبا مشكلة الإسلام وطرح فيه الاستعمار مشكلة وجود الأمم، وإنفاق تلك الحرية المستردة التي صارت بمصادفة عالمية نصيبا وبالمجان

= الأحداث التي مرت بنا في القرن الأخير. ومن ملكم خان حتى تقي زاده نستطيع أن نتابع بدقة حركة الإصلاح الالتباسية ولعبة المفكر المستنير التقدمية التفرنجية. ومن أجل توضيح هذه القضية، وهي أخطر مشاكل الشرق خصوصاً العالم الإسلامي في القرن الأخير، ينبغي الانتباه إلى الدور المشابه الذي بدأ القيام به هؤلاء الممثلون العظماء بالنمط نفسه.

وفي الوقت نفسه في الدول الإسلامية الأخرى من أمثال: سيد أحمد خان المصلح العصري في الهند، وضيا كوك آلب الأب الفكري لاتاتورك وآخوندوف في المجتمع الإسلامي المستعمر من روسيا القيصرية، وعلى هذا النسق نفسه في شمال افريقيا ومصر والعراق، أولئك الذين جاهدوا باسم العصرية حتى يزيحوا الإسلام عن طريق دخول الاستعمار.

المترجم: ناهيك عن التداعيات التي يستدعيها هذا الموضوع في مصر وهي كثيرة والقافلة مستمرة، قافلة «دعاة التنوير» أو «رواد الحركة الفكرية» كما يحلو لهم تسميتهم، ابتداءً من رفاعة «بك» المبهور بعربة الرش ومروراً بأحمد لطفي السيد «باشا» وطه حسين «بك»، وانتهاء بطواشيهم «توفيق الحكيم» المفكر «العالمي» و«حسين فوزي» و«زكي نجيب محمود» مع جيش من الصحفيين والمترجمين وأساتذة الجامعات والأسماء الطنانة الرنانة التي لا يتطرق الشك إلى علمها.

لأسرى آسيا وأفريقيا والمسلمين في إحياء اللحى والعمائم والأوقاف والدق على الصدور والنواح والبكاء على آل البيت أو عرض تمثيليات القصاص[١] أو تمضيتها في «المصيبة»[٢]، ولم يكونوا بلهاء وحمقى إلى هذا الحد، بحيث يعتبرون أن إحياء أمة ميتة وخلاص مجتمع أسير وتقدم دولة متأخرة مصابة ببلاء الاستعمار ـ ليس كما ينبغي في الوعي السياسي والنضج الاجتماعي والاحساس بالمسؤولية والقيام بالالتزام والكفاح والتضحية ـ بل بصراحة ووضوح في القيام بدور القرد للقرداتي الأوروبي، أو تسمية «العصرية» بخبث «حضارة»، أو اعتبار السترة والسروال والقبعة وال «ميني جوب» والقيام بريجيم إنقاص الوزن ولوازم الزينة والسيارة والموبيليا والديكور والبنك والعمارة الحديثة والراديو والتليفزيون والزينة والحركات الحديثة والتصرفات المستحدثة تقدماً، أو اعتبار «الرقي في الاستهلاك والشكل» «حضارة في الانتاج والفكر» وهم ناسون أن بدائياً من الإسكيمو في خلال أسبوع واحد أو حتى يوم واحد أن ينبدل إلى عصري أمريكي، لأن العصرية أو الرقي يحدث بسرعة وكثرة عن طريق الصادرات التقليدية والطبيعية والواردات الحديثة الصناعية والاتفاقيات الملعونة ورؤية الأفلام المدبلجة الممسوخة وقاذفات قنابل الدعاية، وقراءة مجلة «زن روز: المرأة اليوم و«اطلاعات

---

(١) المترجم: بعض تمثيليات احتفالات التعزية في إيران وتدور حول تأصيل عداء الشيعة لأعداء آل البيت وقتلتهم، وهي من نتاج العصر الصفوي.

(٢) المترجم: المقصود الحداد الرسمي والشعبي في مناسبات ذكرى مصارع آل البيت.

بانوان: اطلاعات النساء»، والحركات والسكنات المقلدة الجديدة، والسلع الاستهلاكية الحديثة[١]. كانوا يعلمون أن الحضارة هي درجة التكامل في القدرة على التفكير واتساع الرؤية وعمق الروح ولطفها، والنضج الاجتماعي، وخلق الوعي الإنساني والاحساس بالمسؤولية، ومعدل الثروة الثقافية والقفزات الفكرية والعقائدية، واستقلال الشخصية واستعداد الخلق والقدرة على الاستغناء والنقد والاختيار، وإيجاد ضمير تاريخي واجتماعي، والوعي والالتزام بالمستقبل، وتحديد حق المرء في الاشتراك ونصيب اشتراكه في الصنع وتغيير المصير حسبما يجب وبكلمة واحدة: الثورة الأيديولوجية... كانوا يعلمون أنه لا يمكن الحصول على هذه الأشياء كلها بمساعدة مصممي كريستيان ديور وهجوم بضائع مانشستر وبناء الذات عن طريق كتالوج «البوردا»، إنها تريد تعبا وعملاً وصبراً وشجاعة روحية واستقامة اخلاقية وإخلاصاً وتضحية

(١) تقول الإحصائية التي نشرتها مجلة «زن روز» أن عدد مؤسسات الزينة وبيع لوازم الزينة قد تضاعف في طهران خمسمائة مرة، وحين نقارن هذا الرقم باستهلاك الحناء والسدر وزيت الفازلين ونفقات الزينة وإزالة الشعر عن طريق الخيط ووضع الكحل والوشم في الماضي، نستطيع أن نحدد القفزة المدهشة التي قطعتها المرأة اليوم في طريقها إلى الرقي، لكن حركتها في طريق «الحضارة» مخجلة، دقق النظر إلى تلك «المدام» التي ازدانت بفراء من «هيتاتشي» ومعطف من الخز من إنتاج «سقراط» وطراز «ميزون دي بوته» و«ميني جيب» و«شورت» من «هيبورن» وجورب «استارلايت» وحذاء إيطالي وحقيبة يد من «سامارتين» وروج كريستين... ويفوح من «حضرتها عطر خيالي يثير العشق، وماء كلونيا «بامبوس» وكريم «بودوس»... هل هي نفس «ملا باجي نفسها» (اسم قديم للنساء)؟ لم لا.؟ تغيرت «بردعتها» فحسب.

وتحملاً للحرمان ومواجهة للخطر وكسباً للجدارة والوعي وصموداً وتقوى وعلماً وذكاء كثيراً وطمعاً قليلاً ووعياً ذاتياً وإنكاراً للذات وتوقعاً للخطر من الأعداء وضرر الكائدين وحسد الأصدقاء[١] وتعرضاً للحيل والأحقاد وضيق الأفق والعقد المرضية الدنسة و. . . كل ما يلزم لإيجاد الحركة والدعوة إلى اليقظة والتحرر في مجتمع مريض متأخر قام الاستعمار من الخارج بـ «استغفاله»، وقام الاستعمار من الداخل بالشيء نفسه.

كانوا يعلمون أن الحضارة هي من قبيل العمل الذي قام به موسى. صنع مثل هذا التاريخ من بضعة من الأسرى الأذلاء الذين تعودوا على الرق والذلة وحب المال والجري وراء المصالح الفردية والاحتيال الحقير، هو العمل الذي قام به محمد، جعل من عدد من البدو المتفرقين في صحراء الجهل والفقر ومذابح الحقد البدائية إلى محطمين لأعتى القوى الاستعمارية في شرق العالم وغربه، وواهبي النضج لكل حضارات الإنسان وثقافاته. كانوا يعلمون أن العصرية والرقي يمكن استيرادهما كسلعة من الخارج، لكن الحضارة ليست بذورها في المدينة ثم تظهر وتنمو، لا كما حدث في شرق شبه الجزيرة عند عرب الحيرة وفي شمالها عند العرب الغساسنة، وفي جنوبها عند القبائل اليمنية، أولئك الذين باختلاطهم وانتقالهم وتقليداً لعادات إيران الساسانية وتقاليدها، أو الروم الشرقية المتحضرة المتقدمة قبل الإسلام، ونتيجة لاستعمار

(١) من شر غاسق إذا وقب، ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد.

اليمن على يد الساسانيين، كانوا يعتبرون أنفسهم أكثر امتيازاً من بقية العرب، وكان شيوخ القبائل يظنون أنهم ارتقوا من البداوة إلى رقي الساسانيين والبيزنطيين وحضارتهم عن طريق إقامة صور كاريكاتورية ممسوخة ولا محل أو معنى لها من رسوم بلاط قيصر وكسرى ومراسيمها، أو بإقامة القصور العظيمة الاسطورية مثل الخورنق والسدير في دول فقيرة تقليداً لبلاط كسرى في المدائن، أو المظاهر البدائية المقززة.

أجل، كان أفراد هذا الجناح الثوري التقدمي الطليعي بالفعل مفكرين مستنيرين، وكانوا يعلمون أن لعبة العصرية والرقى غير صناعة الحضارة، وأن التحضر يعني موت الاستعمار في كل صوره العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية، أما العصرية فتعني لحماً جديداً لذئب الرأسمالية الأوروبية. كانوا يعلمون أن المتفرنج يعني شبه الأوروبي، ويعني: «الإنسان الذي أخلى الأوروبي باطنه من المحتوى الإنساني والفكري والشخصية الخلاقة، حتى يصبح من قمة رأسه إلى أخمص قدمه معدة مفتوحة وحلقاً مفتوحاً من أجل المنتجات الصناعية الحديثة في أوروبا وحينذاك يدهن هذا الجلد النتن، هذا «الرجيل» الذي صار دمية من الجص، وتوضع فوقه الملابس، ويعبأ بالحركات والسكنات المزيفة التقليدية الشبيهة بالـ «كليشيهات» والتي لا سابقة لها حتى في أوروبا حتى يظن أنه صار هو، بل وأحياناً ـ وفي مجال النقد ـ يصفونه بأنه أوروبي الظاهر وغربي ومقلد للأجانب، امرأة أو رجل يفكر كالأوروبيين، ويحس مثلهم، ويعيش مثلهم، ويقلدهم في كل شيء، ويقوم بنفسه

وأسرته ومجتمعه وحكومته بتقليد الأوروبيين. . . وأية أكذوبة، مثل هذا القرد الذي يبدو كالبشر، إلى هذا الحد نظيف ووجيه وعصري، من المستحيل أن يتذكر حين كان هو نفسه، كان على كل حال يعد بشراً، يعيش حياته ويصنع ويأكل ويختار، من المستحيل أن يعلم بسقوطه إلى مرتبة حيوان مقلد مفرغ من نفسه ومجذوب ومجنون ولحم أضحية ومستهلك فحسب لما يصنعه الآخرون، ليس هذا فحسب، بل إنه يهرب من ماضيه كارهاً، ويتجه بشوق إلى الحاضر، ولما كان الحاضر من صنع الأوروبي ومن عمله، يصير صيدا ابلهاً يسرع بقدمه نحو الصياد، ويقع في شراكه، ويصير مستأنساً: ليس عجباً أن يسرع الصياد في أثر الصيد لكن العجيب أن يسرع الصيد في أثر الصياد[١].

إذن، كان أعضاء هذا الجناح يعلمون أن طريق فلاح هذا الشعب ونجاته، ليس في البدء بإقامته التكايا أو إنشاد الروضة أو التعزية أو إقامة التمثيليات التي تصور مصائب آل البيت كما يقول «أشباه المتدينين السلفيين» ولا بمتابعة الألاعيب الأوروبية والمظاهر التي يقوم بها «أشباه المتحضرين العصريين»، وكانوا على وعي بأنه ينبغي أن يجتث الفساد من جذوره، وأنه ينبغي أن يسلك طريق واقعي للنجاة والتحرر، وأنه ينبغي تحديد الهدف الحقيقي من الرقي الاجتماعي. حسناً: ماذا كان الهدف من هجومهم؟ الاستعمار الأجنبي والاستبداد السياسي والاستغلال

---

(١) جدلية سوردل المعروفة في الرباط الثقافي والنفسي الخاص بالإنسان المبتلي بالاستعمار.

الداخلي؟ وبمعنى أكثر وضوحاً: النفط والشركة الانجليزية، والخانات والملكيات الكبرى والاقطاع المتعفن المتحجر الظالم، أما مجال الخطاب عندهم فهم الفلاحون والعمال وجماعات البروليتاريا وما دون البروليتاريا. لكن لا أدري لماذا قام هؤلاء ـ بالرغم من كل هذا الذكاء والنضج والمعرفة والتجارب التي استمرت مائة سنة ـ بدخول البيوت من غير أبوابها، أو بالتعبير الشعبي: لماذا أكلوا من أقفيتهم؟ أي أنهم كانوا يحملون اللقمة جيداً لكن بجهد ومشقة كانوا يديرونها من أقفيتهم إلى الطرف الآخر من وجوههم ويوصلونها إلى أفواههم، رأينا إذن أنهم حملوا اللقمة جيداً، وخلافاً لكل الجماعات التي سبق ذكرها، كانوا يعلمون أنه ينبغي عليهم وضعها في أفواههم، حتى تأخذ منها كل أعضاء البدن وخلاياه بقدر حاجتها القوة والحرارة والحركة، ولكن هذا الأسلوب في التناول المعكوس أو المقلوب أو من «اليسار» تسبب في أنهم بذلوا كل هذا المجهود وعرقوا وضغطوا على أنفسهم بصورة تهد القوي، ولم يبخلوا بأي جهد أو عمل متواصل، وبينما كانت اللقمة اللينة الدسمة الحاضرة لهم، كانوا يديرونها من خلف رؤوسهم حتى يوصلوها إلى أفواههم من الطرف الآخر، وكان هناك قط أسود يسير في ظلمة الليل كامن خلفهم، فقفز من الخلف وظفر باللقمة وأكلها وانصرف، وبقي «حضرات السادة» والمجهودات التي بذلوها دون طائل والعرق الذي تصبب منهم كما ينبغي، وبعدها فهمنا أنهم يسمون «اليسار» من هنا، وليس بمعناه المعهود، أي اليسار بمعناه

الفارسي[١] ولا بمعناه في الاصطلاح الفرنسي الذي بقى لنا تذكاراً من الثورة الفرنسية الكبرى.

هؤلاء اليساريون المعادون للاستعمار والامبريالية والاستغلال الطبقي وغيره، عندما بدأوا النضال لدعوة الناس ضد الخانات، كان أول ما فعلوه ان أمسكوا بخناق الله واقتصرت دعواتهم على عدم إثبات وجود الله ثم وعلى الفور امسكوا بخناق الروح، على أساس ان العلم اليوم لا يعترف بالروح، وبعدها أمسكوا بتلابيب الرسول والإمام والقرآن وعلي والحسين... ثم القومية والأخلاق، فالدين جاهلية قومية، وهو نتيجة لجهل البشر بالعلل المادية، وأن العلم صعد اليوم إلى السماء ورأى ألا إله هناك، وأن علم الكيمياء صنع المادة الإلهية وفهم ألا روح فيها، وان الفلسفة العلمية الحديدة ترى أن الدين باطل والإسلام والقيامة ضلال، والصوم والصلاة باطلان، والرسول والإمام عبث، والإسلام من صنع العرب، والتشيع تفسير من الإيرانيين، ودعكم من كل هذا الكلام، والأخلاق والشرف والتقوى والعرض والحمية والعفة والحلال والحرام... الخ كلها مجموعة من التقالد الاجتماعية وهي نسبية واعتبارية ووليدة المصالح والظروف الطبيعية، وأن مقولات الخير والضمير، والمقدسات والقيم الروحية والخصائص الإنسانية كلها خرافة، ولا يوجد شيء مقدس، وكل الأشياء متغيرة واعتبارية، أو بتحليل أعمق اقتصادية ومادية.

(١) المترجم: جب في الفارسية تعني اليسار، وتعني مقلوب ومعكوس.

والخلاصة، أبحاث فلسفية وكلامية من هذا النمط، وكلها موجهة إلى الفلاح القروي والعامل السوقي في مشهد وتبريز وأصفهان وقرى إيران. انظروا إلى كتبهم التي أرادوا بها منذ الوهلة الأولى إثبات رسالتهم الاجتماعية وقاعدتهم الثورية لشعبنا المسلم ذي الروح الاجتماعية الدينية، والحديث إليهم عن طريقها: «المادية الجدلية» و«العرفان وأصول المادية» و«الروح أيضاً مادية» و«المدارس الفلسفية في اليونان القديمة» و«الماركسية في علم اللغة» من تأليف الرفيق ستالين و«جدلية التاريخ» و«مقدمة في أصول الفلسفة» لجورج بوليتزر، وأمثال هذه المقولات... والنتيجة؟ إن الحكم العام الذي أصدره قومنا اعتماداً على أعمال هذه الجماعة وأفكارها: هؤلاء أناس بلا دين، أعداء الله والوطن والدين والأخلاق والقيم الروحية وكل المقدسات وكل المفاخر وكل التقاليد، ومخربون لكل الأحكام والعقائد وأعداء الله والقيامة والعرض والشرف والناس جميعاً والأشياء كلها، كل هدفهم أن يأخذوا منا ديننا، ويأتوا لنا بالإلحاد من الخارج عوضاً عنه، هكذا: وبناء على تفسير ذلك الخبيث المهذار الذي يفهم العامة جيداً، وكان أكثر علماً من كل هؤلاء الأتباع لـ «علم الاجتماع العلمي» ودعاة الأيديولوجية الشعبية، ومدعي «الشعبية» بنفسية هذا الشعب ولغته، وبلغ به الحال أن فسر كلمة «كمو» بأنها تعني «الله» ومن ثم فإن «كمونيست» أي شيوعي بالفارسية تعني لا إله.

لا شك أنكم سوف تضحكون من هذا التفسير العامي.

أجل، لكن: أليست الأرضية الأساسية لعملهم والمخاطب الأساسي عندهم ولأقوالهم هم أولئك العوام؟ والعوام تعني الشعب، تعني «دمو» تعني الفلاح والعامل والأجير والجماعات المتفرقة التي لا رأس لها من قدم ولا نظام فيها ولا تحديد لها، فضلاً عن أنهم عوام الإيرانيين وفي تلك الأيام كان تسعون في المائة منهم من الفلاحين القرويين، لا عوام الالمان وتسعون في المائة منهم من البروليتاريا التي تسكن المدينة، وعوام عصر الاقطاع والدين لا عوام عصر الرأسمالية الصناعية بعد قرنين من عصر النهضة وبعد قرن من الثورة الفرنسية الكبرى وبعد ثلاثة قرون من إحياء الروح القومية وعزل الكنيسة وانزواء المذهب من المجتمع. أين أنت أيها المفكر الملتبس عليه اليسار؟

ومن هنا ما كان يجري: انك عندما كنت تذهب إلى قرية «مؤمن آباد»، وترى عيون الشرطي والخان غافلة عنك، وتظفر بالفلاحين وهم جوار أكوام محصولاتهم ـ وإلى هنا وسيرك صحيح ـ وبعد بضع عبارات من إظهار المعلومات الفلسفية والموضوعات الفكرية العلمية الأيديولوجية العالية وذلك حتى يدركوا أوضاعهم ـ تقوم بتحريضهم وتعبئتهم، إلا أننا كنا نرى بالفعل أن فلاحيك قد جمعوا مناجلهم ومطارقهم، وبغضب وجلبة واستنفار أسرعوا خارج مزارعهم، يسرعون خلفك وأنت تسرع أمامهم، وكنا نراك تهرع إلى مخفر الشرطة (لكن) بعد لحظة ننتبه إلى أن الأمر... لا... إن الأمر مقلوب ومعكوس، أنهم قد تعقبوك، وأنك خوفاً من أن تمزق إرباً مثل المقانق تحت ضربات فؤوس حميتهم قد

ألقيت بنفسك بين أحضان أمان المخفر، حتى تبقى في أمان «الأمن» من «غضب الفلاح».

فمتى وجدت الفرصة لكي تقول لهم: إنك عدو للخان؟ إنك عدو للشرطة؟ ومتى وجد الفلاح الفرصة ليفهم أن إلحادك غير إلحاد ابن الخان العائد من أوروبا والذي يغافل أجراء والده ليسكر ويعربد بحرية؟ هل يمكن في مجتمع تقليدي وزراعي وشرقي وإسلامي أنك إذا بدأت بالله يمكن أن تمنح الفرصة أو تجد المجال لكي تتناول الخان بعد موضوع الله؟

وهكذا كان من أمر هؤلاء أنهم أضاعوا سنوات الحرب وما بعد الحرب في وضع الفلسفات والاحتجاجات الكلامية والمجادلات المنطقية والمنازعات العلمية والصراعات السوفسطائية، جاهدوا لإزاحة الله من القلوب ولم يكن لديهم الوقت لإزاحة الخان من القرية. وقد خدش إيمان الفلاح عندنا في ما يختص بالقرآن والصلاة وعلي، لكنه لم يع شيئاً عن واقعية الاستعمار ومعنى الاستغلال وفلسفة فقره وعبوديته. كتب الكتاب وترجم المترجمون الكتب والمقالات عن المادية والجدلية وعلم اللغة وحركة التاريخ ودحض نظرية بركلي وخرافة المثالية ونهاية الروح والله وأصول الأخلاق، لكن من بين مائة ألف أو يزيد من أنواع المجلات التي نشروها من أجل هذا الشعب بالفارسية، لا نشاهد ترجمة لكتاب «رأس المال»، ومن هنا لم يبق في أذهان عوام الناس عنهم إلا ذكرى لحفنة من الملحدين أعداء الله، ولا يزال مفكرونا على اختلافهم يجترون تلك المقولات نفسها التي

كانت قد هلعت وهربت منذ عشرين عاماً، ويستغلونها فحسب لإظهار العلم، وقد صكت مسامعهم أشياء مبعثرة وغير مترابطة، ومهترئة وغامضة وكلها مجردة وغريبة وملتبسة عليهم أحياناً عن أمور تتصل بشكل أو بآخر بالجدلية والمادية ودلائل دحض الدين ومبدئية الاقتصاد والبنية التحتية والبنية الفوقية الاجتماعية وغيرها، أما فيما يختص بالقضايا الأساسية والمباشرة من قبيل: كيفية إقامة المجتمع اللاطبقي والفرق بين الاشتراكية ورأسمالية الدولة والإنسان الكامل، والفرق بين النقابية والاشتراكية والطرق الممكنة للوصول إلى الاشتراكية والأسلوب الخاص للانتاج الآسيوي، والاغتراب في نظام الرأسمالية الصناعية والقيام بمسخ البورجوازية. . . فهم لا يعلمون شيئاً، وربما لم يسمعوا بأسماء بعضها، ولا يعلمون أن هذه المقولات مطروحة هنا بحيث إنني ذات يوم كنت أتحدث عن «الإنسان الكامل» وقام أحد هؤلاء المتعصبين بجهل للماركسية ونفرت عروق رقبته استعداداً للجدل، وأخذ يتشنج ويسوق أدلة عديدة في دحض هذه النظرية، وكنت بيني وبين نفسي أضحك مما يفعل، وأتحسر على أحوال شيخه المظلوم، ففي الحياة ليس العدو الحاقد المسلح بأخطر وأشد ضرراً للـ «شيخ» من مريد متعصب متفان لكن لا عقل له. وعندما طرحت قضية «الاغتراب» كان أغلب الماركسيين المحليين وثوريي أماكن التجمع يستقبلونها برفض وعناد، وكانوا يظنون أنني طرحت قضية دينية وصوفية، وأخيراً بعد أن أيدت من قبل المراجع العليا، خلوا ما بيني وبين ما أقول.

كنت أريد أن أقول: إن مرحلة سلوك الطرق الملتبسة قد انتهت الآن، وهي مرحلة طبيعية يمر بها كل إنسان في مسيرة رشده ونضجه، يقول علماء النفس: إن الطفل في بداية حياته يقوم بتصرفات عديدة جداً من أجل التعبير عن ظمئه مثلاً، ويطلق عشرات الأنواع من الأصوات ويحاول عشرات المحاولات اليائسة، وفي كل مرة يقلل من عدد حركاته وأصواته ويفهم بالتدريج عبثها ولا يكررها ثانية حتى يصل إلى مرحلة يختار فيها حركة واحدة أو صوتاً واحداً لبلوغ هدفه، كالبكاء أو الدق بقدمه على الأرض، ثم تقل الأصوات تدريجياً حتى ينطق بكلمة «ماء». وهكذا المجتمع مثلما عبر مراحل سلوك طرق ملتبسة لا حصر لها ومضحكة أحياناً من أجل إيجاد العلل العلمية لظواهر الطبيعة أو الإيمان بالله. وقام بالتدريج بتصحيح اختياراته وآرائه حتى وصل إلى التوحيد، أو عند تفسير ظاهرة المرض مثلاً: فهو يعلم اليوم أن مرضه من تأثير فساد طعام كذا وأن علاجه كذا، ولم يعد بعد يعتبر «يوم الاثنين» أو الثالث عشر من شهر صفر مذنبين، أو عين الجار الحسودة أو نظرة زوجة عمه الحادة أو القيام صباحاً من الجنب الأيسر. وفي المسيرة الاجتماعية أيضاً، تمر كل أمة بمثل هذه المرحلة، وإلى جوارنا أمم كثيرة مرت بالحكاية نفسها.

كان بطرس الأكبر مصلح روسيا الكبير يدرس في هولندا، وكان يرى عمران هولندا ورقيها ويحزن على خراب روسيا وانحطاطها، وكان يفكر ما العمل؟ وفجأة اكتشف أن السبب الرئيسي في نبض الحياة والعمل والحماس والثروة والعظمة

والتقدم في هولندا هو أن الرجال الهولنديين رجال منظمون وذوو شخصية ومتحضرون، لأنهم يحلقون لحاهم بالموس كل صباح ويعطون للنظافة أهمية كبرى، وعلى العكس فإن السبب الرئيسي في اضطراب الشعب الروسي وتأخره هو هذه اللحى نفسها الكثة الطويلة المدلاة حتى السرة والتي جاوزت في بعض الأحيان «أسفل السافلين». وبناء على هذا: عندما عاد إلى وطنه وتولى السلطة أصدر أوامره بأن تجتث هذه اللحى الخائنة عدوة الشعب من جذورها، وبدأت الحركة، وبدأ الجنود المسلحون بمقصات الحلاقين يطاردون الملتحين الفارين في الحواري والشوارع ويقبضون على هؤلاء الملتحين أعداء الثورة. واشتعلت نيران «ثورة اللحى» في أنحاء البلاد وبين كل الطبقات والطوائف الاجتماعية والاقتصادية والجماعات والعائلات والتجار والنقابات المختلفة من كل جانب وبدون تفرقة أو غش أو وساطة، بدون رحمة وبالمعنى الحقيقي لكلمة «بحسم»، وفي كثير من الأماكن المختلفة في الدولة، ومن قبل جماعات مختلفة رجعية جوبهت هذه الثورة ذات الجذور، التي وجهت نصل هجومها لا إلى الأغنياء أو ملاك الأرض أو ذوي الجذور أو رجال الدين أو القادة أو الأقوياء أو الساسة أو أصحاب الحيثيات بل وجهت فقط إلى أصحاب اللحى[١] بمقاومة شديدة، لكن في طريق الثورة الشاملة التي تجتث اللحى من جذورها والتي كانت تعبيراً عن الإرادة

---

(١) المترجم: يتلاعب المؤلف هنا بين لفظي ريشة بمعنى جذر أو أصل وريش بمعنى لحية.

الجبارة لشخصية الإمبراطور التقدمي العصري بطرس الأكبر، كان على روسيا أن تغير السحنة القديمة للمجتمع الرجعي في غمضة عين، وأن عليها أن تتحول من دولة متأخرة إلى دولة تدور في فلك الدول المتقدمة الصناعية في أوروبا الشمالية والغربية، ومن أجل ذلك ينبغي أن تتحطم كل عقبة، وقد تحطمت، وانتصرت الثورة، واجتثت اللحى، وتغيرت سحنة المجتمع التقليدية، لكن لم يتغير شيء.

في هذه الثورة فقد الشعب الروسي عدة فراسخ من اللحى، وفي مقابلها لم يحصل على شيء قط، ربما كانت النتيجة الواقعية والأثر العيني لهذه الثورة على اللحى من نصيب الشركات الهولندية التي كانت تصنع شفرات الحلاقة... فقط... والسلام، نعمة من الله.

المجتمع والتاريخ:

إنني أؤمن بأن كل مجتمع له أيضاً ـ كما يقول فرويد ويونغ بالنسبة للفرد ما يسمى باللاشعور. وهذا غير الوجدان الجماعي الذي يتحدث عنه يونغ بمعنى وبتعبير ويتحدث عنه دوركهايم بمعنى آخر وبتعبير آخر. إنني أتحدث هنا عن المجتمع ـ لا عن فرد اجتماعي ـ كشخص، وكموجود حي مفكر وواع وحساس وذي إرادة وإيمان وعاطفة خاصة به. وليس المجتمع تجمعاً من أفراد، بل هو مركب من عناصر فردية، وكما أن لكل تركيب صفاتاً وطعماً ولوناً ورائحة وخصائص فيزيائية وكيميائية مستقلة لا

توجد في أي واحد من العناصر التي دخلت في تركيبه، فالمجتمع أيضاً تركيب ذو خصوصيات وأحوال وقوانين وقواعد لا تصدق على أي فرد منه. فالأفراد في المجتمع، أي «الضمائر الفردية أو ذوات الوجود الفردي». لم توضع إلى جوار بعضها مثل المجتمع الموجود في صالة عرض سينمائي أو قاعة امتحانات أو تجمع حول حادث مرور مثل كومة من المحصول ليست شيئاً إلا بعض حبات القمح وبعض القش. ليس المجتمع مجموعة من الأشخاص، إنه نفسه «شخص»، إنسان والأفراد خلاياه، والإنسان الفرد غير الخلايا التي كونته، فالإنسان له حياته وماضيه وحركته وإحساساته ومميزاته التي تختلف وتتمايز عن خلاياه وعن أعضاء جسده، وما أقدمه تحت عنوان البنية الاجتماعية لا هو بالاقتصاد ولا هو بالسياسة ولا هو بالعقيدة ولا بالإرادة ولا بأي عامل آخر، لكن «البنية التحتية» لأي مجتمع عبارة عن تشكيل عناصره المادية وكيفية تركيبها والعوامل الروحية والمعنوية التي صنعت «شخصية المجتمع»، وكما أنه لا يمكن معرفة فرد ما بمعرفة مقدار ثروته ونوع عمله وشكل شغله ودراساته وماضيه وأصله وعقيدته وبيئته وإيمانه فقط، بل ينبغي أن توضع كل هذه العوامل في الشكل الكمي والكيفي لتركيبه واستخدامها لادراك «شخصيته»، هكذا المجتمع، سوف يكون الأمر سطحياً ومن جانب واحد أن نعتقد أننا عرفنا مجتمعاً ما بمعرفة تاريخه كما يقول التاريخيون، «أصحاب نظرية مبدئية التاريخ»، أو بمعرفة دينه وفكره كما يقول ماكس فيبر، أو بمعرفة

ثقافته في اتجاهها القومي كما يقول اشبنجلر، أو بمعرفة عرقه كما يقول الفاشيون، أو بمعرفة بنيته الاقتصادية كما يقول الماركسيون الانجليزيون أو الستالينيون، أو حتى عن طريق رؤية اقتصادية صرفة.

إن معرفة أي مجتمع تعني معرفة «الإنسان الأعلى» أو بتعبير أدق «ما فوق الإنسان» وما فوق الإنسان هذا، يعني المجتمع. وأليس من الأدق من الناحية العلمية أن نستخدم بدلاً من كلمة المجتمع، وأكثر ما تبادره إلى الذهن مفهوم تجمع الأفراد، أليس من الأدق أن نستخدم بدلاً منها كلمة «الجماعة»؟ خاصة وأن هذه الكلمة تستخدم بدلاً من كلمة المجتمع في ثقافتنا الإسلامية، مثل: يد الله مع الجماعة، الشاذ من الجماعة للشيطان كما أن الشاذ من القاصية للذئب. (أحاديث نبوية).

ولا شك أن العوامل التي صنعت شخصية الجماعة ليست إلا الطبيعة والعرق والاقتصاد والشكل الطبقي والجماعي والنظام السياسي والدين واللغة والفن وأصول الانتاج والتاريخ فيها، «وفي الوقت نفسه كل عامل من هذه العوامل لا وجود له في حد ذاته منفصلاً ومجرداً عن بقية العوامل... فالذي يكون أسرة ويصنعها مثلاً هو تاريخها وهو أيضاً دينها واقتصادها وبيئتها الجغرافية وهلم جرا»، لكن الشخصية على كل حال ليست واحداً من هذه العوالم، وهل حامض السولفريك شيئاً إلا الكبريت والأوكسيجين والهيدروجين وفي الوقت نفسه لا هو بالكبريت ولا الهيدروجين

ولا الأوكسيجين ولا حتى خليطاً من هذه العناصر الثلاثة[١]؟

وإنني أؤمن أيضاً بقدر التاريخ «الذي فسر خطأ بحتمية التاريخ في أن الحتمية déterminisme ليست جبراً سواء في اللفظ والمعنى بل هي تحديد وقدر». كما أنني أؤمن بعلم الاجتماع بمعنى وجود قوانين مسلم بها يستند عليها كل مجتمع، لكني في الوقت نفسه أعتبر تفسير كل مجتمع أو أمر اجتماعي أو تاريخي وتأويلهما على أساس القوانين الكلية والأحوال العامة لعلم التاريخ أو علم الاجتماع نوعاً من التعميم العام الخطر ونظرة كلية تؤدي إلى منزلقات بحيث يلطم أكثر من أي عامل آخر من عوامل المعرفة حقيقة مجتمع ما، وعلى وجه العموم يلطم العلم والبحث وكشف المجهولات الجديدة فيه، ويحول المفكر المستنير من مجتهد خلاق واقعي النظرة عميق التفكير مدرك للواقع باحث عن الوسائل، إلى مقلد واضع للعموميات ونمطي، وبدلاً من أن يترصد الحقائق المتنوعة والمتغيرة لبيئته وعصره، يقوم بتكرار ما

---

(١) هذه هي نظرية «الفردانية الاجتماعية» (في مقابل أنصار الفردانية الفلسفية والأخلاقية والنفسية وهي مقولة أخرى). وهي تخريف لدرجة أنها لا تستحق عرضها، ونظريتهم تشبه أن يدعي فسيولوجي عظيم أنه يعرف بيتهوفن مثلاً عن طريق معرفة الخلايا التي كونت جسده خلية خلية. وهناك أيضاً نظرية أصحاب النزعة المؤسساتية الذين يعتقدون بأن المجتمع عبارة عن مجموعة مؤسساته من قبيل الحكومة والدين والأسرة واللغة «كأصول أساسية» والبنك وديوان الوزارة والتأمين والبريد وصندوق التقاعد والمؤسسات الاجتماعية الأخرى «أصول فرعية» وتشبه أن يقول عالم عظيم في التشريح وعلم وظائف الأعضاء مدعياً: «إنني قد عرفت اينشتاين بتشريح أعضاء جسده».

هو مكرر واجترار أقوال القدماء، وفرض كل ظاهرة جزئية وتطبيقها واعتسافها وقياسها على كل الكليات، وبدلاً من أن يكون باحثاً واقعياً، يصير متكلماً أصولياً، ويبتلي نتيجة لذلك بالذهنيات عن غير وعي.

وهنا أيضاً تطرح قضية معرفة الفرد والقوانين العلمية لعلم الإنسان، ولا شك أن أفراد البشر يولدون طبقاً لقوانين البيئة الكلية والثابتة وقوانين الوراثة والنضج الخاص بمراحل العمر المتتالية والأصول الفيزيولوجية والنفسية العامة، وعليها أيضاً ينشأون ويتربون ويموتون لكن، طبقاً لهذه القوانين، لا يمكن أبداً أن تعرف شخصية فرد ما معين أو توجه أو تفسر، تلك الشخصية التي تشكل حقيقته الواقعية بدقة وشمول. فلينين وتولستوي وراسبوتين كلهم يتشابهون من ناحية البيئة والعصر والتاريخ والعرق والانتساب الطبقي والبيئة الجغرافية، كلهم ذوو «عناصر مكونة للشخصية الاجتماعية والفردية» واحدة ومشتركة، وفي الوقت نفسه كلها شخصيات غير متشابهة بل ومتناقضة.

إن ما أسميه الشخصية الاجتماعية أي شخصية مجتمع ما، هي من ناحية التركيب الاجتماعي أو تركيب مجتمع ما، ومن ناحية أخرى خصائصه التي تميزه وتميز وجوده عن المجتمعات الأخرى. ولا أريد أن أفعل مثل بعض المثاليين فأنسب هذه العوامل وأرجعها إلى عوامل غامضة أو ميتافيزيقية أو إلى المصادفة أو إلى الإرادة والأختيار، وأكرر على سبيل المثال قول بونتيير: «إن النبوغ شعلة غامضة محفوفة بالأسرار ولغز مجهول غير قابل للتنبؤ وأيضاً لا

يوصف» لكنها وليدة تلك «الكيفية نفسها من التركيب» التي مهما كان تفسيرها وتحليلها صعباً إلا أنه ليس محالاً، مهما لم نستطع علمياً بالمعلومات المتاحة.

ومن هنا فإنني مع إيماني بالوجود العلمي الذي يعرف بإسم التاريخ أو الاجتماع أي القوانين الثابتة والكلية التي يحيا المجتمع الإنساني على أساسها ويتغير، أعتقد أن تأويلها أي تطبيق هذه الأصول والمعايير الكلية الموضوعة سلفاً ـ ولو وضعاً علمياً[١] ـ على مجتمع ما في حالة جزئية، أو قضايا اجتماعية لفترة من التاريخ في مجتمع معين، يستوجب ألا نعتبر أن هناك أوجه نقص على الإطلاق أو بطلان فيما نسميه فلسفة التاريخ أو علم الاجتماع، لأننا افترضنا أنها قوانين ثابتة ومعايير حاسمة نقيس بها الحقائق والوقائع ونزنها بميزانها، وليس العكس كما هو مفروض، بحيث لا نصل أبداً إلى كشف جديد واستنباط قانون أو استنتاج دقيق لا ينطبق على تلك القوانين والقوالب، وكلما واجهنا ظاهرة عميقة جداً ولا سابقة لها، نقوم بتحريفها بشكل ما حتى تكون قابلة للتطبيق والتعليل مع موازيننا التي اعتقدنا فيها وآمنا بها آنفا.

وإن خطر الوقوع في الخطأ يكون أفظع حين نرى أننا ما زلنا

---

(١) هذا في حين أنني أؤمن مائة في المائة بصحة هذه القوانين والأصول الموجودة في فلسفة التاريخ علمياً، وهذه الثقة ليست خالية من الشك في سذاجة الظواهر والعناصر الإنسانية وسرعة تصديقها، والغفلة عما فيها من عمق مدهش وغموض وعدم قابلية للإحصاء وعدم ثبات، خاصة في شكلها الأكثر تعقيداً أي المجتمع والتاريخ. ومن هنا لا ينبغي الاكتفاء بتأويل القوانين والأصول الكلية وفرضها لعدم المسخ وعدم الغفلة عن الحقيقة الاجتماعية.

نستطيع الحديث عن علم التاريخ وعلم الاجتماع بصعوبة، ومهما كان أي مجتمع محدوداً، أو مهما كان فرد من الأفراد أو مصداق من المصدقات الأخرى «كلية» بمعنى المجتمع منطبقاً على الأصول الكلية لفلسفة التاريخ وعلم الاجتماع، فإنه هو نفسه وفي الوقت نفسه «شخصية»، ولمعرفته «علينا بعد أن نعتبر أحد الأفراد «كلية» باسم «المجتمع» أن نفسره هو الآخر «شخصية»[(١)] وهذا هو ما يقوله جورفيتش: «إنه لا يوجد شيء اسمه المجتمع بل توجد مجتمعات».

وقضية «البنية الفوقية الاجتماعية»، بالرغم من أنها صحيحة إلا أن وضعها وكيفيتها يختلفان، فليس المجتمع الإنساني بناء بسيطاً بحيث يوضع بناء اقتصادي أسفله، ثم تبنى من فوقه الأخلاق والدين والفن واللغة. . . الخ والشخصيات والفضائل والأفكار والعلوم و. . . وكل الوجوه المختلفة للروح الإنسانية الغامضة والأبعاد المعقدة للتجليات الاجتماعية، بل ان مجموع هذه العناصر تمزج فيما بينها بشكل ما ثم تبدو في صورة شكل أو جنس يشكل البيئة الاجتماعية، وفي الوقت نفسه فإن كل هذه العناصر تشكل مزاجاً وجنساً يقتضي ظروفاً خاصة ومتناسبة، بحيث إنه بعد معرفة هذا الجنس والمزاج، فإن كل شيء أي كل الوجوه والتجليات والحركات قابلة للمعرفة وقابلة للتحليل وعلى أساس ذلك قابلة

---

(١) كما أن علم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع وعلم الإنسان لا تغنينا من أجل معرفة شخصية ما فنية أو علمية أو سياسية عن عمل النفس الفردي ودراسة سيرته وخصائصه الفنية بل والفيزيولوجية.

للتعليل، بل ويمكن التنبؤ بالمستقبل والحدس بالنسبة له، والتدخل إلى حد كبير وباحتمالات قوية جداً، وهنا يمكن فضح قضية «التقوى» (العلموية) «تلك القضية الساذجة أو الخبيثة التي تريد أن تفصل العلم عن السياسة وعلم الاجتماع عن الأيديولوجية والتاريخ عن الالتزام والهدف، وهذا غير «العلم الملتزم» و«الفلسفة التقدمية» الموجودة عند جماعة هدفها ونتيجة عملها تحريف العلم وتحريف الفلسفة، هذه الجماعة التي اخترعت «العلموية الجديدة» لخدمة مدرسة عقائدية وأهداف اجتماعية حددتها[١].

(١) إن الحياد والموضوعية وتقديس حرية العلم أفكار ليست من أجل تنزيه العلم ولكن من أجل أن يخلص العالم بكرامة وعلم من ألم الرأس والالتزام والنضال اللازم للعقيدة ويفر منها.

موقعنا من التاريخ:

ما هو موقعنا من التاريخ؟

لقد تحدثت في هذا الأمر مراراً وتكراراً، وسألت بجدية شديدة المفكرين المستنيرين الصادقين من مواطني الذين يشتركون معي في الألم والاهتمام، كما سألت أولئك الذين يعيشون في الدول الإسلامية أو غير الإسلامية من دول العالم الثاني (الثالث سابقاً)[١]، هذا السؤال هو: ما هو موقعنا وما هو العصر الذي نعيش فيه؟ وليس هذا سؤالاً بسيطاً، ليس قضية علمية وفلسفية وتاريخية فحسب، إنها تضم كل هذه الجوانب.

(١) إن العالم الثالث ليس إلا مجرد ذكرى تاريخية، فلا يوجد الآن أكثر من عالمين، وما بقي كله اختلاف في الإسم والرسم والعنوان، واختلاف في العلم و«الألفاظ»، فالعالم هو عالم الراكبين المشاة أو الراكبين والمركوبين. فأولئك هم الأغنياء والأقوياء وأكلة السحت والرأسماليون وبائعو البضائع ومشترو المواد الخام ومحددو الأسعار والحدود والمصائر وموجدو الحوادث الجسام أو بعبارة واحدة «العالم الصناعي»، ثم عالم الركود والتقليد والاستهلاك والتبعية في الشكل والادعاء والنشيد والعلم، في السياسة والاجتماع، ينبغي أن يكون المرء واقعياً لا متخصص وضع أسماء.

وقبل أن نؤمن بمدرسة فكرية ما، وقبل أن نبدأ عملاً ما بداية صحيحة علينا أن نحدد في البداية. في أي مكان نحن من الأرض وفي أي عصر من الزمان؟ وقبل أن نعلم في أية مرحلة من مسيرة التاريخ، وفي أي منعطف من عصور التطورات الاجتماعية، يكون اتباع أيديولوجية ما تقدمية أو منحطة، صحيحة أو خاطئة، دينية أو مادية، تعصباً لا محل له بالمعنى الحقيقي للتعبير، ونتيجة لذلك فإن سلوك أي طريق ضلال، وترك للعمل السياسي والاجتماعي ووضع لمصير المجتمع والمنزل الأول للاصلاح والثورة تحت رحمة المصادفة والاحتمال، هو كتابة وصفة لمعالجة مريض لا نعرف عمره ولا مدة مرضه ولا نوعه بل ولا نعرف المريض نفسه على أي وجه، بل علاج كتب تقليداً لطبيب حاذق مجرب عالج في مكان آخر مريضاً آخر وكان علاجاً ناجعاً.

ربما تتعجبون لماذا أطرح هذه القضية الواضحة والبديهية هنا؟ الجواب: ذلك لأن مخاطب سان سيمون وبرودين وماركس وإنجلز حوالي سنة (١٨٥٠) لا يشبه في شيء قط مخاطب المفكرين المستنيرين الاجتماعيين في الدول الإسلامية حوالي ١٩٥٠.

أولئك المان وفرنسيون وانجليز، وهؤلاء إيرانيون وأفغان وترك وعرب... أولئك غربيون، وهؤلاء شرقيون.

أولئك ذوو رؤية غالباً ما هي قائمة على الحساب والمصلحة، ومنطلقون من مبدئية الكسب، وهؤلاء ميَّالون غالباً

إلى العاطفة وعباد للحقيقة ومنطلقون من مبدئية «القيمة» أولئك من البورليتاريا الصناعية وهؤلاء مزارعون قرويون وما دون البروليتاريا هناك شكلت طبقة العمال وشملت كل أعضاء المجتمع، واتسعت وتعمقت وغلظت وتكثفت واكتسبت ثقافتها ولغاتها وسماتها ورموزها وعاداتها، وهنا مجرد جماعات متفرقة وفي أركان مختلفة من العمال الصناعيين، وأفرادها في الغالب الجيل الأول من العمال، وكانوا من قبل فلاحين أو عمالاً زراعيين هاجروا إلى المدينة.

هناك بلغوا مرحلة الصناعة الثقيلة، وهنا لا يزال معنى الصناعة عندهم معنى استهلاكياً وأغلبه «رمزي»[١]، وهم يبررونه ويتجهون فيه وجهة غربية واستيرادية، وأحياناً توجد بضع مصانع للتجميع أو الإنتاج الجزئي الحقير للسلع الاستهلاكية قليلة القيمة. هناك انتقلوا من البورجوازية إلى الرأسمالية ثم من الرأسمالية إلى آخر مراحلها أي الإمبريالية والاستعمار، وتطوروا من مرحلة تصدير السلعة إلى مرحلة تصدير المصنع بل وأحياناً تصدير رأس المال. أما هنا فالبورجوازية الجديدة لاتزال في مرحلة «السمسرة» يقوم بها عدد من وكلاء البيع المتعاقدين مع الشركات الغربية.

هناك، أدت الليبرالية والديمقراطية لعدم تآلفهما الفطري مع

(١) الاستهلاك الرمزي: الموبيليا والتلفزيون وشاطىء البحر والموسيقى الغربية وأعياد الميلاد والذهاب إلى قاعة الرودكي للموسيقى... وهو بالنسبة للكثيرين منا ليس استهلاكاً حقيقياً، إننا نحس فيه فحسب بأوجه اشتراك مع البشر الأعلى في الغرب الذي نحس باحتقاره لنا في داخلنا.

الرأسمالية إلى أنواع الفاشية، وأصبحت الحرية عندهم تعني حرية التجارة وحرية رأس المال غير المقيد والتحرر من القوانين والقيود الجمركية. أما الحرية هنا فذات مفاهيم مفعمة بالحياة والثورة أخلاقية وإنسانية ومطالبة بالعدالة ومقدسة.

هناك: تركوا القرون الوسطى خلف ظهورهم منذ ثلاثة قرون، وهنا لا يزالون يعيشون في معمعتها.

هناك قاموا بالثورة الفرنسية منذ قرنين، أما هنا فلا تزال ترجمة «روح القوانين» لمونتسكيو كتاباً جديداً وعميقاً ومكتشفاً بالنسبة للعلماء والمفكرين المستنيرين، أما دائرة معارف فولتير، فلم يسمع عنها أحد شيئاً.

هناك قاموا بالثورة الصناعية منذ قرنين في إنجلترا، وأصبح شعارهم الآن «الموت للآلة» تضامناً مع العمال، وهنا بعد قرنين: إدخال الآلة يعني آلات من صنع أوروبا ومن تخريب هنا وأمل العاطلين: مجيء الآلة.

هناك: المتعلمون أناس ذوو وعي اجتماعي ورؤية نقدية وفكر وأيديولوجية وتعاطف مع الناس وسلوك مضاد للارستقراطية ومضاد للبورجوازية وعواطف عالمية إنسانية بدرجات متفاوتة، وهنا: المتعلمون أشخاص يذهبون إلى الجامعة عدة سنوات ويعودون منها، ويمتحنون تبعاً لذلك ويأخذون التقديرات طبقاً لحضورهم، ويأخذون شهادات الفراغ من الرسائل المملاة و«إبدال النسخ المطبوعة إلى نسخ مخطوطة أو مصورة»، وبها يدخلون في

خدمة الحكومة، ويشتركون في المحافل والمدارس الخاصة المقتصرة على الأصدقاء والرفاق يتبوؤن المناصب ويقبضون النقود، ويحلون محل «السادة الحجاج» التجار السابقين واليهود الأسبقين والأشراف المفلسين القدماء[١].

هناك يحيا أستاذ الجامعة إنه أعلى مقاماً وأشرف من الجنرال «ديجول»، وهنا يرضى حتى بتعيينه في «الرئاسة العامة للأمور المتعلقة بحفظ الأموال والأثاث والإشراف على نظافة الأماكن الخاصة في الكلية.

هناك يقرأ كل فرد عادي كل يوم شيئاً في المتوسط ما هو مقداره أحد كتب الجيب في سلسلة «ماذا أعلم»، وهنا يقرأ كل إيراني سنوياً ما يستغرق ثلاث ثوان ونصف من وقته، والرجال الفضلاء الجامعيون والمفكرون المستنيرون فيه أيضاً يقرؤون «زن روز» و«بر سردوراهي: في مفترق طريقين».

هناك بلغت الثقافة العامة مستوى بحيث يعتبر نتاج ثماني وعشرين سنة من البحث لنابغة مثل ماسنيون عن «سلمان الفارسي» مجرد محاضرة بالنسبة للطالب الفرنسي، وهنا تعد ترجمته الفارسية

---

(١) أحياناً يقوم طبيب صحة في القرية وحده برسالة أربعة من المستخدمين التقليديين أي: الخان والاخوند «رجل الدين» والشرطي والسارق المسلح، يقوم بها على أكمل وجه بل يزيد. وقبل ظهور هذه «الطبقة الجديدة» كان كل منزل ملفت للنظر أو حديقة عامرة أو عقار غال على ناصيتين تراه وتسأل عن مالكه، كان الرد: ملك الحاج فلان أو الخان فلان أو اليهودي فلان، أما الآن فيقولون: ملك الدكتور فلان أو المهندس فلان، انظروا إلى الأحياء الجديدة في طهران.

بالنسبة للإيرانيين الفضلاء المسلمين الشيعة، نصاً غامضاً وغريباً وغير مفهوم، ولا يهم أحد من العلماء المهتمين بالقديم والجديد[١].

هناك: سقط الدين عاجزاً مقعداً منزوياً في أركان الكنائس، ولا يقوم معارفه القدماء بزيارته إلا في أيام الآحاد، وهنا يدق نبض المجتمع على أنغامه، وبدنه مفعم بحرارة الإيمان، وتعداد الشهداء الذين يقدمهم يومياً يتجاوز تعداد مجموع الأرقام التي تقدمها كل الأيديولوجيات غير الدينية في النصف الأخير من هذا القرن.

هناك يستطيع أهل الخير من الأفراد والجمعيات الخيرية والأوقاف غير الدينية أن يقفوا على أقدامهم أمام رجال الدين والأوقاف الدينية والجمعيات الدينية وينافسونهم أما هذه الأمور هنا فهي مائة في المائة دينية، فالأوقاف قاصرة على الدين، أما المستوصفات الخيرية فأكثريتها الغالبة دينية بالرغم من أنها لم تبدأ إلا منذ عشر سنوت إلا انها أكثر من مجموع مستوصفات جمعية الأسد والشمس الحمراء الإيرانية «الهلال الأحمر الإيراني» ووزارة

---

(١) اللهم إلا إذا كان المرحوم العلامة تقي زاده قد وفق في ترجمته حينذاك كنت ترى أي سباق أحتدم بين أدبائنا وفضلائنا ومحققينا العميقين ذوي الوزن حول تقريظ مقام المترجم وتقدير مثل هذه الترجمات وتقديس مثل هذا المتن وتعظيم مثل هذا المؤلف، وتكريم. . . وجوائز وأية شروط وأية أوصاف وأية تحليلات دقيقة ومناقد موضوعية علمية غير مغرضة من أجل العلم في حد ذاته وقيمة البحث، لكن: عندما يأتي شاب غريب ومغمور فيقوم بهذا العمل الذي كان من المقرر أن يقوم به الأستاذ العلامة وزعيم الحركة الدستورية، لا ينشر حتى خبر صدوره في فهرس الكتب التي نشرت في إيران ١٣٤٤ هـ ش.

الصحة ومؤسسة الخدمات الاجتماعية كما وكيفا، وفي مقابل كل هذه المؤسسات الخيرية والأوقاف العامة والنذور والصدقات وغيرها، فإن للعصريين العلمانيين فقط نادي الأسود «ليونز» (الأشبال) ونادي آخر أصله في أمريكا لا يحضرني اسمه.

هناك: لا تزال الزراعة فرعاً للانتاج الصناعي، وهنا على العكس تماماً.

هناك: المزارع والقرى أقمار للمدن تدور في فلكها، وهنا لا تزال المدن طفيلية على القرى أو كما يقول السيد المهندس بازرجان: مستهلكة الخبز والنبوغ وما سختهما، وكلاهما تنتجه القرية.

هناك: يعتبر الماضي مجرد ذكرى محترمة وعصر تاريخي، أما هنا فالماضي في حال الحضور دائماً والكلاسيكية حية ذات تيار وحركة وهي العصر الذي يعيش فيه قومنا.

هناك: تعيش الأغلبية عصرها وينطبق الزمان الاجتماعي عندهم مع الزمان التقويمي، وهنا: أفراد معدودون فقط وبصورة فردية يعايشون عصرهم، وفي الحقيقة فإن القرن العشرين بالنسبة للأغلبية عبارة عن «خبر أجنبي» أو رقم فلكي ورياضي.

هناك: المفكرون المستنيرون على علم بأقوامهم ومجتمعاتهم وثقافتهم، أما هنا فمجرد أشباه لهؤلاء غرباء عن أقوامهم، وأقوامهم في دهشة يتساءلون: من هم؟ وماذا يقولون؟ وماذا يريدون؟ وفي أي شيء يفكرون؟ وبأي لغة يتحدثون أصلاً؟

أولئك: يعود تراثهم الفكري إلى أرسطو وحتى ديكارت، أما ماضينا فيعود إلى إبراهيم، وبوذا وزردشت وموسى ومحمد وعلي وحتى أبي علي بن سينا والغزالي وحافظ ومولانا جلال الدين ونانك وداراشكوه وملا صدرا[١].

بورجوازيوهم مفكرون تقدميون عصريون مضادون للكنيسة وثوريون مطالبون بالحرية، ومن أعمالهم الثورة الفرنسية الكبرى، أما بورجوازيونا الكلاسيكيون فهم عبارة عن السوق وهو عبد مطيع للمسجد، وبورجوازيونا العصريون في استسلام كامل للشركات الأجنبية. المرأة العصرية هناك ثمرة للحرية ودليل على تقدمهم، وعندما يقومون بإحصائهن يقومون بذكرهن ضمن الشهداء الذين قدموهم في حركة المقاومة ضد احتلال باريس على أيدي النازيين، وضمن الأساتذة والكتاب والمترجمين وعلماء الموسيقى وقادة الأوركسترا والمكتشفين والمخترعين والمناضلين الاجتماعيين والسياسيين والقائمين بخدمة البشر وأمور وتخصصات من هذا القبيل، أي الجهاد في المشاركة الفعالة بأكثر ما يمكن من المفاخر التي كانت في الغالب قاصرة على الرجال، أما المرأة العصرية هنا فإن الإحصائية الوحيدة التي تقدمها كدليل دقيق لمعدل التقدم

---

(١) المترجم: حافظ: هو حافظ الشيرازي الشاعر الفارسي المتوفي ٧٩١هـ، ونانك: هو مؤسس طائفة السيخ أو السك في الهند وهي من نتاج امتزاج الإسلام ببعض النحل الهندية وداراشكوه: هو محمد داراشكوه أحد الأمراء المغول المسلمين في الهند، كان مفكراً باحثاً في الأديان وحاول القيام بحركة فكرية للتآلف بين الأديان الهندية والإسلام للوصول إلى نوع من الامتزاج في الهند، وملا صدرا: هو محمد بن إبراهيم الشيرازي الملقب بصدر المتألهين وهو أحد الفلاسفة الإيرانيين العظام.

والتطور والحرية لديها، وأكثر الأناشيد الحماسية التي ينشدنها إيقاعاً، ويعتبرنها، من الانتصارات التي اكتسبنها في طريق الحرية والتقدم إنه[١] منذ سنة ٣٦ (٥٧) حتى الآن ٤٦ (٦٧) وفي فترة لا تزيد عن عشر سنوات تضاعفت مؤسسات التجميل والزينة وبيع لوازم الزينة والرموش والأظافر الصناعية في طهران خمسمائة ضعفاً، واضاء الله عيون الرأسماليين أصحاب مؤسسات مرجريت دي ستور وكريستيان ديور وميزون دي فام[٢].

هناك يدور الصراع بين القديم والجديد والكلاسيكية والعصرية حول الفكر والعقيدة والرؤية الكونية والاحساس بالطريق

(١) ناهيك عما «أعطي لها» ولن أتحدث عنه، فان ما يؤخذ هو المعيار لا ما يعطى. سوف تعترضون قائلين: أليس الحق الذي يعطى لفرد أو لجماعة في حد ذاته دليلاً على أنه جدير به وخليق باكتسابه؟ أي سؤال هذا؟ إنكم ترون أن الأمر ليس هكذا، الجواب نظرياً على ذلك بالإيجاب أما عملياً فهو بالسلب. والحقيقة أحياناً لا تنطبق على الواقع، فحرية الرأي ليست في الغالب مقرونة بحرية إبدائه أو حرية التصويت، فما أكثر أصحاب الرأي الذين لا يستطيعون إبداء آرائهم، وبالعكس ما أكثر الذين يستطيعون إبداء آرائهم لكنهم لا يبدونها، وسوف تسألون: في النهاية إذا لم يكن لأحد رأي فما الذي يستطيع إبداءه؟ والجواب على حد قول المرحوم نيما يوشيج «في النهاية ليس لكل سؤال جواب».

(٢) هناك مبدأ في علم النفس الاستهلاكي اسميه «تداعي الاستهلاكات»، أي أنه إذا استدعى الأمر استهلاك نوع من السلع الاستهلاكية، فإنه يجر معه استهلاك نوع آخر. اجعل مثلاً عاملاً يستخدم ربطة عنق، فإن ربطة العنق هذه لن تأخذ وحدها بخناقه. وبسرعة شديدة سوف يصطحتب معه ياقة منشأة وقبعة أوروبية وسترة وسروالاً وجوربا وحذاء مناسباً، وبسرعة شديدة سوف يبعد رباط العنق الغليون الشعبي عن يد صاحبه ويوقعه في تدخين السجائر، وعلى الفور يصل دور السيارة... والأثاث. هذا الرقم هو تضاعف استهلاك أدوات الزينة إلى خمسمائة ضعف دليل على تصاعد السلع الاستهلاكية الأخرى وهو مخيف إذا قورن بمعدل ارتفاع الدخل القومي.

واختياره وأسلوب الحياة والرؤية الدينية والسياسية والفلسفية والعلمية والذوقية وتذوق الفنون، أما هنا فتدور حول المحافظة على الحجاب والملاءة من ناحية، ونبذ السروال القصير وحمالة الصدر من ناحية أخرى، ففي صف: يقف الوفاء للحى والشيلان والسراويل الشعبية والكرسي وإبريق الماء... الخ، وفي صف: التظاهر بإزالة اللحى، وإطالة الشعر، والانسجام الاجباري مع الموسيقى الأجنبية غير المفهومة وغير المأنوسة ونسيان بعض الألفاظ الفارسية والعبارات المتداولة في اللغة الأم بينما كانت لغة حديث لمن يدعي ذلك طيلة ثلاثين سنة، وذلك بعد التجول عدة شهور حول السين والتايمز ومشاهدة ميدان الإوتوال وبرج إيفل ورؤية الأجانب، ونبذ سجاد كاشان وكرمان من قلة الحيلة من أجل إسم «الموكيت» ورسمه(١)، واعتبار البزة الأصفهانية المسماة بالترمة والتي تعمي عينا فنان في رسمها مجرد (بقجة) حمام فظة وثقيلة، وإزالة اعمال الجص المعجز في ضريح «شيخ جام» بدعوى أنها أصبحت قديمة، وتغطيته بالموزايكو الصناعية، ثم تزيين الجيد بالخرز البدائي ووضع «عراقة» الحمار على جدار الصالون الفخم كديكور عند أفراد هذا الصف من العصريين المعاصرين مستنيري الفكر وأشياعهم، ثم الاهتمام الفجائي عن طريق النقطة الرابعة لترومان ببضائعهم القديمة الجميلة الكلاسيكية، وتقليداً للرسالة العملية للمليونيرات الجهلة الذين يدعون الإحساس

---

(١) فرش مجلس شيوخ إيران ـ مركز السجاد في العالم ـ بسجاجيد من صنع إنجلترا.

من الأوروبيين ونساء الجاويشات الأمريكان والمقاولين الأوروبيين والمتشردين الجهلة الذين صاروا إكراماً لشعرهم الأشقر وعيونهم الزرقاء ولكنتهم الأوروبية اقطاب الفن وحجج الفهم والمراد وأصحاب الفتيبا في الفكر عند قرودنا الملمعة الجديدة يقومون بشراء تماثيل النحاس المصبوب التي يقوم الاصفهانيون الخبثاء بصبها وعليها صور رستم واسفنديار وبعض الخطوط كيفما اتفق وعرضها على السياح ـ الذين يعرفون الشرق بقدر ما يعرف عصريونا الغرب ـ على أساس أنها آثار شرقية قديمة، يقومون بشرائها وتعليقها على حيطان المنزل، واعتبار الأغنية المبتذلة السوقية «بانو» للسيدة دلكش فنا إيرانياً محلياً كلاسيكياً أصيلاً، ثم إبراز السعادة والسرور ـ مصلحياً ـ من أجل كل هذا، وكأن الواحد منهم يريد بهذا أن يقول: «إنني ـ بالرغم من أن بضع نفر من أقاربي ومعارفي قد سافروا إلى الخارج وبالرغم من أنني نفسي درست لغة أوروبية عبارة عن سبعة دروس من «در اشبيجل» ـ ما زلت احتفظ بأصالتي، وخلافاً لكل هؤلاء الذين فقدوا أنفسهم وأصيبوا بداء الاستغراب بقيت إيرانياً خالصاً أحب ثقافتي الأصيلة!! ولعله بذلك يمنن فرانز فانون وإيما سيزار وسوردل وعمر مولود ونيريري وكاتب ياسين وموريس دي باري وحتى على قورش ودارا وكيكاوس وجمشيد ورستم والجميع لأنه بدلاً من أن يأكل الطعام الأوروبي مثل الجيجو والراجو والشاتوبريان والبفتيك والأستروبيف لا يزال يحب لحم الرأس والأكارع وأحياناً يأكلها مع «الويسكي» في الحفلات، وبلغت به القومية والأصالة والعودة إلى الذات

ومناضلة الغرب والاستقلال في الذوق والفكر والفلسفة أنه مواجهة للحضارة الأوروبية المحيرة اليوم قد بلغ حداً جعله مستعداً للجلوس مستدفئاً بواسطة «الكرسي» بل إنه يفعلها أحياناً، بل وينوي في السنة القادمة أن يضع في غرفة جلوسه «كرسياً» يعمل بالكهرباء، وأن تدخن زوجته في السهرات الغليون الشعبي.

هناك: يوجد أساس ثقافي عقلاني ومادي ومؤسساتي وميال إلى العينية وعابد للكسب ويوناني، وهنا: يوجد أساس ثقافي روحاني معنوي جماعي ميال إلى التجريد والذهنية عابد للقيم.

هناك يتعاملون مع دين هو دين العبودية وتبرير الضعف والفقر والزهد والأمر بتقبل القتل، ومظهره الصليب، يعني أداة القتل لنظام من صنف نظام القيصر، وهنا دين يدعو إلى العزة والجهاد والقوة والتمتع أيضاً بالمادة ويأمر بالقصاص، يبدل بسرعة شديدة فئة من الأذلاء المتفرقين إلى قوة مهاجمة طالبة للعدل وتدعى القيمومة على الدنيا ومظهره السيف، السيف والكتاب.

هناك: يضحي شهيدهم المسيح بنفسه لحسابات غرامية وخاصة بينه وبين الله، أما هنا فمسيحهم يستشهد في انتفاضة ضد الظلم ومن أجل تحرير الناس، والخلاصة أن قاتل شهيدهم هو الله، وقاتله هنا هو يزيد، ومن هنا يقدسون هناك المشنقة (الصليب) الذي صلب الجلاد مسيحهم عليه واختاروه رمزاً مقدساً لدينهم، وهذا أمر مخيف بالنسبة لشيعي ولا يصدق، وفي الوقت نفسه دال على السذاجة المتناهية التي يتصف بها خراف السيد المسيح،

ويشبه مثلاً أن يقوم شيعي بتعليق سيف شمر على صدره وتقبيله ونصبه فوق حسينياته وتكاياه، وبدلاً من «ذي الفقار» سيف سيدنا علي، يجعل رمزه الديني السيف المسمم لابن ملجم[١].

هناك: يعيش إمامه (البابا) في بلاط يخطف أبصار رئيس الولايات المتحدة، ويلبس قطيفة يذوب منها قلب اليزابيت تايلور حسداً ويتمتع بثروة تجعله يشفق على فقر أوناسيس، وهنا: يموت آية الله البروجردي مدينا وفي منزل شديد التواضع، ويعتبر حاجي شيخ عبد الكريم مؤسس المركز العلمي في قم حساء اللحم كل ليلة من قبيل الإسراف[٢].

هناك: يعتبر رجل الدين طليعة الاستعمار ورائده، وهنا: ضحية للغرب والاستعمار وطليعة كل الحركات المضادة للاستعمار.

هناك: للكاردينال مقام يهبط تماماً فوق رؤوس الخلق، وهنا يخرج رجال الدين من بين الناس، وينتخبهم الناس، وهم أحرار في قبوله.

هناك: الكنيسة مخدع للروع واستراحة للمؤمن: وهنا:

---

(١) ابن ملجم قاتل الإمام علي(ع)، وشمر بن ذي الجوشن قاتل الحيسن، وذو الفقار سيف الإمام علي.

(٢) آية الله البروجردي مرجع الشيعة الأعظم واستاذ آية الخميني وحاجي شيخ عبد الكريم الحائري مؤسس المركز الديني في قم ١٣٤٠ هـ. واستاذ آية الله الخميني. المترجم.

المسجد! اللهم إلا إذا لم يكن مسجداً، كان المسجد منبع كل الثورات والحركات والانتفاضات الشعبية.

هناك: يتحدثون عن الشراب الذي يصير دماً، وهنا يتحدثون عن الدم الذي يصير ناراً. هناك يعظ بولس الرسول قائلاً: ابحثوا عن الله في الجوع وأشكروا من يخطف خبزكم لأنه قد أجلسكم على مائدة العشاء الأخير إلى جوار الهنا المسيح. وهنا يصيح أبو ذر باستنكار غاضب: عجبت لمن لا يجد قوت يومه، كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه؟ ويعلن رسوله بحسم «من لا معاش له لا معاد له».

هناك: الارستقراطية ذات جذور ونظام طبقي شديد واقطاع متقدم، والدين هو البنية التحتية لهذا النظام الاجتماعي، وهنا: الارستقراطية لا جذور لها، ودائماً ما هي حديثة الظهور، ولم يكن الاقطاع موجوداً في الأصل، وبدلاً منه كان هناك نظام إنتاجي يسميه ماركس نفسه «نظام الانتاج الآسيوي» وليس إقطاعاً. والدين دائماً ما كان في صدام فكري وأحياناً عملي مع أخلاق الارستقراطية وتكون الطبقات.

هناك: كانت العبودية تصنع طبقة واسعة اجتماعية، وكانت أعظم قوى الانتاج، بل وكانت موجودة إلى قرن مضى «في روسيا إلى قبيل ثورة اكتوبر»، أما هنا: فقد قام الإسلام بإيجاد جو لا يساعد على ظهورها من الناحية القانونية والاقتصادية والأخلاقية والاجتماعية والفكرية بحيث جفت جذورها، وعندما ظهرت ثانية

في عصر المغول لم تتشكل أبداً في صورة طبقة اجتماعية وقوة منتجة، وفي الغالب كانت ذات طابع رفاهي وللخدمة، وتثبت الثقافة الإسلامية ويثبت الرجال المسلمون المشاهير، أنه في ظل الثقافة والتعليم والتربية الحرة الإسلامية كيف كان العبيد يستطيعون بأسرع ما يمكن نيل حريتهم، والبلوغ بأنفسهم مستوى الشخصيات البارزة، بل والقيام بأعظم الأدوار العسكرية والسياسية والعلمية خاصة في المجتمع، ومما هو مثير للدهشة أنه في أوج ازدهار الحضارة الإسلامية وعالمية القوة الإسلامية نرى أن أكثرية المواهب العلمية والفقهية والمناصب القضائية والدينية وحتى الإمامة في العالم الإسلامي العظيم تبوأها الموالي، بدرجة تبين أن عهد إزدهار الإسلام، هو عهد التفوق الفكري للموالي على العرب.

هناك: عندهم حكومة ديمقراطية منذ ثلاثمائة وألفي عام، وفلسفة سياسية مستندة على الشعب وسيادته والسلطة اللادينية والروح القومية والرؤية الكونية والفلسفية المادية ونظام إداري مدني «بوليتيك»، وهنا: بعد ثلاثمائة وألفي سنة لا تزال الديمقراطية كلمة أوروبية غامضة، والفلسفة السياسية قائمة على سيادة «الزعيم»، ومنبع السلطة «من فوق» وذو صبغة دينية، والروح القومية غالباً ما هي تحت سيطرة الإيمان والدين، والرؤية الروحية، والعالمية المادية ذات مفهوم ممتزج بالكفر وملوث بالفساد، والنظام في الدولة قائم على الزعامة والسياسة «لا إداري».

هناك: عندهم قانون، وهنا: عندنا حكم.

هناك: حكيم، وهنا: رسول.

هناك: عبادة الواقع، وهنا: عبادة الحقيقة.

هناك: عالم الغيب هو الجار اللصيق لعالم المادة، والآلهة يسكنون فوق قمة جبل الأوليمب وفوق جبل البرناس، وهنا: الغيب بعيد بمسافة الأبدية، والله في العرش الأعلى وملكوت الجلال والجبروت اللامتناهي والاحساس الديني والقدسية الغيبية والسرية المطلقة التي لا تنالها يد والمسيطرة على الوجود.

هناك: العلاقة بين الإنسان والآلهة هي العلاقة بين الإنسان والأبطال، وفي ألطف حالاتها هي العلاقة بين العشق والجمال، وهنا: في أكثر حالاتها عادية علاقة بين ما هو صغير إلى ما لا نهاية وما هو عظيم إلى ما لا نهاية.

هناك: تنزل الآلهة إلى الأرض بسرعة وبساطة وتتشكل في شكل الإنسان وصورته، وهنا يصعد الإنسان ببساطة وسرعة إلى السماء ويعتبر لاهوتياً وما وراء مادي ومخلوقاً متألها وما فوق إنسان.

هناك: يتعب الدين من نوع المناقشة بين البشر والآلهة، وهنا: يفيض الدين بالرحمة والمحبة والغفران والعفو.

هناك: كان بروميثوس المحب للإنسان يسرق النار الإلهية من السماء وفي غفلة من الآلهة يأتي بها إلى الأرض، وهنا كان الله نفسه يسلمها جبريل ليودعها أحد الأفراد العاديين بل والأميين من البشر ليقدمها هدية إلى قومه ويحض البشرية على قبولها بتعيين

الثواب والعقاب. . . وهناك يقوم زيوس بعقاب بروميثيوس على إتيانه بهذه النار المقدسة الإلهية بشدة إلى الأغلال والحكم عليه بالنفي والعذاب وصب الغضب عليه والعقاب، وهنا: يقوم أعداء الله وهم من نوع الإنسان ومن أصدقاء إبليس بتعذيب بروميثيوس عن طريق إلقائه في نار النمرود وقتله بالصلبان القيصرية وحبسه في جبال القفقاز وشعب أبي طالب والحكم عليه بالتعذيب والنفي والطرد من قبل القوى البشرية الجاهلية: القوة والذهب ومذهب الليل والشتاء، أعداء النار الإلهية ومشعلي نار النمرود.

علم الاجتماع أو علم التاريخ؟

إن تفسير المجتمع كـ «شخصية» يقضي على التناقضات الموجودة بين أنصار الفردية وأنصار الاجتماعية الذي كان رائجاً في القرن التاسع عشر، وعلى الحرب بين علم النفس وعلم الاجتماع الذي حل محله الآن، وأيضاً الهجوم والصراع بين المعتقدين في فلسفة التاريخ من الأوفياء لمدارس القرن التاسع عشر الفكرية ومخالفيهم الذين صاروا أقوياء جداً في ميدان علم الاجتماع الجديد، ويعتبرون أن طرح أي قانون أو قاعدة بالنسبة للتاريخ، وتحديد مسير له أو مرحلة أو التنبؤ بمستقبل على أساسه من الأمور الوهمية، وهذا التفسير يقضي بطريقة حاسمة على التناقضات والصراعات بين أولئك الذين يجاهدون بما يملكون ويسمى بالقوانين العلمية لعلم الاجتماع والمبادىء المسلم بها لعلم التاريخ وفلسفته التي يؤمنون بها أو عن طريق معايير عامة ومطلقة من قبيل «الاقتصاد» و«الفقر والعشق» و«الحاجة المادية والنضال ضد الطبيعة

من أجل الحياة» أو مبدأ «الهجوم والدفاع» و«الغريزة» أو «الاتفاق» أو «المذهب» يحاولون تفسير المجتمع كل مجتمع أو فترة تاريخية أو ظاهرة اجتماعية أو حادثة اجتماعية أو تطور اجتماعي أو سياسي وتحليلها أو في الحقيقة تبريرها وتأويلها على أساسها، وأولئك الذين لا يؤمنون بأي قانون أو ناموس بالنسبة للتاريخ والمجتمع البشري ولا يهتمون به، ويعتبرون التاريخ على حد قول كارليل من صنع إرادة الأبطال، أو ينظرون إلى المجتمع ـ لا كوجود مستقل وحقيقة حية واقعية ـ بل كتجمع من الأفراد، ويعتبرونه أمراً «اعتبارياً» ويقولون بوجود «مجازي» بالنسبة له، ويعتقدون أن المجتمع مجرد إسم أو مفهوم أو أمر مجرد.

ومن جهة، فإن القضية الأساسية جداً المطروحة اليوم هي عجز أو على الأقل ضعف فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع المشهورين في القرن التاسع عشر أي الماركسية الكلاسيكية في تحليل كثير من الحقائق التاريخية، لأنه مع تقدم علم التاريخ واتساع معرفتنا اليوم بالنسبة لتجليات وجوانب عديدة وغامضة من التاريخ، أو بالتعبير الجيد لريمون أرون استاذ علم الاجتماع في جامعة السوريون بالنسبة له «أبعاد الضمير التاريخي»[١] طرحت موضوعات في ميادين واسعة ومتنوعة، خاصة وأنه في المائة سنة الأخيرة توسع علمنا[٢] في كل المجتمعات الصغيرة والكبيرة

(١) R. Aroh, dimensions de la conscience historique.

(٢) المترجم: التعبير هنا بـ «علمنا» لأن المؤلف متخصص في علم الاجتماع.

والمعروفة والموجودة والآبدة أيضاً توسعاً لا يقارن بما كان عليه في الماضي، ليس هذا فحسب، بل إن ما كان يسمى في القرن التاسع عشر بعصر ما قبل التاريخ كعصر مهمل ومظلم ومجهول لا علم صحيح لهم به ولا يهتمون به أهمية تذكر[١] قد توسع اليوم توسعاً غير عادي، واكتشفت فيه جوانب لا حد لها مثيرة للدهشة بمساعدة علم الآثار الجديد وعلم اجتماع القبائل البدائية، واتساع تاريخ الفن وعلم الآثار الفنية، وبمعونة العلوم الطبيعية المتقدمة مثل علم الحجارة وعلم الجيولوجيا وعلم طبقات الأرض وعلم الفيزياء وعلم الكيمياء وطرقه الحديثة كل هذه الأمور غيرت فلسفة التاريخ وأضعفتها وجعلت علم الاجتماع الذي ظهر في القرن التاسع عشر عاجزاً ومتزلزلاً، لأنه كما قام علماء اجتماع وانثروبولوجيا «علم الإنسان» واثنونوجيا (علم السلالات) عظام من أمثال لويس بارول واسبنسر وتايلور ودوركهايم بدراساتهم للمجتمعات الوحشية والبدائية «فيما قبل مرحلة الكتابة بل وارتداء الثياب وظهور نظام الزواج ونظام الأسرة وتأسيس كثير من الأسس الاجتماعية» وبمعرفتهم للروح البدائية استطاعوا أن يصححوا علم الاجتماع الجديد بعناصر جديدة ومعلومات جديدة أو على الأقل يمنحونه عمقاً أكثر وغنى أكثر.

والمؤرخون أيضاً: نظراً للاتساع والوضوح العظيم لفترة ما قبل التاريخ التي كانت غامضة كلية، وما نتج عن ذلك من عظمة

---

(١) كان أكثر من يتناولون هذا الميدان علماء فيزيولوجيا وعلماء آثار وعلماء أجناس وهم علماء تاريخ طبيعي لا تاريخ بالمعنى المفهوم.

وتعقد مدهش لحقيقة التاريخ، وتنوع وكثرة اكتسبتهما أبعاد التاريخ، أخذوا يحسون بأن فلسفة التاريخ التي ترجع إلى القرن التاسع عشر قد أصبحت ضيقة جداً وغير ملائمة، لأنها كانت قد «فصلت» على قوام «واقعية التاريخ» في القرن التاسع عشر، ولم تعد بالطبع ملائمة لقوامه الحالي، ومن ثم وصل التاريخ من ناحية إلى منازل جديدة، وأخذ يبرز من لدنه أحوالاً وحركات مدهشة لم تكن معروفة بل ولم يكن يمكن التنبؤ بها، لأنه: كما أن علم الآثار وعلم الإنسان من تلك الناحية «أي الذيل» قاما بتوسيع ميدان التاريخ كثيراً، فمن هذه الناحية. أي الرأس قام علم الاجتماع الجديد وعلم النفس وعلم الإنسان بتوسيع ميدان التاريخ كثيراً، هذا إلى جوار أن ظهور البيروقراطية والآلية وأزمة الضمير الإنساني الجديد وتداخل كل المبادىء بلا نظام وتفسخ كل الروابط، كل هذه الأمور جميعاً أصابت التاريخ بالغموض والشعور بالحيرة، بحيث بقي علم الاجتماع الخاص بالقرن التاسع عشر ـ بمعاييره المحددة وقواعده المعينة ـ عاجزاً عن تفسير كثير من الظواهر الجديدة في الحياة الإنسانية والمجتمع المعاصر وتفسيرها وتبريرها. من هذا القبيل: ظهور الفاشية بعد الشيوعية في وطن الشيوعية وفي قلب أوروبا وأوج الحركة العمالية وسلطة الليبرالية والديمقراطية والاتجاه الإنساني والعلم وعصر وضوح الرؤية والاشتراكية والسطوة الأمريكية في صورة وصول الرأسمالية فيها إلى قمتها أي إلى الامبريالية. وتصدير رأس المال وإشعال الحروب الاقتصادية، وكلها عوامل ينبغي أن

تؤدي حسب «القاعدة» وضرورة الجدلية إلى انفجار الثورة من الداخل وبعنف ضد رأس المال.

والأطروحة التي بلغت آخر مراحل نضجها وبمقتضى فطرتها ومنطقها ينبغي أن تكون قد ربَّت عكس الأطروحة و«الحركة البروليتارية» و«الشيوعية» في باطنها، إلا أنه خلافاً لحتمية التاريخ ومسير الجدلية الحاسم، لا خبر هناك، والرأسمالية باقية في قواعدها ثابتة وقوية، وعلى حد قول السيد آرون: «أكثر الماركسيين تفاؤلاً لا ينتظر حادثة من هذا القبيل ولو بعد مائة سنة»، فلا أمل في خبر عن الحتمية التاريخية والتيار الجدلي، وكما نرى: المشاكل الداخلية للرأسمالية الصناعية الأمريكية ـ وهي أكثر الرأسماليات تقدماً في العالم وقطب الرأسمالية العالمي ـ ليست من قبيل التمرد الطبقي البروليتاري أو الجنوح نحو اليسار، وليست مشكلات طبقية أو حتى نقابية أصلية، لكنها في الأغلب مشاكل اجتماعية وأخلاقية وإنسانية من قبيل: التفرقة العنصرية: «وهي مرض اجتماعي من ذلك النوع الذي كان موجوداً في النظم التقليدية المنحطة، ويبدو من نوع ما كان موجوداً في الهند القديمة وعند أعراب الجاهلية لكنه أشد قسوة منها»، وأيضاً: الجريمة والعنف وانعدام الأمن وسقوط الإنسانية ومسخ ماهية الإنسان.

وفي أوروبا الشمالية ـ بالرغم من أنها احتفظت بالملكية الخاصة، وبالرغم من أنهم متقدمون من الناحية الرأسمالية والصناعية ـ نزلت الحرب الطبقية إلى أقل مستوى لها، في حين أنه ينبغي أن تكون في عنفوانها، ولا يوجد ميل إلى اليسار حتى في

الأفكار، وهم يعيشون في سلام اجتماعي وتعايش طبقي لم يكن منتظراً، بحيث إنه لا المجتمع فحسب ولا العامل بل حتى الحزب الاشتراكي صار حزباً يمينياً. وفي إنجلترا وأوربا الغربية كإيطاليا وفرنسا والمانيا الغربية، يشير قوس الميول اليسارية إلى أنه منذ سنوات ما بعد الحرب وحتى الآن، انخفض صعود اليسار ونفوذه وبلغ بطئاً قريباً من التوقف، وفي فرنسا تشير المقارنة بين بارلماني سنتي ٤٥، ٤٦ وبارلمانات ما بعد ذلك بعشرين عاماً إلى تدهور شديد، بحيث إنه في إنتخابات الجنرال ديغول واستفتاءاته على الجمهورية الخامسة، لاحظت بنفسي أنه حتى في أحياء العمال والمراكز الصناعية، كان مرشحو الحزب الشيوعي يهزمون أمام المرشحين المستقلين أو مرشحي الوسط وحتى أمام اليمينيين الديغوليين، وكنت أشعر أحياناً بأن الجاذبية الشخصية لمرشح ما هنا ـ حتى في المحيط العمالي ـ أقوى وأشد تأثيراً من الأيديولوجية الطبقية أو الارتباط النقابي، كما أننا جربنا هذا الأمر في انتخابات السنوات الأخيرة في انجلترا.

بناء على تكليف من المركز العلمي الفرنسي لأبحاث علم الاجتماع ـ الذي كان يقيم أبحاثه الاجتماعية اعتماداً على الرأي العام ـ وباختيار أحد أساتذة علم الاجتماع، وبالاشتراك مع السيد جورج جيوز وهو من مواطني توجو كمتخصص في العلوم السياسية والسيد مولد كعالم في الاقتصاد والسيدة جاكلين شيزل الفرنسية معاونة مدرسة اللوفر العليا كمساعدة ومرشدة لنا في إعداد الوثائق والاتصال بالمؤسسات والمصادر والشخصيات، كلفنا جميعاً كـ

«جماعة علمية» لبحث العلاقة بين «الرخاء الاقتصادي» و«الميول السياسية» في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية في فرنسا، كانت جداول التطورات الاقتصادية التي أعدها السيد جيوز متناسقة مع الجداول المشابهة لها بشأن التطورات السياسية من ناحية الميول اليمينية والميل إلى الوسط أو إلى اليسار والتي أعدها السيد مولد تناسقاً لا يتصور، أي أن الظواهر الاقتصادية والسياسية تبرر كلاهما الأخرى وتفسرها بوضوح[(١)] بحيث إنه كلما كان القوس الاقتصادي يشير إلى تصاعد إيجابي يدل على تحسن مستوى الحياة بالنسبة للناس والوصول إلى رخاء بالنسبة للماضي، كان القوس السياسي يسجل ميلاً نحو اليمين بنسبة تصاعد القوس الاقتصادي، وعلى العكس كانت الحالة الاقتصادية المنهارة تحوله نحو اليسار، إلى درجة كان معها يمكن تماماً التنبؤ السياسي بشأن نتائج الانتخابات وانتصار مرشحي اليمين واليسار عن طريق الظاهرات الاقتصادية.

وهذه القضية صارت اليوم مفراً مطمئناً بالنسبة لنجاة الرأسمالية من الثورة العمالية الحتمية والحرب الطبقية الجدلية، أو بالمصطلح المعروف «إن الرأسمالية قد تعقلت»، ونتيجة للتنبؤ

---

(١) في كتاب Survol en Prison التحليق في السجن، وهو متن المناقشة التي استمرت ثلاثة أيام بيني وبين جيوز، في تلك الأيام التي كنا فيها سجينين معاً في سجن المدينة نتيجة لسوء التفاهم الذي نشأ عن اضطرابات باريس التي أعقبت استشهاد لومومبا وقبض علينا مع مئات آخرين اشتركوا في مظاهرات الاحتجاج في ميدان الإتوال أمام سفارة بلجيكا، حدثني جيوز عن منحنيات هذا العمل الجماعي واستنتاجاته. طبعة توجو ١٩٦٥.

بالخطر تجاهد في «التوسيع على العامل»، فهي تعطيه إمكانيات كاذبة حتى يستطيع أن يقلد الأغنياء في الحياة، ومن ثم يعتريه إحساس كاذب بالرفاهية والتمتع والتقدم المادي والمعنوي، وبالطبع يميل إلى التفاهم والنعومة والتحمل، وتحل روح المحافظة محل التمرد والعقد والحقد والإحساس بالظلم والكدح والحرمان، حتى ولو كان ذهنياً على وعي بأنه يستغل، فإنه معنوياً يقنع نفسه بالسلع الاستهلاكية الجديدة والإمكانيات التي تزداد تنوعاً يوماً بعد يوم والتمتع، لأنه لم يحس بعد أنه مثل ذلك العامل الذي لم يكن يجد لديه ما يفقده في النضال إلا القيود التي تلتف حول يديه وقدميه. إنه عامل يدفع «الأقساط» ولا يستطيع أن يجازف ويصبح ثوريا، ومن هنا فإن البروليتاريا في الوقت نفسه لم تعد ـ كما كان متوقعاً في القرن التاسع عشر ـ تتناسق فيها الروح الثورية مع الاستغلال، بل إن العكس هو الصحيح كما هو محسوس، وكما أحس اشبنجلر وهو إحساس صادق بأن أوروبا تتقدم نحو روح المحافظة بالنسبة للنصف الثاني من القرن التاسع عشر، وأن الوعي الطبقي والحس الثوري في سبيلهما إلى الاختفاء نتيجة لحيل الرأسماليين وعلماء النفس وعلماء الاجتماع ـ الذين يعملون لأجلهم ـ المعنوية والاقتصادية من قبيل الديمقراطية واللبرالية ـ والنقابية والأيديولوجيات الخادعة المنحرفة، وإيجاد القدرة على الشراء بين الناس وتوسيع نطاق الحياة الاستهلاكية والكمالية وإمكانيات الذهاب إلى المسارح ودور السينما الارستقراطية والحريات الجنسية وإيجاد الأذواق والميول الفنية والجماليات

البورجوازية بين العمال، ثم في النهاية منح «التأمينات الاجتماعية» و«بوليصات التأمين المختلفة» والمسكنات القانونية والعملية.

مسيرة الماركسية:

ومن هنا فإن ماركسية القرن التاسع عشر التي حددت حركة التاريخ على أساس الجدلية المتجهة حتماً نحو البورجوازية المتقدمة والرأسمالية الصناعية في الغرب وكانت ترسم هناك انتظار الانفجار الطبقي الحاسم والمحدد، والثورة ضد الرأسمالية البروليتارية الصناعية، فوجئت بأن نبؤتها مثل نبؤة الأنوري[١] وذلك الذي كانت تنتظره على أساس الحتمية التاريخية والأصول العلمية للاشتراكية قد شاهدته وتشاهده، لا في قلب الرأسمالية أو في ملامح البروليتاريا الصناعية في الغرب، بل نماماً حيث لم تتصور قط بناء على هذه المبادىء نفسها المنطقية والعلمية والحتمية، أي في آسيا وشرق أوروبا، وفي قلب الإقطاع، وفي ملامح الفلاح المحافظ التقليدي.

إن نزعة المحافظة عند طبقة البروليتاريا الصناعية، ودهاء الرأسمالية الغربية ووعيها، وتكوين التكنوقراطية والبيروقراطية

(١) المترجم: المقصود الشاعر الفارسي أوحد الدين الأنوري المتوفى على الأرجح سنة ٥٨٣هـ، وكان قد درس علوم عصره، وحاول دخول البلاط كعالم ومنجم، إلا أن نبوءاته كلها باءت بالفشل، فاتجه إلى التكسب بالشعر وكتب ديوانا كاملاً في سلاطين السلاجقة يعد نموذجاً لفن مديح السلاطين في الأدب الفارسي. انظر: تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي تأليف براون ترجمة: إبراهيم أمين الشواربي.

كطبقة حاكمة في الغرب (والآن في روسيا أيضاً)، وكارثة الفاشية والنازية الغامضة في إيطاليا والمانيا، وانتشارها الفعلي في فرنسا وأسبانيا وامريكا، وازدياد حدة الثورة عند الفلاح الصيني والجزائري وحتى الروسي في فترة الثورة بين (١٩٠٥ و١٩١٧)، وقضية الاستعمار، والحركات المضادة للاستعمار، كلها أمور تشير إلى عكس الأطروحة الكلاسيكية الماركسية، وتشير إلى أنه في البلاد التي ابتليت بوباء الاستعمار، يعد الاستعمار البنية التحتية للمجتمع وليس الاقتصاد، والاقتصاد بنية فوقية توجه بواسطة البنية التحتية أي الاستعمار، وأن دور الدين ليس دور الأفيون أو المادة المخدرة، لكنه مادة محركة في الحركات المضادة للاستعمار في الدول الإسلامية وحتى في الشرقين الأوسط والأقصى: (البوذيون في الصين وحركة ماكاريوس وحركة المسلمين والهنادكة في الهند والمسلمين في الجزائر، وحركة مجتمع علماء شمال أفريقيا والجمعية الإسلامية للطلاب الجزائريين، وحركة اليقظة والحركة الثورية المضادة للاستعمار عند جمال الدين وحركة تحريم الطباق عند آية الله الشيرازي والحركة الدستورية ودور السوق فيها)[١].

وهناك أيضاً اهتزاز الأسس العلمية للمادية بعد ظهور نسبية اينشتاين، وقانون «عدم الحسم» عند هايزنبرج في الفيزياء الحديثة، وحساب الاحتمالات والأعداد العظمى في الرياضيات وتعميمها في العلل الإنسانية[٢]، والحرب الجدية والشاملة «العسكرية والسياسية

---

(١) المترجم: انظر كتاب «الثورة الإيرانية: الجذور والأيديولوجية».

(٢) دروسي في «تمدن جديد: الحضارة الحديثة».

والأيديولوجية» في قلب العالم الماركسي، بحيث إن التناقض الموجود بين هذين اللذين ينتميان إلى طبقة واحدة وإلى عقيدة واحدة وكلاهما في يده قيادة الطبقة العمالية والعداوة العميقة والمطلقة بين المستغل «بكسر الغين» والمستغل «بفتح الغين»، أشد وأعمق من التناقض الموجود بين كل منهما مع أقطاب العالم الرأسمالي، إلى درجة أن الشيوعية الروسية تقوم من ناحية بالسعي إلى التعاون مع الرأسمالية الأوروبية لوضع المشروع العسكري لأمن أوروبا ضد الخطر الشيوعي الصيني، أي أن قضية الأمن والمنفعة الإقليمية أبدى من المصالح الأيديولوجية والمنافع الطبقية، ومن ناحية تقوم الصين الشيوعية الثورية بعقد معاهدة ضد الهند مع إحدى الدول الأعضاء في الحلف المركزي، كلها أمور تتناقض قطعياً مع الجدلية والاشتراكية العلمية والحتمية التاريخية، فهي دفاع عن «السلام العالمي»، وما هو أهم «تعايش سلمي» بين الرأسمالية والإمبريالية العالمية وبين الشيوعية والبروليتاريا الثورية، وهذا من جانب القطب العالمي للعمال.

وهناك أيضاً تقدم القومية على الشيوعية في أفريقيا والدول العربية وحتى في أمريكا اللاتينية في الحروب التحررية بعد الحرب الثانية. ومن الناحية الفلسفية والفنية هناك الميل العام لجنوح الفكر والخلق من الواقعية والطبيعية أو على وجه العموم من العينية إلى الذهنية، والميل الشديد إلى «الاستبطان» في الحركات الفلسفية والأدبية والفنية من العالم المادي إلى الذات الإنسانية في التجليات المختلفة للحياة الروحية والأخلاقية عند الإنسان الجديد، وعودة

الفلسفة إلى نوع من المثالية والميتافيزيقية الحديثة مثل الحركة الوجودية، وتدهور الأشكال والقوالب الفلسفية للقرن التاسع عشر، وضعف أصول الجدلية في الرؤية والثقافة المعاصرة، ونضج نوع من «الحاجة إلى المعنويات»، أو تشكل ميول سالمة أو منحرفة للروحانيات، ليس في الغرب فحسب بل وفي المجتمع الشيوعي نفسه، وعودة القومية إلى الحياة في قلب المجتمع الشيوعي الأحمر (المذابح في المجر وإعدام رئيس وزرائها إيمري ناجي، وغزو المجر عسكرياً واحتلال برلمانها، ثم غزو تشيكوسلوفاكيا عسكرياً)، وهناك قضايا أخرى مثل: الإيمان بالماركسية كـ «مدرسة أيديولوجية» في حين أن ماركس نفسه من الد أعداء الأيديولوجيات، والتعصب لأصول الاشتراكية الماركسية ولنصوص مثل المانيفستو «المنشور الشيوعي» ورأس المال ومقدمة في الاقتصاد السياسي التي مر مائة عام على كتابتها تغير خلالها المجتمع المعاصر أشد مما تغير خلال ألف عام، والتناقض الواضح مع المبدأ المسلم به أي الجدلية الذي يرى أن كل شيء في حالة تغير وأن «المبدأ الثابت دائماً هو التغير»، والاعتقاد في أن كل نوع من تجديد النظر خيانة للماركسية والطبقة العمالية وخدمة للرأسمالية، ثم زوال الرأسمالية التنافسية التي كان أساس علم الاجتماع الطبقي عند ماركس قائماً عليها في المجتمع المعاصر، وحلول الرأسمالية الاحتكارية مع ملاستها ووعيها وقدرتها على التنبؤ والاحتواء محلها، وظهور طبقات جديدة، وتغير أشكال الطبقات الاجتماعية في القرن التاسع عشر وانماطها، تلك الأمور

التي دفعت هنري ليمفور الشارح المعروف للمدرسة الماركسية لأن يقول: «أنها أمور صارت سبباً في أن تصبح الماركسية لازمة لمعرفة المجتمع المعاصر والإنسان، لكنها لا تكفي وحدها».

مسؤولية المفكر بالنسبة لهذه القضايا:

إن معرفة هذه القضايا بالنسبة لمفكري الدول الآسيوية والأفريقية، لا تجعلهم فحسب يشكون في أساليبهم الدائمة في الميادين الاجتماعية والأيديولوجية القائمة على الترجمة والتقليد الصرف، ولا تطرح فحسب ضرورة ثورة فكرية أو تحول أساسي في الرؤية الفلسفية الاجتماعية عندهم على الفور، بل وسوف تجعل مسؤولياتهم كعقول مفكرة في مجتمعاتهم ومهمتهم في «توعية الناس بأوضاعهم» أكثر جدية وصعوبة.

من أجل أن يكون المرء مفكراً في دول الدرجة الثانية الآن، يكفيه فقط إتقان لغة أجنبية واستمداد العون من كتاب، ومن ثم فإن الفرق بين المفكر التقدمي وبين المتعلم الرجعي هو أن هذا مترجم تلك الكتب والمقالات وذاك مترجم تلك الكتب والمقالات، صورة طبق الأصل من الجناحين العصري والسلفي، فالسلفي هو من احتفظ بملابسه وبأسلوب زينته المظهرية، ويتصرف كما كان على الدوام، والعصري هو الذي غير في ملابسه وزينته وتصرفاته لا على أساس الاختيار بل على أساس التقليد، ومن هنا لا دخل لقضية الحضارة في الموضوع، فالحرب بين العصرية والسلفية هي حرب في الاستهلاك، والا فإن الرؤية الكونية والرؤية الشخصية

والإحساس والفكر والروح والرسالة والهدف كلها كما كانت، ولو تحركت أدنى حركة لانفجرت وتناثرت ولسقطت في ابتذال مثير للغثيان، فحمام النساء صار «المنظمة النسائية» و«سفرة حضرة عباس»[١] صارت «حفلة في حديقة وسهرة لمساعدة المعوزين» وهيئات الدق على الصدور ومجالس النواح صارت «الأحزاب السياسية والنقابات العمالية» و«الفتونة» صارت «نقداً أدبياً» و«مقهى المعلم قنبر» صار «كافتيريا سميراميس»، ومقلدو آية الله الفلاني صاروا مقلدين لماركس وبليخانوف، ورواة الأخبار الدينية القدماء الذين كانوا يعتقدون بأن «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» صاروا من الاشتراكيين اعداء المطالبة بتجديد النظر» و«آنتي نيتيك»، والطلاب الصبيان السابقون الذين كانوا يعتقدون في أن كل من قرأ صرف «ميرمير» فإنه يكسر مائة قفل وجنزير. صاروا أخيراً فراريج الفلسفة لمجرد أنهم صادفوا شخصاً ادعى أنه قرأ كتاب «مقدمة في أصول الفلسفة» لجورج بوليتزر الذي كتب للعمال، (فضلاً عن أن كان قد فهمه أو لا)، فهم ينظرون إلى الجميع نظرة العاقل للسفيه وكأنه لم يبق مجهول بالنسبة لهم في الدنيا وما عليها، فالتاريخ لا شيء، والبشرية اليوم: حدث ولا تسل، ومستقبل المجتمعات البشرية بالنسبة لهم: أوضح من أكف أيديهم، وويلاه لو أن واحداً من هؤلاء كان قد سافر إلى أوروبا وظل فترة هناك مع بعض الرفاق الإيرانيين يطبخون الـ «قرمة

---

(١) المترجم: سفرة حضرة عباس نوع من الأطعمة النذرية الشعبية تجرى في توزيعه طقوس دينية ومذهبية معينة.

سبزي»[١] في أيام الآحاد، وشربوا مع صديقاتهم الأوروبيات، حينذاك يصيرون مخلوقات من ماء آخر ومن طينة أخرى، يصابون بالسعار ويعضون ويرفسون، ولو أنهم ـ لا قدر الله ـ قرأوا في الصحف أن إيما سيزار بذيئة اللسان ووقحة، لو اتتهم الجرأة على الفور في أن يبزونها في هذا المضمار بمراحل، تعال..... ولنر.

إن الفرق بين المفكر اليساري والمفكر الرجعي، ليس في أن هذا يقلد قدماء المسلمين التقليديين وأن ذاك يقلد الفلاسفة التقدميين الأوروبيين، وان هذا يكتب «الحواشي» على أسفار ملا صدرا، وذاك يترجم مؤلفات جورس وبليخانوف، أبداً الفرق بينهما: أن هذا غير واع ومقلد ومن صنع التاريخ والتقاليد، وأن ذاك واع ومفكر، وبكلمة واحدة: إن المفكر هو من يملك رؤية نقدية ـ هكذا فحسب.

والسبب في هزيمة كل الحركات الاجتماعية وانحرافها في الدول التقليدية والمتأخرة هو أن المتعلمين فقط «المثقفين» ـ جماعة واعية وعلى معرفة بالعصر ـ هم الذين كانوا يتحدثون عن مصير المجتمع والطريق والمستقبل، ولما كانت الأمية عامة، كان هؤلاء طوعاً أو كرهاً هم الذين أمسكوا في أيديهم بقيادة الحركات «نيابة عن الأمة» ولما كانت فطرتهم الاجتماعية تغاير قيادة الشعب وهو من صميم عمل الشعب نفسه، فمن الطبيعي أن روح حركة ما وتقدمها وحماسها كلها تتغذى من عصارة إيمان الشعب وإرادته فإما

(١) طعام إيراني.

أن هذه الحركات كانت تموت وتمسخ في القوالب المنطقية والقانونية والحقوقية والعقلية المجردة البعيدة عن «الواقع» التي صاغتها عقول المتعلمين المصابين بداء الكتاب والمتفلسفين والموجهين، ثم تتحول في النهاية إلى «كلمات علمية»، وإما أنها كانت تنحرف علناً أو توضع عليها «العمامة الخادعة» المسماة بالـ «مصلحة والاستراتيجية والتكتيك» و«الحلول الفكرية» التي كانت تقوم بتشديد قبضة العبودية الاستحمارية على الأمة. وما يسمى بالاستعمار الجديد هو عبارة عن المصير الذي جر المثقفون البارزون حركات أممهم المضادة للاستعمار الناجحة إليه.

والخطر الذي يهدد كل الحركات التحررية المضادة للاستعمار في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، بل وحاق بالكثيرين من شعوب هذه المناطق، هو أن العوام أهل الحواري والسوق والمصنع والمزرعة، شخصيات مجهولة علاها التراب وأمية مثل ستارخان وباقرخان والشيخ علي مسيو الخباز التبريزي(١) يقومون بتضحياتهم الزاهدة وميتاتهم الطاهرة وبطولاتهم غير الشهيرة والمجهولة في قمع الاستعمار والاستبداد، وبمجرد أن يطرد العدو وينتهي عهد الجهاد ويصل عهد الإدارة والحكم، لا تعود هناك أية أهمية بعد للمجاهدين الذين قضوا أعمارهم في الريف والمصنع، وكانوا يحاربون السنوات الدموية في الجبهة، فيضعون البنادق

(١) المترجم: باقرخان رفيق ستارخان في الحركة المسلحة في تبريز والهجوم على طهران إبان الحركة الدستورية وكان رزازا والشيخ علي مسيو مجاهد عظيم وكان خبازاً.

ويمضون إلى أعمالهم، أما أولئك الذين كانوا طوال هذه السنوات الدموية الخطرة على ضفاف السين والتايمز، وفي هولندا وبلجيكا وأمريكا ودول الـ «متروبول الأخرى غارقين في المتعة والأمن، يعيشون بعيدين وغرباء عن مجتمعاتهم وحركات قومهم، وصاروا أطباء ومهندسين ومتخصصين في الاقتصاد والسياسة وعلم الاجتماع والتخطيط والحقوق والطب، فإنهم يعودون ويحتلون المناصب الحساسة القيادية، ويجعلون من دماء الشهداء مكاتب وسيارات ومرتبات ضخمة وامتيازات اجتماعية كثيرة ويبتلعونها، وفي مقابلها يقدمون للناس المحاضرات العلمية والمؤتمرات وقاعات البحث والمصطلحات الفنية والبرامج التخصصية وموضوعات علم الاجتماع والفلسفة، وفي النهاية فإن عزاء الناس والمجاهدين في أنه: في السهرات وحفلات الكوكتيل ووراء المكاتب، هناك أشخاص أسماؤهم وأماكن ميلادهم محلية بدلاً من ذلك الفرنسي والهولندي والإنجليزي والبلجيكي.

ومن بين الوجوه المعروفة في الحركات المضادة للاستعمار الناجحة والحاكمة في الدول الآسيوية والأفريقية التي في يدها الحكم الآن، نادراً ما يشاهد وجه مثقف بارز وهذا جدير جداً بالانتباه، فهذا الأمر من ناحية تجربة هزيمة تلك الحركات التي استولى عليها المثقفون، وكانوا أمام الناس وقائمين مقامهم أو قامت الحركات التحررية بعد النصر في مجتمع ما بوضعهم محل مجاهدي الشعب وأبطاله كمتخصصين وخبراء، تجربة هزيمة مثل هذه الحركات أو فشلها وانحرافها أو مسخها من ناحية أخرى،

أبدت ضرورة نوع من الشك الديكارتي في أسلوب مزاولة الفكر وتقاليده عند المتعلمين المستقيمين والجديين في الدول الراكدة والتقليدية، وهو خاصة في المجتمعات التي تعيش في «فترة انتقال» أمر فوري وحيوي.

لا شك أن اليوم، أصبح المفكر الذي كان ـ طبقاً لمصطلح ماركس ـ هو الذي يتحدث عن الطبقة العمالية، في حالة تحول إلى طبقة عالمية. لأن الرؤية الكونية والرؤية الشخصية و«الميل الاجتماعي» و«القيم» التي تعتبر السمات المعنوية للمفكرين مشتركة في كل جماعات الفكر في المجتمعات الأوروبية والآسيوية والأفريقية والأمريكية أو على الأقل متشابهة، فهي رؤية كونية واقعية ومنفتحة ومتحركة وميالة إلى الجديد، وهي رؤية علمية ومنطقية وتحليلية، وميل اجتماعي نحو الشعب ومضاد للاستعمار والخلاصة أنه ذو قيم إنسانية «بمعنى العالمية»، ومن هنا يمكن قبول تعريف جامع بالنسبة للمفكر الذي يعيش في مجتمع شرقي ديني في العالم الثاني والمفكر الأوروبي، وفي الوقت نفسه ينبغي أن نكون على حذر ذلك أن الاشتراك في الطبيعة الاجتماعية لا يعني بالقطع الاشتراك في الرسالة الاجتماعية، وعدم وعي مفكرينا بالثنوية في هاتين المقولتين التي تستقل إحداهما عن الأخرى صار سبباً رئيسياً في الأخطاء والهزائم الكثيرة في الآراء وفي بحث القضايا وطرحها، وفي النهاية في مسرح المسؤوليات والنضالات السياسية والاجتماعية في نصف القرن الأخير في دول العالم الثاني، وهو يحمل لها ذكريات مرة.

ولا يتسع المجال هنا للحديث عن رسالة المفكرين في معناها الأعم ورسالة مفكري العالم الثاني في معناها الأخص، فإن هذا في حد ذاته في حاجة إلى النضج الاجتماعي واليقظة السياسية الشعبية ووجود الأحزاب والنقابات القوية المتقدمة، وقدرة المؤسسات الديمقراطية ووجود نوع من الليبرالية والديمقراطية «مهما كان سطحياً»، وحضور شخصيات شعبية موثوق بها وواعية حيثما يحدد مصير الناس والأمة ووجود صحافة حرة «طويلة اللسان» ذكية، وكتاب ونقاد متيقظين يراقبون الأحوال والأوضاع بمائة عين، ومن ناحية أخرى وجود رفاهية نسبية وشبع عند الشعب، وانعدام الحرمان الحيوي من الحاجات الأولية كالماء والخبز والصحة والمسكن والملبس والتعليم، وخلاصة الأمر التشكل بالشكل الأوروبي، كل هذا يسبب في أن عوام المتعلمين (وهم غير المفكرين الفلاسفة والنوابغ أي القادة الحقيقيين للثقافة والحياة والمحددين لطريق الحاضر وصورته ومستقبل المجتمع والحضارة) لا يكونون نسيجا وحدهم في المجتمع أو صفوة المجتمع ونجومه أو العصا التي يتوكأ المجتمع عليها، والمخ المفكر الوحيد عند الشعب أو بعبارة أخرى القائمين مقام الشعب ونوابه والقوامين الأوصياء عليه، فالمتعلم في مجتمع أعمى وعاجز يحمل كل هذه الألقاب.

والعمل الذي يقوم به «عارف بالطريق» يشبه العمل الذي تقوم به «عصا الاتكاء»، لكنهما ليسا شيئاً واحداً بالمرة، فمدرس ما حيثما يكون تعريفه واحداً وهو «الشخص الذي يقوم بتعليم الأطفال

مواد دراسية محددة» لكن المدرس الذي يعمل في مدينة متحضرة ليست على عاتقه رسالة تشبه رسالة زميله الذي يرسل إلى قرية نائية ومتأخرة.

وهنا نصل إلى تناقض واضح ومسلم به، فمن ناحية: لا يصح للمفكر أن يحل محل الشعب في امتلاك مصير حركة ثورية فهو إما يقود الحركة إلى الهزيمة أو إلى الانحراف، ومن ناحية أخرى: ففي المجتمع الذي يسوده الجهل أي الأمية الثقافية وانعدام الوعي الاجتماعي، إن المفكر وحده هو الذي يتمتع بثقافة ووعي نسبيين، وهو وحده الذي يرى ويعلم، فإن مسؤوليته صعبة وشاملة لأنه في المجتمع الأعمى: ليس المفكر هو العارف بالطريق فحسب، وليس هو المتخصص فحسب، بل هو أيضاً عصا الاتكاء في مجتمعه.

والحل الذي قدمه مجاهدو جبهة التحرير الجزائرية في سنة (١٩٦١) يحل نصف المشكلة.

ولا شك أنه عندما انتصرت الثورة المضادة للاستعمار وقاموا بطرد الأجانب والخونة وقبضوا على زمام السلطة، لم يعد من المستطاع أن توضع وزارة الثقافة تحت إشراف أمثال ستارخان أو هيئة التخطيط ووزارة الاقتصاد تحت إشراف أمثال باقرخان والشيخ علي مسيو. فقد آن أوان البناء والمطلوب هو التخصص فلا نفع آنذاك في الشجاعة والفدائية والرجولة والإنسانية، فطافوا أنحاء فرنسا والمانيا وانجلترا وأمريكا وجمعوا الأطباء والمهندسين

والفنيين الجزائريين[١] واستقدموهم بتقديم الأموال والسيارات والمنازل الفخمة وما استطاعوا تقديمه من امتيازات، ووضعوا ما استخلصوه من يد العدو بأعز الدماء والموت في الجبهات في أيدي هؤلاء المواطنين الغرباء. لكن المجاهدين كانوا يحسون بالخطر من قبل، واقترحوا حلاً كشق ثالث بين تلك «الضرورة» وهذا «الخطر»، وكانوا يعلمون أن كل منصب من المناصب الحساسة التي تحدد مصير الأمة ذو شقين: أحدهما شق «تحديد الاتجاه» و«تعيين خط السير والطريق الكلي ووضع الأهداف السياسية» وهو الشق الأيديولوجي، والآخر هو الجانب الفني والتخصصي وهو الجانب التنفيذي والواقعي، فعلى سبيل المثال: في وزارة الخارجية يوجد جانبان: جانب يتعلق بتحديد الاتجاه السياسي للدولة في مقابل التكتلات وفي العلاقات بين الأمم وفي تعيين خط السير والمسيرة السياسية العامة للنظام وهو جانب سياسي، وهناك جانب آخر فني وعلمي من قبيل المراسم الدولية ومعرفة الاتفاقيات القانونية والسياسية والحقوق الدولية وهو جانب ديبلوماسي. وحينما تكون قضايا الخط العام للسير والتوجيه والهدف واتخاذ الاتجاه وتحديده مطروحة يلزم حضور أحد المجاهدين على الدوام، فالمجاهد الواثق الواعي لأنه ليس عالماً ولا متخصصاً، ينبغي أن توضع الناحية الفنية لعمله في يد متخصص وفني يعمل

---

(١) استعانت الجزائر في بداية استقلالها ـ بل وقبل الاستقلال ـ بعدد كبير جداً من الفنيين والمتخصصين المصريين في كافة المجالات ولا تزال تفعل حتى الآن خاصة فيما يتعلق بالتعريب والتعليم في كافة مراحله والخدمات. المترجم.

تحت إمرته وتحت قيادته المباشرة، وفي مثل هذا النسيج ذي الوجهين المنفذ بذكاء الذي سترتديه الحكومة القومية، فإن القيادة العامة سوف تكون دائماً في أيدي المجاهدين الواثقة والقوية، أولئك الذين دخلوا الميدان في نضالهم ضد الاستعمار والظلم بكل حيويتهم، وسوف يكون المتخصصون والمتعلمون مجرد أدوات في أيدي المجاهدين ووسائل لتنفيذ أهداف الثوريين.

لكن، قبل أن يصل المجتمع إلى هذه المرحلة، أو بعبارة أفضل: من أجل أن يصل المجتمع إلى هذه المرحلة. . . ما الذي ينبغي عمله؟ ما الذي ينبغي عمله في مجتمع أعمى ومشلول ومتحجر في قوالب روحية واجتماعية منحطة؟

في هذه المرحلة، لم يصل الناس بعد إلى مرحلة يكون فيها من بينهم مجاهدون مستنيرون ويقظون وأبطال مشاهير وواعون لكي يقوموا باليقظة والحركة في مقابل المتعلمين البارزين، إن الناس في هذه المرحلة يرون المتعلمين فقط ويعرفون المتعلمين فقط، وهم فقط الذين لديهم ما يقال، وبالنظر إلى هذه المسائل تكون رسالة المفكرين في العالم الثاني صعبة وحيوية، إلى جوار أن تمييزها وتحديدها الصحيح والدقيق معقد جداً.

وفي رأيي أنه قبل أن نؤمن بتلك المدرسة أو تلك من المدارس الاجتماعية، وقبل أن نطرح خلافاتنا الأيديولوجية في مجتمع المفكرين، ينبغي أن نقر ونتوافق على هذا الأساس المشترك أن الطريق والهدف مهما كانا فهما:

أولاً: ما لم يوقظ قلب الأمة، وما لم يجد ضمير الأمة وعياً اجتماعياً، فكل مدرسة وكل حركة، سوف تبقى عقيمة ومجردة.

ثانياً: إن الناس، والناس فحسب هم الذين يستطيعون تحرير أنفسهم، وينبغي أن تكون قيادة الحركة الاجتماعية في أيديهم مباشرة، وما لم يصل قلب الأمة إلى «الحماس والانفعال التلقائي» والحركة والخلاقية الاجتماعية، وما لم يصنع الشعب من بينه أبطالاً وشخصيات جديرة بنفس السمات الشعبية المخلصة والأصيلة والصادقة، أو بالتعبير العميق الرائع الوارد في القرآن «أميين»، وما لم يقدمهم إلى صفوفه الأولى، فإن حضور المتعلمين بالنيابة عنهم، لن يستطيع أن يكفلهم أبداً، ولو أنهم حققوا بعض الانتصارات في بداية الأمر مؤقتاً، فإن مواصلة العمل في المراحل التي سوف يكون فيها العمل صعباً قاسياً، وتهجم وسوسة الذهب ووسوسة القوة، لن تكون باعثة على الاطمئنان.

ثالثاً: خلافاً للغفلة الذهنية التي ابتلى بها كثير من المتعلمين بل وكثير من المفكرين: «وهذه الغفلة وليدة العرقية الخاصة بالمفكرين على حد قول اشبنجلر: بدلاً من أن نقوم بالاتصال المباشر مع قلب الواقعية ولمسها، نجلس معاً ونتحدث عن الواقعية على أساس المقولات الكانتية والأصول العقلية والمنطقية ومبادىء [العلموية]، ونحكم عليها غيابياً، ونقوم بتحليلها، ونستنتج منها القواعد، وعلى أساس مثل هذه المعرفة التي حصلنا عليها، والتي هي ذهنية إلى هذا الحد وبعيدة عن الواقع، نقوم بوضع المشروعات وخطط العمل، وحين نتجه نحو الواقع نحس بمسخها

وتحريفها لأننا نحس أننا غرباء عنه تماماً». وواحد من المبادىء العقلية والعلموية التي أدت إلى أخطاء فاحشة هو أننا نظن أن الفقر والظلم والحاجة والتناقضات الشديدة في المجتمع في حد ذاتها، وصعود منحني نضج طبقة ما إلى أوجه، وتضاد المصالح في حد ذاته، والاستغلال وما تقتضيه الحتمية التاريخية، كلها أمور في حد ذاتها سوف تصير علة للتطور الحتمي في المجتمع ووقوع التمرد والانفجار والتغير الحاسم. وعندما نفكر بأذهاننا نصل إلى أمثال هذه النتائج، نتائج معقولة تماماً ومنطقية وقائمة على دليل وعلمية مائة في المائة، لكن الواقع للأسف لا يؤيدها دائماً، إذ نرى أنه ليس الفقر هو الذي سيصير سبباً في الحركة والتمرد لكنه الإحساس بالفقر، إن شعور الطبقة المحرومة بالنسبة للوضع الطبقي المتناقض في مجتمعها هو الذي يدفعها للحركة.

الحتمية التاريخية والإنسان:

إننا نفهم الحتمية التاريخية بالطريقة التي كان أسلافنا يفهمون بها «القضاء والقدر الإلهيين، كنوع من الجبر المشيئي، فيه اتخذ التاريخ مكان الله، وحلت أداة الإنتاج محل المشيئة الإلهية، ففي كليهما: يعتبر الإنسان ألعوبة في يد آخر لا إرادة، ومصيره حدد دون حضوره، وأن الحتمية التاريخية تفسر هذا المعنى نفسه وحتى هذا اللفظ نفسه (عين، قضى Déterminé) على كل حال فإن أي عامل يلغي دور الإنسان كصانع مصيره وتاريخه، لم يحقر الإنسان وينزل به إلى مستوى نبات أو حيوان، وهو تابع محض للبيئة وقوانين الطبيعة والغريزة والفيزيولوجيا، بل سلب من الإنسان

المسؤولية، وهي النتيجة المنطقية للإرادة والحرية أو «الاختيار بمصطلحنا و«الانتخاب» بالمصطلح الأوروبي. وهذه المسؤولية هي أعظم فضائل الإنسان ووجه تميزه عن كل الكائنات، وفي هذه الحالة يكون قد سلب ـ طوعاً أو كرهاً ـ الحركة والتعامل مع المجتمع أيضاً، وقد رأينا في عصور انحطاطنا أن شيوع الإيمان بالقضاء والقدر والجبر الإلهي والمصير المحتوم الأزلي بالطريقة التي فسرها بها رجال الدين، وأكثر منهم في الأفكار الفلسفية والآثار الشعرية والعرفانية الصوفية تحت تأثير الرؤية الصوفية والهندية والفلسفة العقلية اليونانية والظروف الروحية الاجتماعية للبيئة السوداء الظالمة لعصر الخلافة وعصر المغول، إلى أي حد ألقى تاريخنا في الركود، وشل كل أنشطتنا الاجتماعية، وعلى حد قول جوروفيتش «الإيمان بالجبرية» حتمية التاريخ «نوع من الكسل» وعلى حد قول شاندل: «عندما يقوم فلاح صيني أو هندو صيني يعيش في في عصر الإقطاع، فيحمل بندقيته من أجل تحقيق الاشتراكية، فهذا يعني أنه داس الحتمية التاريخية بأقدامه المصممة كإنسان».

ولا يعني هذا أنني لا أؤمن بالحتمية التاريخية، لكني أريد فقط أن أقول: إن الإنسان هو الذي يستطيع ـ بقدر نضجه وتصميمه ـ أن يفرض إرادته على إرادة التاريخ، كما أن الطبيعة تجعل النبات والحيوان ـ نسبياً ـ تابعة لإرادة الإنسان وصنعه، هذا بالرغم مما لهما من حياة وحركة طبقاً للقوانين العلمية المسلم بها و«المعينة».

وأنا أفسر حتمية التاريخ التفسير التالي: «إن التاريخ

والمجتمع البشري لا يستندان على أساس المصادفة والعبث، بل على واقعيات مثل كل واقعيات هذا العالم ذات حياة وحركة طبقاً لأصول علمية (وبالمصطلح القرآني: سنن غير قابلة للتبديل والتحويل)[١] وبقدر ما يكتشف الإنسان هذه الأصول عن طريق العلم وعن طريق التكنيك (الأيديولوجية والتخطيط الاقتصادي والثقافي والاجتماعي والسياسي) وعن طريق اختيار قانون بدلاً من قانون آخر، أي استخدام القوانين العلمية كما يهوى في قلب هذين الواقعين، يستطيع أن يغير مسيرها الطبيعي كما يريد، وعن طريق التنبؤ العلمي الصحيح يستطيع أن يواجه المصير الطبيعي لتاريخه في المستقبل ويوجهه إلى المسيرة التي يحددها، وكما يقوم بتغيير شجرة فاكهة برية تنمو طبقاً لسنتها الطبيعية وجبرها الذاتي وتثمر، وذلك عن طريق معرفتها والتدخل في مسيرتها، يقوم بتربيتها ويأخذ منها الفاكهة التي يريدها شكلاً ولوناً، وهو قادر أيضاً على فرض الشكل الخاص الذي يؤمن به من أجل مجتمعه الوحشي المتأخر في أية مرحلة تاريخية يكون فيها، لأن تطور المجتمع وحركة التاريخ نتيجة للعبة «اختيار» الإنسان وجبر التاريخ.

فلو صح الاعتماد على الحتمية التاريخية والتسلسل الجدلي الذي ينادون به، لكان ينبغي على فلاحي الصين أن يقوموا بالثورة الاشتراكية بعد ثلاثمائة سنة، ولكان ينبغي على القبائل العربية البدوية التي لم تكن قد وصلت بعد إلى مرحلة الزراعة، ولم يكن

(١) المترجم: لن تجد لسنة الله تبديلاً. سورة الأحزاب الآية (٦٢) لن تجد لسنة الله تحويلاً. سورة فاطر الآية (٤٣).

قد ظهر فيها حتى شكل الحكومة وهو أقدم الأشكال الاجتماعية في التاريخ، أن تصبر أكثر من ألف سنة أخرى حتى تصل إلى مرحلة تشكيل مجتمع بورجوازي تجاري متقدم وأشكال اجتماعية ناضجة جداً وحكومة مركزية على مستوى الدولة والامبراطورية وإلى ثقافة غنية ذات مجموعة من القيم الإنسانية والعالمية تحتوي على رؤية كونية منفتحة وممتدة.

على كل حال سواء كنا دينيين أو علمانيين، وسواء كنا اشتراكيين أو ليبراليين، ينبغي أن ننظر إلى الإنسان كإرادة ذات دخل، وكعامل يستطيع أن يغير قدره التاريخي باستعداده الإلهي: العلم والخلاقية، ومن هنا فإن الوعي فحسب هو الذي يستطيع أن يغير المصير، ويغير مسيرة التاريخ وفق هوى الإنسان، ومن أجل الوصول إلى هذا الوعي الاجتماعي لا ينبغي أبداً انتظار بلوغ التاريخ مرحلة النضج البورجوازي وتطور أداة الانتاج، وجعل الثورة الاجتماعية موكولة بالازدياد الحتمي للتناقض في قلب المجتمع والنضج الكامل للأطروحة الطبقية المضادة[١].

إن وضع كل نوع من التقدم أو الثورية على كاهل «التطور

---

(١) سوف تقولون: إن الإيمان بحتمية التاريخ هو الذي يسلح الطبقة العمالية بفلسفة تحميه من السقوط بين براثن اليأس والهزيمة المعنوية، لأنه يؤمن بمصير التاريخ المحتوم وهو انتصاره، أجل، هذه هي الناحية الإيجابية لكل جبر. والإيمان بإمام الزمان «المهدي المنتظر» والخلاص القطعي والسقوط الجبري للظلم، والذي ضمنته الإرادة الإلهية يمكن أن يعطي مثل هذا الأمل، لكن الناحية السلبية في هذه العقيدة هي إلغاء المسؤولية الفردية، والسقوط في التواكل، وتفويض الإرادة الإنسانية، وهي المشكلة التي نواجهها.

الحتمي لأدوات الإنتاج» و«المسيرة التكاملية للتاريخ على أساس الصراع الجدلي» يفضي إلى نوع من التواكل والقدرية والتفويض المادي، ويجعل المفكرين من المؤمنين بالقضاء والقدر، في حين أن البحث الدقيق في التاريخ برؤية نابعة من علم الاجتماع والطبقية، وفوق ذلك تحليل الثورات التقدمية التي قامت في المجتمعات التقليدية والمتأخرة في آسيا وافريقيا والتي لم تكن قد وصلت إلى مرحلة الصناعة وتشكيل طبقة البروليتاريا أو حتى نضج البورجوازية كطبقة حاكمة، يوضح هذه الحقيقة التي لم تكن قد عرفت بعد معرفة صحيحة أن أي مجتمع أيا كانت المرحلة التاريخية التي هو فيها، يستطيع الإنسان فيه أن يصل إلى الوعي الاجتماعي كما يستطيع أن يتسلح بأيديولوجية طبقية متقدمة. والوعي يعني العلم بكيفية المجتمع والتاريخ، والظروف الطبقية والأيديولوجية تعني كيفية حياة الانسان وكيفية صنع المجتمع، وبعبارة واحدة: القدر الذي يقول به الإنسان بالنسبة لنفسه وبالنسبة لمجتمعه، والمنظر «صاحب الأيديولوجية» هو المخطط المثالي للمجتمع.

ونتيجة للإيمان بالمبادىء الثلاثة الآتية:

١ ـ إن المتعلمين المثقفين لا يستطيعون مواصلة قيادة الحركات الاجتماعية الأصيلة في مرحلتها الطبقية، والعمل نيابة عن الناس أنفسهم، بل يستطيعها أولئك الأبطال الأميون الذين تتجسد فيهم إرادة الأمة، ويستمدون روحهم ورؤيتهم وحركتهم وصمودهم الفطري والإرادي من قلب المجتمع مباشرة، ولهم جذور في أعمق أعماق الأمة الخصب.

٢ ـ إنه ما لم يصل الناس إلى الوعي وما لم يصيروا هم أنفسهم أصحاب شخصيات إنسانية وتحديد طبقي واجتماعي للوضع، وما لم يرتقوا من مرحلة التقليد والتبعية لشخصياتهم الدينية والعلمية التي تحتكر الفتوى والقدوة (وعلاقتها بالناس علاقة المراد والمريد والعالم والعامي والإمام والمأموم) إلى مرحلة من النضج الاجتماعي والسياسي يكون فيها القادة هم الخاضعون لإرادتهم وخط سيرهم الواعي.

٣ ـ وأخيراً، بالعلم بأنه ليس وجود الاستغلال الطبقي والفقر وانعدام العدالة والانحطاط، بل الإحساس بهذه الواقعيات الموجودة والوعي الصحيح للضمير الاجتماعي والطبقي بالنسبة لها هو الذي يحدث الحركة الثورية الصحيحة الواعية. وإلا فان الأمر كما رأينا وما زلنا نرى كثيراً في التاريخ (والجغرافية أيضاً) أنه ما أكثر المجتمعات التي احتفظت لقرون طويلة بالفقر والتناقض والاستغلال والتفرقة الطبقية والاجتماعية في قلبها، وما أكثر المجتمعات الإنسانية التي توقف فيها التاريخ عند مراحله الأولى وتوقف عن الحركة آلاف السنين، وكأنما لا تصدق عليها قط مقولة من هذه المقولات التي جاء بها علم الاجتماع والاشتراكية العلمية وفلسفة التاريخ والمسير الجبري للجدلية والمبدأ الأصلي الدائم للتغيير والتطور.

والخلاصة أنه بناء على هذه المبادىء، فإن رسالة المفكر المنتسب إلى مثل هذه المجتمعات هي بعبارة واحدة: نقل واقعيات التناقض الموجودة في قلب المجتمع والعصر إلى أحاسيس الناس

ووعيهم، يقول روسو: بينوا الطريق للناس ولا تحددوا ما عليهم، امنحوهم الرؤية فحسب، وهم سوف يجدون الطريق بأنفسهم، وسوف يعرفون ما عليهم.

إن السبب في فشل الحركة الدستورية عندنا، لم يحدث إلا لأن القادة قاموا بتوجيه الناس وتقديم الحلول النهائية دون أن يمنحوهم الوعي الاجتماعي والرؤية السياسية، ورأينا مرة أخرى كما رأينا قبلها وبعدها، إن نتيجة فرض الثورة على مجتمع لم يصل إلى الوعي بعد، ولا ثقافة ثورية لديه، لن تكون إلا مجموعة من الشعارات التقدمية لكنها فاشلة.

التشبه والابتلاء بمرض التغرب:

إن الخطأ الفظيع الذي نقع فيه هو أنه حينما يتحدث مفكرونا التقدميون عن التأثر بالغرب ينسون أنفسهم، ويرون هذا التأثر فحسب في الرجال أو النساء الذين يقلدون الأوروبيين كالقردة دون تمييز واختيار في الزينة والملبس والاستهلاك، وأسلوب الحياة اليومية والتصرفات والحركات والعادات الاجتماعية، في حين أن كارثة الابتلاء بمرض التأثر بالغرب والتقليد غير الواعي يشمل مفكرينا الثوريين واليساريين، وهذا النوع من التغرب أشد وأنكى وأكثر تأصلاً بمراحل من مرض تلك الجماعة «المتفرنجة» التي لا صمود لديها، الجوفاء اللامعة من الخارج أو بكلمة واحدة «المستهلكة العصرية».

إن النساء والرجال العصريين الذين يتفضلون بقراءة مجلات

«مارجو» و«البوردا» و«ايس باري» و«باري ماتش». . . الخ، وتحدد المؤسسات التجارية لكريستيان ديور وغيرها أنماطهم الاجتماعية ورؤيتهم الفلسفية والفنية والإنسانية وتروجها بينهم، وتقوم فلسفة وجودهم فحسب على استهلاك السلع الواردة من رأسمالية الغرب، وما يتبع هؤلاء من قبيل «زن روز» و«مرد جنتلمن: الرجل الجنتلمان» والعصرية والحضارة واتباع العصر والتربية الحديثة والتفكير العصري. . . الخ كلها كلام فارغ. فهؤلاء هم أنفسهم المخرفون الرجعيون المتعفنون المتحجرون والعوام القدماء الذين قامت أجهزة الدعاية الغربية بمحو كل ملامحهم ومحتوياتهم التاريخية والثقافية والدينية والأخلاقية والقومية والعرقية والإنسانية وغسلتها، وجعلتهم عصريين. فالعصري هو الإنسان الذي سلبوا منه كل ما يملك وحولوه إلى «بطن» حريص ملتصق بأجهزة الانتاج الصناعية للرأسمالية العالمية فحسب.

وبالنسبة لامرأة إيرانية أصابوها ببلوى التغرب، أي تغيير يقومون به فيها؟

وأي تأثير لهذا في مجتمعنا؟ كانت تصبغ أظافرها بالحناء الحمراء والآن تصبغها بالمانيكير الصدفي، خلعوا عنها ملابسها القومية وألبسوها الـ «ميني جوب» الذي عندهم، جعلوها اجتماعية: أي أخرجوها من المنزل وأرسلوها إلى شوارعهم وأسواقهم، بحيث تقوم بالشراء من الصبح إلى المساء، وتتحدث عن مشترياتها الجديدة من المساء إلى الصباح، فتجيب بالغيرة «والمنافسة في الاستهلاك على المنافسة في الانتاج» الموجودة

عندهم. وما هو «مانيفستو» هن؟ «زن روز» ومشكلاتهن؟ موضوعات «بر سردوراهن» من صنع السيد مجيد دوامي، ويعد أعظم مظهر لمجدها والسبب الرئيسي لدوامها بين الجماعة أن «جمتها» مصففة بطريقة مثلثة جميلة جداً تعطيها «حالة حالمة» هي من وجهة النظر الفكرية والثقافية في الرؤية الكونية والرؤية الجديدة عند نساء اليوم، قد منحتها تأثيراً عميقاً دائماً.

وحقيقي أن ظهور هذه الموجة العفنة، والكثرة المتزايدة المتصاعدة للجيل «المدبلج» تليفزيونياً وسينمائياً، من نتاجها ما يسمى بالموجة الجديدة وهي نوع من الأمراض الاجتماعية الفاجعة، لكن «الابتلاء بالتغرب» عند المتعلمين والمفكرين الجادين جداً هو الذي أحدث كارثة قومية وشللاً اجتماعياً عميقاً. فالفئة الأولى من البشر الذين صاروا أشياء، فإن التغيير والتحديث والتبديل والأوربة عندهم في الجسم، فهم ليسوا إلا أجساماً، وما لديهم وضعوه تحت سيطرة الغربي، أما الفئة الثانية فهم فكر، وعندما يشك الفكر ويفقد القدرة على التحليل والتحديد والاختيار، ويتحول إلى صورة «مُستَمْلى» للآخرين، فالأمر مصيبة مُيَئِّسة وسوداء، يطرأ عليهم نوع من «الاغتراب الثقافي» وهو أسوأ أنواع الاغتراب، وتصدق عليهم «جدلية» سوردل وايماسيزار وفانون التي كنا قد أحسسنا بها منذ سنوات بشكل مباشر، ذلك أن الاستعمار كان قد جرب وفهم أنه ما دامت الأمة تعتقد أن لها شخصية، فإن النفاذ إليها ليس بالأمر السهل. والثقافة والتاريخ في أمة ما يؤديان إلى شخصية وتعصب، ولا بد للاستعمار من أن ينفذ إلى داخلها

عن طريق فصلها عن تاريخها وجعلها غريبة عن ثقافتها، وعندما يرى المفكر نفسه خواء، فاقد الأصالة، لا جذور له، معطوباً في شخصيته، فلا مفر من أن يقرب نفسه عن وعي أو غير وعي من الأوروبي الذي تبدل أمام عينيه في هذه الحالة إلى أصالة إنسانية مطلقة وصاحب ثقافة وقيم معنوية مثالية وكمال مطلق، يصير مفتوناً به ضائقاً من نفسه، ويعوض بالتظاهر بالسمات الأوروبية فقدانه لخصائصه الأصيلة وفقر شخصيته وخلائها، وهذا مبدأ مسلم به في علم النفس، وإن الفرد الذي لا شخصية له ولا أصالة عنده والتابع الذي لا قيمة له، يقوم دائماً عن طريق التقرب والتظاهر والتقليد بتعويض نقصه نفسياً، وعن طريق إلغاء نفسه وكل ما هو منسوب إليها وإنكارها وتحقيرها، والفرار من كل ما يذكره بنفسه وبماضيه، وعن طريق التشبه بالآخرين يبحث لنفسه عن شخصية جديدة وصفات جديدة وقيم جديدة. ونتيجة لاكتشاف هذا المبدأ من مبادىء علم النفس قام الاستعمار الأوروبي بتخلية الأمم ذوات التاريخ العميق والثقافة العالمية من محتواها وفصلها عن تاريخها وجعلها غريبة عن ثقافتها وبعيدة عن نفسها عن طريق الحيل العلمية الدقيقة وعلم الاجتماع المعقد الذكي، بحيث لا تجد شيئاً داخلها ولا تعرفه، فيقوم بمسخ تاريخها وثقافتها وكل قيمها المعنوية والتقليدية وتحقيرها، وعندما أصبحت هذه الأمم لا تعرف شيئاً عنها، أصبح من العسير أن تصدق أنه كان لديها. وعندما حقق الاستعمار هذا الهدف من أجل دخوله وسيطرته وغارته وإيقاع الأمم في أسرة لم يعد لديه شيء آخر يقوم به، ذلك لأن الأمم

نفسها جاهدت بكراهية وحقد خارقين للعادة في تخريب أنفسها بقدر ما تستطيع، وتحقير دينها وأخلاقها وأصالتها التي مسخت، وبشوق وإصرار ألقت بأنفسها في أحضان الأوروبيين، بل وتظاهرت بالضيق من نفسها وكتمان الروابط الثقافية والقومية والتاريخية عندها، والتوسل بالخصائص الأوروبية والتسليم للقيم التي كان الاستعمار يجاهد في فرضها عليها، وهي - أي الأمم - التي كانت ثقافتها وشخصيتها تلغى من قبل المستعمر، قامت بإلقاء نفسها لائذة بالمستعمر، متشبهة به لتأمن هجومه، هذه هي الجدلية التي اكتشفها سوردل وإيما سيزار في العلاقة الثقافية والإنسانية بين المستعمر «بكسر الميم» والمستعمر «بفتحها»، لأن الطفل عندما يتعرض لغضب أمه، تلجأ إليه هي نفسها من أجل أن يقاومها، ويلقي بنفسه في أحضانها.

وهذا هو الاتجاه الاجتماعي الموجود في نفس الرابطة الجدلية الموجودة في تصوف «وحدة الوجود» عندنا في العلاقة بين الإنسان والله: ممكن الوجود وواجب الوجود. فالإنسان بقدر ما يعرف الله ويدرك صفاته الإلهية، ويحس بوجوده المطلق وكماله الأعلى، ويتحير في عظمته وجلاله وجماله ويعشقه ويعبده، ينفي صفاته كموجود غير الله، وكـ «أنا» منفصلة عن الذات الإلهية، وفي هذا «السير والسلوك» يصل إلى مرحلة لا يجد فيها نفسه، ويغترب عنها، ولا يعرف شخصاً اسمه «الحسين بن منصور الحلاج»، ويصير كله «هو» ويصل إلى مقام «لا» وهو النفي المطلق لنفسه، وبالطبع يصل إلى مرحلة الـ «لا» على الفور، وبالاستغناء عن نفسه

يصل إلى مرحلة البقاء فيه، والفناء في الله من أجل البقاء بالله جدلية عرفانية، وفي هذا التركيب لو وضعنا «العصري» بدلاً من «العبد» والاستعمار الأوروبي بدلاً من «الله»، فإن العلاقة لا تختلف والنتيجة واحدة، الفرق الوحيد هو الفرق بين الله وبين المستعمر «بكسر الميم»، لأنه في هذا التركيب يكون للاستعمار في نظر العصري التجلي والتقدس والجمال والجلال المطلق الإلهي الأعلى، وللعصري تجاهه العبودية والطاعة وذات العبد، الفرق أنه عبد على خلاف عبيد الله، فقد أوصله إلى معبودة ملائك عرش كبريائه.

مثل هذه المخلوقات التي كانت فيما قبل صاحبه ماض وجذور وقيم أصيلة وانفعال داخلي وبناء للذات وغنى معنوي بارز، ووصلت اليوم إلى فقر لم تعد تحس معه بوجودها إلا في علاقتها بالأوروبي وتشبهها به، وإذا سلبت منه موهبة «التقليد والتظاهر والتشبه» تصير وجوداً فاقداً للماهية، تسمي أنفسها «متحضرة»، لأن أول عمل قام به الأوروبي بالنسبة لهؤلاء هو محو كل الثقافات ودفنها وإنكار كل القيم وإثبات هذا المبدأ القائل بأن الشكل الوحيد الممكن للثقافة والحضارة هو أن يضع المرء قناعاً أوروبياً، لا شك أنه وهو يبحث عن التشبه بالأوروبيين يسمي نفسه متحضراً، أما الأوروبي نفسه فهو لا يعرفه بهذا الإسم والرسم، إنه لا يسميه متحضراً، بل يسميه متشبهاً.

والتشبه بمعنى التقليد، إنه ليس أوربياً لكنه «يشبه» بالأوروبي، ولدهشتي الشديدة وجدت نفس هذا المصطلح مع هذه

الجدلية نفسها الموجودة في العلاقة بين الأوروبي وغير الأوروبي، وجدته في الحديث النبوي الشريف العميق:

«**من تشبه بقوم فهو منهم**»، أي أن كل من تشبه بقوم آخرين، ولم يعد له أي ارتباط بمجتمعه، بل ارتباطه بقوم آخرين، وانفصل عن جذوره، فقد صار غريباً عن نفسه، بل مرآة لآخر، ومصطلح Assimilé لفظاً ومعنى هو المتشبه. لأن من يجعل نفسه شبيهاً بآخر يفر من نفسه، ينكر نفسه بعجلة وإصرار، يكتم علائقه بل وفطرته التاريخية والاجتماعية وماهياته الاجتماعية والثقافية، وبتحقير نفسه، يهرب من نفسه إلى أحضان الأجنبي، يجاهد ليصل إلى فنائه فيه وهو الأعلى والأكمل والأجل، وفي مواجهة الأوروبي يحس بمركب النقص في نفسه، ويكون أي أشقر أزرق العينين أفضل من أي واحد من مواطنيه وأحسن منهم، يرى قوله فصل الخطاب، ويفخر برفقته، ويفهمه عن طريق تحقير دينه وتقاليده وقيمه وأخلاق مجتمعه والسخرية منها أنه «استثناء» وأنه بعيد عنهم، وأنه منفصل عنهم وغريب عنهم، بل هو شبيهه، يرى مثله ويحس مثله ويعيش مثله، وكأنه يريد أن يقول له: من يوجد مثلي في مجتمعنا؟ من هم أمثالي؟ من هم؟

منذ ثلاث سنوات، وكنت قد طرحت هذا الموضوع للبحث للمرة المائة وبطريقة مختلفة، وكنت قد طرحته في قاعة المحاضرات، كان السيد «ناصح» وهو مدرس يحضر مستمعاً قد استنتج أثناء المحاضرة نقطة ذكرني بها، وبعد طرحها، لا شك أنها كانت نقطة تتسم بالسطحية وتفتقر إلى الأهمية، قال:

مثل هذا النمط من العلاقة لم يكن موجوداً في احتكاك الأوروبيين بمجتمعنا التقليدي، عندما كان أحد «انماطنا» القديمة يلتقي بواحد من الأوروبيين أيا كان هذا الأوروبي: جاويش أمريكي أو سائح إنجليزي أو فنان فرنسي أو رأسمالي الماني، لم يكن يحس في نفسه بأي إحساس بالنقص أو انعدام الشخصية، بل العكس، كان هو الذي ينظر إليه باحتقار ويستخف به، كان يرى دينه وحياته وأخلاقه وصفاته الإنسانية ومعنوياته وتقاليده وكل ما يتعلق به أكثر أصالة واحتراماً وأفضل مما لدى الآخرين، كان يؤمن بنفسه ويؤمن بأصالته، وكان يحترم كل هذه القيم التي تكون معنوياته وثقافته ويقدسها أكثر، إن التعصب وهو النتيجة المنطقية لهذا الإيمان، و«الشخصية» التي هي تجلي هذه الروح، كانت السبب في أنه كان يرى نفسه في مواجهة الأوروبي «مستقلاً» و«مستنداً على ذاته» ولم يكن يفقد نفسه أبداً، ولم يكن يجعل من نفسه «استثناء» من القاعدة أمامه عن طريق السخرية من نفسه، والتحقير «الناتج عن الفكر والنقد العصري» لدينه ومجتمعه وقومه وآدابه ورسومه وذوقه وتقاليده، ولم يكن يهب مجاهداً لاكتساب شخصية جديدة عن طريق تقليد حركاته وسكناته، ولا يفضل «الخادم الأوروبي عن السيد هنا»، ولا يباهي بصداقته، ولا يفخر أمام قومه فخراً كاذباً بمعرفته إياه، ولا يشكو من ضعفه في لغته الأم وغربته عن تقاليد الناس، ولا يحترف التلفظ الخاطىء عمداً لمصطلحاته بل ولأسماء أعلام الدين والتاريخ والثقافة عنده، ولأنه عاش سنتين أو ثلاثة عيش «الكلاب» في حي السود في باريس أو

لندن أو نيويورك، وتناول الطعام في مطاعم الدرجة الثالثة، و«عاشر» خادمات الغرب والتسعيرة المقررة للواحدة منهن فنجاناً من القهوة بثلاثين سنتاً، لأنه فعل ذلك أصبح يصاب بالغثيان عند رؤية النساء الرجعيات لأنهن يطأطئن الرأس خجلاً عندما يطري جمالهن إنسان وتعلوهن الحمرة بدلاً من تقبيله، ولا يجاهد جهاد المستميت لإجبار جدته «الحاجة بي بي كلبن أغا» على ارتداء الـ «ميني جوب» عند ذهابها إلى رأس الجسر، أو على أن تمشط شعرها على هيئة «ذيل الحصان»، أو يرغم عمته «الحاجة رقية» على وضع نظارة «اودرى هيبورن» على عينيها، ويقوم بكنس المنزل من السجاد والفرش والوسائد التي عاشت مع الأسرة ستين عاماً، لكي يؤثثه بـ «ستيل مودرن» أمريكاني مأخوذ من مجلة الـ «بوردا»، ثم يقوم بعمل الديكور له، ولما كان قد سمع أن الدين لم يعد «موضة» في أوروبا بعد عصر النهضة، يقوم برفع صورة حضرة الأمير «سيدنا علي» من فوق جدران منازل أعمامه وأخواله ووالده العجوز أولئك الذين عاشوا أعمارهم مع الدين وعشق سيدنا علي، وبدلاً منها يقوم تقليداً للمنازل التي رآها في الأفلام الأوروبية ـ لأنه في فترة إقامته لم يدخل شقة أوروبية واحدة تعيش فيها أسرة حقيقية وسليمة، وكل الأوروبيين الذين عرفهم لا يعدون عجائز النسوة إياهن اللائي يؤجرن حجراتهن للأجانب والبنات اللائي في مقابل أن يتعيشن ويظفرن بقهوة أو عشاء أو سينما أو حفلة رقص أو استحمار إلى آخر العمر يحبون النمط الشرقي جداً ـ تقليداً لتلك المنازل التي رآها في الأفلام الأوروبية يضع صورة جين مانسفيلد

التي أعدت من أجل حجرة النوم على جدار منزل والده المصلي وفي موضع القبلة، أو لأن الأوروبيين أصبحوا يعجبون بالفن والجمال الأفريقي بعد معايشتهم له قرنين من الزمان، يأتي صاحبنا ويضع تمثال امرأة زنجية سوداء على رف حجرة جلوس والدته التي تظن أنه تمثال «البعبع» نفسه التي كانت تخوف به اطفالها حتى يسكتوا، في حين أنها نفسها تخاف أن تظل وحدها في الحجرة أثناء الظلام، ومن ناحية أخرى فهي تسعد جداً، لأنها هي الأخرى قد صدقت أن هذا النوع من الأشياء أي مجلة «زن روز» و «اطلاعات بانوان» تعني الخروج عن تخريف العصور الوسطى ووحشيتها.

أجل، هذه الأحوال خاصة بمتعلمينا وحملة الشهادات الجدد عندنا، فإن قدماءنا سواء كانوا من العلماء أو من العامة، لم يبتلوا بمثل هذا الشقاء المثير للغثيان فقد كان الخان والفلاح والتاجر في السوق والفتوة والحكيم والعالم والأديب يؤمنون بأن لهم شخصية وأصالة يفتقر إليها الأوروبيون بكل مالهم وقوتهم ومظهرهم الغربي، بينما هؤلاء الأساتذة العلماء الذين ذهبوا إلى أوروبا، بمجرد أن كانت عيونهم تقع على مستشرق مبتدىء قرأ في مدرسة اللغات الشرقية كتاب «أكابر الفارسية»، كانوا لا يملكون أنفسهم، ويقيمون من أجله الندوات والمؤتمرات، ويتنافسون في التقرب إليه.

كانت تعقد في طهران جلسات أسبوعية، وكان يحضرها البروفيسور هنري كوربن أستاذ السوربون وعالم الإسلاميات

المعروف والمتخصص الأوروبي الفريد في الثقافة الشيعية، كما كان يشترك فيها السيد محمد حسين الطباطبائي مدرس الحكمة وتفسير القرآن في قم وعدد آخر من الفضلاء والعلماء في العلوم القديمة والجديدة. وكان طباطبائي وكأنه سقراط قد جلس وحوله تلاميذه، وكان كوربن العظيم حسن الأدب يجاهد في اغتراف جرعات من هذا المحيط العظيم للأفكار والعواطف العميقة والمتنوعة التي كونتها الثقافة الإسلامية الشيعية.

أية روح وقوة وهبته هذا الثبات في الشخصية والاستقلال الفكري؟ ليس هذا تعصباً قومياً أو غروراً ناشئاً عن جهل، إنه يعرف نفسه كممثل لتاريخ عظيم وحضارة عظيمة وكنز فياض من الأفكار الفلسفية والمواهب الإنسانية والمعنويات الأخلاقية والعواطف والجماليات المدهشة العرفانية والفنية والأدبية، إنه مرتكن على جبل الثقافة البشرية. في هذا الموقف: هناك ثقافتان كل منهما في مواجهة الأخرى، فليس طباطبائي شبيهاً أو متشبهاً بكوربن. ليس شاباً نال الديبلوم أو الليسانس لا يعرف شيئاً عن الدين إلا نصائح أمه و«علق» أبيه من أجل الطهارة وصلاة الصبح ومنابر منشدي الروضة التي يتقاضى الواحد منهم أربعة تومانات أو خمسة، ولم يقرأ من الأدب إلا «موت حسنك الوزير» والمقالة الرابعة في الكتابة والشعر من مقالات نظامي العروضي الأربع وبضع قصائد كتبها متسولو بلاط السلطان محمود المتأدبون، ولا يعرف عن العرفان إلا سحنات حفنة من الدراويش الأقذار المبتلين بالحشيش أو عدد من «الفقراء الميليارديرات» المصابين بالحول

ورؤوسهم في حجور الاستقراطية وذيولهم في أيدي الشركات والخدمات إياها، ولا يدري من التاريخ إلا سير بعض الخانات والسادة وبهذه المواد، وبهذه المعرفة عن نفسه وعن كل ما هو منسوب إليه، يذهب إلى أوروبا ويرى هناك تاريخياً وفلسفة وعلماً وفناً وشخصيات انسانية عظيمة، ويوازن بينها وبين ما لديه من تاريخ وثقافة، ويرى الفرق الشاسع، فلا بد من أن ينجذب، ويهرب من نفسه، ويكتم روابطه الثقافية، وينكر علاقته بتاريخه، وعندما يحس بنفسه وجوداً خالياً من الذات، قشراً بلا لب، وخواء بلقعاً، ومنسوباً إلى دين وروحيات وعرق وماض كله قبيح وسيّىء وحقير، ويضع نفسه في مقابل الثقافة الأوروبية المزدهرة المتقدمة العظيمة، فإنه طوعاً أو كرهاً يلغي نفسه، ويتظاهر بالشخصية الأوروبية ويصبح غريباً عن نفسه، فتتمدد الذات الأوروبية في ذاته الخالية من كل ماهية، ويحس بالقيم والاحتياجات ولميول والخصائص الموجودة عند ذلك الأوروبي محل قيمه واحتياجاته وميوله وخصائصه، ويمسخ إلى الشكل الأوروبي، ويتحول إلى مخلوق ليس نفسه، ولما كانت هذه القيم والاحتياجات والميول والصفات الإنسانية نتيجة لتاريخ وظروف اجتماعية أخرى وقوم آخرين وثقافة أخرى، يصبح مريضاً بأمراض ليست عنده، وغافلاً عن أمراض عنده بالفعل ومستريحاً منها، إنه يتألم من آلام عند آخر، جائع يمارس طريقة «لإنقاص الوزن»، يعيش في مجتمع كادح العمل فيه شاق والطبيعة قاسية والزراعة بدائية، وقد سلب سوء التغذية وفقدان الصحة والأكواخ الرطبة المظلمة الرمق من

الأجساد والحمرة من الدماء والدماء من الوجوه، وجعل السحن المصابة باليرقان صفراء مُغْرَوْرقةً، بينما هو تقليد للذوق الارستقراطي والجماليات البورجوازية يحس في نفسه بآلام تنتسب إلى صالات السهر والحياة المرفهة اللذيذة والراحة واللهو والسكر والرقص والفراغ التام من كل عمل واللون الخافت في لون ضوء القمر والقوامات الخيالية الرومانسية التي هي دليل على عدم العمل والسهر حتى الفجر في النوادي العائلية والطبقية وصالونات الرقص، وثمة معلم يعيش بمرتب لا يضمن له الكفاف، ويدرس في فصول يفيض الجوع فيها من عيون خابية لا رمق فيها غارت في محاجرها وتومض بالموت، ويعيش في مجتمع لا تزال همومه المسكن والخبز والماء والملبس الذي يمنح الدفء والفحم اللازم للشتاء، وعندما يضع رأسه بين يديه ويفكر في نفسه وفي الدنيا وفي الحياة، يحس في نفسه بآلام من نوع الآم «كافكا»، ومخاوف بورجوازية وأحزان غامضة ومضايقات وهمية واضطرابات فلسفية وميول سوداوية ناشئة من حياة شبعة ومليئة ومرفهة لا انفعال فيها ولا نقص، ومستريحة لا ألم فيها بل استغناء مطلق وعبث ناتج عن روح حققت كل أمانيها وبلغت آخر الطريق في الحياة المادية، ولم تعد لذة في الأرض أو نعمة فيها تحرك قلبه.

هذا هو المخلوق الذي لم يعد نفسه، يحس محل ذاته بآخر، مثل مجنون سكنه جني أو شيطان ولم يعد يذكر نفسه، يفقد صفاته وخصائصه وآراءه وآماله وحتى ماهياته الروحية، فقد حلت شخصية الجني محل شخصيته. هذا هو الاغتراب، والاغتراب الثقافي أشد

وطأة من كل أنواع الاغتراب وأصعب علاجاً، والمتشبه هو من دفع إلى الاغتراب بواسطة ثقافة قوم آخرين وشخصيتهم، والذي دفع إلى الاغتراب عن طريق «شيء ما»، نظراً للتباين الواضح بين الذات الإنسانية وذات الشيء، سرعان ما يحس أنه مريض، ويستطيع طبيب نفساني مجرب أن يعالجه بالدواء والوسائل النفسية ويعيد إليه شخصيته المفقودة و«يعيده إلى وعيه». لكن ذلك الذي يصير «مرآة» في مواجهة شخصية أخرى وثقافة أخرى وقيم معنوية أخرى، لا يحس هو نفسه ولا يحس الآخرون أنه مجنون أو مريض فحسب، أو أنه شخصية مبتلاة «فقدت ذاتها» بل إن هذا التحول يرتقي به ويتظاهر به أكثر وأكثر، بل إنه يجاهد جهاداً شديداً من أجل تحقق أكثر لهذا المسخ أو التناسخ الثقافي والتاريخي، خاصة وأن ظروف العصر تساعده على هذا، بل ويساعده الاستعمار بكل قوته المادية والعلمية في هذا التبديل. والمرآة الثقافية مغترب آخر، مجذوب، لا يعد أوروبياً أو متحضراً أوربياً، ليس هذا فحسب، بل ولا يعد شبه أوروبي أو شبه متحضر، إنه «شبه إنسان».

الإنسان وليد التاريخ:

ما هو الإنسان؟ لا شك أن هناك أجوبة عديدة على هذا السؤال مرتبطة بالمدرسة العلمية أو الفلسفية التي نؤمن بها، لكن مهما كانت المدرسة الفكرية التي نؤمن بها: الدين أو الإنسانية والعالمية أو المادية أو الوجودية، لا شك أننا سوف نقول بهذه الخاصية في الإنسان وهي: إن الإنسان وليد التاريخ، ومهما رأينا في مدرسة مبدئية التاريخ من مبالغة، لا نستطيع أن ننكر أنه إذا

كانت النوابغ والشخصيات ذوات الثقافة العالمية (أو امتزج تخصصهم امتزاجاً تاماً بتاريخ آخر وثقافة أخرى) استثناء إلى حد ما، فإن عامة الناس والضمير الجماعي لمجتمع ما والخلاصة العناصر التي تكون الفرد في المجتمع كلها من صنع التاريخ، ومن هنا فالفرد على حد تعبير شاندل: «لم يتكون في فترة عمره فحسب بل في فترة تاريخه» والعمر الحقيقي لكل إنسان هو تاريخه وليس عمره الحقيقي أي سنوات حياته، والعمر المكتوب في بطاقة الهوية لفرد ما هو المدة التي يصنعه التاريخ فيها، الفترة التي يودعه فيها التاريخ تراثه ومواده وخصائصه... ومن هنا فالشخصية الإنسانية لكل فرد هي مجموعة الخصائص التي استمدها من تاريخه، فليس الإنسان شجرة بدأت منذ يوم أن ولدت، بل هو شجرة مدت جذورها في أعماق تاريخها، تتغذى منه دائماً وحتى لحظة الموت.

ومن هنا فأول ما فعله الاستعمار خاصة في المجتمعات ذات الحضارة التاريخية ذات الجذور، هو أنه فصل الجيل الحالي عن تاريخه، ووفق في هذا الأمر لدرجة أن العصريين في هذا المجتمع لم تعد لهم أية صلة بماضيهم، ولم يعودوا يعرفونه، ولا يفهمون منه إلا قدماً قديماً منحطاً وغامضاً (لا شيء يذكر فيه إلا ويعد نبشاً للقبور وغيبة للموتي وتناولا لكل ما هو نخر وخرافي ومعدوم بل ويسمى الميل إليه بالرجعية أي الاهتمام بالماضي دون المستقبل)، وكان من أمرهم أنهم بينما اهتموا باحياء آثارهم الماضية التي لا قيمة لها وحفظها والتعريف بها إلى درجة أنهم يعرضون السروال

الداخلي لعشيقة نابليون في متحف، وفي سنوات الحرب بينما كانت مدن أوروبا تقذف بالقنابل، كانوا يحافظون على آثارهم التاريخية مضحين بالأرواح والأموال، وكانوا ينقلون تذكارات الماضي تحت قصف القنابل ودانات المدافع من المتاحف إلى المخابىء الجبلية، بل وأنفق كثير من علمائهم وباحثيهم أعمارهم كلها في خرائب شوش وبعلبك وجراح وبين النهرين وصحراء بلاد العرب المحرقة ومصر واليمن وأفريقيا وتركستان والصين. . . وفي أقصى العالم وأدناه في استخراج الآثار القديمة وكشف الخطوط المجهولة ومعرفة ملامح تواريخ كل الأمم، وكان بعضهم يمضي على مدى ثلاثة أجيال متعاقبة في هذه الخرائب النائية، بينما هم كذلك نجد عصريينا الذين يشبهون الأوروبيين أي هؤلاء المتشبهين أنفسهم صنيعة الاستعمار تضطرب أحوالهم من كل ما يتأتى منه رائحة القدم والاهتراء، لأنهم كانوا قد اكتشفوا أن هذه الآثار المشؤومة هي التي أصابتنا بالانحطاط والتأخر. ولأنهم ضاقوا بعرقهم وتاريخهم فإنهم يعادون عداوة شديدة كل ما يذكرهم به، ولما كان يذكرهم بمركب النقص عندهم أخذوا يجاهدون في محوه وتجاهله، وأخذوا يعتبرون التاريخ اتجاهاً مناقضاً للمستقبل وعاملاً مضاداً للتقدم والنمو.

ومن ناحية أخرى فإن غالبية الشعوب التي كانت قد فصلت عن تاريخها وثقافتها قد تدهورت إلى مستوى أمم بدائية جاهلة فاقدة للحضارة والثقافة، لأنه على حد قول شاندل «ان أحد أوجه التميز التي تميز المتحضر عن البدائي هو أن يكون له ضمير تاريخي

ومعرفة بالتاريخ وعشق له». فالتاريخ حقيقة عميقة متعالية يستطيع أن يفهمها فحسب إحساس مهذب وفكر منطقي متكامل عند إنسان متحضر ومتقدم، وقد لاحظت هذه النقطة بعيني رأسي عند قيامي بأداء فريضة الحج، وكم هو سخيف ومثير للأسف، فالتحديث الأمريكي الشكل الذي فرض على البدو فجأة في السنوات الأخيرة، وأموال النفط وإلغاء الجمارك أو دفع الضرائب على السلع المستوردة، أمور حولت مكة والمدينة إلى سوقين حُرَّين للبضائع الممتازة للرأسمالية الأمريكية والأوروبية، وأغرقت السيارات من آخر طراز الكرايزلر والشيفورليه ذات (السلندرات) الثمانية وأجهزة الراديو والتلفزيون والأقمشة وآلاف الأنواع من البضائع الفاخرة ولوازم الزينة من إنتاج مرجريت ستور وكريستيان ديور كعبة إبراهيم وحرم الرسول، وأحدثت نوعاً من الحياة البورجوازية الصناعية من النوع الأمريكي بين الأقلية من سكان المدينة في مجتمع بدوي لا يزال يعيش في مرحلة القبلية، ولا يزال نظام الانتاج فيه ومستوى ثقافته على ما كان عليه في الجاهلية، وكما نرى في أنماطنا الجديدة العصرية المتبرجزة، نرى بدوياً يسقط في حياة استهلاك لامعة متأوربة، ويفرط بطريقة مضحكة، وعلى حد قول المرحوم آية الله زاده نوري: «لأنه أتى متأخراً فإنه يسرع في سيره»، فهو يعالج مركب الحرمان والنقص والتأخير عنده بمبالغة مدهشة في الاستهلاك وقبول ما يفرض والتقليد. . . هم أيضاً نموذج بارز للبدو الذين دخلوا مرحلة التحديث دون مقدمات وحياتهم مثال بارز على «فرض الاستهلاك البورجوازي الحديث على النظام

الإنتاجي الكلاسيكي»[١]، وبحرص وحقد وخصومة مجنونة قاموا بمحو كل الآثار القديمة والتذكارات التاريخية المليئة بالمفاخر الإسلامية، وحتى السمات العزيزة للحياة الخاصة والاجتماعية عند رسول الإسلام والخلفاء الراشدين.

وفي مدينتي مكة والمدينة التي تتحدث كل قبضة من ترابهما إلى فكر المرء وعواطفه، ونحس بثقل التاريخ في جوها فوق صدورنا، كنت أسير في كل مكان بإرشاد من التاريخ وكل الحوادث التي صنعت أجيالاً كثيرة عندنا وغيرت عالم البشر، كنت أسير بحثاً عن آثار أقدام، عن ذكرى أو تذكار من تلك الأيام، هنا «شعب علي» طريق جبلي يمتد من جانب المسجد الحرام إلى قمة جبل أبي قبيس، في البداية منزل أبي سفيان، وبعد منحنى يوجد منزل الرسول، ثم منزل أبي طالب ومسقط رأس علي، في ركن آخر مسقط رأس فاطمة وفي النهاية مسجد بلال. والطريق يحتفظ بكل ملامحه ودلائله. وعندما تدخل إليه وتصعد فوق مرتفعه الحاد، تعود ألفاً وأربعمائة سنة إلى الوراء، تحس وكأن النبوة في بدايتها، وبعلي الشاب وأبي طالب الشيخ ومحمد العظيم، وخديجة المضحية، وفتاة صغيرة تسمى فاطمة سوف تلقى فيما بعد مصيراً عجيباً، وبلال.. وأبي سفيان... وهند آكلة الأكباد، كلهم يمرون من هذا الطريق الضيق، من هذا المعبر، يروحون ويغدون، حقيقة في ذلك المكان تلمس التاريخ وتراه، ينبض في قلب تلك

(١) هذا هو ما سوى مزارعنا النضرة وحدائقنا المشهورة بالأرض، تلك المزارع والحدائق التي كان غيد وماسينيون وغوته يذكرونها بحسرة.

اللحظة حياً، البيوت كما هي قديمة بزخارفها وخطوطها وواجهاتها كما هي قديمة.

ولكن تلك المنازل التي كانت لبضع سنوات خلت على طرازها القديم قد سويت من أسسها بالأرض، وأقيمت فوقها عمارة من الخرسانة المسلحة تعلو عدة طبقات على الطراز الأمريكي، وتحتها محلات الخردوات معرض المنتجات الأمريكية الفاخرة، وإذا مضيت في هذه الحارة، تجد محلات أجهزة الراديو والتلفزيون ولوازم الزينة وإلى جوارها خباز بفرن آلي إلى جواره محل حلاق، تحت هذه العمارة العالية، منزل أبي طالب، مسقط رأس علي، وأيضاً منزل فاطمة، المنزل المميز للرسول... فقط على ناصية الحارة وميدان المسجد الحرام كان هناك منزل خرب عمداً، وصار مزبلة للبلدية والناس، وسألت: أي مكان هذا؟ فأجابوا بكل فخر وحماس وإحساس بالتوفيق الديني: هذا منزل أبي سفيان اللعين، حول إلى مزبلة، ولا يزال فيه مظهره القديم تشاهد فيه الأقواس والطاقات، وسوف تكون مكة والمدينة بهذه العصرية الجاهلية بعد عدة سنوات في وجود أموال النفط وانعدام الإحساس التاريخي والتعالي، ووجود عقدة لعبة التحديث التي تزداد بصورة جنونية سوف تكونان مدينتين حديثتين مثل واشنطن ونيويورك، وسوف تدفن كل الآثار التاريخية تحت ناطحات السحاب والفنادق وقصور جلالة الملك والأشراف المقربين. هذا، في حين أنه في إيطاليا، تجاهد بكل ما لديها من ذوق وتعصب وفن ومال في المحافظة على فلورنسا كما هي ولا تقوم بتحديثها، في حين أن العصرية من

عندهم، وهي هناك حالة طبيعية، وكل منزل خاص ينهدم ويحتاج إلى ترميم، ليس لصاحبه أن يبنيه على ذوقه خاصة واجهته، والشارع الرئيسي في المدينة بالرغم من أنه منذ العصر الروماني، وبالرغم من أنه هبط كثيراً عن مستوى المدينة، قد ظل على حاله لم تمسه يد، ببلاطه الأصلي بل وبالأعشاب البرية التي نبتت بين حجراته وعلى جانبيه، أما في البقيع: في تلك الجبانة التي دفن فيها كل صحابة رسول الله وآله وكل الشخصيات البارزة الأولى، تقاطر الجنود ذات يوم، وكمزرعة بور ألقوا بالجرارات، حتى الأسماء محوها، والسبب؟ أنه لا توجد في الإسلام عبادة قبور، إذ إنها تتحول إلى أضرحة ويأتي الزوار ويدورون حولها ويزورونها وربما يقبلونها، وفجأة أحسست بالخوف من أن يغضب هذا الإسلام الأمريكي ـ بتعبير سيد قطب ـ لأن بعض الحجاج العوام يقبلون الكعبة أو نوافذ قبر الرسول وأبي بكر وعمر «إلى جوار أن أضرحتهم مختفية»، ويقوم المشايخ الذين جعلوا الحدود مفتوحة بحجة أن أخذ الجمارك على البضائع حرام في الإسلام «ولعلها البضائع الأمريكية فحسب»، حتى يحمل الأمريكان النفط، ويأتون في مقابلة بروبابيكيا النفط، يقوم هؤلاء المشايخ ـ لا قدر الله ـ بالهجوم عليها بالجرارات، وبناء عمارة «للكشافة» مكانها حتى لا تتكرر كل هذه المعاصي في الإسلام[1]. في المتحف البريطاني في

---

(١) رأيت في صحراء منى في الجزء المتصل بمدينة مكة عدة عمارات مكونة من عدة طبقات قد ارتفعت ثم توقفت، وظلت بقية الأرض على حالها صحراء مليئة بالحصى. وسألت عن السبب، قالوا: عندما بنوا هذه العمارات انتبه المشايخ فجأة=

قسم الآثار الإيرانية القديمة، أحد الحجارة المنقوشة النادرة التي ترجع إلى فترة ما قبل الإسلام، وهو عبارة عن لوح حجري كبير، وقد انفعل صديقي الدكتور ناصر بقائي، الذي كان آنذاك في باريس رفيقا في الدراسة، عند رؤية هذا اللوح الحجري بشكل غير عادي وقال: عندما كنا صغاراً في كرمان، كنا نذهب مثل بقية أهل كرمان إلى ماهان، وكان منتزهنا هو الحديقة الجميلة لضريح الشيخ نعمة الله ولي، وذات يوم وقر في الأذهان أن هذه القطعة السوداء من الحجر ليست جديرة بمقام الشيخ، وتعهدت مجموعة من أهل الخير بإعداد حجر قبر من المرمر النفيس جيد النحت من أجل القبر. ولم يمض كثير حتى تم إعداده، وحملوا هذا الحجر وألقوه بعيداً، وسعد الناس كثيراً لمعرفتهم بقدر الشيخ وتكريمه وشكروا الله، ولم يعد أحد يحفل بهذه القطعة من الحجر التي لا قيمة لها، ثم محيت من الأذهان، والآن آراها هنا، عندما يكون المرء بدائياً فاقداً للثقافة، لا تكون رؤيته وإحساسه قادرين على إدراك قيمة التاريخ وجماله.

الضمير التاريخي:

إن الضمير التاريخي خصيصة من خصائص الروم المتحضرة، والمحافظة على هذه الآثار وإحياؤها ومعرفتها يدل

= إلى قول الرسول ﷺ: لا بناء في منى، فخربوا هذه العمارات، وفهمت كنه المسألة، واستقصيت فوجدت أن فهمي في محله. هذه الأراضي المتصلة بمكة ملك لبعض رجال الحكم، أما الأراضي الأخرى إما أنها بلا صاحب أو ملك أناس بلا صاحب، والبناء فيها حرام لا شك.

على الماضي المستمر والقرون والأجيال الدفينة، ليس لها فحسب قيمة عاطفية أو فنية أو علمية، لكنها تهب التحقق لتداوم تيار التاريخ والارتباط الثقافي والروح القومية. والاتصال التاريخي هو الذي يحقق رباط الجيل الحالي بماضيه الذي تشكلت فيه شخصيته. وقد قام الاستعمار بجهود علمية ومتصلة بعلم الاجتماع ومعقدة جداً وغامضة لكي يضع «أشباه متحضريه» في الأمم الإسلامية المتحضرة في الهند والصين بطريقة تجعلهم يعتبرون التقدم والعصرية نقيضين للتقاليد والتاريخ، وباسم الواقعية والتقدم، يقومون بإلغاء ماضيهم ومحو تاريخهم، ويهربون منهما بحقد وكراهية شديدين دليلاً على العصرية وتقدم الفكر.

عندما كنت عائداً من سويسرا إلى إيران، كان رفيقي طالباً جامعياً تركيا من أهل أزمير، مهندس زراعي تعلم في سويسرا، أي رفيق أفضل من هذا؟ قلت في نفسي: سوف يوضح لي كثيراً من النقاط المجهولة والعقد الغامضة والدقيقة في «الفن المعماري التركي» من النواحي الدينية والثقافية والسياسية والاجتماعية، وسوف يقوم بهذا بأطراف أصابعه، فهو شاب متعلم رأى الدنيا وأيضاً يتحدث الفرنسية جيداً، ولم أستفد شيئاً من حديثي معه لعدة أيام. . . وهذه قصة أخرى. وعندما دخلنا استانبول رأينا عرضاً عسكرياً. . . وسألت: ما الخبر؟ قال: إن الجيش التركي يحتفل بمرور أربعين سنة على تأسيسه. قلت: أربعين قرناً؟ وضحك وقال: لا، أين عقلك، أربعين سنة، وسألت ثانية: أربعين ماذا؟

وأكد ثانية: أربعين سنة، ثم فسر لي أنا الذي أجهل تاريخ تركيا وماضيها: إن الدولة التركية والمجتمع التركي والجامعة والحضارة والمؤسسات الاجتماعية والثقافية والحكومة والجيش في تركيا كلها أسست منذ أربعين سنة، ولم أستطع تحمله بعد ذلك، وفررت من رفقة هذا المفكر الذي ينتسب إلى أمة حديثة الظهور، حديثة العهد بالإنسانية، يعود تاريخها إلى نصف عمر إنسان، وكأن سماء القسطنطينية لا تزال تذكر آخر حادثة عظيمة وهي بالنسبة لي كأنها حدثت بالأمس فحسب: جيوش السلطان محمد الفاتح تدخل في سنة (١٤٥٣) ميلادية من بوابات هذه المدينة التي كانت قلب الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وأعظم مراكز حضارة القرون الوسطى، وتقذف بالمسيحية بحضارتها الرومانية الشرقية القومية من هذا الشاطىء للبحر المتوسط إلى الشاطىء الآخر، وهذه السنة (وليست سنة أن أسس جيش تركيا المسلمة الحالية) اعتبرت نهاية العصور الوسطى وبداية للعصور الحديثة في الغرب.

وهذا المتشبه الغريب عن نفسه الخواء، السيد المهندس الذي تعلم في سويسرا، الذي سوف يصبح غداً استاذاً في الجامعة أو وزيراً للزراعة في تلك الدولة وصفوة الطبقة المفكرة في مجتمعه، لا يدري أن جيشه قد أسس بقيامه منذ ستة قرون بأعظم ملحمة عسكرية تاريخية صارت بداية لفصل من فصول التاريخ البشري، ومن ذلك الوقت فما بعد قام بتأسيس أعظم إمبراطورية غريبة في القرون الوسطى والقرون الحديثة، وكان يسيطر على كل دول أوروبا الشرقية واليونان، وإن المآذن والمساجد الفخمة التي

بناها أجداده لا تزال في يوغسلافيا وبلغاريا ورومانيا واليونان دليلاً على عظمتهم وقوتهم ومدى نفوذهم السياسي والثقافي والفكري، وأنهم تقدموا حتى فرنسا وإيطاليا، وحاصروا فيينا عدة مرات حتى أوائل القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، وكانت لهم أعظم قوة بحرية في البحر المتوسط. . . . وماذا أقول؟ منذ ألف سنة صدوا الحروب الصليبية وسيل هجوم جموع الغرب المسلحة في الدول الإسلامية، ولا تزال سيوفهم ودروعهم ومدافعهم التي نقشت عليها آيات الجهاد في المتاحف العسكرية في أوروبا تدهش كل من ينظر إليها. . . وماذا أقول؟ قبل أن يكون هناك إسم للغرب المعاصر في العالم، وأشرق الإسلام بنوره من الشرق، كانت هذه الأرض مهد الحضارة البيزنطية والرومانية الشرقية، ومنذ ألف عام يدل تاريخ هذه الأمة على القوة العسكرية والحضارة والعلم والإيمان والثقافة والإمبراطورية العالمية والسيطرة المطلقة على البحر المتوسط، وكانت «عقاباً» حط على أبراج القسطنطينية السوداء، وعلى حدود تقع بين الشرق والغرب بين العالم المتحضر القديم والعالم المتحضر الجديد، ألقى بظلال جناحيه على الشرق والغرب معاً، وحتى الحرب الأولى كانت أعظم قوة إمبراطورية وعسكرية في أوروبا وجزء كبير من آسيا، وكان العرب واليونان وشمال أفريقيا وكل أوروبا الشرقية تحت سلطانها، ومنذ أربعين سنة، ونتيجة للتكتيك العسكري الأوروبي من قدامها والخنجر الإسلامي الإيراني العربي من ظهرها تركع على ركبتها، ويأخذ منها الانجليز بلاد العرب، وتفصل أوروبا اليونان وبلغاريا ورومانيا

ويوغسلافيا، وتحصرها في مضيق، ثم يطفو على سطح السلطة أتاتورك وبقية الشباب المتعلمين المتأوربين الذين كان السلطان العثماني قد كلفهم بدراسة التكتيك العسكري الأوروبي والعلوم الأوروبية الحديثة واللغات الأوروبية ومعرفة الحضارة الأوروبية ليقفوا في وجه الهجوم العسكري والاقتصادي السياسي والثقافي لأوربا، وتفتت تلك القوة العالمية العظمى، وتبدلت الإمبراطورية العثمانية الواسعة إلى دولة مهزومة مجزأة صغيرة، ومن بين كل الأقطار الغربية والآسيوية والأفريقية يبقى لها استانبول وأنقرة فحسب، ثم تصير اللاتينية أبجدية لها، ويأتي جيل جديد يتعلم بهذه الأبجدية ويعتقد أن تاريخه يبدأ منذ أربعين سنة أي من الحرب العالمية الأولى، أي تماماً منذ أن هزموا وفتتوا وبلغوا منتهى الضعف والحقارة، والجيش ـ مع كل تلك الملاحم الموجودة في ماضيه ـ يبدأ تاريخه منذ اللحظة التي هزم فيها... عجب وأي عجب.

وذهبت إلى مكتبة استانبول بكل شهرتها في عالم الثقافة والكتاب كخزانة جمعت عبر القرون المجيدة الحافلة بالقوة الإسلامية، رأيت قاعة المكتبة تقص حكاية المجد الغابر، لكن فوق كراسي هذه القاعة يوجد هنا وهناك عدد من المستشرقين قد جلسوا إلى المخطوطات، أما من الأتراك فقد رأيت فقط المرحوم أحمد آتش وهو من علماء الفارسية المشهورين يستطيع أن يقرأ هذه الخطوط المنسية، أما الآخرون فهم ينظرون إلى هذه الكتب وهي خزانة ثقافتهم ومعنوياتهم وماضيهم وشخصيتهم، تماماً كما ننظر

نحن إلى النقوش الموجودة على «تخت جمشيد»[١].

وعلمت أنه كان ينبغي في البداية أن يحول هذا المهندس الشاب المتعلم إلى غريب عن هذا الماضي، ثم يقال له: أجل، إن كل ما تملكه من التاريخ هو أربعون عاماً فقط، أنت من أمة عمرها عمر الدول الأفريقية التي ظهرت حديثاً، مثل تشاد وتوجو والكونغو برازفيل واتحاد جنوب أفريقيا، إلى جوار أنه تاريخ بدأ بالهزيمة، أي أنك لم تكن شيئاً ولست شيئاً، ونحن الذين ألبسناك ما تلبس، وعلمناك الحياة، وما لديك من فكر، وعلم ولغة وكتاب وجامعة وحضارة... كل ما لديك نحن الذين قد أعطيناك إياه.

وسألت: لماذا وأنتم مسلمون تجعلون يوم الأحد عطلتكم الأسبوعية مثل الأوروبيين بدلاً من يوم الجمعة؟ وما قدمه من تحليل عاقل جداً، قال: إن الجمعة في النهاية عيد ديني إسلامي وهو يوم مقدس، فلو عطلنا الجمعة سوف يذهب الجميع للعبث واللهو والفسق والفجور ومن هنا أمروا بالعمل يوم الجمعة، والعطلة الأحد، حتى يكون كل ما يقومون به من فظائع في اليوم الديني عند المسيحيين.

وتنورت، ظننت أن الأمر نتيجة للارتباط الاقتصادي

---

(١) المترجم: أثناء إقامتي لمدة عام في استانبول لدراسة اللغة التركية في جامعتها، سألت عن أعظم أساتذة الأدب التركي لأحضر محاضراته، ولما ذهبت، وجدته مشغولاً مع الطلبة بقراءة نص عثماني مؤلف فقط منذ حوالى خمسين عاماً. وكم كان الأمر شاقاً على الأستاذ والطلبة.

بالغرب، وأنهم لهذا عملوا أيام الجمعة، وعطلوا أيام الآحاد، حتى يكون العمل في السوق الأوروبي والسوق الإسلامي معاً، ولكن بتحليلهم الروحي الديني تنبهت إلى أن الأمر ليس أمراً اقتصادياً بل إسلامياً، وسعدت بالطريقة التي تنتقم بها دولة الجهاد الإسلامي والمجاهدين ضد الصليبيين والمقاتلين العثمانيين، وكيف تنتقم بخبث من المسيحيين.

وفي اليونان، كنت ضيفاً على اتحاد طلاب أثينا بدعوة من الطلاب اليونانيين، في أوروبا، وكنت سعيداً أنني سوف أكون بين جماعة من المتعلمين المفكرين، وسوف أعرف اليونان العزيزة معرفة دقيقة وصحيحة، فإن الوطن الحقيقي لكل إنسان مسقط رأسه بل ثقافته، وأنا الذي اعتبر قلبي بجوار بيت إبراهيم، أعتبر عقلي في أكاديمية أثينا، وأحب هذه المدينة بوله، بحيث إنني كلما كنت أضع قدمي على ترابها كنت أحس بجسدي يرتعد، وكأن ما تحت قدمي ليس تراباً وحصى بل عقلاً وقلباً وعيناً وأذناً، وعندما نزلت من القطار، كان العمال يشقون جدولاً على جانبي الطريق، وعندما كانوا يخرجون التراب البني الناعم الرطب، كنت أنظر إليه وكأنه تراب مقدس معجز امتزج بالعقل والجمال والنبوغ، وكنت أتعجب: لماذا لا يحس العمال باحترام نحوه؟ وفي أثينا كان الطلاب الشغوفون المخلصون اليونانيون قد أحاطوا بي، وكانوا جميعاً يتحدثون عن «الأخبار» و«المسائل الجديدة»، وأنا من كانت شخصيات الميثولوجيا اليونانية العجيبة مثل زيوس وبرومثيوس وتميس وجدا وأطلس وفينوس وباريس وهيلين وايفو قد أطلت

برؤوسها في داخلي، وكأني أجد نفسي بينها، لم أقرر رؤية جبل الأوليمب، بل قررت رؤية جبل بارناس لأرى أين توجد بنات زيوس التسع وكل واحدة منهن إله واحد من الفنون التسعة الجميلة في العالم، وأن أذهب لزيارة معبد دلفي، المعبد الذي كانت له حكايات مع سقراط، وقام سقراط والذي شهد آلهته العادلون بأن سقراط هو «أعلم أهل أثينا»، وقام سقراط بهذا البحث الذكي ليرى لماذا اختاره آلهة دلفي الصادقون من بين كل رجال الدين والحكماء والشعراء والفنانين كأعلم رجل وهو رجل جاهل، وفي النهاية يفهم أن السر في هذا الاختيار هو أنه وحده من بينهم الذي يعلم أنه لا يعلم شيئاً، ومن هنا اعتبرته آلهة دلفي أعلم أهل أثينا، والأكاديمية، تلك الحديقة التي كان أفلاطون يلقي فيها دروسه ويتحدث وقد تجمع الشباب حوله، وهوميروس ذلك الشحاذ الأعمى، وتلك المحكمة التي أدانت سقراط، والجبال المحيطة، وكأنني أسمع فيها الصوت المجلجل لديموستين الشاب، الذي قام دفاعاً عن حقه في المحكمة، ومواجهة أقوى محامي العالم، يتدرب وحيداً على الخطابة في غار غرس في جدرانه سيوفاً لكيلا يستطيع أن يقوم بحركة لا هدف منها أثناء التدريب على الخطابة. وهذه السماء العجيبة والحافلة بالأسرار لزيوس، وعالم كل تلك الآلهة المشهورة في الأساطير، وبرومثيوس أعز أصدقاء الإنسان، الذي في سبيل خدمة الإنسان ومنح عالم الأرض العشق والنور، فضل العبودية والعزلة في جبال القفقاز على كبرياء ألوهيته في السماء.

أية أفكار عجيبة وجماليات وحقائق موجودة في هذه

الأساطير وأحبها أكثر مما أحب التاريخ، وتفعم قلبي بالانفعال والذكر والعشق، وهانذا غريق في هذا المحيط للثقافة والفلسفة والجمال والنبوغ، أخذت أسألهم بحرص وشوق عن قصص التاريخ أو الأساطير أو أثر من آثار ذلك العصر الذهبي المليء بالمفاخر، الذي لم يمنح اليونان وحدها بل منح البشرية جمعاء القوة والفخر والغنى ولا يزال جارياً مفعماً بالانفعال، أما هم فإما أنهم كانوا يقولون: لا ندري، أو يتفضل أحدهم بتقديم جواب أبتر يدل على أنه يريد أن يقول: أجل كأنني سمعت عن شيء مثل هذا، وعلى الفور كانوا يتحدثون عن الشوارع الجديدة التي بنيت أو الحديقة الجميلة جداً التي غرست في أطراف المدينة لتكون منتزهاً عاماً، وشارع فورسفوريوس أفخم شوارع أثينا، والفنادق ذات الثلاثة نجوم والمحلات الفاخرة والنساء اللعوبات والشبان المتسكعين ودور السينما والمطاعم وصالات الرقص وكل ما هو جدير بالرؤية ولطيف قد تجمع فيها، وأدركت أيضاً أنه يبدو وكأن تاريخهم قد بدأ منذ أربعين سنة، أي منذ تلك السنة التي فصلهم الغرب فيها عن الإمبراطورية العثمانية، ومنحوهم استقلالهم، لا بد بمساعدة لورنس يوناني(١).

ثم، وعندما ذهبت إلى أرض الاستعمار الأصلية، ورأيت أوروبا الحديثة والموطن الأصلي لنفس هذا الرقي والحضارة والقيم

---

(١) المترجم: إشارة إلى دور ضابط المخابرات الإنجليزي لورنس في تعبئة العرب ضد الدولة العثمانية قبيل الحرب الأولى وخداعه إياهم بفكرة القومية العربية ومنحهم الاستقلال بعد هزيمة العثمانيين.

والعلم والصناعة والتقدم والاهتمام بالمستقبل، رأيت أن هذه الفلسفات من أجلنا فقط نحن أشباه الأوروبيين في الدول الشقية، وأنهم أعدوا أشباه المفكرين هنا على هذا النسق، وإلا فإن لندن وباريس ليستا في الأصل مدينتين حديثتين، بل متحفان في مدينتين، ففي كل حارة داخلية فيهما، حتى المكان الذي سقط فيه فلان عضو المقاومة الفرنسية على يد النازي مكان متميز، على جداره نقش إسمه وأوصافه وبقيت ذكراه خالدة، وحدائق المدينة وممراتها وميادينها كلها مليئة بتماثيل شخصياتهم التاريخية بلوحة تعرف بهم للجيل الحالي، والكنائس بل والجسور والجدران القديمة والمهدمة الباقية تذكاراً من العصر الروماني القديم أو القرون الوسطى مرحلة اختناقهم الملعونة المنبوذة كلها محفوظة كنور عيونهم، وكل صبية أو غلام في المدرسة يعرف تاريخه وشخصيات تاريخه العظيمة وثقافة دينه جيداً، وطلاب المدرسة المعمارية ومدرسة الجسور ومدرسة الطرق والمدرسة الهندسية العليا يعرفون جميعاً كل آثارهم الفلسفية والأدبية العظيمة القديمة والحديثة، ويعرفون كل قصص التوراة وسيرة المسيح والمسيحية، بينما هذا الجيل الخاوي من أشباه المفكرين عندنا وأشباه العصريين الذين ربوه وصنعوه وقاموا بعملية غسل دماغ وقلب له من الداخل والخارج، بحيث إنهم عندما يرسلون سفينة الفضاء أبولو، وعندما يفتتون الذرة، يقوم هنا بنفخ أوداجه، ويدلي برأيه بفلسفة ويقول: سيدي، اليوم في عصر الذرة والصاروخ، يكون الحديث عن الآداب والدين والتاريخ ومثل هذه الأمور في الواقع... الخ، إن

«علم اليوم» ألقى بهذا الكلام بعيداً، والواقعية. . . ومبدئية الاقتصاد. . . الخ.

إنك هنا تهرف في الغربة، وتدق في سوق النحاسين، وتهاجم الدين الذي لا تعرف عنه شيئاً معتمداً على أقوال إينشتاين وداروين ووليم جيمس، وأنت لا تعرف أيا منهم، بينما هم من أبرز الشخصيات العلمية تدينا في العالم، وأنت ـ بناء على أقوالهم ـ تعتبر التاريخ رجعية والتقاليد قدماً والتعصب جهلاً والآداب أوهاماً، وهم أنفسهم يعتبرون التاريخ عين الشخصية الجياشة، ويعتبرون التقاليد خاصية اجتماعية وثقافية، والتعصب مبدأ أخلاقياً وبشرياً والآداب روحاً لحياتهم وفخراً لحضارتهم. ومن هنا فإن الحضارة والعلم الجديد الذي عبؤهما في «حزم» ذات قوالب «وصدروه لاستهلاكنا غير ما هو لديهم وما يفهمونه بالفعل، فالذي لديهم هو من أجل تحويل متعلميهم إلى مفكرين ومن أجل حضارة مجتمعاتهم، أما الذي يرسل إلينا فهو من أجل أشباه الأوروبيين حملة الشهادات عندنا وعصريي مجتمعاتنا، أي أولئك الرفاق المعنويين المنجذبين إلى سادتهم الأوروبيين، العارفين بالطريق وفاتحيه أمام الاستعمار الأجنبي المتجه إلى مجتمعاتهم المحلية، وخبراء تحويل المجتمع إلى سوق من أجل السلع الاستهلاكية الكمالية للجهاز الصناعي العظيم، جهاز الرأسمالية الغربية.

ومن هنا قلت في موضع ما: «عندما يقول أحدنا سعيداً: حسناً قد صرت متحضراً، يبتسم هذا الرأسمالي الغربي بانتصار وهو يقول: نعم، وجدت مستهلكاً جديداً».

الاحساس بالماضي ومعرفة الذات في الشرق:

إن الإحساس بالماضي ومعرفة الذات في المشرق هو أحد وجوه التميز في الرؤية والروح الثقافية والفنية عند الشرقي. يقول البروفسير هوغ مؤلف «الفن المعماري الإسلامي» وهو من متخصصي الفن الشرقي: إنه التقى خلال عمله بهذه الحقيقة والشهادة التي قدمها قابلة للتعميم في كل الوجوه المعنوية الشرقية وهذا التعميم كان أستاذي البروفسور «برك» أحد مؤسسي علم اجتماع الأمم الإسلامية يفسره بهذا التعبير الذي قاله ذات يوم في إحدى حلقات الدراسة في الكوليج دي فرانس التي اشتركت فيها: «إن الكلاسيكية حية في الشرق، ذات نشاط، تتمتع بقدر غير معتاد من الحياة والحركة والحرارة» إنني أحس بهذه الخصائص في كل أعضاء القوام الاجتماعي عندنا، وأرى مظاهر هذه الروح دائماً، وتتوالد آثارها المختلفة في صميم قلب مجتمعاتنا، ونحن في احتكاك معها على الدوام، ولكن للأسف يعجز مفكرونا عن رؤيتها لأنهم يرونها بعيونهم الأوروبية الصناعية وإما أنهم لا يرونها وإما أنهم يحللونها تحليلاً سطحياً مصطنعاً عصرياً بحيث تكون عامية جداً ومنفرة، فالعامي الذي لا شعور عنده ويحلل كل القضايا بفلسفة شديدة وبحسم، ويوضح كل المجهولات على الفور منفر، والآن ليست مصيبتنا في الأمية، بل في نصف أمية مفكرينا، وما هو على الأعمى واضح وضوح ما هو على المبصر فالأعمى لا يخدع أحداً ولا يخدع نفسه، يضع يده في يد مبصر ليصحبه ويسير به في الطريق، لكن هذا النصف أعمى الذي يشد قامته ويلقي بنفسه وسط

الشارع وهو أقل خشية وأكثر حركة من المبصرين، يسقط تحت السيارات، فيكون مصيره الألم أو الموت، ويسبب الصداع للآخرين. انظروا إلى فرانز عالم الاجتماع وعالم الثورات وصاحب المدرسة، عندما يشاهد قضية «رجعية ناشئة عن الخرافات المذهبية والجهل العام وانعدام الثقافة وعبادة القديم والجمود الفكري ومحدودية الرؤية الكونية وعدم معرفة العالم المعاصر والبعد عن روح العصر وحتمية التاريخ «بين قروبي الجزائر، انظروا إليه كيف يقوم بتحليلها، وكيف يجاهد ليعلم جذورها التاريخية والاجتماعية والنفسية، ويجدها، ثم يحكم بعدها، هو الذي كان طبيباً ومحللاً نفسياً شاباً من جزر الأنتيل في أمريكا الجنوبية، وكان يدرس للتخصص في باريس، انضم إلى الشعب الجزائري عندما بدأ ثورته، وتجنس بالجنسية الجزائرية (تماماً في الوقت نفسه الذي أعلن فيه موريس تورز رئيس الحزب الشيوعي الفرنسي العريق الذي يضم عدة ملايين أن الجزائر ليست أمة، إنها في سبيلها لأن تكون أمة، أي أمة في حالة التكون[١] أي شهادة بالحرية للمستعمرين الرأسماليين والعسكريين آكلي البشر من أمثال الجنرال

---

(١) كلهم هناك نسخة واحدة، لا تغرنك الأسماء والادعاءات، وعندما يؤمنون بالعالمية فبشرط أن تكون أمتهم هي قلب الأمم، هم الوطن الأم والآخرون أتباع، إخوة صغار مرؤوسون وأقمار صناعية تطوف بباب الحبيب وسقفه، وإذا أراد واحد منها أن يدور في فلك نفسه، فينبغي طرده من الوجود بالتعاون والمعايشة السلمية مع القطب الآخر، وفي هذا الربع الأخير من هذا القرن لدينا من التجارب في هذا المجال بالقدر الكافي وزيادة تثبت أنه تحت هذه السماء لا منطلق لهم إلا أنفسهم، وفي دين اليوم تستوي الكعبة ومعبد الأصنام، وينبغي أن تقام الصلاة إلى قبلتهم فحسب.

سالان وسوستيل وأرغو في ما يفعلون، أرغو الذي كان يصيد السود في غابات أفريقيا مع ولده، ليتعلم ابن السيد الرماية وصيد الحيوانات، وكان يكتب إلى زوجته في باريس: أجل أحوالنا بخير، كلنا بخير وسعداء، أحوالي وأحوالى كلبي، وأحوال العرب تبعي) كان فانون قد صادف في الجزائر حقيقة اجتماعية تشير إلى أن القرويين كانوا يبرزون حالة من الرعب تجاه كل ما كان ومن كان غريباً عنهم من نتيجتها حالة هروب إلى الداخل، خاصة عندما يلتقون بوجه أو عنصر مجهول وجديد، كانت فرق الصحة التي تذهب إلى الريف لتقوم بالتطعيم والتحصين والتطهير والعلاج ومكافحة الأمراض المعدية وتحسين مستوى الصحة في البيئة تواجه بالخوف العام من الناس في حين أنهم لم يكونوا يحملون شيئاً إلا بعض الأقراص والمحاقن، كان الناس ينظرون إليهم كذئاب آكلة للبشر، وعندما كانوا يذهبون إلى البيوت، كانوا يخفون أطفالهم عن موظفي الإحصاء أو الأطباء، وكانوا يقدمون عن عمد معلومات خاطئة عن دوابهم وغنمهم وحدائقهم وأراضيهم، بل وإجابة عن أسئلة عادية من قبيل العمر أو العمر عند الزواج أو وجود القرابة بين الزوجين أو انعدامها، أو سعة الفناء وتعداد الحجرات ولوازم المطبخ، كانوا يجاهدون في سبيل إعطاء أرقام غير صحيحة ونقاط غير مرتبة وبعيدة. كانت المشكلة الملحة عندهم هي كيف يقللون معرفتهم بهؤلاء قدر الإمكان، وكيف يخفون أنفسهم أكثر مما يستطيعون، وكأنهم كانوا يرون أنفسهم وحياتهم طلسما لا ينبغي أن تقع عليه عين لم يُؤْذَنْ لها، بل لا ينبغي عليه أن يلحقه هواء لا

ينبغي أن يفض وإلا بطل، وفقد معناه وروحه وأثره واحترامه. مثل هذه الظواهر جربتها هذه الفرق في كل الدول الآسيوية، فبمجرد دخولها القرية، كان أكثر الناس أحياناً يصطحبون نساءهم وأطفالهم إلى الجبل أو إلى الصحراء، وعندما كان البلاء ينصرف عنهم على خير كانوا يعودون مطمئنين إلى منازلهم وحياتهم، وعندما كان يلزم أخذ بعض الدم اللازم للتجارب الصحية، فإن المصيبة تكون أشد وأنكى، فلا أحد يشك بعد في «أنهم يريدون أيضاً أخذ دمنا» وأكثرهم تفاؤلاً وفهما كان يقول «لأنه يلزمهم في المستشفيات وفي الحرب لجنودهم الجرحى و. . . ومن أجل أن يصنعوا منه شراباً وحقناً يشربونها ليقووا، أو. . . لا. . . يشربونه كما هو، إنهم يشربون دم البشر، فلا خشية عندهم ولا دين، لا يفهمون النجاسة والطهارة، إنهم يشربونه أو يبيعونه. . . الخ»، أما أكثرهم تشاؤماً فأولئك الذين لم يكن فكرهم يصل إلى هذه الأفكار الدقيقة، فكانوا يقولون: «لا. . . إن الهدف الوحيد عندهم هو ألا تكون هناك دماء تجري في أبداننا، إنهم يريدون امتصاص دمائنا، ليس للتقوية أو الجراحة أو البيع أو هذا القبيل، إنهم فقط يريدون شرب دمنا، إنهم يتلذذون بهذا العمل، يسكرون، ربما يريدون أخذه معهم ليجروا عليه التجارب ليعلموا بأي دواء وبأي عمل يمكن أن يفقدونا رجولتنا. . . لينقطع نسلنا، وليختفي جنسنا من فوق الأرض، أو يصنعوا أدوية تفقدنا الدين والشرف والرجولة، أو يمسخونا دببة وخنازير وقردة، حتى نصير خدماً لهم، ودواباً تحمل أثقالهم، ولا نفهم شيئاً، ولا نمثل خطراً بالنسبة لهم أبداً، ويستريح خاطرهم من

ناحيتنا تماماً، ليستطيعوا فعل ما يريدون بنا، أو كل بلاء يريدونه بوطننا وبمالنا وأرواحنا وشرفنا. . . ماذا تفهمون أنتم عن مقدار ما لديهم من خبث وصفات ومشاريع؟ كيف حدث أن صاروا هكذا فجأة جميعاً شغوفين بالتفكير في شؤوننا وأطفالنا ومالنا وحالنا فتركوا لهوهم ومتعتهم في المدينة وجاءوا إلينا فأخذوا يحجلون في هذه المناطق؟ هؤلاء الذين قتلوا كل هؤلاء البشر، كيف حدث أنهم فكروا في رؤية ما إذا كان ابن «كربلاء قرباناً» مصاباً بالديدان أو أن «ننه رقية» منزلها فيه براغيث وبق؟ وهذا الحمام الذي انفقوا عليه كل هذه النفقات وأقاموه من أجلنا لا يخلو من حكمة، إنه شيء ما، ربما من أجل ألا يصح غسل أحد، من أجل أن ندخله نجسين ونخرج أكثر نجاسة، بوجود هذا الحمام لا نجاسة ولا طهارة بعد، نكون دائماً في حيض أو جنابة، في حيض وبدون طهارة، وبدون بركة. . . مصيبة. . . بالتدريج سوف يقولون: لا توجد نفقات، ليس من اللازم أن يذهب الرجال صباحاً والنسوة عصراً، فليذهب النساء والرجال والبنات والأولاد معاً إلى الحمام، مثل الأوروبيين، مثل العصريين، فالاهتمام بالشرف والتعصب القروي هي الأمور التي أصابتنا بكل هذا التأخر، أولئك الذين لا يهتمون بهذا الكلام كيف أنهم طيبون وسعداء؟ الرجال والنساء معاً في الحمام هذا هو ما قلته وسوف ترون أنهم لم يخربوا أحواض الحمامات القديمة بغير وعي، ولم يقوموا بكل هذه الحيل من أجل لا شيء، وإلا فأي ارتباط لحوض حمام قرية محمد آباد وراء الجبل بالفرنسيين والأمريكان والانجليز؟

وعندما يضع مفكر «فعلك» هذا السلوك الاجتماعي أمامه يضحك فحسب بقهقهة فكرية ويهز رأسه هزة تدل على جهل هؤلاء الناس البدائيين المتأخرين فاقدي الإحساس، وعلم هذا المتعلم المفكر العصري المتحضر، وإذا كان إنسانياً فالاشفاق، وإذا كان جاداً قليلاً في عمله وحساساً وملتزماً بالأصول، فرد الفعل هو: السب.

لكن فانون يعلم أنه لا يوجد «سلوك اجتماعي» قط، ولا توجد «ظاهرة نفسية جماعية أو طبقية أو قومية» ولا توجد عادة أو حساسية أو رد فعل مضاد في مجتمع ما، لا توجد مثل هذه الأمور ليس لها جذور منطقية وأسباب اجتماعية وتاريخية، وعلى كل حال فحتى الانحراف والمرض قضية علمية أيضاً.

فالطفل الذي يقوم دون معرفة سابقة بك، عندما تركن عربتك إلى جانب الطريق، فيقوم بمشقة ومخاطرة وترتيب وتخطيط بخدش العربة أو بثقب إطار، ويجعلك غاضباً، تسميه طفلاً سيىء التربية شريراً وشقياً، ورد الفعل الذي تبديه بالنسبة لعمله هذا هو أن تمسك به وتضربه، وإن وفقت في هذا فان الأمر ينتهي بإحساسك بالتوفيق. لماذا لا تطرح بينك وبين نفسك هذا اللغز العجيب: لماذا بدر من هذا الطفل مثل هذا العمل الذي يدل على حقد ذي جذور في أعماقه بالنسبة لك؟ ليس بينك وبينه سابق معرفة، لا هو رأى وجهك، ولا سمع اسمك، عداوة جدية منتقمة ضد شخص مجهول من أجل ماذا ولأي هدف؟ إن هذه المسألة تصيبك بالغضب فحسب، وبلا معنى يخرجك عمله عن طورك... إن

الصداقة والعداوة في نهاية الأمر ليستا بلا سبب، إنك بالنسبة له لست شخصاً غامضاً ووهمياً، إنه يعرفك منذ بداية حياته، بل ومعرفة وثيقة، وحتى قبل أن يبدأ حياته، إنه ورث الحقد عليك من أبيه وأمه وكل أهله وأجداده، لست بالنسبة له شخصاً غامضاً ووهمياً. إنك نفس هذا السيد «صاحب العربة» وأنت من أسرة «أصحاب العربات» المشهورة، الأسرة التي كانت دائماً تحتقره وتحتقر أسرته وتحتقر شخصيته وتحتقر حيثيته ولا تزال تفعل، تبيع لها الهواء، ولا تزال أنت وزوجتك وولدك تثيرون الغبار على أمه وأبيه، إنهم دائماً هم أولئك الذين ينبغي عليهم أن يتنحوا عن طريق عربتك حتى تمر، لقد مصصت دماءهم وجعلتهم أشقياء. وأبوه وأخوه وابن عمه ورفاقه ومعارفه جميعاً كانوا يعملون تحت رئاسة أبيك وأخيك وابن عمك ورفاقك ومعارفك، كانوا يشقون وبقوا جياعاً، وكانوا يسمعون السب والاحتقار والإزدراء ولم تكن لديهم الجرأة قط للرد عليكم، كانوا دائماً في خوف منكم، في المصنع والإدارة والسوق مصصتم دماءهم، وهذه هي الفرصة الوحيدة التي استطاع فيها أن ينتقم لقليل مما فعلتموه به، هذا العمل مظهر صغير لحقد قديم ذي جذور، تراكم فوق بعضه منذ عهد قابيل حتى الآن. وإذا قمت بتحليل القضية تحليلاً منطقياً على هذا النحو ووجدت جذورها من الممكن ألا تغضب من شر هذا الطفل وإيذائه الذي لا سبب له، ليس هذا فحسب، بل وسوف ترق له لعجزه عن أخذ حقوقه.

هكذا كان فانون ينظر إلى سلوك هذا الشخص، أي إلى

الضمير الاجتماعي لأمة ما، والضمير الاجتماعي لأمة ما أو الشخصية القومية لقوم ما أو لمجتمع ما وليدة تاريخية كما أن حياة الفرد كتاب دون عبر حياة الفرد. هذا الفرار من الجديد والفرار من الأجنبي والانكماش داخل النفس، والخوف من الظهور ومن أن يكون معروفاً، والإعراض واللجوء إلى أكثر زواياه خفاء: إلى المنزل أو إلى داخل نفسه أو إلى التقاليد القديمة، رد فعل منطقي وطبيعي وإيجابي لمجتمع أحس ويحس دائماً أنه مجال لهجوم الأعداء والخطر والإغارة والجريمة والدليل على أن الجسد حي أنه عندما يتعرض لأذى ينكمش على نفسه، هذا وهو نوع من ردود الأفعال في مواجهة الخطر، والدفاع والهروب من الخطر أمر إيجابي بنفس قدر الهجوم على العدو ومطاردته، هذا السلوك الاجتماعي المتناقض الذي يبدو في عيون أنصاف المفكرين العصريين تماماً علامة على الرجعية والجهل والأمية وعبادة الخرافة، هو في عين المفكر الكامل نصف العصري دليل على حياة القوام الاجتماعي ووجود القوة وإمكانية المقاومة ورد الفعل في مواجهة الهجوم والخطر، وفي النهاية هو ضمان للاستقلال المعنوي، والثقافة والشخصية التاريخية، والوجود القويم لمجتمع جاهد الاستعمار الفرنسي القوي طيلة مائة وعشرين سنة، بقوته العلمية والاقتصادية وثقافته وحضارته، في تحطيم أسسه وقواعده، وإلغاء وجوده وتذويبه في قلب المجتمع الفرنسي.

ترى ما السبب الذي أذهب سعي فرنسا الذكي والمتعدد الجوانب من أجل خلق جزائر فرنسية أدراج الرياح؟ وفي هذا

القرن الذي كانت فيه أوروبا هي كل شيء وكانت أفريقيا والدول الإسلامية والعربية لا تعد شيئاً قط؟ السبب بكلمة واحدة: التعصب، هو الذي كان الاستعمار قد عرف للوهلة الأولى أنه مثل الحصن الحصين قد وقف في مواجهة نفوذه ودخوله المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية، ومثل برج شامخ وفولاذي وحصين كان يحرس قلعته، وعلم الاستعمار أنه مادام هذا البرج قائماً، فسوف يظل خارج بوابات الشرق المتحضر، ذي الجذور كجنس نجس وجماعة مريبة وغريبة وخطرة، ولا يسمح له بالدخول لبسط فخاخه المختلفة وبدء عمله في صناعة جيل وقتل ثقافة وتخلية البشر من أنفسهم والخلاصة، القيام بعملية «صناعة المتشبه» الكريهة. كانوا لا يتحدثون معه ولا يستمعون إلى كلامه لكي يستطيع أن يجعلهم «مفكرين» ومن هنا ليس من قبيل المصادفة أن يكون أول ما يقوم به هؤلاء المتشبهون بالأوروبيين والمفكرين من أتباع الموجة الجديدة في مجتمعاتنا الشرقية، هو «مقاومة التعصب»، اقرأوا أناشيد المرحوم تقي زاده الحماسية وهو طليعة مفكرينا في القرن الحالي، اقرأوا كتب ميرزا ملكم خان الأرمني ورسائله وهو رأس أسرة العصريين والنمط الأول الذي تقرر أن يصنع بقية المفكرين بمقاييسه.

لعبة العصرية:

وهذا هو السيد جمال الدين شيخنا القديم القروي، وربيب قرية أسد آباد في همدان، يحس بالخطر قبل قادة آسيا وافريقيا

التقدميين كلهم، ويشم بأنفه.. المحلي وشخصيته الأمية، أية عاقبة سوف تكون من «لعبة العصرية» هذه، وأن تحت هذا البريق الذي يخدع الحمقى، قد كمنت سحنة كريهة ومخيفة لاستعمار لا يرحم، للاستعمار الاقتصادي والسيطرة البورجوازية القذرة التي تحرق «قيصرية» من أجل منديل، وإنه ينبغي أن تداس كل القوميات والمذاهب والتواريخ، والأصالات والاستقلال والشخصيات والثقافات، في آسيا وأفريقيا وتفنى حتى يستطيع أن يبيع بضائعه، وحتى يستطيع أن يأخذ المادة الخام بالمجان أو يسرقها وإنه ينبغي أن يضحي بالبشرية في معبد المال، وأن الإنسان يعني المستهلك ثم لا شيء، ألستم ترون النساء والرجال العصريين الذين صنعوهم على هذا المنوال؟ لم يعد الواحد منهم بعد «الحيوان الناطق» أو «الحيوان الذي يفكر» أو «الحيوان الذي يختار»، أو «الحيوان الذي يصنع الصور الذهنية»، أو «الحيوان الذي يخلق»، وكل التعريفات الأخرى التي وضعت من أجل الإنسان لم تعد تصدق عليه، إنه الإنسان الذي يشترى فحسب.

سيد جمال الدين هذا عندما يسمع أنهم «يريدون تأسيس بنك هنا» «يحس برعدة تعتريه، ويرسل إلى آية الله آغا ميرزا حسن الشيرازي[١]

---

(١) المترجم: ميرزا محمد بن الحسن الشيرازي أو الميرزا الأول أو الأعظم «تمييزاً له عن ميرزا محمد تقي الحائري الشيرازي الميرزا الثاني»، مرجع التقليد الأعظم عند الشيعة الإثني عشرية في أواخر القرن الماضي، وصاحب فتوى تحريم الطباق المشهورة التي تعد إرهاصاً للحركة الدستورية. انظر الثورة الإيرانية للمترجم.

(المفتي والفقيه البارز في عصره خطايا[1]، وبعده بسنوات، وبعد يقظة أفريقيا وتنويرها والثورات المضادة للاستعمار العالمي

---

(١) الناشر: هذا جزء من متن خطاب سيد جمال الدين إلى الميرزا الشيرازي وهو بالعربية: «بسم الله الرحمن الرحيم ـ حقاً أقول: إن هذا الكتاب خطاب إلى روح الشريعة المحمدية إينما وجدت وحيثما حلت، وضراعة تعرضها الأمة إلى نفوس زاكية تحققت بها وقامت بواجب شؤونها كيفما نشأت وفي أي قطر نبغت أو وهم العلماء فأحببت عرضه على الكل وإن كان عنواناً خاصاً. حبر الأمة، بارقة أنوار الأئمة، دعامة عرش الدين واللسان الناطق عن الشرع المبين الحاج ميرزا محمد حسن الشيرازي صان الله به حوزة الإسلام ورد كيد الزنادقة اللئام.

أيها الحبر الأعظم، إن الملك قد وهنت مريرته فساءت سريرته وضعفت مشاعره فقبحت سرائره، وعجز عن سياسة البلاد وإدارة مصالح العباد فجعل زمام الأمور كليها وجزئيها بيد زنديق أثيم غشوم بعد ذلك زنيم، يسب الأنبياء في الحاضر جهراً ولا يذعن لشريعة الله أمراً، ولا يرى لرؤساء الدين وقراً، يشتم العلماء ويقذف الأتقياء ويهين السادة الكرام ويعامل الوعاظ معاملة اللئام، وأنه بعد رجوعه من البلاد الإفرنجية قد خلع العذار وتجاهر بشرب العقار وموالاة الكفار ومعاداة الأبرار، هذه هي أفعاله الخاصة في نفسه، ثم إنه باع الجزء الأعظم من البلاد الإيرانية ومنافعها لأعداء الدين: المعادن والسبل الموصلة إليها والطرق الجامعة بينها وبين تخوم البلاد والخانات التي تبنى على جوانب تلك المسالك الشاشعة التي تتشعب إلى جميع أركان المملكة وما يحيط بها من البساتين والحقول... نهر الكارون والفنادق التي تنشأ على ضفتيه إلى المنبع وما يستتبعها من الجنائن والمروج، والجادة من الأهواز إلى طهران وما على أطرافها من العمارات والفنادق والبساتين والحقول... والتنباك وما يتبعه من المراكز ومحلات الحرث وسوق المستحفظين والحاملين والبائعين أني وجد وحيث نبت، وحكر العنب للخمور وما تستلزمه من الحوانيت والمعامل، والبنك وما أدريك ما البنك، هو إعطاء زمام الأهالي كلية بيد عدو الإسلام واسترقاقه لهم واستملاكه إياهم وتسليمهم له بالرياسة والسلطان، ثم إن الخائن البليد أراد أن يرضي العامة بواهي برهانه، فحيق قائلاً ان هذه معاهدات زمانية ومقاولات وقتية لا تزيد مدتها أطول من مائة سنة. ناظم الإسلام كرماني: مقدمة تاريخ بيداري إيرانيان. بنياد فرهن إيران ص (٨٩ ـ ٩٠)، والخطاب كله ص (٨٨ ـ ٩٢).

وافتضاح حال الإمبريالية الاقتصادية في الغرب، يقول شاندل الشاعر الأفريقي المجاهد: «عندما طرد الجيش الفرنسي وأصحاب القدم السوداء من أفريقيا، لم يغادر الاستعمار الفرنسي افريقيا، يمكن القول بأن الاستعمار الفرنسي أفريقيا، يمكن القول بأن الاستعمار الفرنسي ليس موجوداً في أفريقيا عندما يغادر بنك كريدي ليونيه هذه الأرض».

وليس من قبيل المصادفة أيضاً أن تكون الرسالة التي حددت لمفكرينا العصريين، وكانوا يقومون بها بحماس وسرور زائدين في مكافحة «الميل إلى التقاليد والدين والماضي والثقة في النفس»، كل هذه الأشياء كانوا يجعلون الناس يتجرعونها بإسم العصرية والحضارة والتقدم والعلم المعاصر وعصر الصناعة، ولكي يمهدوا الطرق لأصحاب الفتيا عندهم وشيوخهم، ولأن برج التعصب وسوره صنعا من هذه المواد، ومادام هذا البرج وهذا السور يحافظان على المدينة، فلا يمكن أن تتحول المدينة إلى مدينة سوق حرة لمنتجات الرأسمالية الغربية. وهؤلاء الناس «القدماء المتدينون المخرفون» لا يشترون البضائع الإفرنجية أصلاً، إنهم يلبسون ملابسهم ويأكلون غذاءهم وعندهم زينتهم الخاصة بهم ومنازلهم وأرواحهم وأفكارهم، وتلك المرأة الأفريقية التي كانت تضع حلقات من عندها حول جيدها، وتلبس حريرها وتصبغ ضفائرها بالصمغ والحناء والسدر والألوان المستخرجة من غاباتها، وتعيش في منزل من صنع نفسها، وذلك الرجل الآسيوي الذي يفاخر بجواده وحديقته وقطيعة، ويستند على تاريخه وأجداده وشخصياته

القومية وقيمه الثقافية وقوته وعظمته ودينه وتقاليده، كل واحد من هؤلاء لن يدفع مليماً للتاجر الأوروبي اتاوة للعصرية، وينبغي أن يصير ذوقه عصرياً حتى يصير مستهلكاً لرأسماليي العصر، ينبغي إلغاء دينه وتقاليده، وأن تحل الإنسانية والعالمية الثقافية ووضوح الرؤية والرؤية الكونية محل التعصب القومي عنده، وذلك حتى يصير عجينة لينة في أيدي الثقافة الاستعمارية الماهرة ويستأنس، حتى تحوله إلى أي شكل تريده وأي شكل يهمها.

ميرزا الشيرازي هذا الشيخ القديم الذي كان يخاف من إسم الشركة، و«عبد القادر الجزائري» ذاك الذي كان يفر من الشعر الأشقر والعيون الزرقاء، وأمثالهما من أولئك الذين لم يروا الدنيا ويفرون من البشر، هم وسائل المتاعب وهم المتاريس والموانع العنيدة والمتعصبة في طريق الاستعمار، الذي كان قد قرر المجيء ليجتث كل شيء من جذوره، وينبغي إذن صناعة المتشبه والعصري لكي يقوما بتمهيد الطريق وإزالة الموانع وإيجاد التفهم والتشابه بين الناس الذين يفرون من الأجنبي ومن الثقافة الأجنبية، ويكونون أدلاء وتراجمة لهذا القادم حديثاً بين المحليين، دلالين للظلمة، عملاء هواة لهم.

يقول شاندل: لم يكن المحليون الأفريقيون يرتدون ملابس، ولا يستطيع الاستعمار الاقتصادي أن يغير أذواقهم بالطرق المتداولة حتى يلقوا بقماشهم المحلي عن أجسادهم فجأة ويشتروا القماش الأجنبي، إذن: ينبغي أن تأتي الكنيسة في البداية وتجعلهم يؤمنون بدين الله والإنجيل السماوي ولكي تهديهم سواء السبيل، ولكي

يفهموا معنى العفة والشرف والخجل والحياء ويصيروا متحضرين لا بُدَّ لهم من ارتداء الملابس، وكل هذا من أجل دخول منسوجات لانكشير ومانشستر إلى أفريقيا.

والأجهزة الانتاجية الرأسمالية مجهزة بأعظم المعدات العلمية والنفسية، والتي يقوم بها علم الاجتماع، وليس بالأمر السهل أننا نرى أحياناً أمة ما، تنسى مشروباتها العادية التي تعودت عليها عدة قرون في بضعة أيام، وفجأة يتغير ذوقها فتتقبل الكوكاكولا والبيبسي كولا، ومنذ تاريخ محدد لا يعود ذوقها بعد يستسيغ الأبدوغ «اللبن الخثير المحض» أو عصير الليمون أو عصير الفواكه.

في سنة (١٩٦٢) كنت طالباً في قسم «علوم الاجتماع» وكان قد نشر إعلان في لوحة الإعلانات من قبل شركة «رينو» يطلب المتخرجين أو طلاب السنوات النهائية من قسمي علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي للعمل. ودهشت: ماذا يريد مصنع سيارات من عالم اجتماع أن يعمل؟ وذهبت، فإن كان هناك عمل ظفرت به عوضاً من منحتي التي كانت قد قطعت، وإن لم يكن على الأقل أفهم السر في علم الاجتماع وعلاقته بسيارات رينو، والحكاية طويلة. وحدد يوم ألتقي فيه مع «رئيس إدارة العلاقات العامة» في الشركة وأتحدث معه. وتخيلت بيني وبين نفسي غنياً فاقد الشعور منتفخاً، قياساً على نفس هذه الأصناف التي يعطيها مالها وأجهزتها الحق في أن تجلس معنا نحن المفكرين وتتحدث، وأخذت أقول لنفسي: ما الذي لدى صاحب المصنع الأمي يقوله

للعلماء؟ لا شك أنها أحاديث عامة وإرشادات إدارية وعقد عمل وأجر وشروط، وذهبت. ورأيت ذلك البروفسور الذي كنا نحن الطلبة نقرأ كتبه في علم الاجتماع الدعائي، وعلم النفس الخاص بالاذاعة والسينما والتلفزيون، وكنا نمتحن فيها، وكانوا يقولون أنه للأسف قد تقاعد منذ سنوات وترك الجامعة، وكنت آمل في زيارة قبره إن كان قد مات، أو إن كان حياً وساعدني الحظ أذهب إلى خلوته العلمية وأقطف عنقوداً من كرم علمه، رأيته الآن قد توظف رئيساً لإدارة العلاقات العامة والشؤون الاجتماعية في شركة رينو من أجل إرشادنا وتوظيفنا[١].

ووضح استاذ الجامعة السابق وموظف الرأسمالية الحالي لـ «اللحوم الطرية للرأسمالية الغربية» ما هو موضع استخدام علم الاجتماع في النظام الليبرالي والديمقراطي والعلمي والعالمية ومبدئية التقدم والحضارة وقرون التنوير والحرية والحقوق الفردية الإنسانية والواقعية وغيرها، وكلها أطفال هذه البورجوازية الداعرة والنسوة اللائي تنفق عليهن: بسط خريطة العالم أمامنا لونت عليها دول العالم بقدر معدل بيع سيارات رينو المختلفة فيها[٢]، ثم سأل عن جنسياتنا، واكتشف دولنا من «لون رينو» الخاص بها على

(١) هذه الإسكولاسية الجديدة في العلم، كان العلم في القرون الوسطى في خدمة الكنيسة، والآن أصبح في خدمة المصنع، والبقية على نفس النسق من أجل «الاستحمار الجديد» وهو البنية التحتية للاستعمار الجديد.

(٢) نموذج للرؤية الكونية عند البورجوازية الصناعية، والعين التي ينظرون بها إلى الدنيا وأهل الدنيا.

الخريطة، وأدركنا أن عملنا كعلماء اجتماع، ليس هو معرفة الإنسان، بل بيع سيارات رينو وهذا في المجتمع الذي نعتبره علمياً، وأن عملنا هو اكتشاف السبب الاجتماعي العلمي في عدم إقبال الناس على منتجات هذا المصنع. هذا الأمر الذي يبدو بسيطاً في ظاهره ذو اتصال وثيق في الحقيقة بأسباب تاريخية وتقليدية ودينية وثقافية وفنية وجمالية، ومرتبط بشكل الحياة الفردية والاجتماعية والمعمار وبناء المدن وأيضاً بأمور سياسية واقتصادية، وبعد هذه المكاشفة العلمية التي تحدث على أساس العلمية ومبدأ «العلم من أجل العلم» ندخل في المنزل الثانوي والجبري لهذا السير والسلوك العلمي وهو «القضاء على الموانع وإيجاد جو موافق» في المجتمع، أي تغيير الذوق العام وترويج «الموضة الجديدة»، وهذا يستلزم أعمالاً علمية وفنية في كافة المجالات التي سبق ذكرها.

وكمثال، وكواحد من الخطوات الموفقة في هذا السبيل، نعرض خطة ومشروعاً قدمهما واحد من نفس فصيلة عالمنا سالف الذكر. فقد أشار إلى دولة أفريقية لم تكن قد وجدت فيها سيارة من أي نوع حتى سنة (١٩٥٠) اللهم إلا في العاصمة وتخص عدداً من المستعمرين السياسيين والاقتصاديين الفرنسيين وعدداً من الأجانب المقيمين في العاصمة، وفي سنة (١٩٦١) أي بعد أحد عشر عاماً، كانت نفس هذه الدولة الوليدة التي كان الاستعمار أخيراً قد منحها الاستقلال والنظام الجمهوري الديمقراطي التقدمي، والعلم والنشيد القومي وغيرها لا تزال تدل على أنها دولة جبلية مغطاة بالغابات

تعيش فيها بضع قبائل بدائية مبعثرة، ولم يكن فيها بعد مدينة أو شبكة طرق معبدة أو محطة بنزين، وفي نقطة من هذه المنطقة النائية، وفي سفح جبل كان الباحث يشير إلى قرية تحتوي على عدد من البيوت الريفية حولها بعض الخيام المسكونة ووسطها منزل أو منزلان متميزان لشيوخ القبيلة. و«النقطة الداخلية» في هذا الفيلم التسجيلي، الذي كان قد أعد بإخراج عالم الاجتماع، أن شيخي هذه القبيلة في تلك الأرض النائية، قاما على سبيل التفاخر وإبداء الرفاهية، وبدلاً من الكلاب والخيل، بـ «ربط» سيارة رينو فاخرة آخر موديل بأطراف ذهبية وفرش داخلي خيالي بباب المنزل.

ومعجزة عالم الاجتماع المرتبط بالمصنع أنه جعل من هذين السيدين الأميين البدائيين صاحبي القطعان اللذين كانا بالأمس يتمتعان بجمال جواديهما وسرعتهما وذكاء كلبيهما، جعل هذين السيدين القبليين اللذين كانا يتنافسان حول جواديهما وعظم قطعانهما واتساع أراضيهما وعمران مزرعتيهما وبطولة أجدادهما، وكانا يتفاخران بها، صيرهما اليوم «عصريين» بحيث يتلذذان من طراز السيارة الرينو، ويتنافسان حول موديلها، ووجدا ذوقاً فرنسياً وجماليات فرنسية، أليس هذا في حد ذاته دليلاً على التقدم والحضارة، والخروج عن عبادة القديم وحالة النصف بدائية؟ لا شك أن هذا السيد نفسه راض تماماً عن نفسه وإقباله وتقدم أوضاع ولايته وأحوالها.

إن السيد الشيخ «مدقق» كثر الله من أمثاله ومتع المسلمين بطول بقائه وهو من أجلة أهل المنبر، كان يخطب فينا ذات يوم في

مشهد قائلاً: «أيها الناس، قدروا حياتكم حق قدرها، وقوموا بهذه النعمة التي حباكم بها الله تعالى بحق شكرها، فقد أعزكم ببركة دينكم وإيمانكم من بين كل الأمم، وجعلكم أمة مرحومة، وأخذ الأوروبيين بذنب شركهم ونكبة كفرهم فسخرهم سبحانه وتعالى في العمل في أعماق آبار النفط ومناجم الفحم والنحاس والحديد والرصاص وغيره، وجعل عملهم هذا قرينا للموت الأسود، والموت تحت الأنقاض والتراب، أو العمل في المصانع بين الزيوت، والدخان والشقاء ليكدحوا ويصنعوا السيارات ويلفونها في الأوراق ويرسلونها إلى هنا، فنأخذها ببركة الدين والأئمة الأطهار وندفع ثمنها ونسترخي فيها، دون أدنى تعب ونستفيد من كدحهم، ونحن مستريحون ودعوت من قلبي: إلهي، أجعل لنا أيضاً يوماً نؤخذ فيه بذنب كفرنا، ويذوقوا هم قليلاً من طعم بركة دين مولانا المدقق وإيمانه.

ينبغي إذن أن يصير هذا اللغز مفهوماً وهو: كيف يقوم الاستعمار بتحويل صيده ـ أي أولئك الذين يريد أن يجعلهم مستهلكين مستأنسين متقبلين لأوامره ـ كيف يقوم بتحويلهم إلى متشبيهن؟ لقد قدم جان بول سارتر معادلة هذه التركيبة في المقدمة التي كتبها لكتاب فرانز فانون «المعذبون في الأرض»، وفي المحاضرة التي ألقاها بدعوة من جمعية طلاب شمال أفريقيا المسلمين في قاعة مطعم المسلمين في شارع سان ميشيل في باريس[١].

---

(١) المترجم: أورد الناشر مقتطفات من أقوال سارتر في هذا الموضوع، ووردت بشكل موسع في «المفكر ومسؤوليته في المجتمع» لشريعتي والذي ترجمته إلى العربية.

الاستعمار والمتشبهون:

إن من يسمون في المصطلح الأوروبي Assimilés وفي تعبير الرسول ﷺ «بالمتشبهين» على نمطين: أحدهما النمط العامي والآخر النمط الخاص. وأقصد بالنمط العامي أمثال الحاج «مم تبوز» الذي كان بالأمس يعمل في «حجرة»[١] في دار أدنى السويقة، حجرة رطبة حال لونها وتساقط دهانها ذات منضدة مخلخلة يجلس إليها، وهو ذو مظاهر وعلامات تدل على الإيمان والشعور مثل: الرأس الحليقة، والسترة المكرمشة من النوع الأصفهاني المعروف بالترمة، ولبادة طويلة يلبسها الفصول الأربعة، وفناء داخلي وفناء خارجي، وتكة سروال مدلاة دائماً، وزوج من الأحذية أو الأحذية القماشية دون جورب، ومسبحة ذات مائة حبة بين أصابعه المحناة، ولحية كثة مصبوغة بمختلف الألوان، واستسلام تام لأحد «الملات» المعروفين كمرجع للفتيا ومنشد للروضة في المنزل ومعارف شاملة وعميقة إسلامية بشأن الطهارة والنجاسة وأنواع الثواب المتعلقة بأنواع «الرياض» والدعاء وتعزية آل البيت والأحكام المتعلقة بالشكّيات والسهويات، والأحكام الفقهية المتعلقة بنظام تبديل الربا إلى «شرط بيع شرعي» أي تحويل الربح والسحت إلى معاملة دينية وتطبيقها على المعايير الإسلامية، والمعارف الدينية الأخرى من قبيل «إبراء الذمة

---

(١) المترجم: المقصود بالحجرة المكتب الذي كان التجار والقدماء يديرون منه أعمالهم.

الشكلي» و«المصالحة» وما إليها، ومن علاماته أيضاً: مرتب ستين تومانا تعطي لكاتب معين كل شهر وهو في خدمة «الحاج» منذ ثلاثين عاماً، وآلاف التومانات من أجل «ترميم مسجد الحي» أو «المسجد المعروف في المدينة» الذي يبنى بهمة «السيد الشيخ الأكبر» والوليمة الفخمة في ليلة من ليالي رمضان لأهل العلم وليلة أخرى لأهل الإدارة وليلة ثالثة لأهل السوق، والرحلة عاماً إلى كربلاء وعاماً إلى مكة، ثم زوجته الملقبة بـ «الحاجة الهانم» بملاءتها ذات الإطارين، وجوربها الذي يظهر البدن المنخر للتغيير مع الجورب الأسود والجلاجل والأقراط والكردان والعقد والأساور المتنوعة، واجتماع إنشاد الروضة الأسبوعي، وسفرة (أبو الفضل)[١]، والمجالس الدينية الخاصة بالاغتياب والدعاء والنذور والسحر والشبشبة وقراءة الكف والطالع وفك العكوس والأعمال والعقد... ثم ابنته أيضاً... ماذا أقول؟ كلكم تعلمون..

أنتم تعرفون هذه الأسرة التي كانت تسكن في حارة خلف الحمام، وفي منزل أجدادها ـ ذلك المنزل المليء بالبضائع التي يأتون بها كل عام من الحج وعدة مجلدات من الأوراق[٢]

---

(١) نوع من الأطعمة النذرية الشعبية يطبخ في مناسبات معينة وبطرق معينة ويوزع بطقوس معينة. المترجم.

(٢) المترجم: المقصود هنا الكتب التقليدية للمذهب الشيعي، والتي كتبت في العصر الصفوي، أما الرسائل العلمية أو العملية فهي رسائل فقهية حول أمور الطهارة والعبادات.

ومصحف قرآن وسبعة أنواع من كتاب مفاتيح الجنان، وديوان حافظ وثلاث نسخ من الرسالة العملية. نفس هذا السيد الحاج المحترم المتدين الذي تظن أن روحه معلقة بإبريق الطهارة والذي ظل عشرين سنة بالتمام والكمال في «الفورمة»، تراه اليوم قد باع منزله وبنى فيلاً فخمة فوق تلال شميران، وأثناء رحلته الأخيرة إلى أمريكا اعجب بحوض الماء الدافىء الذي رآه في قصر أحد الفنانين أو ملوك النفط أو المطاط أو الفولاذ بحيث بحث عن المهندس الذي صممه، ووجده وقاوله على بناء مثله تحت عمارته، وجهز قاعة الاستقبال عنده بأفخر الأثاث من طراز لويس السادس عشر وستائر من الطراز الإيطالي وديكور على الطراز الفرنسي، وغير نفسه من قمة الرأس إلى أخمص القدم وذهب لعدة شهور إلى فصول جمعية إيران وأمريكا، وسافر عدة مرات إلى الخارج، وبدلاً من الآيات التي كان ينطقها مكسرة والروايات والأدعية والأمثال، يستعمل الآن المصطلحات والتعبيرات الأجنبية كيفما اتفق وبلكنة امريكية مضحكة، وصار هو نفسه كما صار منزله معرضاً دولياً لبضائع عالم اليوم وحركاته، وزوجته أيضاً تلك التي نسيت المفاتيح وكتب الزيارة(١) وسفرة حضرة عباس ورحلة كربلاء، بينها وبين ابنتها منافسة غير معلنة لكنها صريحة في الملبس والزينة العصرية، وبدلاً من فقيه الحي ومنشد الروضة الخاص بالمنزل، صار عبد الرحمن فرامرزي وكل الأعضاء

(١) المقصود مفاتيح الجنان وهو مجموعة من الأدعية، وكتب الزيارة هي الكتيبات التي توزع على زوار المزارات المقدسة في إيران وتحتوي على بعض الأدعية. المترجم.

الذكور والإناث من أسرة «مسعودي»[١] وكواكب من أمثال مجيد دوامي ومنوجهر مطيعي وغيرهم «مراجع التقليد» واجبي الطاعة عندهم، وأوقات الفراغ التي كانوا يقضونها بالأمس في قراءة «الجوشن الكبير» أصبحوا الآن يقضونها في حل جداول الكلمات المتقاطعة «مع شخصيات مثيلة موصى عليها»، وبدلاً من إنشاد مجالس الروضة في ليالي الجمع، أصبحوا الآن يتناولون الفيض من المجلس العميق والمؤثر «سهرة الجمعة» التي يقدمها السيد فريدون فرخزاد في التلفزيون القومي، وينتفعون من بياناته الخاصة وهو شاب ذو شارب جميل «ويموت من الضحك» وهو أيضاً شقيق فروغ فرخزاد[٢] وقضى عدة سنوات في ألمانيا، وحركاته وسكناته فيها «سكسية» ومن هنا فهو مجال انتفاع الرجال والنساء العصريين اليوم. وخلافاً لعهد جاهليتهم حيث كانوا يقضون ثلاث ساعات إلى جوار سوق «سبزه ميدان» ويقومون بنزهة جماعية أصبحوا الآن عندما أدركوا روح الحضارة ونجحوا في تكييف أنفسهم مع «حتمية العصر»، أصبح هو والهانم والكريمة وبعد بضع ساعات من الصراع مع آلات الزينة عند الكوافير وفي المنزل يقضونها استعداداً، يهرعون إلى مطار مهر آباد، ومنذ الثالثة بعد الظهر وحتى الثالثة بعد منتصف الليل يقفون بين جماعة صنعها صناع الإنسان المرتبطون بأدوات الإنتاج، ومع كل أزيز طائرة

---

(١) يقصد مسعودي مؤسس دار اطلاعات. المترجم.

(٢) المترجم: شاعرة إيرانية مجيدة يتميز شعرها بالجرأة الشديدة في تناول كافة الموضوعات ولها شعر اجتماعي وسياسي. توفيت في حادثة سيارة سنة ١٩٦٦.

يطلقون صرخات الشوق من أكبارهم صرخات تدل على عشقهم الشديد للفن انتظاراً لمجيء المومس فلانه زوجة أحد أعضاء الفريق المعروف «ساتولد» إذ أن مجلات «روشنفكر» و«زن روز» أو «زن شب: امرأة الليل» و«اطلاعات مخصوص براى بانوان مخصوص» قد نشرت منذ عدة شهور أن الشخصية المذكورة أعلاه التي سوف تسافر من لندن إلى الشرق الأقصى سوف تتوقف في طريقها نصف ساعة في طهران، وهيأت الأرضية لتكريم الفن والفنانين(١) وأرسلت هؤلاء «الهمج الرعاع» للاستعمار الجديد إلى هذا المكان كالخراف، تماماً مثلما كان المهاجمون بالأمس يرسلون هؤلاء أنفسهم إلى «بيت الأحزان»، وهناك يبتزونهم أو

(١) المترجم: صناعة النجوم المزيفة التي لأخطر منها باب كبير من أبواب «نزع التسييس»، من الجماهير وصرف أنظارهم عما يجري في الخفاء على أيدي الاستعمار والاستحمار والديكتاتورية، ولهذا الباب من أبواب الاستحمار خبراء وعلماء وقائمون بالأمر ومن مظاهره: إحلال الصحفيين أنصاف المتعلمين والجهلة محل مفكري الأمس وعزل الجامعة واحتقار أساتذتها وشغلهم دائماً بلقمة العيش، ونشر الهوس الرياضي والتعصب لكرة القدم ملأ لأي وقت يمكن أن يفكر المرء فيه في أحواله أو في السياسة، وترويج البغايا والقوادين والراقصات ونشر الانحلال الجنسي باسم تشجيع الفن وهؤلاء لهم المال والشهرة، وفي حالة المرض العلاج في الخارج على حساب الدولة، وفي الحقل شبه الثقافي: افتعال «المعارك الثقافية» حول موضوعات مجردة وذهنية ولا تتصل بالجماهير، ثم عمليات الاحتواء لأشباه المثقفين وإغرائهم بالمناصب والنجومية، و«صفحة في جريدة، والتغاضي عن الأمية المستشرية، ورفع سعر الكتاب، والاحتكار الإعلامي، وقصر وسائل الإعلام على الترويج للفرد، وخلق أصنام من البشر... وهلم جرا مما يضيق المجال عن ذكره فهو في حاجة إلى مجلد خاص.

يأخذون أموالهم بالخداع، هذا باسم تجليل الشعائر الدينية[١] وذاك باسم المفاخر الفنية.

وكما ذكرت أن وجود هؤلاء «المتشبهين الاستهلاكيين» مأساة، لكنها مضحكة أكثر مما هي مؤلمة. هم يستهلكون فقط، شبه بشر ليست لديهم القدرة على التمييز والحسم والاختيار وتحليل الأمور. إنهم مقلدون فحسب، بالأمس مقلدو آية الله، واليوم مقلدو الفنان أو النجم، تحدد أنماطهم النفسية والاجتماعية والإنسانية مجلة «ماجو» وتحدد «رسالة علمية»[٢] مسير حياتهم. هؤلاء هم الذين كانوا بالأمس يدقون الصدور من أجل دين لم يكونوا يعرفونه، واليوم يفعلون نفس الشيء من أجل حضارة لا يعرفون ماذا تعني. على كل حال: إذا فرضنا أن المجتمع شخصية واعية أو إنسان أعلى فهؤلاء هم أعضاء جسده، ميتة المجتمع، رؤيتهم الكونية ومسرح صراعاتهم الاجتماعية والفكرية حول الحجاب أو «الميني جوب» وحول موضة السيارة وحول ديكور المنزل وأثاثه، وطراز العمارة، وموديل الملابس، والزينة والحركات والأطوار المقلدة المتجددة في كيفية الأكل أو النزهة أو الهوايات الرائجة أو العادات والتقاليد السطحية البلهاء. نوع من الحرب بين المنحرف وخليع العذار كما نراها وكما نقرأ عنها، وتتم طريقة تبديل الأنماط القديمة إلى جديدة بسرعة البرق وظاهرياً،

---

(١) إشارة إلى بعض ما يجري في الاحتفالات الدينية. المترجم.

(٢) المترجم: المقصود ـ سخرية ـ بعض الرسائل الشعبية التي كانت تكتب في الفقه الشيعي.

وعلى مستوى الاستهلاك والزينة وشكل الحياة اليومية، بتوجيه من مجلة «زن روز» يأخذون امرأة ما إلى مؤسسة كريستيان ديور، وبعد بضع ساعات يخرجونها امرأة أوروبية من قمة الرأس إلى أخمص القدم، على أي موديل أو طراز يوصون به: إيطالي أو فرنسي أو إنجليزي أو مخلوط، هذا التحديث السريع والرقي المدهش لا يريد أكثر من شرطين: أولهما عدم وجود شعور وشخصية، وثانيهما: وجود المال والامكانيات.

ويمكن بنفس هذه السرعة ونفس هذا الأسلوب القيام بتحديث دولة، أي الانتقال بها من الحالة الكلاسيكية إلى الحالة العصرية، فالعصرية سلعة تصدر بالنسبة لدولة كانت منذ عشر سنوات تستخدم الهودج والجمل والعربات التي تجرها الخيول والتي كانت تحتوي على مدن من طراز العصور الوسطى ومنازل قديمة. . . يكفي أن تفتح الأبواب، وبعد عشر سنوات نرى ناطحات السحاب والقصور الفخمة والعمارات والمطاعم والمقاهي والمحلات الفخمة والبشر الأكثر فخامة. . . ونرى المدينة مخزناً دولياً للسيارات ومعرضاً عالمياً للسيارات من آخر موديل وأجهزة الراديو والتليفزيون والبلاجات ومؤسسات الزينة الحديثة والنوادي الفنية وصالات الرقص على المستوى العالمي والتي ليس لها نظير «في الشرق الأوسط كله».

هذا التحديث وهذه العصرية هي التي قدموها لنا نحن البشر البسطاء المظلومين بإسم الحضارة، أي أنهم نقلوا عقولنا إلى عيوننا. في حين أن الحضارة مرحلة سامية من النضج الثقافي

والمعنوي في المجتمع وتربية الروح الفردية الإنسانية وتهذيبها والتسامي بها. ومن أجل تحويل نصف بدائي إلى عصري تماماً يكفي كما قلت عدة ساعات حسب الخطة وإنفاق الأموال دون بخل، أما من أجل تحويله إلى «متحضر» فهذا يحتاج إلى أيديولوجية وخطط ومشروعات وعمل وتضحية وتحمل وصبر وألم ورياضة، وتغيير في الأصول والمبادىء الاجتماعية، وثورة فكرية وعقائدية، وتغيير للقيم والمبادىء والوصول إلى رؤية كونية منفتحة ومتطورة، أو بكلمة واحدة تحتاج إلى: ثورة أيديولوجية.

أعراب الحيرة وهم متشبهو إيران المتحضرة، وأعراب غسان وهم متشبهو الروم الشرقية بالرغم من أنهم كانوا يقلدون متحضري ذلك العصر في الملبس والطعام والحياة والعمارة والرسوم، بل وأقاموا قصري الخورنق والسدير تقليداً للبلاطات الساسانية المشهورة، لم يصيروا متحضرين قط، في حين أنهم كانوا بلا شك عربا متجددين راقين، وكانوا على نصيب من التقدم المذهل في حياة ذلك العصر، بالنسبة لأعراب البادية بل وقريش ومكة وثقيف والطائف والأوس والخزرج في المدينة وقبائل هوازن وغفار الذين كانوا يشربون لبن الإبل ويأكلون الضب. لكن الحضارة مقولة أخرى ولا يمكن أن توجد في الاستهلاك والمظهر والكماليات بل توجد في الرؤية والفكر والرؤية الكونية، ودرجة التهذيب، وعمق الاحساس والعلاقات الإنسانية والأخلاقية و«نظام القيم»، وقوة الثقافة وغناها والدين والفن والاستعداد للخلق والتحليل والاختيار والاقتباس. إن العصرية عن طريق التقليد تتحقق بسرعة، لكن

الحضارة على عكسها تماماً، نوع من «الفوران الداخلي» والتحرر من التقليد والوصول إلى حدود «الخلاقية» والتمييز المستقل. فالعربي في الحيرة والعربي في غسان لاهو بدوي ولا هو عربي متحضر، هو متشبه، عصري، ذاك مقلد لكسرى وهذا مقلد لقيصر. لكننا في الحركة الفكرية والأيديولوجية الإسلامية نرى عربياً نصف بدائي وبدوياً يسمى جندب بن جنادة من قبيلة من البدو الرحل قاطعة للطريق، كانت كل دنياه عبارة عن صنمه ونفسه والقبائل المحيطة به، كانت كل بيئته عبارة عن عدة مراعٍ تحيط به تتصل من كل نواحيها بالأفق الذي يمثل نهاية عالمَ الوجود، وكانت الحياة بالنسبة له عبارة عن حرب وإغارة وانتقام من القبائل المجاورة الضعيفة، نرى هذا العربي بعد قليل قد تحول إلى أبي ذر الغفاري، وهو بالرغم من كل الطريق الذي قطعه بين كونه جندب وكونه أبا ذر الغفاري، لا يزال بعيره كما هو وملبسه وطعامه وزينته كما هي. لم يصبح عصرياً ولم يتغير استهلاكه، لم يجعل نفسه شبيهاً بأحد. إن التحضر يعني ثورة في الفكر ووعياً وتمييزاً ورؤية كونية وتحليلاً للحياة والمجتمع والدنيا وتقييماً لها، وتتضح من السلوك الاجتماعي والتكتل السياسي والحياة الفردية في المجتمع.

ماذا حدث لعربي بدوي أمي رحالة في القرن السابع الميلادي في شبه الجزيرة المجهولة التابعة لبلاد العرب، بحيث أصبح عندما يتحدث تحسبه برودين أو ديستويفسكي، وتظنه مفكراً مستنيراً ثورياً عالماً في الاجتماع والاقتصاد وعلم الإنسان ترك ثورة فرنسا الكبرى وراء ظهره، وعلم قضايا الاستغلال والبورجوازية ونهب فائض

القيمة والتفرقة العنصرية، وعرف المفكرين البورجوازيين والقادة الثوريين، وخبر ثقافة غنية اشتراكية، وحضر النضال السياسي والأيديولوجي الطبقي منذ القرن الثامن عشر ثم منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى الآن، ويعلم قضية الفرد والمسؤولية العامة الاجتماعية كما يعرفها ديستويفسكي ويحللها، تحسبه كل ذلك عندما تسمع قوله:

«عجبت لمن لم يجد قوتاً في بيته كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه» الحضارة ثورة تدريجية في الإنسان، لا هي سلعة ولا مجموعة من السلع المستوردة، ليست شكلاً خاصاً أو لوناً خاصاً، إنها جوهر وحقيقة متسامية. وأولئك الذين يريدون إقامة حضارة في دولهم عن طريق استيراد مواد الحضارة الأوروبية مثل الكهرباء والإسفلت والسيارة والمأكل والعمارة، لا شك أنهم سوف يصلون في ظرف عدة سنوات إلى نجاح ملفت للنظر، لكنه ملفت «للنظر» فحسب، لقد فعلوا تماماً ما فعله نواطير مهرة لكنهم حمقى، إذ يشترون أشجاراً خضراء مثمرة «من الخارج» ويغرسونها «كما هي» في أراضيهم البور التي لا استعداد فيها، وكلهم نظراً لهذه القفزة الخارقة للعادة والمعجزة للتقدم والنجاح في دهشة، ولسان حالهم يقول: انظروا إلى تلك الأرض التي كانت بورا كيف صارت خلال عدة أيام حديقة نضرة بل ومثمرة، أنها أكثر جمالاً من حدائق أوروبا، لا نظير لها في الشرق الأوسط وبعد أربعة أيام تجف الشجرة التي لا جذور لها ولا ماء ولا تربة. لا يهم، هناك مندوب يشتري أشجاراً أخرى، نشتري ونغرس، ويكون عندنا على الدوام

أشجار جديدة ومثمرة، أجل، لكن ينبغي أن نشتري الأشجار منهم دائماً.

الحضارة تعني حراثة الأرض وتسميدها ومدها بالمياه ثم بذر البذور ورعايتها وتطعيم النبات ومقاومة الآفات. . . ثم يأتي النمو. لا جدال أن الشجرة التي تنمو على هذا المنوال تستغرق ثلاث سنوات أو أربع، وتحتاج إلى كدح وعمل متواصل وصبر وإرادة وذكاء واستعداد، لكن السبيل الوحيد هو هذا، إن طريقة السيد مدقق سابق الذكر أي الحضارة المستوردة الاستهلاكية، ليست حضارة لكنها سوق.

إن ما يجعل الأرض في رأيي صالحة للانبات هو: الأيديولوجية. رؤية كونية متحركة وأهداف مشتركة أو ما يعبر عنه بكلمة واحدة بالإيمان، وهو ما يوجد حركة وقدر ووسائل ووحدة في المجتمع، فثقافة الهند الروحية العميقة والمسيحية والحضارة الإسلامية والحضارة والأوروبية الحديثة، كل واحدة منها كانت وليدة حركة فكرية وقومية ودينية. لماذا ينضج النبوغ الفلسفي والعلمي والفني في إيران بعد الإسلام وفي خلال قرنين أو ثلاثة بالرغم من أنها مرحلة هزيمة سياسية وعسكرية وقومية، وتدون دوائر معارف من لدن شخصيات إيرانية عظيمة في كل فروع الفكر والإحساس والآداب والفنون والصناعات البشرية، ويسيطر الفكر الإيراني في الثقافة والعلوم الإسلامية على كل الأمم المتحضرة في عالم ذلك العصر من اسبانيا حتى الصين وحتى أوروبا العصور الوسطى وعصر النهضة. . . ولم يحدث ذلك في إيران الساسانية أو

الأشكانية؟ لقد ظن البعض أن الفلسفة والثقافة والعلوم والتقنية والآداب والفنون هي التي تصنع الحضارة. وهؤلاء في غفلة ذهنية عجيبة. لقد وضعوا المعلول مكان العلة، فكل هذه الأمور هي النتيجة الحتمية للحضارة الحقيقية ومواد هذا البناء الإنساني العظيم. والمعماريون الحقيقيون في التاريخ هم قادة الحركات، لم يكونوا علماء فلسفة أو علماء أو خبراء في الفنون أو أدباء بل كانوا أميين، وربما لأنهم كانوا أميين، ومثل هذا التفسير للحضارة وتعريفها من الظاهرة السطحية والمزيفة في الغالب والمنحرفة المسماة بالعصرية، يعتبر قضية علمية جديدة يختص بها علم الاجتماع وعلم الحضارة، ليس هذا فحسب، لكنها تؤدي إلى بروز رسالة علمية واجتماعية خطيرة جداً في احساس المفكرين الحقيقيين في المجتمعات غير الأوروبية والتي هي في سبيلها إلى الأخذ بالحضارة الأوروبية. قلت: مفكري المجتمعات غير الأوروبية. لكن واأسفاه. إن الأمر كما ذكرت آنفا: «إن وجود هؤلاء المتشبهين الاستهلاكيين أي العوام العصريين مأساة لكنها أكثر مدعاة للضحك منها للألم، لكن جعل الخواص متشبهين أي جعل صفوتنا المتعلقة متشبهين مأساة أكثر مدعاة للألم منها إلى الضحك، فالنوع الأول يعد ميتة المجتمع، أما النوع الثاني فهم مخه، ودفع المخ إلى الاغتراب يؤدي إلى الموت والمسخ.

إن لعبة العصرية عند العوام هي أيضاً من سيئات المفكرين المتشبهين، الذين يعتبرون ذرية الشؤم لميرزا ملكم خان المعروف صاحب اللوترية، صناع حضارة من طراز حضارة السيد المدقق،

ونواطير تلك «الحديقة المسحورة» والطلائع والتراجمة والأدلاء وفاتحو الطرق للاستعمار بكل وجوهه السياسية والاجتماعية والاقتصادية وخاصة وجوهه الثقافية.

هؤلاء أيضاً صنفان: صنف يمثل الأكثرية، نسخ من «هوشنك هناويد» الذي عرفه الدكتور شادمان «كسطحي جداً في الإلمام بالحضارة الأوروبية لكنه صادق» ومن هم؟ أشباه المثقفين، الأطباء والمهندسون وأساتذة الجامعات والمحامون والقضاة والصحفيون والمترجمون والشعراء والكتاب والمشتغلون بالثقافة والإداريون والمتخصصون في الفروع الأخرى، أي أولئك الذين يزاولون أعمالاً عقلية، يسمون في أوروبا «المثقفين» لكني هنا أسميهم «حملة الشهادات»، على كل هم أولئك الذين يزاولون أعمالاً بعد فترة من الدراسة. والمتشبهون العوام صيد سهل في يد هذا الصياد الأوروبي، صيد مقيد اليد والقدم ومستأنس، إنهم من صنع يد الصناعة العظيمة، صناعة العصري في الغرب، لكن هؤلاء أي خواص المتشبهين هم الذين يقومون بصنعه، هم عملاء الظلمة وبعضهم محترفون وواعون، وبعضهم هواة وغير واعين، هم الذين صدقوا القضية وعندما يقترح رينيه لا بوم مقاومة الماضي والإسلام والتعصب الديني في الدول الإسلامية ينهمك هؤلاء في العمل على الفور، ويقلدون هنا ديدرو وفولتير وأرنست رينان وكلود برنار، وبأي حماس ووجد وجلبة وكبرياء وفخر أجوف، وبأية فلسفة، وبالمجان بل وينفقون من جيوبهم، على سبيل أنه ينبغي التضحية في سبيل العلم ومن أجل مقاومة التعصب والخرفات والدين

والرجعية، كل منهم يريد أن يكون بطلاً في عالم الفكر، وكأنه يقول بلسان حاله: انظروا أية مشاق تحملها جليليو وكوبرنيكس، أنا أيضاً مثلهما.

وعندما ينبغي أن يتحول مجتمع تقليدي إلى مجتمع عصري وأن تتحول دولة كلاسيكية إلى سوق لعرض البضائع الأوروبية وبيعها، تظهر مئات من الأعمال والتخصصات والوظائف والمسؤوليات والتكنيكات الجديدة تحتاج إلى بشر «صنعوا من أجل هذا العمل» وهم أشباه المثقفين حملة الشهادات. هذا فحسب.

والصنف الثاني من المفكرين وهم أقلية: هم حملة الشهادات المفكرين، والمفكر هنا بمعناه الخاص، أي ذلك الذي يملك وعياً سياسياً واجتماعياً، ويحس بارتباطه بمصير المجتمع ويميز القضايا الاجتماعية، ويحلل الظواهر، ويعرف مسيرة المجتمع ووضع التاريخ ومساره، ولا بد أن يحس في نفسه بمسؤولية اجتماعية، وسواء رضي أو أبى فإنه ينضم إلى جبهة فكرية ومدرسية أو طبقية وسياسية خاصة، هم بكلمة واحدة «ذوو وعي بالعصر».

وعندما يقول رسول الإسلام ﷺ «مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء» ويقول «علماء أمتي خير من أنبياء بني إسرائيل» فهو يقصد هذا الصنف من المفكرين المسؤولين وذلك لأن المداد والقلم والكتاب الذي يقسم به الله تعالى متعلق بهم. عملهم هو الذي يسير مسيرة رسالة الأنبياء، ومداد هؤلاء العلماء هو الذي يشبه دماء الشهداء وهو الذي يقاس بها.

الخدمة والإصلاح:

قمت ببحث في أحد دروسي عن الفصل بين مفهومين: مفهوم «الخدمة» ومفهوم «الإصلاح» وبالتالي بين «خادم البشرية» وبين «المصلح» وهما يستعملان عادة في مجال واحد في حين أنهما مختلفان، وفي ظل ظروف معينة متناقضان. أي أن هناك خدمة لا تقدم إصلاحاً ليس هذا فحسب بل تفسد وتخون. إن الإفراج عن سجين خدمة بالنسبة له لكنها من الممكن أن تؤدي إلى الخيانة ليس بالنسبة للآخرين فحسب بل بالنسبة له أيضاً، ورئيس مدينة جيد تعد دائرة عمله محدودة بالخدمة، وباستور خادم فقط وكذلك إديسون وكوخ وبقية العلماء والمخترعين والمكتشفين. لكن هناك فرقاً بين عمل بوذا وعمل أرسطو وعمل علي وأبي علي بن سينا، وعمل المسيح مع عمل بطليموس، وعمل روبسبير مع عمل لافوازيه وعمل بيكون مع عمل نيوتن وعمل كاتب مع عمل طبيب وعمل فيلسوف مع عمل مهندس، وفي علاقاتك الفردية تقوم أحياناً عن طريق جهدك الفكري بتغيير ما في أسلوب تفكير أحد أو في طريقة حياته بحيث تحافظ عليه من الانحراف وتصونه من السقوط وتهديه إلى النضج والاستقامة، وأحياناً تؤدي عنه دينه أو تهدي إليه سيارة أو تحل إحدى مشكلات حياته بإنفاق الوقت أو المال أو الجهد، وهذان الأمران مختلفان ومن هنا نصل إلى قاعدة بالرغم من أنها بسيطة إلا أنها مهمة جداً وحيوية، وغالباً ما نغفل عنها وهي «إن كل مصلح خادم لكن ليس كل خادم مصلحاً».

وهذا التقسيم يصدق في ميدان العلوم تماماً، بل إن أعظم

مصداق له هو العلوم، فالعلوم الخادمة هي التي تتناول الإنسان كما هو موجود، أما العلوم المصلحة فتتناول الإنسان كما ينبغي أن يكون. الأولى تتعامل مع واقع الإنسان والثانية تتعامل مع حقيقته، الأولى تفكر في الإنسان وقوته وسعادته وراحته والثانية تفكر في تساميه وتطوره وعظمته وحركته، الأولى تحت إمرة الإنسان مرشدة له. عمل الأولى الخدمة وعمل الثانية النبوة، وفي هذا الموضع يكمن الخلاف بين رسالة الأنبياء ودور العلماء في تاريخ الأمم. وهذا الخلاف نراه الآن بشكل آخر بين المفكرين: فالقادة الفكريون وبناة الحركات التحررية المضادة للاستعمار والمطالبة بالاستقلال والمضادة للطبقية شيء، وعلماء الفلسفة والعلماء والأدباء والمتخصصون والمكتشفون والمخترعون شيء آخر. وفي العصر الحديث يعتبر ما قام به سيد جمال الدين وميرزا حسن الشيرازي وغاندي من النوع الأول، وخدمات فون براون مصمم السفينة أبولو من النوع الثاني. وانطلاقاً من هذا البحث يمكن أن أوضح إحدى مشكلاتي الكلامية، وهي عدم وجود مفهوم بين مصطلحات من قبيل «المثقف: انتلكتويل» والمفكر «روشنفكر» التي راجت في لغتنا كثيراً لكنها في الغالب مبهمة ومختلطة بل وغالباً تستخدم خطأ. فالمثقف «انتلكتويل»[١] مفهومه من يقوم بعمل عقلي، وقد ترجمته إلى الفارسية «تحصيلكرده: المتعلم» فلا يوجد اليوم مثقف

(١) أظن أنهم خلطوا المصطلحين المعروفين Libre penseur أي متحرر الفكر و Clairvoyant أي مستنير، وخرجوا من ذلك بمصطلح روشنفكر أي المفكر واستعملوه مقابل Intellectuel أي مثقف.

ليس متعلماً Lettré، لكننا نستعمل المصطلح خطأ بمعنى المفكر وليس هذا صحيحاً قطعياً، لأنه لا توجد علاقة تساوٍ وترادف بين المثقف والمفكر، لكن هناك ـ بمصطلح المناطقة ـ علاقة عامة بينهما لكنها خاصة من وجه وهي: إن بعض المتعلمين مفكرون وبعض المفكرين متعلمون، ومن هنا فعكس القضية صحيح أيضاً أي أن بعض المتعلمين ليسوا مفكرين وبعض المفكرين ليسوا متعلمين «مثل ستارخان والشيخ علي مسيو» ومن هنا ينبغي أن نقدم تعريفاً آخر للمفكرين، وهم فئة ممتازة. ولسنا هنا بصدد إعداد تعريف جامع مانع منطقي، لكن من المسلم به أن المفكر المستنير هو مفكر قد بلغ «الوعي» وبالتالي فهو ذو رؤية شاملة منفتحة ومتطورة وقدرة على إدراك أوضاع العنصر والمجتمع الذي يعيش فيه وتحليلها منطقياً، وذو إحساس بالارتباط التاريخي والطبقي والقومي والبشري ورؤية واتجاه اجتماعي محدد، ولا بد له أيضاً من إحساس بالمسؤولية وهي وليدة نفس ذلك الوعي الإنساني الخاص، الوعي بالذات والوعي بالعالم والوعي بالمجتمع، وهذا الوعي هو أسمى ميزة في النوع الإنساني وهو أكثر تجلياً في من نضجوا من أفراد. هذا الوعي ليس فلسفة أو علوماً طبيعية وإنسانية أو فنوناً وصناعات وآداباً أو بقية الفروع والتخصصات الأخرى. هو نوع من الوعي الأيديولوجي أو بتعبير القدماء نوع من الاستعداد للهداية وشعور بالنبوة وحاسة القيادة، نفس الطريق الخاص الذي كان موجوداً عند الأنبياء، هو العلم الذي عبر عنه الرسول ﷺ بقوله: «نور يقذفه الله في قلب من يشاء» هو نفسه الوعي.

والحكمة في القرآن وغالباً ما تذكر مع «الكتاب» عطية من الله يبلغها الأنبياء للبشر. هي أيضاً نفس هذا الشيء. والنار التي سرقها برومثيوس من سماء الآلهة وأتى بها إلى الأرض ووهبها الإنسان الذي يعاني من النار والبرد هي نفس هذا النور. والـ «سوفيا» التي كان سقراط يتحدث عنها كل هذا الحديث والتي قال فيثاغورت: إننا لا نملكها ولكننا نحبها «أي فلاسفة» هي نفس هذا الوعي الميتافيزيقي، ودائماً ما كانت كل الأمم البشرية تبحث عنها، هي الويدا أو الحكمة المقدسة عند الهنود، وهي من أصل لغوي واحد مع «بينش» أي رؤية في الفارسية voir في كل اللغات الهندو أوربية، والبده «بودي» الشجرة الخاصة وبوذا تعني من يملك تلك الشجرة أي تلك الرؤية» وهي في اللغة بمعنى البصيرة والعقل والمقصود نفس هذه البصيرة، و«سبندمن» وهي من صفات زردشت بمعنى العقل المقدس أو الأبيض، هي نفس هذا العقل الأسمي الطاهر المستنير «في مقابل العقل المحتال الباحث عن المصلحة الناظر إلى الصغائر دني الفهم»، والعرفان عندنا يعني نفس هذه المعرفة التي هي فوق كل المعارف والعلوم، ولا شك أن العلوم تستطيع أن تساعد في نضجها وثرائها وقوتها، لكنها لا تتأتى بالقطع عن طريقها، هناك أُميون مشاهير كانوا يملكون هذا الوعي بطريقة مدهشة، فأبو ذر يملكه لكن أبا علي بن سينا محروم منه، وموسى الراعي يملكه لكن فيلون الفيلسوف يفتقده. هذا الوعي الماوراء علمي هو الذي يحدث «الحركة» والحركة هي التي تصنع المجتمع الجديد، مجتمعاً حياً ومتحركاً كجسد وصاحب هدف.

وهنا فحسب تكون الحضارة قد ظهرت وأفراد البشر الذين بلغوا هذه المرحلة هم متحضرون بالمعنى الحقيقي للكلمة، مهما لم يكن بينهم عالم طبيعي أو طبيب أو مهندس أو معماري، ومهما كان الشكل الظاهري للمدن والمنازل والملابس والزينة لم يتغير بعد، فالأرضية مهيأة لنضج كل آثار الحضارة المتقدمة والثقافة الفياضة ومظاهرهما، إنها تحتاج إلى زمان فحسب، ولن يكون زمناً طويلاً.

وأولئك الذين لا يعرفون التاريخ ولا يعرفون شيئاً عن تكون الحضارات العظيمة الماضية يستطيعون النظر إلى الدول المتأخرة الجامدة أو المبتلاة بالاستعمار في العصر الحديث ويدركون أنه نتيجة لأيديولوجية قومية أو طبقية أو اجتماعية أقامت بعثاً في هذه الدنيا، وفي ظرف ما لا يقل عن نصف قرن بلغت مرحلة مزدهرة جداً من التقدم والقوة والمدنية. إن الوعي الأيديولوجي مثل روح قوية تنفخ في جسد ميت لعرق ما أو أمة أو مجتمع ما منحط ومستعبد، وفجأة تثور القبور الفردية، وتقيم قيامة من الحياة والحركة والتطور والخلق والنبوغ والثقافة والعلم والفلسفة. وهكذا تخلق حضارة جديدة وتفور من داخل أمة ما.

هذا الوعي الخاص بالإنسان: أي أناس ينبغي، عليهم أن يمنحوه للناس، وهذه الروح أي إسرافيل ينبغي عليه أن ينفخها في الجبانة الساكنة الحزينة لأمة ما لا شك في أنه المفكر. وفي الإسلام أفهم «الخاتمية» على أساس أن الرسالة التي تعهد الأنبياء بها بين أقوامهم حتى الآن، على المفكرين أن يواصلوها من الآن

فصاعداً. لكن ليس هذا الصنف من المفكرين الذي يملك معلومات في أحد فروع العلوم بل هذا الصنف من المفكرين الذي يتمتع بشعور النبوة، الشعور الذي دفع المهاجرين المنحطين الوثنيين المتفرقين في منطقة بين النهرين إلى طريق وضع أساس أعظم حضارة وثقافة مادية ومعنوية قديمة، وهو الشعور الذي نجى قوماً أذلاء جبلوا على العبودية والخضوع لفرعون والعبودية لأمة غريبة وجعلهم صناعاً جديرين بالثقافة العظيمة الفياضة في فلسطين، وهو الشعور الذي نفخ روحاً لطيفة وهادئة وإنسانية في مسارح القتل والقسوة في المجتمع الروماني وميادين المصارعين المخزية، وقصور قيصر السوداء المظلمة الظالمة محترفة الجريمة، وسمت بمواطن القسوة والدم والسلاح إلى مستوى العاطفة والإيمان والروحانيات، وفي النهاية هو الشعور الذي جعل من بدو غلاظ ومغمورين وبدائيين في صحراء ما بناة لأعظم حركة عالمية وأعظم حضارة وثقافة في التاريخ الإنساني.

هذا الشعور الإنساني الخاص وما فوق العلمي هو «محول الإنسان والمجتمع»، وعلاوة على منبعه الميتافيزيقي، يمكن كوعي ذاتي خلاق ومسؤول أن يواصل كذلك حياته وحركته ودوره في خلق الإنسان وبناء المجتمع، والمقصود به المفكرون الذين يتعهدون بمثل هذه الرسالة الصعبة والخطيرة وينبغي عليهم أن يمسكوا بزمام تاريخ الغد في أيديهم. ولا يلزم البحث عن هؤلاء المفكرين بين العلماء، فليس معيار «التفكير» هو «التعليم» أو «الشهادة» ليس المعلومات العلمية أو الفنية، بل: هو الوعي

الاجتماعي وحاسة إيجاد المثل والبحث عن الطريق والاستعداد الخاص للرؤية والهدى ومعرفة الحقيقة، وهذه الحقائق ليست مجهولات فلسفية وعلمية وصناعية وفنية، بل هي إدراك للواقع الاجتماعي والعصر والصعوبات وطريق الحركة والنجاة والكمال وهذا وعي خاص ما وراء الأمور العقلية والفنية، وفي نفس الوقت بناء للمجتمع وخالق للحضارة، ومسبب للحركة والبعث الاجتماعي والفكري عند أمة ما، ويمكن الآن الوصول إليه بقدر أو بآخر.

وتمييز الوعي العلمي عن الوعي ما وراء العلمي أي الوعي الاجتماعي والسياسي وبتعبير آخر للوعي الأيديولوجي أو الخلاقية العلمية والقيادية، يعد من الأمور السهلة بهذا المقياس فهناك باستور وكوخ ووات وماركوني ومارس ونيوتن وداروين وآينشتاين في ناحية، وفي ناحية أخرى: سيد جمال الدين ومحمد عبده والكواكبي وإقبال وغاندي ونيريري وإيما سيزار وفانون وتشي غيفارا وعمر مولود... الخ.

هذا الوعي والرؤية الخلاقة صانعة المثل المتحركة التي يمكن أن نطلق عليها بوجه عام: الأيديولوجية والوعي الذاتي الإنساني والوعي الاجتماعي والوعي بالتاريخ، وعلم التكامل والقيادة، والإحساس الثوري المغير، والإدراك المدرسي والمسلكي وحاسة الهداية أو إدراك المبادىء والبعث الاجتماعي، هي معرفة خاصة بما هو فوق العلوم والفنون، تتجه لا إلى الإنسان كما هو كائن بل إلى الإنسان في حالة تكونه، ومن هنا اعتبرها من قبيل الحكمة

والعقل المقدس والبصيرة النبوية، ومن هنا قدسيتها ما وراء العلمية، وأحب من أجل أن أيسرها أسميها اقتداء بتعبير افلاطون «الوعي السياسي».

يقول أفلاطون: الإنسان حيوان سياسي. وهذا قول عميق جداً، والمفسرون الذين يعتبرون أنفسهم أكثر فهماً من صاحب النص، فسروه على تصورهم بأنها تعنى أن الإنسان حيوان اجتماعي اعتباراً من أن السياسة أمر عادي بل وقبيح وسيىء، فالسياسة هي الخداع والظلم وطلب السيطرة على الناس وطلب القوة والحكم وإيذاء الخلق أو هي في خلاصة الأمر الاشتغال بالأمور المادية اليومية، ومن هنا لا يمكن أن تكون من «فعل الإنسان» والصفة التي تميزه عن الحيوان، فجاءوا وعدلوا في سوء تعبير الأستاذ وضعف تفكيره وضعوا كلمة «اجتماعي» محل كلمة «سياسي» في حين أن اجتماعي وسياسي كلمتان مستقلتان في اللغة اليونانية ولا تزالان تستعملان حتى اليوم في اللغات الأوروبية. هذا فضلاً عن أن «الاجتماعية» ليست من الصفات المميزة للإنسان، فنحل العسل والنمل وكثير جداً من الحيوانات تتميز بصفة الاجتماعية بل إن نحل العسل أكثر اجتماعية من الإنسان، أما السمة «السياسية» فهي الخاصة بهذا النوع. والسياسة غير الحيل القبيحة والخدع والخطط اللاأخلاقية من أجل هزيمة الخصم أو بلوغ المقام، بل هي غير الحكم والسيطرة على الخلق فالسياسة تعني الاحساس بالارتباط بمجتمع ما، والوعي بالنسبة لوضع الجماعة ومصيرها، والاحساس بالمسؤولية الفردية، في مواجهتها، والتميز بضمير اجتماعي أو

جماعي، والاشتراك في حياة مسيرة المجتمع الذي يعيش فيه الفرد ويشترك معه في المصير والاحساس ويشاركه حركته وكدحه وعمله وعلى حد قول هايدجر: إن الإنسان الذي يعلم أنه موجود هو فحسب الإنسان الواعي بوجوده في العالم والذي يحس أنه موجود، ومن هنا فالإنسان وحده هو الموجود بالمعنى الوجودي لكلمة وجود. ويمكن تطبيق هذا القول أيضاً إذا وضعنا كلمة المجتمع محل كلمة الوجود، فالإنسان مثل كثير من الحيوانات «اجتماعي» أي يعيش في المجتمع لكن الإنسان هو وحده الذي يعرف أنه يعيش في المجتمع، أي على علم بوجوده بين الآخرين وبوجود المجتمع الذي يعتبر هو أحد خلاياه يحيا به ويستمد منه معنى وجوده، وفي رأيي أن هذا الوعي هو الذي يسمى بالسياسة، ومن هنا إذا أردنا أن نترجم قول أفلاطون ترجمة ذات معنى علينا أن نقول: «الإنسان حيوان ذو وعي اجتماعي» بدلاً من أن نقول: الإنسان حيوان اجتماعي، ومن هنا نستمد عوناً جديداً في تعريف المفكر تعريفاً دقيقاً.

والمفكر الذي هو على كل حال أكثر المفكرين وعياً «في مقابل المفكرين غير الواعين» هو المفكر السياسي. وإدخال كلمة «روشن: مستنير» في الصفة نابع من هذا المعنى[١] أي أنه الإنسان الذي يدري أين هو، وهو على معرفة واضحة بوعيه. ومن هنا لو أننا وضعنا المفاهيم السابقة للمصطلحات التي اعتادت عليها عقولنا

(١) المترجم: روشنفكر تعني بالفارسية وتعني حرفياً مستنير الفكر.

جانباً، نستطيع أن نقول أنه بالفصل بين مفهومي الخدمة والإصلاح، أو بالمصطلح الخاص بعلم الاجتماع الفائدة والقيمة، فإن العلوم المفيدة الخادمة تجاهد في منح الإنسان «كما هو موجود» المتعة والسيطرة على الطبيعة والرفاهية أو بكلمة واحدة «السعادة» وأولئك الذين يقومون بهذه المهمة هم المثقفون على وجه العموم أو المتعلمون، ووراءهم يوجد نوع من «الوعي الذاتي الاجتماعي» الخاص يسمى بالوعي السياسي يتجلى في صورة إيمان وأيديولوجية ومدرسة فكرية اجتماعية ومسلك لطالب المبادىء انساني وقومي وطبقي، يجاهد في أن يدفع الإنسان «الفرد والمجتمع» مما «هو موجود عليه» إلى «ما ينبغي أن يكونه» وهدفه المباشر ليس الراحة، والسعادة أو المتعة والسيطرة على الطبيعة بل هدفه المباشر: الثورة والحركة والكمال والقوة الروحية للإنسان وسيطرته على نفسه. والعلوم هي التي تجعل الإنسان مقتدراً بحيث يستأنس الطبيعة كما يريد، والأيديولوجية تجاهد في أن تجعله قوياً وناضجاً بالنسبة لقدرة الإرادة والاختيار والإيمان والوعي الذاتي حتى يصنع نفسه كما يريد.

والإنسان هو الذي يخلص حريته ومصيره من السجون الثلاثة: الطبيعة والتاريخ والمجتمع، ويستطيع بمعجزة الإيمان والوعي الذاتي أن يخلص نفسه من أصعب سجونه أي سجن النفس[(١)] حتى يصير خالقاً لنفسه ومجتمعه وتاريخه وعالمه، أي

---

(١) المترجم: لشريعتي رسالة بعنوان «جهار زندان إنسان: السجون الأربعة للإنسان» تناول فيه هذا الموضوع بالتفصيل.

تسمو هذه المعجزة بذلك الإنسان المثالي أو الواقعي إلى إنسان حقيقي شبيه بالله، وأولئك الذين يحملون على عواتقهم مثل هذه الرسالة الإلهية والنبوية في المجتمع الإنساني وفي تيار التاريخ كانوا الأنبياء في الماضي وبعد خاتمية عصر الوحي صاروا هم المفكرين.

ففي عصر الوحي كان هناك الرسل، وبعد ختم الوحي بدأ عصر الفكر أي عصر المفكرين، وهذا بناء على ما يلي:

المفكر والمثقف:

إن المفكرين ـ خلافاً للمثقفين ـ ليسوا جماعة متميزة ذات قاعدة اجتماعية مميزة، فهم من الوجهة الطبقية الاجتماعية لا يقفون في مقابل الجماهير Masse أو الشعب Peuple أو عوام الناس Plébe أو بإزائهم. لأن الفكر المستنير صفة معنوية بارزة في الإنسان وليست شكلاً اجتماعياً متميزاً، وليس من اللازم أن يكون المفكرون متعلمين وعلماء، وبين المفكر والمثقف توجد علاقة ثنائية عامة «وخاصة من وجه»، فوظيفة المثقف والعالم هي إدارة الحياة ودفع المجتمع إلى القوة والتقدم والمنفعة والرفاهية وتحسن أوضاع الإنسان، ورسالة المفكر هي حركة الحياة، وهداية المجتمع وتغيير الإنسان وإنضاجه أو تحسن حاله. ويستطيع العالم ألا يكون سياسياً، وأن يكون فاقداً للوعي الاجتماعي وفهم العصر، لأنه مشغول بعمله في ركن من أركان هذه القافلة البشرية العظيمة يقوم بمهامه التخصصية، ويستطيع جراح القافلة أو طبيبها

أو فنّيها أو سائسها القيام بعمله دون أن يعلم إلى أي مكان تتجه القافة أو ينبغي أن تتجه، لكن المفكر هو الآخذ بزمام القافلة، والمهمة الملقاة على عاتقه هي معرفة الطريق والمخاطر وتعبئة الناس والتناسق المعنوي في القافلة. وهذا هو ما تعنيه السياسة.

ووجود الحقائق من قبيل الفقر والظلم والتناقض الطبقي والاستعمار والاستغلال والخيانة أو الانحطاط في قلب مجتمع ما، ليست هي عوامل الحركة والثورة، لكن الاحساس بالفقر والظلم والاستغلال... الخ هو الذي يحدث الحركة والثورة، وما لم يحدث الوعي العام بالنسبة للحقائق المرة والحلوة والسوداء والبيضاء في الحياة الاجتماعية في ضمير المجتمع، يستطيع المجتمع بإخفاء كل هذه العقد والأمراض كلية أن يواصل حياته الباردة المغلقة لعدة قرون كما رأينا مجتمعات كثيرة في التاريخ وحتى في الحاضر قد وقفت في مرحلة تاريخية ما، وتوقفت فيها حتمية التاريخ والزمن الاجتماعي آلاف السنين. وهناك مجتمعات بدائية لا تزال موجودة في أفريقيا وآسيا واستراليا ولا تزال تعيش في عصر ما قبل التاريخ. ومن هنا يستطيع المفكر في مجتمع ما أن يكون ملتزماً ويكون التزامه واضحاً وهو «إدخال هذه الحقائق في وعي الناس في المجتمع وإحساسهم» أو بعبارة أخرى «جعل المجتمع على وعي ذاتي».

وبالتقليد الصرف أو مطالعة الكتب أو معرفة العلماء والفلاسفة والفنانين لا يمكن أن يصير المرء عالماً أو فناناً أو فيلسوفاً، أما تحول المرء إلى مفكر فهو ليس منفصلاً للوهلة الأولى

عن الفوران الداخلي والخلاقية والقدرة على التمييز والاستنباط والرأي الشخصي في مواجهة الحقائق. يستطيع المثقف أن يكون غريباً عن المجتمع الذي يعيش فيه، لا يعلم أين هو ولا في أي زمان يعيش ومع من يعيش، لكن السمة البارزة للمفكر هي معرفة مجتمعه معرفة حقيقية ومباشرة، والتفاهم مع قومه ومعرفة عصره والاحساس بآلامه وحاجاته ومثله. المفكر هو من ينبغي عليه قبل أي شيء أن يحدد في أي مرحلة من التاريخ يعيش مجتمعه أو بعبارة أخرى ما هو زمانه الاجتماعي؟[1].

وعالم الاجتماع والمؤرخ كلاهما من المثقفين، إنهما يعرفان مجتمعهما كأرضية علمية وأرضية عقلية، لكن كيفية معرفة المفكر لتاريخه ومجتمعه تختلف عن كيفية معرفتهما، فعالم الاجتماع هو الذي يضع عشرات التعريفات للطبقات الاجتماعية، وقد درس تاريخ التطورات الطبقية وقرأ علم النفس الطبقي على أساس نظريات علماء الاجتماع المعروفين في العالم، لكن المفكر هو الذي يحس بطبقته الاجتماعية ولديه معرفة عينية ومباشرة وتجريبية بها، لم يقرأ عن الحرب في الكتب الاشتراكية والمصادر المعتمدة في علم الاجتماع، بل يجدها في داخله يحس بها فوق بشرته وفي لحمه. وبالنسبة لعلماء الاجتماع فإن الجماهير عبارة عن ترجمة لكلمة Masse والآراء التي بيَّنها ماركس وإنجلز وبليخانوف ولو كاتش وغيرهم في شأنها، لكن المفكر هو من يعرف هذه الحقائق

(١) إن فقدان هذا الإدراك للزمان الاجتماعي واحد من الأسباب الرئيسية لهزيمة حركات العالم الثالث التي وضعت قيادتها في أيدي المثقفين.

من سحن الناس الذين يراهم ويعرفهم ومصدره العلمي الحارة والسوق والمصنع والمزرعة والريف والأحداث والعادات والتقاليد واللغة ووضع الحياة الخاصة بالناس، ومعرفته بالتاريخ ليست واحدة مع معرفة المؤرخ فالمؤرخ يعرف كل شخصيات التاريخ وأحداثه ويعرف كل وثائقه ومصادره، والتاريخ بالنسبة له «ماض» حدثت فيه حوادث عظيمة ودخله أبطال عظام ثم مضوا. أما بالنسبة للمفكر فالتاريخ «حاضر» حي وجار يحسه في قلب مجتمعه وسلوك قومه وأفكارهم وأقوالهم وعواطفهم وإحساساتهم وكل عاداتهم وتقاليدهم، ويحسه في أعماق روحه. ليس التاريخ بالنسبة له ذهنية ما، أو تذكاراً لوقائع ذهبت ودفنت في القرون الخالية، بل ذو عينية وفعل وحقيقة حيّة ومتحركة، وهو نفسه مثل قلب مجتمعه البكر تجسم عيني للتاريخ، ليس التاريخ بالنسبة له أحداثاً وتسلسل مراحل زمنية وكرونولوجية بل هو نهر ينبع من عمق فطرته وماهية عرقه وقوميته ودينه ومعنوياته، ويمر بتوالي الأجيال ويجري في داخله وفي داخل مجتمعه. ويستطيع المثقف أن يكون متشبهاً بالأجنبي، وعلى سبيل المثال نجد في مجتمعنا أن العصري والرجعي المتجمد كلاهما صب في قوالب تقليدية وموروثة ومحصورة في رؤية منغلقة ومظلمة، لكن المفكر لا يمكن أن يستوعب في واحد من هذين القالبين المتعارضين، فالعصرية والسلفية قالبان مفروضان يستوعب فيهما المتعلم والعامي عن غير وعي في ظروف خارجة عن إرادته وعلى أيدي عوامل وراثية أو مستوردة. لكن المفكر وبسبب وعيه يختار لنفسه، ولأنه يعرف

شخصيته والعناصر التي تصنع شخصيته لا يستوعب ولا يتقولب بقالب ما عن غير وعي، ولأنه يعرف العصر وضرورياته ووضعه لا يبقى في الأطر المتحجرة التقليدية. والمفكر لا يقلد ولا يقتبس، وهو عندما يعود إلى قواعده التقليدية القديمة يعود عن وعي ولبلوغ هدف ما، في حين أن العصري قد عجز في إدراك هذه القواعد بسبب عدم وعيه. فغاندي الذي كان يلبس «البشكير» ويضع في قدمه حذاء من الخشب ويغزل على المغزل ليس هو ذلك الهندي البداني المنحط، إنه أكثر رقياً وحضارة من ذلك الهندي المتأنجلز الجنتلمان المتعلم الذي يقرأ شكسبير. وكوامي نكروما الذي كان عند اشتراكه في جلسة من جلسات الأمم المتحدة يذهب إلى نيويورك بعمامته الضخمة وملابسه الشيت المنقوشة ورفاقه متقلنسون بالقلانس الحمراء، وأنواع الزينة الافريقية البدائية نصف الوحشية، وعندما يخطب باللغة الغانية، ليس ذلك بسبب أنه لا يستطيع أن يلبس سترة وسروالاً ويعقد البابيون ويتحدث الإنجليزية بطلاقة، وليس لأنه لا يعرف الطريقة التي يمكن بها اليوم المشاركة في المحافل الدولية أو يحسن التصرف في نيويورك حتى لا يقول الأوروبيون، والأمريكان وأشباههم: إنهم ليسوا متحضرين ولم يقرأوا آداب السلوك وفن الحياة عند ديل كارنجي. هذا النوع من السلوك لا تفهمه العقول التي تشبه عقول القردة لمتشبهي أفريقيا وآسيا، ولا يفهمون أن هذا الأوروبي والأمريكي الذي يراه يحس أنه إزاء حادثة جديدة، يرى إنساناً جاء من أفريقيا في قمة الشخصية والأصالة والوعي واستنارة الفكر والإدراك التقدمي للعصر

والحضارة والثقافة، ليس من صنع يديه، ليس قرداً يحسن تقليد الاستعمار القرداتي، إنه هو نفسه إنسان آخر.

يقال أنه عندما كان نهرو أو رادا كريشنان وهما من الشخصيات الاجتماعية. والفلسفية البارزة في هذا العصر يأتيان إلى أوروبا مرتديين السروال الأبيض واللبادة الهندية كانا يريدان إخبار الثقافة الأوروبية والحضارة الأوروبية اللتين تدعيان أنهما الثقافة والحضارة الفريدتان عند البشر، وأنه لا مناص للبشرية من تقبل شكلهما ومحتواهما، وكانا يريدان إخبار الاستعمار الثقافي للغرب الذي يدعي أنه حضر آسيا وأفريقيا نصف الوحشيتين، إن في الهند أمة ليست نسخة بديلة مخلوطة ومحرفة وكاذبة ومضحكة وتثير شفقتكم، إنها في حد ذاتها أثر إنساني مستقل ذو قيم ومبادىء وفضائل سامية بشرية، ولها رؤية وتفسير خاص بها عن الدنيا والحياة، وأن في الهند ثقافة فياضة في حالة فوران من الفكر والإحساس والجمال. ومن هنا فعندما كان كريشنان يلقي محاضرة في أوروبا، لم يكن يرد ثانية إلى الأوروبيين ما هضموه ـ وهو يثير الغثيان بالنسبة للأوربي ـ لكنه عندما كان يتحدث، كان إنساناً عظيماً ومفكراً ومستقلاً ـ وهذا الشيء بالنسبة للأوروبي محترم جداً وجالب للخضوع ـ إذاً إنه على الرغم من السيطرة الشاملة لأوروبا القوية المدعية المعتدية في فكر هذا المفكر الشرقي وإحساسه، ولا يرون ـ وهذا على خلاف المعتاد ـ غديراً متعفنا على شاطىء النهر الذي يجري من اليونان القديمة إلى أوروبا المعاصرة، لكنه ينظر إلى نهر فياض وجياش وزلال قد نبع مما قبل اليونان الذهبية بمئات

القرون وعبر مواطن التاريخ النائية وأخذ يصب في هذا المحيط العظيم العميق للثقافة الهندية، وإن ظنهم بأن الثقافة البشرية قد نبعت من جبال البرناس والأوليمب وأخذت تنصب في الغرب بعد عصر النهضة ليس ادعاء جاهلاً مغروراً فحسب، بل إن اليونان نفسها فرع من دجلة والفرات أخذت قوة كثير من الأنهار التي كانت جياشة وجارية دائماً في هذا الشرق الخصب الغني، وإن تصدير ثقافة الغرب وفلسفته وحضارته إلى الشرق مضحك ولا معنى له يشبه تماماً إرسال «الضوابط الأخلاقية» لأوروبا البورجوازية ودينها التجاري عابد المال إلى شرق لاوتسي وكونفوشيوس ومهابيرا ويدا وبوذا وزردشت وإبراهيم ويحيى وهود ونوح وموسى ومحمد وعلي، أي إلى الأرض التي تعد البنية التحتية فيها هي الأخلاق وروح حضارتها المادية وعلومها الدنيوية قائمة على الروحانيات، وإلى القوم الذين صاروا ضحايا لأخلاقهم ووفائهم للروح والمعنى في التسلط العالمي للقوة والصناعة وعبادة المال وقاعدة القوة.

استعمار آسيا وأفريقيا عند الرأسماليين والاشتراكيين:

إن أعظم الأحداث التي شهدها القرن التاسع عشر في العالم هي استعمار آسيا وأفريقيا. وللأسف بقينا نحن غافلين عن هذا الموضوع لأننا نأخذ معرفتنا للعالم بل ولأنفسنا من الأوروبي، بل إن آداب القرن التاسع عشر وآثار الاشتراكيين لم تتأثر بهذه المأساة التي تعد أبشع مأساة في تاريخ البشرية. وماذا يمكن أن ننتظر من الرومانسيين المبتذلين أمثال لامارتين الذي كان يرى كل الوجود البشري في مقعد «المدام» الخالي منها؟ ولكن الذي يثير الدهشة أن مفكرين من أمثال سان سيمون وبرودين وماركس وإنجلز وبليخانوف وجان جورس الذين كانوا قد حددوا اتجاههم الأصلي وحددوا المجتمع والحياة الإنسانية كلها بأنها النضال ضد الظلم والتفرقة والاستغلال والتناقض الطبقي والقضاء التام على الرأسمالية واستغلال الإنسان للإنسان وتحرير طبقات العمال والمزارعين وإقامة الحكومة العمالية، وكانوا مصانين من مرض عبادة الغرور الغربي والتنفحات الجاهلية العرقية واصطناع الفلسفات الغيبية الوهمية وأنواع الجنوح إلى الخيال العلمي والأدبي والفني وكلها من العادات الثانوية للبورجوازية، ورغم كل ذلك اهتموا بمحاولة قيام

عمال فرنسا بإضراب في سنة كذا. . . أكثر من اهتمامهم بعمليات القضاء التام على شعوب أفريقيا وآسيا في الحملات المغولية الوحشية للاستعمار الأوروبي المتحضر في القرن التاسع عشر.

وبالرغم من أنني أعتبر الاشتراكية واحدة من أهم كشوف الإنسان المعاصر، لكني لا أستطيع أن أنسى أبداً أنه في نفس العصر الذي كتب فيه «رأس المال» و«مقدمة في الاقتصاد السياسي» و«آنتي دورينج»، قتل الفرنسيون في يوم واحد (٤٥) ألف نسمة في مدغشقر، وأن جيش فرنسا قام ـ بعد إعلان رسمي ودعوة للأشراف والشخصيات الفرنسية البارزة جداً والمتحضرة جداً إلى مشاهدة المنظر عن كثب ـ بقذف الجزيرة عاصمة الجزائر بالقنابل، ثم احتلها واستعبد أمة، ثم قام بإلغاء وجودها وتاريخها ولغتها وعرقها وأعلن على لسان البورجوازية الثورية والديمقراطية في فرنسا أن «البحر المتوسط يشق فرنسا كما يشق السين باريس» وهذا الادعاء القذر المجرم لاستعمار الطبقة الحاكمة والرأسمالية الفرنسية قبله الشيوعيون الفرنسيون أيضاً بدليل أنهم اعتبروا الحزب الشيوعي الجزائري شعبة من الحزب الشيوعي الفرنسي أي أن الجزائر جزء من فرنسا، ناهيك عن الحزب الاشتراكي الفرنسي وهو أكثر قذارة وأكثر يمينية من الديغوليين، هو الحزب الذي تعاون مع الاستعمار الإنجليزي ومع إسرائيل في الهجوم رسمياً على مصر سنة (١٩٥٦) ليحول بالاحتلال العسكري وقوة السلاح الاشتراكي الأوروبي دون تأميم قناة السويس وإخراج الجيش الإنجليزي. كلهم في ذلك المجال طينة واحدة، غي موليه الاشتراكي هو نفس إيدن المستعمر

ونفس بن غوريون المعتدي، وأليست إسرائيل هي الابنة غير الشرعية للزنا الذي حدث بين الرأسمالية والشيوعية في الحرب الثانية؟

كنت في السنوات ما بين (٥٨ و٦١) شاهداً عن كثب أنه بينما كان الشباب الفرنسي الواعي والمستنير يمتنع عن الذهاب إلى الحرب في الجزائر عن طريق حقن نفسه بميكروب السل أو إصابة أحد أطراف الجسد بالشلل، امتنع الحزب الشيوعي الفرنسي الذي يضم ستة ملايين عضواً عن إدانة هذه الحرب المجرمة الاستعمارية، بل إن الشيوعيين الجزائريين أدانوا في بيان رسمي ثورة الوطنيين والمسلمين في الجزائر الذين حملوا الأسلحة في أول نوفمبر سنة (٥٤) وألقوا بالقنابل الأولى في المدن كإعلان للثورة والكفاح المسلح، وحرم اشتراك الماركسيين الثوريين جداً في هذا الجهاد المضاد للاستعمار، وشتموا صراحة مجاهدي جبهة التحرير الجزائرية وجيش التحرير الجزائري بنفس مصطلحاتهم الدورية النمطية التي تثير الغثيان، واتهموهم بأنهم بضعة من الإرهابيين الرجعيين الدينيين وعملاء للأجنحة اللاثورية والإقطاع العربي، وموريس توريز أيضاً كما ذكرت كرر الادعاء القذر المعتدي لهيئة العسكريين الرسميين والرأسمالية الاستعمارية بطريقة أكثر علمية ولهجة ماركسية وصرح بأنه لا يوجد في الأصل شعب باسم الشعب الجزائري سواء في التاريخ أو في الحاضر، لكنه شعب في سبيله للتكوين (مرسى)، وقام منظرو الماركسية والاشتراكية العلمية والحتمية التاريخية والجدلية وحرس الثورة البروليتارية وغيرهم

رسمياً بتقديم هذا التحليل: (إن الشعب الجزائري وغيره من الشعوب المبتلاة بالاستعمار والمستعبدة من قبل الرأسمالية والعسكرية الأوروبية ينبغي عليها أن تصبر بالفعل حتى تقوم طبقة البروليتاريا في أوروبا بالثورة، وتسيطر على الحكم بعد القضاء التام على الرأسمالية والبورجوازية، وآنذاك نقوم بحل القضية ودياً لأن الاستعمار يكون قد انتهى وتلقائياً تنالون استقلالكم) إن شاء الله، أو كما يقول سكان قريتنا مزينان (كي در آب دور و كربه بري: أي عندما يصل فصل حصاد الماء وتساقد القطط أو كما نعبر عنه في العامية المصرية أما يرقد الكلب في المية أو في المشمش» هذا النوع من التفسير أيضاً ليس بعيداً، إذ نرى أنه بذكاء رأسمالي وبرجوازي عالم بالاجتماع وحتمية التاريخ وروح المسالمة والتعايش، والنشاط السياسي والبرلماني والنقابي والأحزاب الماركسية في أوروبا، نرى كيف تصالحت الأطروحة مع عكس الأطروحة وصارتا معاً يداً واحدة وفكراً واحداً ومتعاطفتين، ولا خبر هناك عن الثورة العمالية في أمريكا وأوروبا الشمالية والغربية والوسطى اللهم إلا في الكتابات الماركسية القديمة وبعض «الشفاهيات اللقائية» و«الأناشيد الحماسية الخاصة بمواسم الانتخابات»، الذئب والحمل يشربان من نبع واحد، والشيوعية والرأسمالية كلتاهما تضع فمها في مخلاة البورجوازية، النبع والمخلاة المليئان العامران من خراب الشرق ونهب آسيا وأفريقيا.

فهذا المالك أو صاحب المصنع عندما يرغم فلاحيه وعماله على الرضا بهذا النصيب المفروض القليل أو الأجر العادي، يتعرض

لتهديدهم وتزداد بينهم فرص التمرد والعصيان والمجازفات الثورية، لكن عدداً من اللصوص المسلحين قطاع الطرق، وعصابة من حملة المسدسات الأقوياء، دخلهم في إطار العمل والانتاج والعلاقة العادية بين الرأسمالية والكسب ليس محدوداً، ومع كل غزوة ليلية يستولون على قرية أو بنك أو مخزن، وهم غرقى من قمة الرأس إلى أخمص القدم في المال والسلطة والمتعة، تقوم بالإنعام على صبيانها وسماسرتها والحاضرين لخدمتها ومرؤوسيها وعمالها وكل من حولها وملئهم وإشباعهم بحيث يضحون برؤوسهم وأيديهم من أجل سلامة «السيد» واستقرار «الوضع الطيب الموجود» ومن السذاجة بمكان أن نشبه العلاقة بين العامل وصاحب العمل في مثل هذه الحالة بالعلاقة الموجودة بين العامل وصاحب العمل في نظام عادي ومشروع للملكية الخاصة وليس من قبيل المصادفة أنه في الماضي قام كل عمال إنجلترا عن طريق توقيع منشورات طويلة والقيام بمظاهرات واسعة بالاعتراض على حكومة انجلترا التي كانت قد نوت استدعاء جيشها في افريقيا وآسيا، لأنه إن تم فسوف تتهدد أجورهم وأوضاع حياتهم.

وما تعجز الرؤية الغربية الماركسية عن تحليله هو أن الاستعمار في حد ذاته ذو روابط جدلية خاصة ليست مما يصدق على حتمية التاريخ والروابط الطبقية والنظام الرأسمالي العادي، إذ قام الاستعمار بوضع العلاقة الطبقية والجدلية بين العامل والرأسمالي في الدول الإستعمارية في معرض التغيير، كما قام بتغيير النظام الاجتماعي والطبقي في الدول المستعمرة. كنت أرى

بأمّ عيني أن استعمار افريقيا وإلحاق الجزائر بفرنسا قضية سياسية وضرورة حيوية بالنسبة للعامل الفرنسي والطبقة المستغلة المحرومة في فرنسا، فالخمر بالمجان وكيلوغرام العنب بخمسة عشر قرشاً والبطاطس بثلاثة قروش والطماطم بثلاثين قرشاً والموز بثمانية قروش، والغاز مجاني والنفط مجاني، لكن إذا صارت أفريقيا افريقية والجزائر جزائرية فلن يستطيع بعد أن يشرب النبيذ أرخص من الماء وأن يشتري الفاكهة في باريس أغلى عواصم العالم أرخص من سعرها في قرية محمد أياد في سبزوار، وإذا ضاع ذلك المحيد العظيم من النفط وتلك الغابات المترامية من المطاط والبن وقصب السكر وإذا ضاع ماس تنزانيا الذي لا رقيب عليه من يد الرأسمالية الأوروبية، فان البروليتاريا الأوروبية لن تتحول بعدها إلى بورجوازية وموسع عليها.

إن ما لم يعلمه ماركس عندما كان يظن أن «فائض القيمة» هو الذي جعل الرأسمالية أكثر غنى وحرم العامل من خيرها، وإن فائض القيمة هذا هو وليد العمل المتشعب والتخصص وتقسيم العمل والآلة، إن هذه الأمور لم تكن هي التي أدت إلى ظهور الرأسمالية، بل الذي أدى إلى ظهورها هو نهب كل مصادر الثروة والوجود عند الأصفر والأسود والمسلم والهندي، هو الذي كان يجعل هذه الدودة السوداء أكثر شرها للدماء وأكثر سمنة، كان ماركس وإنجلز قد ظنا أن هذه الثروة التي تكدست في أوروبا نتيجة لكدح البروليتاريا الأوروبية وأجهزة الإنتاج الغربية. كان نهباً ليس إنتاجاً، كان استعمار آسيا وأوروبا لا استغلال العامل الأوروبي،

كان نفط آسيا وأمريكا اللاتينية ومطاط الهند الصينية وماس تنزانيا، كان بن البرازيل ونيل مصر وكتانها وقطنها، كان المنابع المجانية للنحاس والرصاص والحديد.

إن هذا يشبه أن يأتي اشتراكي إنساني عالم بالاقتصاد إلى الشركة الانجليزية التي كانت تستخرج النفط وإلى المساهمين فيها قائلاً: إن هذا الذي تحصلون عليه هو نتيجة عمل عمال هذا الجهاز وموظفيه وليس من نتاج رؤوس أموالكم، ثم يردون هم محتجين: لا، ليس من فعل العامل وحده، وليس من فعل صاحب رأس المال، لكن هذا الكسب المعجز نتيجة عمل جماعي، سيدي: لماذا لا يعترف أحد بينه وبين نفسه بأصل الموضوع؟ صاحب النفط.

إن الصراع بين الاشتراكي والرأسمالي في أوروبا يدور حول لحاف ملا نصر الدين «حول أمر غير رئيسي وغير هام» فالاشتراكي يقول: ينبغي أن توضع رؤوس الأموال وأجهزة الانتاج الصناعية في يد الدولة حتى تقوم هي بالانتاج وأن يكون التوزيع والبيع في يدها، ويقول الرأسمالي: لا، ينبغي أن تكون في يد القطاع الخاص، أوبل وفورد وروكفلر. لكن: ما هو مصير نفطنا ومطاطنا وماسنا ونحاسنا ورصاصنا وقطننا وقصبنا وبنِّنا والأورانيوم الخاص بنا؟ لم تطرح هذه القضية أبداً، في حرب الاشتراكية والرأسمالية الأوروبية لم تكن القضية حول الملكية الأصلية لمصادر الانتاج والمواد الخام، كانت حول أن يكون الانتاج في يد الدولة أو في أيدي السادة، أوبل أو فورد أو غيرهما. لكن: أي نصيب لنا نحن الجياع

المنهوبين المستضعفين في آسيا وأفريقيا من هذه الغنيمة؟ لا شيء.

عندما تحكم الاشتراكية في أوروبا، بدلاً من السيد دارسي، سوف يأتي رئيس الشؤون الخارجية التجارية للدولة الاشتراكية ويأخذ في النهب فما الفرق؟ الفرق أنه في النظام الرأسمالي كان الرأسماليون الأوروبيون يخصون أنفسهم بأغلب الغنيمة ثم يأتي الاشتراكيون ويخصون العمال ـ أي المجتمع ـ بأغلبها، ومن ثم فالحرب بين الاشتراكية والرأسمالية تدور حول اختلاف الاستيلاء بين الفرد والمجتمع، إذاً فهل سنظل نحن الأفريقيين والآسيويين منهوبين كالعادة؟ لا . . . عندما يحكم العامل سوف يكون أحسن سلوكاً معكم.

إن ما لم تفهمه الاشتراكية والماركسية في الغرب هو أن استعمار آسيا وأفريقيا هو الذي كون الرأسمالية العظمى في أوروبا وليس استغلال البروليتاريا الأوروبية، وكان أن حصرت نفسها في العلاقة بين صاحب العمل والعامل الأوروبي، وكان ينبغي أن تطرح العلاقة بين المستعمر «بكسر العين» والمستعمر «بفتحها»، وهي قضية إنسانية وفوق طبقية وشديدة الإجرام، لكن: لما كانت قد حصرت نضالها في تأمين حقوق العامل الأوروبي في مواجهة البورجوازية الأوروبية، وقامت بإذكاء عدم الرضا العام ورفع مستوى الطمع عند العامل حتى تدفعه إلى الثورة على البورجوازية، كانت البورجوازية بدورها على علم بعلم الاجتماع ومعلومات الماركسية وتحليلاتها وتنبؤاتها، واستطاعت من هذه المائدة الحافلة لآسيا وأفريقيا والتي لا صاحب لها لكنها ثرية والتي كان الاستعمار

قد وضع طوفانها الذهبي في يدها، استطاعت أن تعطي العامل الهبات بإستمرار، وأن ترفع أجوره، وأن تقدم له التأمين والضمان الاجتماعي وأن تقلل من ساعات العمل وتحسن من ظروفه، وتضع الإمكانيات الاجتماعية والعملية والترفيهية المتزايدة في متناول يده ويد أسرته، وتمنحه البلاج والسينما والنادي. وصالات الرقص والنوادي الليلية والكرنفال والحزب والنقابة وحق الإضراب والثلاجة والراديو والسيارة والقدرة الشرائية الكاذبة والاحساس الكاذب بالتمتع والرفاهية والحريات والحقوق السياسية والاجتماعية الكاذبة، أو تقوم اصطلاحاً بتحويل العامل إلى بورجوازي، حتى تجعله ينزل عن حمار الشيطان «يترك العناد»، وتنفذ رائحة الرفاهية واللذة والمتعة إلى خياشيمه فتخرج منها رائحة العصيان، وقد خرجت.

وشتان ما بين بروليتاريا اليوم في فرنسا وانجلترا والمانيا وبين البروليتاريا الغاضبة المحرومة المريضة الكادحة الخطرة في الربع الثاني من القرن التاسع عشر، مرحلة سان سيمون وبرودين وماركس وجان جورس، كان لينين يقول: إن البروليتاري ثوري بطبعه لأنه لا يملك شيئاً يفقده في الثورة «حقاً ما قاله»، لكن الرأسمالية اليوم أعطته بغير حدود، وزادت في تدليلها له، بحيث أن العامل الآن لا يجازف لكيلا يفقد أشياء كثيرة، ويقول الجميع: نعم، إن الرأسمالية قد تعقلت، أي أنها مثل ماركس تتنبأ وتحلل القضايا الطبقية، بينما كانت في الماضي بخيلة «لا يخر الماء من يدها» للعامل، أصبحت الآن يصدق عليها قول الشاعر:

إذا كان القلب بحراً وكانت اليد منجماً

فـهـمـا قـلـب مـولانـا ويـده

لكن: من أين كل هذا الكرم الحاتمي؟ من أين له كل هذا؟ ومن أين حصل عليه؟ بحيث يستطيع أن يجعل من عامله بورجوازياً، و«يبحبح» عليه بحيث ينص رف عن احتراف الثورة، ومن أجل الحصول على أهدافه الأصيلة ومي القضاء التام على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج ونقل رأس المال إلى المجتمع والاستيلاء على الحكم، أصبح يقنع بالإضراب والنقابة والنشاط الحزبي وإدخال مرشحي اليسار إلى البرلمان وهذا بدلاً من «الثورة» التي تحتوي على الخوف على الحياة»[١]! عجباً! عجباً!! إنه حتى اليوم لا يريد الماركسيون أنفسهم أن يفهموا أن «تعقل الرأسمالية ووعيها» وأن «تحويل العامل إلى بورجوازي» ليس نتيجة وعي أو حصيلة نضال «بل معجزة الاستعمار»، هذه الكنوز التي أتت بها الريح التي يقسمونها هكذا بينهم بتراضي الطرفين، وبطريقة لا يحترق معها السفود أو الكباب، إن نبوءة ماركس الذي كان يعتبر الثورة في أوروبا فورية بينما رأينا أن حرارتها السابقة قد خمدت، والأمر أيضاً بالنظرة العلمية الدقيقة قابل للتحليل الصحيح والعلمي والواقعي، فلو أن الوضع كان قد جرى على ما كان عليه في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ولو أن صاحب العمل الذي كان كسبه لا يزال شرعياً وقانونياً «على

---

(١) المترجم: شطرة من بيت لحافظ الشيرازي.

أساس الشرع والقانون الرأسماليين والعلاقة بين رأس المال والعمل والكسب» قد استمر، لكانت تلك النبوءة قد صحت قطعياً، فإن الرأسمالي بهذا الكسب المشروع لم تكن لتتيسر له قدرة «تحويل العامل إلى بورجوازي» وكل هذا الكرم الحاتمي غير العادي، وكان لا بد للأطروحة، وعكس الأطروحة من طي مسيرتهما الحتمية الجدلية، لكن ماركس كان في بداية الاستعمار الثقافي والاقتصادي للشرق ومن ثم وضعه على الهامش، وتدخل الاستعمار في مسار الحتمية التاريخية والحركة الطبيعة للجدلية الطبقية، وبدلاً من أن تترك البورجوازية تلك الجرثومة المضادة لها أي البروليتاريا لتنمو في باطنها وتتوغل يوماً بعد يوم وتفجرها من الداخل بهزة ثورية، أخذت من تلك الموائد الأرضية الجديدة التي تتخطفها من موائد آسيا وافريقيا، وصبت في حلقوم هذا المضاد لها، وصبّت وتصب وسوف تصب، بحيث بدلت التناقض إلى تشابه والتضاد إلى تعايش بين الأطروحة وعكس الأطروحة، ورأينا أنها وفقت، وعلى حد قول شوارتز: «لم يعد أكثر الماركسيين تفاؤلاً ينتظر على الأقل في المائة سنة القادمة حركة ثورية في البروليتاريا الأمريكية».

كان شوارتز يتحدث في قاعة ما مدعواً من حزب P. S. U. «حزب الاشتراكيين المتحدين»، وهو نفسه من قادته الفكريين العظام علاوة على مقامه العلمي البارز في عالم العلوم الرياضية»، وكان موضوع المحاضرة «تجديد الفكر الماركسي»، ولأني كنت من المعجبين بشخصيته الفكرية أو بشخصيته السياسية أكثر تعطشاً

لأفكاره باحثاً عن أعماله حضرت، وعندما وصل إلى هذه النقطة قمت وسألته:

أي سبب في رأيك قدم هذا الوضع وأشبع العامل قبل أن يقوم بالثورة أو كيلا يقوم بالثورة؟ وكان الجواب معلوماً: هو نفس وعي الرأسمالية وتعقلها، وقيامها بالبحبحة على العامل والبروليتاريا ورتبت أمورها ونظمتها وحولتها إلى شبه بورجوازية.

ولو أنني كنت أسمع هذه الكلمات على لسان أحد الماركسيين الرسميين، أي واحد من «قساوسة مذهب الإلحاد» وعملهم الأساسي الآن حفظ النص والسنة والرواية وعلم الحديث أو تبريره أو تأويله لصالح الخلافة والبدع الانحرافية وإحياء السنن الجاهلية لكان الأمر محتملاً، لكن هذا هو شوارتز، المفكر الثوري الذي لا يعترف بالماركسية كمذهب حكومي، ولا يعتبر المانفيستو أصلاً للعقائد منزلاً من السماء، وألقى بعيداً منذ سنوات بدعوى الجدلية ومبدأ التغيير في كل شيء ونسبية كل شيء وهذا نظرياً، أما عملياً: فترك مبدأ تنزيه ماركس عن الخطأ واعتبار الماركسية متونا كلاسيكية مخلدة ومؤيدة واعتبار تجديد النظر بعد مائة وعشرين سنة كفراً، فهو إذن ماركسي معتزلي واعٍ مخلص، والآن أسمع منه نفس هذه التحليلات النمطية، نفسَ هذا الشيء الذي كنت قد سمعته عدة مرات في قاعات المحاضرات في السوربون، وأيضاً قرأته في الكتابات والأقوال الوتيرية النمطية المملاة والمستملاة عند الحزب المسمى اصطلاحاً بالشيوعي: حزب موريس توريز، وخرجت عن طوري ونهضت. وكمظلوم بين جماعة من الظلمة

وقفت في مواجهة الظالم الأكبر وصرخت: ماذا تقول؟ سيدي: ليس سخاء الرأسمالية هو الذي منح البروليتاريا الرفاهية والنعمة. إنه الاستعمار، هو الذي جعل البورجوازي الغربي رأسمالياً والبررليتاري الغربي بورجوازياً، جردونا تماماً حتى صنعوا بروليتاريا موسعاً عليه، بينما صار العامل والفلاح الشرقي في طبقة ما دون البروليتاريا، ونحى التاجر الشرقي والمالك الصغير الشرقي من الوجود، أما الخان الشرقي فلم يبق له من كل ما كان يملك من ينابيع وأملاك ومخازن وقطعان غنم وبقر وخيل إلا «حساب الدكان» وقرض البنك حتى صار البروليتاري الغربي بورجوازياً صغيراً والبورجوازي الصغير رأسمالياً والرأسمالي ممولاً كبيراً ومؤسساً لاتحادات الشركات، والخلاصة أننا سلبنا كل ما نملك وبقينا جياعاً حتى شبع العامل وصاحب العمل عندكم وامتلأ على أساس نهب الشرق كل ما صنعوه. وكالعادة، أراد أن يستخدم التحليلات الجدلية والماركسية والمتعلقة بعلم الاجتماع (إياها)، إلا أنه قال وكأن يداً أمسكت بحلقومه فجأة: ليس عندي ما أقوله، هذه هي الحقيقة العارية بهذه البساطة. وعدم فهم رابطة العلية المستقيمة بين هاتين الحقيقتين الاجتماعيتين المتناقضتين واللتين تحيطان بطرفي هذا العالم، يعني عدم فهم أي شيء قط، يعني الضياع في متاهات البحوث الكلامية والجدلية والنظرية والعمى والابتعاد، وهذه هي أبرز الروابط الجدلية وأقواها وأعظمها بين قطبي المجتمع في الحياة البشرية المعاصرة، وليست العلاقة بين طبقتين في حدود مجتمع مجرد ومنفصل عن العوامل الخارجية

المحددة والروابط العميقة البناءة الاستعمارية يسمى بالمجتمع الفرنسي أو الأمريكي أو الإنجليزي . . . الخ .

ولو أننا نملك الرؤية الطبقية الواقعية، لأدركنا أنه ليس هناك قطبان متناقضان أي بروليتاريا وبورجوازية في واحد من المجتمعات الأوروبية المحروسة. وعندما تكون القضية نحاسنا وإناءنا فهما متعاونان متفاهمان، فتفاهمهما وجدلهما هو فقط من أجل تقسيم نحاسنا وإنائنا، بل وحينما يأتي الاستعمار لا يقسمنا إلى طبقات: من يملك ومن لا يملك، زارع وأجير، عامل وصاحب عمل، بل يقوم بنهب الجميع، ينهب الدولة كلها. لنضرب صفحاً عن تلك الأقلية التي لا تذكر والتي تحجل حوله للسمسرة والوساطة والخدمة والتبعية. فهؤلاء لا يشكلون طبقة بل جماعة، جماعة عندما تقع عيون أنصاف مفكرينا وشبه ماركسيينا العوام السذج على هيئتها وشكلها وتشكيلاتها يظنون أنهم قاموا بكشف ماركسي ويعلنون: أيها الناس: البشرى، لقد ظهرت البورجوازية، العصرية، الرقي، الرفاهية، نمو الرؤية الثورية، غداً تقوم الثورة الفرنسية الكبرى، وكل من يعارض هؤلاء السماسرة «الصبيان» فهو رجعي ومتعفن ومناصر لنظم القرون الوسطى والإقطاع والسلطة الدينية، وكل من يعتبر أن ظهور هذه الجماعة الجديدة من البشر الـ «دي لوكس» والـ «كذا درجة سوبر» وكلاء البيع للشركات الأجنبية زوائد فاضحة ومقلدة جديدة للحياة في المدينة وليست نضجاً للبورجوازية بل يعتبرها بقعاً وبرصاً وجرحاً ينز من تأثير الاستعمار الجديد، فهو إنسان قديم عابد للماضي

ومعارض للدولة وتقدمها[١] بحيث إنه لا يعلم هذه القاعدة العلمية الغامضة والتي فسرها علم الاجتماع وتقول أن ركوب النفاثة أفضل من ركوب البغال والهوادج القديمة وأن السيارة الكرايزلر ذات الثماني سيلندرات أسرع من الحمار الصغير النشيط والمسافر فيها أكثر راحة، وأنها أفضل في الأصل لأن:

١ ـ السيارة الكرايزلر مصنوعة من المعدن والحمار الصغير النشيط من الجلد واللحم والعظم.

٢ ـ السيارة الكرايزلر تعادل قوة كذا حصان في حين أن الحمار الصغير النشيط حمار فحسب.

٣ ـ إن من يجلس في السيارة الكرايزلر يجلس على كرسي

---

(١) المترجم: كأن شريعتي العظيم كان ينظر إلى مكان ما في هذا العالم الثاني فتح عينيه فجأة وأدرك أن كل مصائبه وهزائمه نتجت من معاداة الغرب والانغلاق على الذات، وقرر فجأة أن يربط عجلة اقتصاده العرجاء بعجلة اقتصاد الغرب الصاروخية، وفي يوم وليلة أغرقت بضائع الغرب الاستهلاكية الأسواق، وأسرعت السيارات الفارهة في الطرقات، وارتفعت العمارات في الشوارع والفيلات على الشواطىء، وامتلأت الصحف بحوادث ضياع عقد أو معطف فرو أو سرقة مجوهرات من منزل واحد بمئات الآلاف من الجنيهات، ثم ينظر الناظر ويفرك يديه فرحاً وهو يقول: ما هذا الرخاء، ان عجلة الحياة تسير. ويبيت ويحلم بأنه يوماً ما سوف يملك كل هذه الأشياء وسوف يشتريها دون أن يعلم أنها لن تكون له أبداً، فالسلع التي تغرق السوق لا يمكن أن يشتريها بدخله الذي يقيم أوده بالكاد، والسيارات لن تترك له مكاناً في الشارع، والعمارات لتمليك من يملكون بالفعل وفيلات الشواطىء لغلق البحر في وجهه واحتكار الماء ومنعه من مجرد السير على الشاطىء وأن هذه ليست البورجوازية إياها التي ينتظرها بل بورجوازية عملية تابعة لا قيمة عندها إلا التكاثر والاحتكار.

وثير ذي «سست» في حين أن الذي يركب الحمار تتعرض الأجزاء الحساسة في جسده للأذى من غطائه الخشن، وفي بعض الأحيان يتطور الأمر إلى جراح مؤذية.

٤ ـ إن من يركب السيارة الكرايزلر في أمان من الرياح والمطر، في حين أن الذي يركب الحمار يتحرك في الهواء الطلق وبلا غطاء أو ساتر. . . وهذه القاعدة في حد ذاتها تتفرع منها تسعة فروع أخرى وتتشعب.

٥ ـ إن من يركب السيارة الكرايزلر يقطع المسافة بين طهران ومشهد في عشرين ساعة، لكن أسرع الحمير الساحلية يقطعها في ما يقرب من شهرين.

٦ ـ إن من يصل إلى هدفه أسرع يقوم بأعماله أسرع وأفضل في حين أن من يصل متأخراً يقوم بأعماله في وقت أطول وبشكل أسوأ.

٧ ـ إن من لا يضيع وقته في الطريق تكون فرصته أكبر وفي القيام بأعمال إنتاجية وأنشطة اجتماعية وسياسية وثقافية ونضال ضد الاستعمار وضد الطبقية والذي يسافر بالحمار يهدر هذه الفرصة في طي المنازل وسط الطريق ونتيجة لذلك. . الخ. . . وهكذا فخذ عندك وامض حتى ثلاث عشرة مادة في تفضيل السيارة ذات الثماني سيلندرات على الحمار الصغير النشيط وأفضلية النفاثة البوينج ٧٠٧ على الهودج الذي كان موجوداً منذ سبعمائة سنة.

قام أحد أشباه المفكرين المفككين بدحض آرائي منتصراً

للبورجوازية «وكان يقصد بالبورجوازية هذه الحفنة من سماسرة بيع البضائع الأجنبية، وبعينه المصابة بالحول كان قد رأى هؤلاء المتشبهين الذين منحنا الاستعمار إياهم نحن الدول التي في حال... في حال ماذا؟ على أنهم نفس البورجوازية التقدمية في أوروبا القرن الثامن عشر»، وصرخ فيَّ صاحبنا قائلاً: يا سيد فلان... أيها الناكر للجميل، هذه الحلة الجميلة التي لبستها وهذه السيارة التي ركبتها، وشعرك هذا الذي صففته جيداً، وهذا الأسفلت الذي تمشي عليه من المنزل إلى الجامعة، وقلمك وكراسك وكتابك ومنزلك، والكهرباء والماء والشوارع التي تشق في مدينتك كلها من كرامات الرأسمالية ثم تسميها نظاماً ظالماً قد استعبد العامل عبودية أشق وأقسى من العبودية السابقة! هل تأكل الملح وتكسر المملحة؟

وأنا الذي خجلت جداً من هذا التحليل الماركسي الإيراني إزدادت دهشتي وقلت: عجباً، أنا غريق إنعام «النظام التقدمي» الرأسمالي البورجوازي وحنانه ومع ذلك أكفر بالنعمة؟ هذه السيارة التي أركبها! هذه الخصلات التي أمشطها كل يوم بالمجفف «السشوار» الكهربي! وفجأة غلبني الضحك... رأيت سيارتي موسكوفيتش ورأسي صلعاء... على الأقل لست مديناً للرأسمالية من هاتين الناحيتين(١).

---

(١) إشارة إلى مقالات السيد علي أكبر أكبري وكتاب «بحث في عدد من القضايا الاجتماعية» وكان مما ورد فيه «إنك تريد بهذه الكلمات أن تقف في وجه نضج الصناعة والعلوم في إيران، ومهما كان الأمر فلا بد أنك تميل إلى وضع العراقيل في=

الماركسية والبنية التحتية:

والقضية الأخرى التي لا تقبل التحليل بالقواعد والقوانين الماركسية، بل إن هذه القوانين مضللة بالنسبة لها هي قضية «البنية التحتية» في المجتمعات المبتلاة بالاستعمار، ولأن الماركسية كانت قد فسرت الاستعمار كحادثة أو كعلاقة عرضية مثل الحرب العالمية، فإنها لم تستطع أن تضع لها مكاناً في قلب علم الاجتماع أو الاقتصاد وتتحدث عنه كعامل محدد ومميز ونتيجة لهذا افترضت المجتمع بشكل مطلق، واعتبرت المجتمع المبتلي بالاستعمار مشابهاً للمجتمع الطبيعي ومتجانساً معه، وجعلتهما معاً وبطريقة متساوية مصداقاً لعلم الاجتماع عندها، وهذا الخطأ الفادح، بكل ما تعنيه كلمة خطأ، استوجب سلسلة من التحليلات المفككة البعيدة وبالتالي أحكاماً واهية ومتوهمة، ونتيجة لذلك خطوط سير

= وجه تصنيع إيران، وبأقصى ما تستطيع تريد أن تجر عجلة حركة المجتمع إلى الوراء... والسيد شريعتي بسبب ميله إلى الماضي وأفكاره الرجعية يسعى في تصوير المجتمع الرأسمالي أقسى وأقبح وأكثر وحشية ورعباً مما هو عليه آلاف المرات... ولو أردت أن أذكر الميزات العظيمة التي قامت بها الرأسمالية وأوفي الموضوع حقه للزمن أن أكتب كتاباً مستقلاً. يكفي يا سيد شريعتي أن تلقي نظرة عابرة حولك من المنزل إلى الكلية حتى ترى أن كل ما تملك هو من نتاج الرأسمالية: ملابسك الظريفة الأنيقة، سيارتك، صحتك، استحمامك كل يوم أو كل أسبوع، مدينتك وشارعك المعبد المرصوف من منزلك إلى كليتك، الزبد واللبن المبستر وغذاؤك وعشاؤك المجهز على الغاز، الأثاث والكرسي الذي تجلس عليه، والكهرباء التي تنتفع بها والراديو والتلفزيون والقلم والقلم الجاف الخاص بك كلها من نتاج الرأسمالية، علي أكبر أكبري: فصل من كتاب «تثوريها وعقايد دكتر شريعتي» كما وردت في كتابه «بررسي جند مسألة اجتماعي» فاعتبروا يا أولو الأبصار.

سياسية واجتماعية هي خطأ في الأصل وبالتالي فإن الطريق الذي سلكوه كان يفضي إلى سراب وإلى تركستان[١]، وهناك إلى جانب التجربة الواقعية التي شاهدناها عندنا، كررت التجربة ذاتها في كل الدول العربية والإسلامية.

ومما يؤيد هذا الرأي أن الماركسيين لم يستطيعوا القيام بعمل ما في أية دولة من الدول المستعمرة في العالم الثالث «آسيا وأفريقيا اللاتينية» وفي الحرب المضادة للاستعمار الأجنبي وهو خط النضال الأول في هذه الدول ولا في الحرب الطبقية التي كانت محتدمة أيضاً داخل المجتمع، وحتى إذا كانت الأجنحة الماركسية قد قامت بدور ما في هذه المجتمعات فهي أولاً: أجنحة انفصالية كانت قد حررت نفسها من نير القيادة المتحجرة التقليدية أو التي «تأخذ الأوامر» من الحزب الرسمي.

وثانياً: أنها لم تكن قط في الصف الأول للنضال ضد الاستعمار، ونحن نرى ونعلم «وهذا الأمر ليس مستنبطاً من التاريخ بل هو واقع حي وجار» أن الاشتراكية في المجتمعات المستعمرة تقدمت الماركسية سواء في ابتكار العمل أو في قيادة الحركة. سوف تقولون: وكوبا؟ نعم حين ننظر من على البعد، هكذا يبدو، لكنا لو عرفنا عهد «باتيستا» ودور الشيوعيين والقادة الرسميين للحزب الشيوعي الكوبي وعرفنا أبطال أول انتفاضة ضد باتيستا،

---

(١) المترجم: التعبير مأخوذ من سعدي الشيرازي: إنني أخاف ألا تصل إلى الكعبة أيها الأعرابي، فإن الطريق الذي سلكته يفضي بك إلى تركستان.

ولو عرفنا خاصة المسير الفكري لفيدل كاسترو في مراحل الحركة المختلفة خاصة في بداية العمل وتملك زمام القيادة، فإن ذلك التصور الكلي والغامض والقياسي الذي لدينا عن طريق اخبار الأذاعة والصحف عن حركة كاسترو سوف يصحح.

إنهم غالباً لا يعرفون أن السكرتير العام للحزب الشيوعي الكوبي في نظام باتيستا كان يشغل منصباً اقتصادياً حساساً في الدولة «وحدث ولا تسل عن التداعيات التي تشبهها في أماكن أخرى وفي مكان آخر»[1]. ومحاكمة فيدل كاسترو في عهد باتيستا توضح الأمر تماماً إذ لم يتهم قط بأنه ذو أفكار ماركسية، فقد حوكم هو ورفاقه كدعاة شغب وشباب متحمس ومتعصب وقومي متطرف جاهل أداة في يد السياسة الخارجية وإرهابي بلا مبدأ ولا أصل... إلى آخره من الشتائم النمطية الحكومية من هذا النوع. وأثناء ذلك لم يقم الحزب الشيوعي الكوبي بأقل رد فعل أمام القبض عليهم ومحاكمتهم، لأنه «لم يكن يعلم».

لم يكن يعلم؟! نعم. بعد سنة من استيلاء كاسترو على السلطة والانتصار التام. للثورة، قال كاسترو هذا في واحدة من أهم خطبه وأطولها:

---

(١) المترجم: يشير إلى تعاون الشيوعيين مع نظام الشاه في مرحلته الأخيرة لبث أيديولوجية مشوشة للقضاء على انتشار الاتجاه الإسلامي. والشواهد هنا كثيرة جداً على تعاون الشيوعيين مع نظم عديدة في مصر وغيرها للفتك بالأجنحة الثورية الأخرى.

«عندما نزلنا في ميناء هافانا للمرة الأولى، انتشر خبر هجومنا على العاصمة في كل أنحاء البلاد، وبلغ مسامع قادة الحزب الشيوعي، وسألوا الهجوم على هافانا؟ من هؤلاء؟ . . .

وعندما هاجمنا مقر أركان الحرب واستشهد كاميولا بطلنا العظيم على أعتابه، انتشر الخبر أن كاميولا أحد قادة حرب العصابات قتل في مركز أركان الحرب، وبلغ الخبر رئيس الحزب الشيوعي وهو جالس إلى مكتبه، وسأل بدهشة شديدة: هجوم على أركان حرب الجيش؟

الفدائيون؟ كاميولا؟ إلى أين ينتسب هؤلاء الفدائيون؟ أي عمل لكاميولا هذا؟ وعندما قالوا: تشي جيفارا. . . سمعوا بالخبر من الإذاعة وهم في فراشهم، وبسحنة غير مصدقة: تشي جيفارا؟ تشى جيفارا من؟ أي تشي جيفارا؟ أهو نفسه. . .؟ وعندما كتبوا في الصحف فيدل كاسترو. . . سمعوا هم الخبر من الناس في الشوارع، وسألوا أنفسهم بدهشة تامة: كاسترو؟ من يكون هذا أيضاً؟

الخلاصة أن هؤلاء لم يكونوا يعرفون شخصية واحدة من الشخصيات الثورية، الخلاصة أنه لم يكن لديهم أي خبر عن بداية الثورة في تلك الأيام، الخلاصة أنهم في تقييماتهم الماركسية، وعلى أساس تجاربهم ومعارفهم الثورية، وجدليتهم الطبقية وحتميتهم التاريخية كانوا قد توصلوا إلى نتيجة تقول: إن الظروف الواقعية للثورة في المجتمع الكوبي ليست مهيأة، وأن مجتمع كوبا

لم يصل بعد إلى مرحلة الانفجار، وليس بعد. . . وليس بعد. . . وليس بعد. . . أجل: إنهم لم يصدقوا أن الثورة قد قامت، حتى قامت، حتى عندما وقفت على أقدامها أمام منازلهم حتى عندما أخذ الرصاص يهز زجاج نوافذ حجراتهم، لم يصدقوا. كانوا يسخرون منها، كانوا يحرفون حقيقتها، كانوا يحللونها تحليلاً غير صحيح وغير نافع، كانوا لا يعرفون أحداً قط من الأبطال الأوائل للثورة، ولا وجهاً واحداً من الوجوه البسيطة للمجاهدين، فهؤلاء المجاهدون لم يكونوا قد خرجوا من المراكز العلمية السياسية ولا من الجماعات التعليمية المنظرة في الحزب، كانوا قد خرجوا من بين الجماهير وأمسكوا السلاح، وهم في رأي العلم الثوري الماركسي يعتبرون طبقة متحجرة ومحافظة وغير ثورية، ليس لديها وعي ثوري ولا تحريك ثوري ولا مجازفة ثورية، وهم على حد زعمهم أتباع يدخلون المسرح دائماً في المرحلة التالية، وهم من المخلوقات الجاهلة التي التصقت بالأرض والتصقت بالسماء، إنهم مزارعون، ليسوا من البروليتاريا، وفي الثورة لا بصيص من أمل بالنسبة لهذه السحن الفردية المنزوية المتربة عابدة الأرض المتدينة المتوكلة، وكل منهم في مزرعة واسعة أي في عرض الصحراء، ارتبط جسده بأرضه المقدسة، وعلاقته بالله أو بأرض الأجداد أو بسيده أوثق من علاقته بزارع آخر، ليس لديه وعي طبقي، لأن الوعي الطبقي وليد الكثافة والزحام، أما الفلاحون فهم يعملون وحداء بلا شريك ومبعثرين. البروليتاريا هي التي تعمل وهي متكاتفة والزارع في عمله يقوم فقط بعشر العمل والتسعة أعشار

الباقية يقوم بها الماء والهواء والمطر والموسم والأرض والسماء، إنه يحرث الأرض وحده، ويبذر البذور منفرداً، ويجلس معتمداً على الله وعناية الرسل الأطهار والأرواح الطيبة، فإذا كانت السماء راضية عنه ترسل المطر ويصل إلى مراده وجزاء عمله، وإذا كانت غاضبة ينزل البلاء ويضيع سعيه سدى من البرد أو الطل أو الجفاف أو السيل أو الإعصار أو المرض أو الصاعقة. حتى عندما يتكوم المحصول فهو ليس صاحب محصوله، فالصاعقة له بالمرصاد، ومن هنا فهو لا يعتبر نفسه سبباً في العمل وسبباً في الانتاج، منه الحركة ومن الله البركة، وعندما ينظر إلى المحصول يرى نفسه عاملاً ثانوياً، إن الله هو الذي منحه هذا المحصول وهو الرزاق، ولا يعتبر نفسه سبباً في كسب هذا الرزق، إنها إرادة الله. وينبغي أن يحصل هو فحسب على استحقاق هذه العطية، الرزق في مائدة كرم الغيب وعلى بابه قفل ومفتاح هذا القفل هو العمل، بل إنه لا يعطي كل من عمل مفتاح باب الرزق وخزانته، ينبغي أن يظفر المرء برضا الله، برضا الرزاق.

ومن هنا فإن الزارع منطقياً، إنه عاطفي، لا يستند على عوامل عقلية بل على عوامل غيبية، لا يعتمد على شخصيته وعمله وإبتكاره لأن العوامل الطبيعية ذات سيطرة قهارة عليه وعلى عمله. ومن هنا: لما كان الزارع يعمل وحده، فإنه لا يكتسب إحساساً طبقياً وبالتالي فإنه لا يحصل على وعي طبقي، ولما كانت العوامل الطبيعية الخارجة عن محيط قدرته تتدخل في مسير عمله ونتيجة كدحه أكثر مما يتدخل عمله، فإن الأمر ينتج عابداً للوهم مؤمناً

بالخرافة ومتشبثاً بالدين ومتوكلاً، ولما كان يقدس أرضه، فإنه يكتسب علاقة عاطفية واجتماعية وأخلاقية ودينية بها، ولما كان يملك شيئاً على كل حال فهو محافظ. البروليتاريا فقط هم الثوريون. إنهم على العكس يعملون معاً ويتكاتفون، وكل يوم يزداد تكاتفهم ويغلظ، عدة آلاف من البشر في مصنع في مسكن عمالي واحد. . . ولما كانوا يعملون بالآلة، فهم العامل التام والعلة الكاملة في المحصول وليست لأداة العمل أية قدسية عليهم، فهم لا يرتبطون بها عاطفياً، ليس هذا فحسب بل يضيقون بها، ولما كانوا لا يملكون شيئاً يفقدونه فهم خفاف الأحمال في الثورة ونتيجة لذلك فهم خفاف الأرواح، والمحافظ هو الذي عنده شيء يحافظ عليه، ومن هنا فالبروليتاريا ذات تكثف طبقي ومن ثم ذات وعي طبقي، وكل يوم يستغلون أكثر من اليوم الذي قبله «فائض القيمة» وهم ذوو رؤية عقلية منطقية تقيم حساباتها، ولما كانوا يعملون مع الآلة فهم لا ينتظرون التأييدات الإلهية الغيبية، يعتمدون على أنفسهم وعلى عملهم، وبدلاً من التوكل والتضرع يفكرون ويحسبون حتى يصلوا إلى أهدافهم، ليسوا مرتبطين بالآلة، وطبقة البروليتاريا تزداد يوماً بعد يوم وتزداد تكثفاً وتزداد كل يوم وعياً وتكاتفاً، وهي كل يوم أكثر طمعاً وأكثر غضباً، كما أن استغلال الآلة لهم يزداد يوماً بعد يوم.

إذاً: يجب علينا نحن الماركسيين الجدليين العلماء بالمجتمع الذين نؤمن بالاشتراكية العلمية أن نقوم بواجبنا أيا كانت الدولة التي نعيش فيها وهو أن نصبر حتى تأتي البورجوازية وتقضي على

الإقطاع، ثم تنضج هي نفسها وتتملك الآلة، ثم ترقى إلى رأسمالية تنافسية وتربي داخلها جرثومة موتها أي الطبقة البروليتارية، ويقوى هذا الجنين يوماً بعد يوم، حتى ينفجر بطن أمه فجأة، وعندما يصل عمره إلى تسعة أشهر وتسعة أيام وتسع ساعات وتسع دقائق، نأتي نحن المفكرين الواعين إلى الميدان ونرفع أيدينا، ونلبس القفازات والموادع ولوازم حضانة الثورة، ثم نتعهد الوليد وحفظه من بلايا الأعداء . . .

. . . لكن الآن والأمور تتغير، فإن ببغاوات الماركسية أولاء لا تزال عندهم الفصاحة اللازمة، الآن وقد هدأت العاصفة دخلوا الميدان، وبالتدريج أزاحوا المناضلين الأوائل، واحتلوا كل المناصب المؤسساتية والاجتماعية والسياسية. وفي رحلاتي الأخيرة كنت حيثما مررت بأحد الأقاليم أو القرى أبحث عن المجاهدين القدماء شركاء النضال في الثورة، وكنت أسألهم: ماذا تفعلون؟ ماذا تشغلون من مناصب؟ وكان جواب الجميع واحداً: «لا شيء، لا نقوم بعمل، لقد أزاحنا الشيوعيون إلى الوراء، انهم يقولون: ليس لديكم الوعي الاجتماعي اللازم، أنتم تفتقرون إلى استعداد التشكل الثوري، ليس لديكم تعليم حزبي وتنظيم تشكيلي، إنكم لم تعرفوا التعاليم الأيديولوجية ولم تخوضوا تجربة استراتيجية والآن مرحلة البناء، وترشيد الثورة وبناء الاشتراكية في مجتمع منحط، لقد انتهت مرحلتكم، اتركوا بنادقكم واذهبوا إلى اعمالكم، ازرعوا قصب السكر، أما حزب حراس الثورة فهم قيادة البروليتاريا ومعمار الاشتراكية. لقد أزاحوا كل رفاقنا الأصدقاء إلى

الوراء بخسة. وأمسك ببغاوات الماركسية بالأمور في قبضاتهم، أولئك الذين كانوا في عهد باتيستا يقضون الأيام يعملون خلف مكاتبهم في الإدارات والمؤسسات الحكومية، والليالي إلى مناضد المقاهي يشربون البيرة ويصطنعون نظرية الثورة».

الماركسية والاشتراكية والقومية:

لقد صبت الاشتراكية في منتصف القرن العشرين على رأس ماركس نفس البلاء الذي كان قد صبه هو على رأس هيجل في منتصف القرن التاسع عشر عندما خرج بجدليته. فقامت الاشتراكية بجدليتها ووضعت المخروط الماركسي من طرفه على الأرض، وحولت طريق حافلة الماركسية التي كانت تنطلق بسرعة نحو الغرب حتى تمر بمنازل البورجوازية والرأسمالية فالرأسمالية الصناعية التنافسية، لتنفجر فجأة في أوروبا الغربية على أيدي البروليتاريا الصناعية، حولت مسار هذه الحافلة إلى الناحية المضادة فانفجرت قبل أن تصل إلى البورجوازية في أوروبا الشرقية وآسيا وفي أفريقيا الصامتة المنسية، بل وعلى أيدي الفلاحين المتحجرين المتدينين المحافظين عباد التقاليد. ومن هم؟ السود البدائيون القبليون والصفر الصوفية الشعراء، ذلك الصيني الهادىء الذي كان ينعس إلى جوار عنزته النحيلة من نشوى الأفيون الذي كان الانجليز يجلبونه له من مينائي موريس وجوها نسبرج، وذلك الفيتنامي الصامت الذي كان وحيداً في مزرعة الأرز والمطاط غارقاً في النيرفانا البوذية، قد لجأ إلى عالم الانجذاب والخلسة في داخله، حتى المجتمع الروسي،

كان فلاحوه قد خرجوا من مرحلة العبودية لتوهم.

إذاً ماذا حدث في الغرب؟ الجميع يعلم، تماماً بدلاً من الشيوعية وفي الموعد المضروب لها وفي أوج نضوج الرأسمالية الصناعية التنافسية، ظهرت الفاشية وعبادة العرق والتعصب القومي القذر والحرب، لا... هي حرب العامل والرأسمالي الألماني والإيطالي والياباني في طرف، والإمبريالية الانجليزية والرأسمالية الأمريكية والشيوعية والسوفيتية في الطرف المقابل. كل شيء «تلخبط» عجباً: ماذا نرى؟ ستالين وروزفلت وتشرشل وماوتسي تونغ وتشانغ كاي تشيك يشد بعضهم على أيدي البعض ويشربون الأنخاب ضد اليابان وضد هتلر وموسوليني.

أين طبقة البروليتاريا؟ أين طبقة الرأسمالية؟ أين اليسار؟ أين اليمين؟ لقد تداخلت الجهات الأربع و«تلخبطت» صارت الأراضي ستاً والسموات ثمانٍ[1]... وكان صوت الحرب الحقيقية يصك المسامع في ذلك الطرف من الأرض و«من حيث لا يحتسب» فالسود والصفر والمسلمون والعرب والبربر والمزراعون والرقيق والعبيد قد هبوا. الاقطاع يتفتت على يد الاشتراكية... لكن من هؤلاء؟ هذه هي الرأسمالية الغربية تمر فوق جثثنا حتى توصل الأسلحة إلى العالم الشيوعي، إلى نظام ديكتاتورية البروليتاريا، وفيه يذهب إيزنهاور وجوكوف كتفا إلى كتف لاستعراض الجيوش:

---

(١) المترجم: مثل فارسي يضرب كناية عن اختلال الأمور وشدة الهول.

من القضاء زاد مخلوط الخل بالعسل حدة الصفراء وزيت اللوز كان يزيد في اليبوسة[١].

أما الجدلية وحتمية التاريخ وعلم الاجتماع والاشتراكية العلمية وأسلوب كشف التاريخ و... الخ فقد أصبحت كلها غير صالحة للعمل، والماركسيون الذين كانوا قد وصلوا في علم الإنسان إلى اليقين وحق اليقين بل وعين اليقين، وكان كل شيء قد حل بالنسبة لهم فقد وقفوا مبهوتين، لقد قامت القيامة، صارت السماء أرضاً والأرض سماء، لم يعودوا يعرفون أيديهم اليمنى من أيديهم اليسرى، وقام «علماء السوء» و«وعاظ السلاطين» عندهم طبقاً لمصالح «الخلافة» و«السنة الجماعة» و«المذهب الحق» و«حفظ بيضة الماركسية الحكومية» بإلصاق عدد من النظريات بشارب الخليفة أمير المؤمنين حضرة ستالين «المعلم العاقل للبشرية»، ووصلوها بـ «أصول الدين» وراج سوق «كتابة الحاشية على المتن» والتأويل والتبرير الذي لا يتفق والنص و... الخ.

لكن جماعة من الذين لم يكونوا يعتبرون أنفسهم «دعاة» و«مدافعين بلا قيد ولا شرط» عن الاسكولاسية الجديدة أحسوا بضرورة أنه ينبغي أن يجدد النظر في تلك المبادىء الأولية، إذ لا يمكن بتلك المعايير الكلاسيكية تقييم ما ظهر في هذا العصر، فكل الحسابات والنبوءات والتوقعات بل وخط السير الطبيعي للأحداث

(١) المترجم: بيت لجلال الرومي ويضرب مثلاً عندما يؤدي العلاج إلى عكس ما يراد منه.

السياسية والاجتماعية وحتى الاقتصادية والطبقية قد تغيرت. ففي البداية نجد «الرأسمالية التنافسية» السابقة التي كان يعرفها ماركس وطرح علم الاجتماع السياسي الاقتصادي عنده على أساسها ومستنداً على خصوصياتها اخذة في الزوال وتعطي مكانها بهدوء لـ «رأسمالية تعاونية متفاهمة»، والمسألة الحساسة جداً والتي تحدد الأمر وهي «المنافسة» أخذت تمحى قليلاً داخل اتحادات الشركات وتعاون رأس المال والأسواق المشتركة الخفية والمعلنة وأعطت مكانها لا للمصالحة فحسب، بل وللتعاون والتفاهم، فالرأسماليون يتجمعون معاً ويعقدون الروابط ويصنعون نسيجاً سرطانياً عالمياً يضغط جسد العالم بقسوة داخله.

لقد تغير وجه العالم كلية، وتبدو ماركسية القرن التاسع عشر غير ملائمة لهذا الجسد الذي تغير بطريقة لم تتنبأ بها، تبدو ضيقة وقصيرة وممزقة وغير مناسبة، إذا جذبتها من ناحية تمزقت أكثر من ناحية أخرى، تغطيها هنا، فتعرى هناك. إذاً: ينبغي تجديد النظر فيها، وجددوا النظر، كلهم حتى الحكومات التقليدية الماركسية، أي نفس أولئك الذين كانوا ينظرون إلى تجديد النظر كشتيمة يتهمون أعداءهم بها، تجديد النظر؟ أجل أي البدعة في الدين، البدعة؟ أجل، إدخال ما ليس في الدين في الدين، وماذا يعني التعايش السلمي والوفاق؟ يعني «تأسيس شركة مساهمة للكفر والدين» تفاهم المدافعين عن عبادة الواحد مع المدافعين عن عبادة الأصنام، ضد من؟ ضد من لا إله لهم، الأمم التي لا صاحب لها.

وماذا تعني ثورة الفلاحين؟ تعني، لا، في تلك الأمم يقوم

الفلاح بالثورة، أما جماعات العمال الصناعيين في الدول الجديدة فهي محافظة وراضية عن أحوالها وشاكرة، هؤلاء ينبغي أن يصلوا بعد ذلك، الاشتراكية غير الشيوعية، أما الدولة فلا ينبغي أن تختفي، ليس هذا فحسب بل يجب أن تكون أقوى وأكثر مسؤولية، والثورة العالمية خيال، والمسرح الحقيقي للثورة هو القومية ينبغي صنعها في الداخل وتصديرها إلى الخارج، تأميم رؤوس الأموال الصغيرة المبعثرة والملكيات الصغيرة التي لا حصر لها.

الفرق بين القطبين

على كل حال، الفرق بين القطبين: القطب «العابد للسنة» و«الوفي للأصول الكلاسيكية الماركسية» الذي يجيز «تقليد الميت» إلى أبد الآبدين، وبين القطب الذي يعلن على الملأ لزوم تجديد النظر و«البدعة»، الفرق موجود فحسب في «الإعلان» و«التقية» والا فان حتمية العصر، وتغير الروابط الطبقية والأسس الاقتصادية والتكتلات السياسية وحدوث أمور لم تتوقع، قد دعت القطبين إلى تجديد النظر في الماركسية الكلاسيكية، بطريقة دفعت فيدل كاسترو إلى أن يقول بصراحة عندما كان يعلن الماركسية اللينينية كنظام لبلده رسمياً: «أنا لا أفهم الماركسية بدون تجديد نظر».

ومن هنا فإن كاسترو قومي قبل أن يكون ماركسياً، وكان قومياً قبل أن يصير ماركسياً. ومن أجل أن تتضح قاعدته الاجتماعية أكثر يمكن القيام بمقارنته بالشخصيات المضادة للاستعمار من أمثال سوكارنو وبن بيلا ونكروما ولومومبا ونيريرى وسياسيين من أمثال موريس توريز وتوجيالتي وبليشت وجومولكا وكادار.

ويستطيع مفكرون من أمثال سارتر فهم كاسترو افضل من

المنظرين الرسميين من أمثال سوسلوف، وقد فهمه أبطال الحركة المضادة للاستعمار أسرع، واعتبروه واحداً منهم أكثر من الجدليين حملة «الماركة المسجلة» ورعاة (الاشتراكية العلمية) الذين أخذوا الطغرا» من دار الخلافة «بغداد».

أعلم أن الذي يجعلكم مترددين في قبول هذا الرأي القائل بأنه قومي، وهذه القاعدة القائلة بأن القومية قد فاقت الماركسية بعد الحرب الثانية في افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية وكان لها الدور التقدمي والطليعي، هو أنكم تفهمون القومية بنفس معناها المعهود القديم، ولكم الحق في ألا تقبلوا الأمر ببساطة، فكيف يمكن لإحساس وعاطفة قومية وعرقية وتعصب للتراب والدم أن يكون أكثر ثورية من الاشتراكية العلمية الثورية ومن أيديولوجية طبقية مبنية على الجدلية؟ لكن، امسحوا هذا المفهوم القديم للقومية من أذهانكم، ليس لأنني لن أستخدم هذا المصطلح بذلك المعنى هنا، بل لأنه لم يعد اليوم بهذا المعنى فعلاً، ليست أسس القومية اليوم هي مبدئية التراب والدم والعصبية القومية وعبادة العرق والمفاخرة بالأجداد والتساميات القومية، إن القومية في عصرنا ذات مفهوم طرحي وعكسي أكثر، هي «استجابة» وليست قاعدة مطبقة عملياً ومفضلة، هي «تضاد حتمي جدلي وضروري» وعلى حد قول شاندل: «إن القومية لا تتحقق عندما تولد الأمة، لكنها تتحقق عندما تهدد الأمة بالفناء».

في أواخر العصر الساساني لم يكن للقومية الإيرانية وجود، ومنذ أن بدأت الخلافة العربية الأموية والعباسية في الهجوم عليها

والسعي للقضاء على وجودها ظهرت. ومن هنا خلافاً لما هو متصور في الظاهر نجد القومية الإيرانية لا في عصر الاستقلال الإيراني أو حكم العرق الإيراني بل نجدها في القرنين الثالث والرابع الهجريين، وليس من قبيل المصادفة أن تدون الشاهنامة في تلك الفترة، ويكون الأبطال القوميون العظام والحركات ذات الجذور القومية العسكرية والشعبية والثقافية والأدبية في هذه الفترة.

ويمكن أن نجد القومية العربية في عهد الخلافة الأموية والعباسية بدخول عناصر غريبة إلى المجتمع الإسلامي هددتها بالزوال، وتعرضت للهجوم بسلاح المساواة الإسلامية، وقامت الحركة الشعوبية العامة التي سلحت بمنطق الإسلام وطرحت كباطل.

يقول هايدجر: «الأنا... أي وجودي الحقيقي معدومة في الحياة الاجتماعية وهذا في كل أحوال الإنسان المختلفة، في علاقته بالأفراد والأشياء والأمور الأخرى، وعندما توضع في مواجهة واقعين فحسب يتحقق الوجود الحقيقي أي الأنا، هذان الواقعان هما: الموت والعشق» لماذا؟ لأن الموت يقضي على الأنا، عندما يتجه الموت إليّ بالهجوم توجد الأنا، العشق أيضاً عنده نفس الهدف، فالعشق يقطع كل التعلقات، أي كل علاقات الفرد وروابطه مع غيره، ولما كان الوجود المجازي للفرد وهو وجوده الارتباطي حجاباً لوجوده الحقيقي فإن العشق بتمزيقه لهذا الحجاب يرفع النقاب عن وجوده الحقيقي، ويعطي الوجود للأنا:

أنت نفسك حجاب نفسك فتنح يا حافظ عن وجودك بيننا[١].

ومن هنا فالقومية الجديدة ليست واقعاً مجرداً قائماً بذاته، بل هي رد فعل منطقي، اعتراض يتحقق في علاقة تنازعية جدلية، فالاستعمار في سحنته الإمبريالية السياسية الاقتصادية الثقافية السوداء المميتة يهجم على مجتمع ما ذي تاريخ وثقافة وشخصية معنوية ومادية تسمى «الأمة»، فيقوم بنفي خصائصها الوجودية الماهوية ومحو وجودها القومي ويغير على ثروتها ويقتل تاريخها ويحتقر ثقافتها ويسخر من صفاتها وعاداتها ومعنوياتها ودينها، ويمرغ في الطين كل أبعادها وملامحها الاجتماعية والإنسانية التي تشكل أصالتها واستقلالها حتى تجد نفسها فاقدة لكل محتوى إنساني وشخصية وغنى معنوي، ومن ثم تستسلم للذلة والتبعية والتلون وتقليد القردة، وتظهر في الأمة آنذاك «عكس للأطروحة» وحركة حتمية ورد فعل في مواجهة هجوم الموت تسترد الروح وتجسد الحياة والحركة حتى تدافع عن نفسها وحتى تطرد هجوم الموت والزوال الاستعماري عن حريم وجودها. أما القومية القديمة فكانت عبارة عن تصلب رأس مغرور ومتكبر وعنقه يلتوي بعنجهية وتنفج وادعاء أمام الآخرين ومظاهر جاهلية ارستقراطية وابتلاء بعبادة الملك، لكن القومية الجديدة مثلها أن يقيم رجل حر وذكي رأسه وعنقه في مقابل شيطان أسود استولى على رأسه وعنقه وقيدهما بأنشوطة عبوديته، وابتلاه ـ هو الذي كان «شخصية وأسرة

(١) البيت كما هو واضح لحافظ الشيرازي ويضرب مثلاً عندما يكون وجود الشخص بينه وبين آرائه مسبباً لضلاله. المترجم.

وغنى ونظاماً وهيلماناً ـ بالفقر والجهل والتقليد، وأصبح يسميه نصف بدائي ومتأخر وفي حالة تقدم، ويسميه جائعاً مستحقاً للعون وشحاذاً من أجل البقاء حياً، ومتكئاً على عصا من أجل أن يستطيع السير.

هذان النوعان من القومية يتشابهان في الظاهر وعن بعد، لكن في الباطن وحقيقة الأمر لا وجه للتشابه بينهما أبداً. أحدهما تمرد على العبودية وسحب للعنق من القيد وكفاح من أجل النجاة والاستقلال السياسي والثقافي والمعنوي والقيادي، والنوع الآخر جاهلية مغرورة قبيحة جداً، ومن السذاجة ألا نعرف التمييز بين الحرية والكرامة وبين التنفجات القومية والقبلية، وماذا يوجد من شبه بين النازية الألمانية والفاشية الإيطالية من ناحية وبين حركة المقاومة في باريس وصمود ستالينجراد في الحرب الثانية من ناحية أخرى؟ ومن هنا فإن ما أسميه هنا القومية وأقارنه بالماركسية أعني به الحركة التحررية المضادة للإمبريالية عند الأمم المستعمرة في العالم الثاني «الثالث سابقاً»، وما أسميه بالماركسية أعني به الأحزاب التي اختارت الماركسية رسمياً كأيديولوجية وتدعى قيادة الشعوب وتعتبر أنفسها أكثر الأجنحة التقدمية طليعة في الجناح الثوري والمدافع الوحيد الصالح عن الجماهير، والذي تتبلور فيه مبادىء العمال والفلاحين، ومنجي الناس وصانع الاشتراكية والصاحب الوحيد لمدرسة علمية اشتراكية مسلحة بالجدلية ومجهزة بفلسفة الحتمية العلمية للتاريخ وغيره، وتعتبر القوميين فاقدين لهذه المزايا، وتتهمهم بالميول البورجوازية والإقطاعية والرجعية

والميول التفاهمية الاستسلامية والخلو من الرؤية العلمية الطبقية والاستراتيجية الصحيحة الثورية الواسية والانطلاق من عواطف وفورات قومية ودينية، لكننا إذا تركنا حرب المصطلحات والألفاظ وجمال المصطلحات الرائعة الرنانة، «قمنا من خلف مناضد البحث، وأغلقنا كتب الدرس، وعدنا إلى مسرح الواقعات العينية والمصدقات الخارجية الحساسة الملموسة، وعلى أساس أسلوب علمي جديد بيِّنه ديكارت بقوله «لنضع أيدينا على كل الأوراق والكتب والمصادر والمنابع التي نستخدمها في البحث والتنقيب والموجودة على المنضدة ولنمحها، ولنترك الجدل الكلامي والأبحاث النظرية والقياسات السفسطائية والمناظرات الأسكولاسية ولنقم بدلاً منها بالمشاهدة العينية والمقارنة، وعلينا ألا نخطو خطوة واحدة خارج دائرة الحقائق الحية والعينيات الخارجية، ولنمح من أذهاننا الأحكام المسبقة، والأفكار السابقة على الحقائق، فإذا ما أراه على العكس تماماً مما كنت أفكر فيه، وكنا نستنبطه ونستنتجه وآمنا به».

في كل أنحاء أمريكا اللاتينية نرى أحزاباً شيوعية ذات تاريخ في مقابل حركة كاسترو، ولم يسمع مفكر مستنير قارىء عارف بالسياسة أسماً واحداً لأحد الشخصيات البارزة في هذه الأحزاب، أو يذكر عملاً من أعمالهم، وهذا هو إسم تشي غيفارا وكاسترو يهز قارة أمريكا.

وفي شمال أفريقيا: قارنوا الحزب الشيوعي الجزائري «شعبة فرنسا» بجبهة التحرير الجزائرية وجيش التحرير الجزائري واتحاد

الطلاب المسلمين الجزائري الذين قاموا بأكثر الأدوار حساسية فكرياً وعملياً في الحرب المسلحة ضد الاستعمار الفرنسي، بمنظمة الشباب المرتبطة بالحزب الشيوعي التي ـ في ما عدا لافتتها ـ لم تسمع لها أذن صوتاً ولم يشم أنف لها رائحة، وانظروا إلى جماعة العلماء التي قامت بإعلان الجهاد الفكري والاجتماعي والثقافي والعسكري وصارت سداً في كل طريق في مواجهة الاستعمار الفرنسي ونفوذه الشامل، وأضرمت أول شرارة للحرية في قلوب الناس، وانظروا إلى الشخصيات القومية لهذه الحركة من أمثال: عبد القادر رئيس القبيلة الذي حارب ثلاثين سنة، وبن بيلا وبن خده وكريم بلقاسم وآيت أحمد ومحمد حيدر وهواري بومدين وعمر مولود[١] وكتاب ومفكرين من أمثال: فرانز فانون وكاتب ياسين وزهرة رديف وجميلة بوباشا، عجبا: كم هي مثمرة هذه الثورة ومربية للمواهب وكم تصنع من البشر!!

أنظروا إلى الإسلام، في العشرين سنة الأولى من عمره تظهر فيه شخصيات عظيمة مهما طفت في الألف سنة الموجودة في عمر إيران القديمة لن تجد واحدةً منها، وفي آخرها في عهد أنو شيروان نصادف بعض أسماء الأطباء والحكماء، لكن ما أسرع ما يصاب

(١) أديب ومفكر عظيم له نصيب كبير في تكوين الشخصية الأدبية لكامو، وهو واحد من أقطاب الأدب والثقافة الفرنسية اليوم بلا منازع ومرجع لنقاد فرنسا المعاصرة وكتابها وشعرائها. وأخيراً كان قد رأس طائفة من العلماء الجزائريين كلفوا من قبل الجبهة بوضع أساس الثورة الثقافية والإحياء المعنوي وتنظيم نظام التعليم في الجزائر. ودخل حملة الرشاشات في الجيش السري الفرنسي فجأة مكان الاجتماع وقتلوهم جميعاً.

المرء بالإحباط، أنها أسماء أجنبية بختشيوع و. . . الخ، أجل: هؤلاء هم علماء الروم الشرقية الذين غادروها خوفاً من أعتناق جوستينيان المسيحية وجاءوا هنا وأسسوا جامعة جنديسابور، لاجئون سياسيون، إذاً فأول جامعاتنا في العصر الذهبي القديم أقامها اليونانيون؟!! إذاً: فلماذا صارت هذه الأمة البائسة العاقر هكذا مدهشة مؤسسة للجامعات والمدارس والمكتبات التي لا نظير لها في العالم «حتى اليوم» بعد الإسلام؟ كيف صارت صاحبة كل هذه الكشوف والكرامات في عالم البشر، وبسطت ظل سلطان مواهبها العلمية والفكرية والسياسية من الصين حتى شمال أفريقيا وجنوب أوروبا، وانسحب تأثيرها حتى قلب أوروبا في القرون الوسطى وعصر النهضة وأوروبا، الحديثة؟ السبب: الثورة، الثورة الفكرية والإيمان الحار الجديد الذي يغير الروح والعرق والرؤية وكل شيء، الأيديولوجية، ما يخلق الفوران الداخلي والخلاقية والخصوبة والثقافة والحضارة الحقيقية عند الناس ويا لها من صداقة الدبة، صداقة دعاة الإيرانية، أجل. . . أولئك الذين ـ نتيجة للعداوة للإسلام التي أصبحت موضة ـ يشطبون كل هذه الثروات العظيمة والمفاخر الغالية التي تصنع الشخصية بعد الإسلام، والجنس الإيراني لم يزدهر هكذا أبداً، ولا يملك دليلاً كهذا يعترف به العالم على قدرة نبوغه وخلاقيته وجدارته الذاتية، وعندما يقوم بالسخرية من هذه الثقافة العالمية أو كتمانها، يسرعون في البحث عن دليل على القومية والمفاخر القديمة، وعندما لا يظفرون بشيء ذي قيمة يصطنعونه، أجل، لا، كانت موجودة، كانت أيضاً كثيرة،

لكن هؤلاء العرب قضوا عليها، أجل، كانت، بل كانت كثيرة، لكن الإسكندر الملعون حملها وأخذها معه، وكان مما أخذه أن خرج كل هؤلاء الفلاسفة والفنانين والعلماء والأدباء وصارت اليونان هي اليونان. حسناً: بأي دليل؟ بدليل العقل، يعني هل من الممكن أن أمة عظيمة وقوية وشهيرة ومتحضرة مثل إيران في العصر الأكميني والأشكاني والساساني أن لا يكون لديها شيء محترم؟ لا يكون لديها فيلسوف أو شاعر أو مفكر وعالم وكاتب؟، لا، إذاً كان لديها، نعم، حسناً، أخذوهم، بلا جدال، هذا الاسكندر أو العرب أخذوهم، الملعونون؟ حتى أسماء فلاسفتنا وشعرائنا ونوابغنا العظام سرقها أولئك الأنذال... حسناً، والآن: ماذا علينان أن نفعل؟ لا شيء، نشتم العرب والإسكندر، ونربي أطفالنا منذ الصغر على بغضهم وكراهيتهم، لكي يعلموا في الغد عندما يكبرون من الذي ألقى بهم في هذا اليوم الأسود وحتى لا يخدعهم ثانية الإسكندر وعمر ويزيد بن المهلب، ويعيشون «بالفكر الطيب والقول الطيب والعمل الطيب» وهي كل ما تبقى لنا من ثقافتنا القديمة العظيمة، أحسنت لكن: في مقابل الشخصيات القومية العظيمة في حركة التحرير الجزائرية نجد في الحزب الشيوعي الجزائري: بن عليشير فحسب والسلام واسمه بسبب مقامه كرئيس للحزب وليس بسبب عمله. وكان هناك أيضاً أربعة محترمون مثل عمر اوزجان وهنري الحج وبعد بداية حرب التحرير هربوا من الحزب وانضموا إلى الجبهة، وبقي فيه فقط أولئك الطليعيون الجدليون جداً جداً مشغولين بالتحليل الماركسي للقضايا

الطبقية والحتمية التاريخية وكل الفروع الكلامية في هذه الأسكولاسية الماركسية الجديدة.

وفي الدول العربية واحدة واحدة، يعتبر وضع الجناحين معلوماً وكان معلوماً (والعراق وحدها فيها ثلاثة أنواع من الأحزاب الماركسية)، وفي مراكش: بن بركة، وفي الهند: روفي، وفي أندونيسيا: سوكارنو، وفي دول أفريقيا السوداء واحدة واحدة، في تنزانيا: نيريرى وفي كينيا: جومو كينياتا، وفي غانا: كوامي نكروما وفي الكونغو: لومومبا.

سوف تسألون: إذن لماذا الحال في الشرق الأقصى غير هذا؟ صحيح ليس هكذا، لكن استثناء الشرق الأقصى لا ينقض هذه الحقائق، لكنه يدفعنا إلى التفكير: لماذا هو هكذا؟ لأندريه مارتينيه أحد الخبراء المشهورين في دول العالم الثالث رأي بشأن الدول الإسلامية يمكن تعميمه على كل الدول غير الإسلامية التي تشابه أوضاعها أوضاع الدول الإسلامية، ويمكن اعتباره إجابة على هذا السؤال:

[إن الماركسيين في العالم الإسلامي قد فشلوا جميعاً وبالرغم من كل الظروف الاقتصادية والسياسية المؤاتية والموجودة في أيديهم، لم يستطيعوا إحراز أي نجاح، وذلك لأنهم غفلوا عن البحث الدقيق والصحيح في الواقع الاجتماعي لمجتمعاتهم وروحها وتاريخها ومعرفة نوعها، ودون أن ينتبهوا إلى أنه ينبغي عليهم أن يعرفوا الأرضية التي يريدون العمل فيها، بدأوا بتطبيق

القواعد الجافة الكلية للنظريات الماركسية كما كانوا قد تعلموها في أوروبا، وعندما عجزوا عن تطبيق هذه النظريات على الواقع الحي والروح الاجتماعية والخصائص العينية لشعوبهم وظروف مجتمعاتهم، انتهت كل جهودهم إلى الفشل].

ما هو التصور الموجود في أذهان الناس عن شخصية أحد الماركسيين؟ هذا هو: شاب مرتب ونظيف ومتفرنج وعصري جداً ومتقعر في كلامه تماماً وكثير الادعاء، ومتعصب ضد الدين والأخلاق والروحانيات والتاريخ والأدب، يعرف الكثير من «الأشياء»، وبالنسبة له حلت جميع مشكلات العالم والإنسان، وهو أيضاً مكفهر جداً[١] مثل شعرائنا القدامي الذين تعلموا إسم زهرة الأرجوان من ديواني سعدى وحافظ، وأخذوا في الأشعار التي «يرتكبونها» يقومون باستخدامها باحساسات رقيقة وتشبيهات واستعارات ومجازات لطيفة وشاعرية، لكن نفس هذه الزهرة التي من فرط عشقهم لها ولجمالها يشبهون لون محبوبتهم ووجهها ورائحتها بها، لو أنها ظهرت أمام عيونهم في الحديقة ما عرفوها، ولو أن البستاني عرفها لهم، ربما لاستاءوا، هؤلاء يعشقون كلمات

---

(١) في الكلية كان أحد تلاميذي الكسالى ماركسياً كل ما لديه من كل المبادىء العلمية والاجتماعية للماركسية زوج من الشوارب فحسب. وكان كلما يلتقي بي ينظر إلى شذرا وكأنني قتلت أباه؟ ويتعمد أن يبدي لي أنه لا يحييني، وظننت أنه ربما كان مختل الأعصاب فلست على خلاف مالي أو عائلي أو قانوني مع أحد، ولما سئل عن السبب تفضل وقال: إن أحد تلاميذ فلان صديقي، وهو يقول: إن فلاناً ويعنيني لا يحلل القضايا التاريخية بأسلوب جدلي، ورؤيته الطبقية قاصرة.

الشعب والجماهير عن طريق الآداب الاشتراكية والأعمال التقدمية والديمقراطية والشعبية والأجنبية، ويستخدمون هذه الكلمات بوجد وإحساس، إلا أنه عندما تسقط أعينهم عليهم في الحارة والسوق والقطار والمصنع والقرية والمقهى والتكية والمسجد، يسدون أنوفهم من رائحة عرقهم، ويضيقون جداً «بقلة تربية هؤلاء الحمقى أهل الطبقة الدنيا وقذارتهم وانعدام إحساسهم» ويقول: «هذه الإنماط الشعبية تعيش كالحيوانات، تتمرغ في القذارة والشقاء، لقد صممت حتى أقنعت بابا وماما ببيع المنزل والانتقال إلى هذه الأحياء الشمالية والنظيفة في المدينة، إن سكان أحياء الجنوب لا يحتملون، أما هنا فالناس بشر محترمون حقيقة ومتحضرون».

والقضية تشبه قضية ذلك الأستاذ العالم الذي كان أول من يقوم معارضاً للحجاب، وكان يلقي المحاضرات ويكتب المقالات العلمية والاستدلالية الكثيرة عن حرية المرأة ومساواتها بالرجل، ثم يقول عندما يريد الحديث عن زوجته «أخت السيد حسن متوعكة».

كان أحد هؤلاء المفكرين الشعبيين جداً عباد الشعب يتلو فوق رأسي دائماً طبقاً لنصوص «ما هو الأدب» الأوروبية: «سيدي، ينبغي أن ننزل من أبراجنا العاجية، ينبغي أن ننزل إلى الحارات، ما لم ينطلق المفكر من الناس، وما لم يعرف الجماهير فهو سجين في عالم ذهنيانه ومجرداته، يقول ماو: إن المفكر ينبغي أن يختلط بالجماهير. تماماً مثل السمكة في الماء، ويقول المخرج الروسي المعروف الذي أخرج عندما تطير طيور اللقلق ومصير إنسان: ينبغي أن تجلس عدة ليال مع فلاح روسي وأن تشرب معه مائة

زجاجة من الفودكا حتى تستطيع أن تفهم نمطه جيداً. أجل فالمفكر أيضاً مخرج، وعلينا أن نعرف الفلاح والعامل أكثر حتى نوقظه ونعطيه الوعي الطبقي»، وكنت أعلم أن هذا السيد يتحدث حديثاً مترجماً لأستفيد فحسب من آرائه العلمية، لأن من كل كلامه هذا، معقوله ومنقوله والذي كان يتفضل بقوله بكل هذا التفصيل والتفصيص: كان يعمل فقط بمسألة شرب الفودكا، ليس مع الفلاح بلا شك بل مع الرفاق الواعين المتعاطفين الذين كانوا يحسون بأنفسهم ملتزمين في كافتيريا أوتيل بالاس.

وذات يوم أخذ نفس هذا السيد «الشعبي الديمقراطي اليساري وغيره» ينصحني أنا الذي رؤيته الطبقية ليست بالقدر الكافي قائلاً: «لا أريد أن أقول: إنه ينبغي أن نحصر أنفسنا ونتكبر، لكن المرء لا ينبغي أن ينزل بقدره، ويهش لهؤلاء الطلاب بحيث يظنون أنهم أمام إخوتهم، إنك ان قللت من قدرك فهم يقللون منه ثم لن تستطيع إيقافهم ويبلغ بهم الحد إلى الوقوف أمامك والتدخين أمام وجهك، ويضيع احترام الأستاذية، وكرامتها، وبعدها لا يعطون أية قيمة لدروسك وأبحاثك، إنه يقال: إنك حتى تسير معهم وتذهب معهم إلى الكافتيريا وتثرثر معهم، أعلم بلا شك أنها أقوال مختلقة، لكن ما يلاحظ وهنا أيضاً أنك عندما تنتهي من محاضراتك يلتفون حولك ـ ينبغي أن تحفظ الحدود والفواصل. إذا فقد الإنسان الاحترام لا يبقي له بعده شيء، فضلاً عن أنني سمعت أنك قمت بإلقاء محاضرات في مؤسسات غير جامعية، حقيقة أن هناك أساتذة محترمين وجامعيين مشهورين مثل الدكتور

نصر والدكتور زرياب خوئي والأستاذ محيط طباطبائي ألقوا محاضرات في نفس المكان لكنها على كل حال مؤسسات غير جامعية، كل أنواع البشر يتجمعون فيها، سوقة وتجار وأنماط عامية. . . وهذا يحط من شخصيتك العلمية، إن طالباً واحداً لا يستطيع الضحك أمامي حتى إذا تفكهت أنا نفسي، يسلمون بخوف وخشية، يفض فم الطالب عندما يقف ليقاطع كلامي ويناقشني أو يدخل معي في جدل، لست مستعداً حتى ولو اعطوني مليون توماناً أن ألقي محاضرة أمام أنماط غير جامعية أو في محافل غير رسمية، إن المرء لينزل بمستواه، ينبغي أن تنتبه لنفسك جيداً من أجلنا على الأقل، فنحن زملاء وحيثيتنا الاجتماعية واحدة خاصة في مجتمعنا ومع هؤلاء الناس الذين لا قيمة لهم ولا يعرفون حدودهم. . . بغفلة بسيطة تتحطم شخصية المرء. . .»

وعندما كنت أسمع آداب المعاشرة الكونفشيوسية هذه، والأخلاق والعادات التي تفوح منها رائحة الارستقراطية العفنة، وهذا التراث «الكورتوازي» لمجتمع إقطاعي وملكي وكله من فم هذا المتشبه بالاشتراكيين، ماذا كنت أستطيع أن أقول إلا «. . . أخي العزيز. . . هل الشخصية قطعة من الزجاج تكسر بضربة واحدة، الشخصية صفة ذاتية وأصالة وتسامي معنوي وأخلاقي في الـ «أنا» الخاصة بي، ليست وهما أوتصورا في نظرات الآخرين، ليست الشخصية وضوءاً يبطل بغفلة صغيرة. . . وإن كانت هكذا، أبطلها بغفلة كبيرة ولنمض».

تفسيري للدين والعلموية:

ينبغي أن أوضح في البداية أي تفسير لدي للدين؟ ثم أوضح كيف أدعي أن الإسلام بسبب روحه السياسية والثورية الخاصة وبسبب أنه هو الذي يصنع تاريخ أمتنا وثقافتها وروحها ووجدانها وروابطها الاجتماعية، وسبب أنه ذو حياة وحركة يستطيع أن يتعهد برسالتين اجتماعيتين حيويتين وفوريتين في عهدنا الحاضر، تعدان أكثر احتياجاتنا فورية وهما:

١ ـ إيجاد الرباط الثقافي المباشر للذات، فإن الفجوة التي ظهرت بين «عوام الناس» و«خواص المفكرين» في ثقافتنا المعاصرة(١) ليست فحسب مأساة اجتماعية وثقافية كالمرض، بل ومقبرة هائلة ومهولة لكل جهود العلماء الواعين ومدفناً لكل آمال الجماهير المحتاجة الأسيرة.

هذه الفجوة سوف تملأ بهذه المادة المعنوية المولدة للقوة.

٢ ـ ينبغي في الخطوة الأولى أن نعترف ـ مهما كانت عقيدتنا

---

(١) الميزة الموجودة في ثقافتنا القديمة أن الذين كانوا يتعلمون في المراكز العلمية حتى في أعلى مستوياتها العلمية، لم يكونوا محبوسين قط فيما يسمى بالتعبير الأوروبي بالبرج العاجي للفردية الفكرية والروحية، وكما هو محسوس الآن لا يقطعون صلاتهم وتفاهمهم بالجماهير ومعها، وأي مجتهد ديني يكون في متناول أيدي الناس ببساطة. فهو المرجع الحر للجميع. مثل هذه الصلة «مع ملاحظة أن العلوم القديمة لم تكن ذات جانب عام» بين العلماء والعوام ليست بسبب سمات العالم الدينية، لكن عاملاً اجتماعياً طبقياً مهماً جداً له دخل في وجوده سوف أذكره، كما أنني ذكرته في كتابي «كوير».

الشخصية والفكرية ـ بأن مجتمعنا مجتمع ديني. وللأسف خلط مفكرونا ومتعلمونا الجدد مقولتين منفصلتين تماماً بالنسبة للقضايا الاجتماعية في أذهانهم: احداهما «الحقيقة» والأخرى «الواقع» وأقصد بالحقيقة ما نعتقد في صحته أو «ما ينبغي أن يكون»، وأقصد بالواقع ما نعترف بوجوده ونعتقد أنه موجود، أما مسألة خيره وشره أو قبحه وجماله أو حقه أو بطلانه فهي مرحلة لاحقة هي مرحلة الحكم الذهني. وفي بعض الأحيان تنطبق الحقيقة مع الواقع. وبعبارة أخرى: إن الواقع أمر مطلق وخارجي والحقيقة أمر نسبي ونظري وقد يعترف شخصان بواقع أمر ما ويختلفان في حقه أو بطلانه، وعند الأوروبيين مصطلحان دقيقان يفصلان هذين المفهومين كلا عن الآخر، أولهما الحكم بشأن الأمر الواقع juge ment de fait (كيفية الشيء) والآخر الحكم بشأن قيمته jugement de valeur (هل هو حسن أو سيىء).

في المرحلة الأولى أقرأ المثنوي، وأجاهد حتى أفهم كل ألفاظه ومصطلحاته وكل الآيات والأحاديث والأقوال المأثورة والإشارات والكنايات التاريخية والأسطورية والدينية والأدبية فيه، وكل أنواع الصنعة اللفظية والمعنوية والدقائق النحوية والفنون الشعرية التي يحتوي عليها، ونبحث صياغة الشعر فيه وأسلوب البيان والعقائد والأفكار والميول الفلسفية والمذهبية والعرفانية والذوقية حتى نعرفها تماماً وبدقة، ونتناول التصوف والعلوم الإسلامية والثقافة والروح الاجتماعية والخصائص التي كانت موجودة في عصر مولانا جلال الدين وإيران في العصر المغولي،

وكل الشخصيات التي أثرت في تشكيل شخصية مولانا جلال الدين والأبعاد المتعددة لروح مولانا: والده، شمس الدين التبريزي وضياء الحق ومحمد زركر وسنائي والعطار. . . الخ.

هنا أكون قد وصلت إلى آخر المرحلة الأولى للعمل أي الحكم على واقع المثنوي، وبكلمة واحدة أكون قد عرفته. في هذه المرحلة أقوم فحسب بدور الباحث. وليس لي أي دخل في موضوع بحثي، فآرائي وعواطفي وذوقي أمور ساكتة ومعطلة تماماً وأقل ظهور لهذه العوامل يعميني، وفي هذا المجال ينبغي أن أكون بتعبير «بيكون»، «عينين جافتين علميتين» بصيرة حادة وذكية ولا شيء آخر، هنا أستطيع أيضاً أن أتعاون مع آخر قام من أجل معرفة المثنوي بتنحية نفسه جانباً، وحمل فحسب نظرته الحادة ذات الأبعاد والفهم المدرك والمعارف والتجارب اللازمة الموجودة لديه ليستخدمها في إدراك الواقع مجال الدراسة وكشفه وتوضيحه وتعليله، أتعاون معه واستمد منه وأعتمد على نظرياته مهما كنت صوفياً مسلماً بينما هو مادي أبيقوري.

وعندما نصل إلى نهاية هذه الجولة والرحلة ونجد هذا الاستشراف الشامل على موضوع البحث قلنا الحق آنذاك ـ أو في رأيي أنا من مسؤوليتنا ـ أن نجلس ونصبر أنفسنا ونقوم بتقييمه[١].

---

(١) لا توجد للأسف حدود وفواصل دقيقة للمصطلحات العلمية حتى في لغة مفكرينا ومتعلمينا، ولما كنا نستعملها على سبيل الإجمال والإبهام ومختلطة معاً، ولا نعرف روح المصطلحات واختلافها الدقيق المترادف، أو حتى مفاهيمها ومعانيها الدقيقة المحددة، فقد صار عمل نقل المعاني والبيان الدقيق للأفكار العلمية والفلسفية=

والتقييم، يعني الحكم على قيمة العمل وليس «بحث خصائصه» أي الأمر الذي ينبغي أن نكون قد قمنا به في المرحلة السابقة، ومن هنا ينبغي أن تجر قدم آراء المرء الفلسفية والدينية أو اللادينية وميوله الذوقية والأدبية إلى الميدان، وينبغي أن تجر، ولا بد لها أن تجر، ونتيجة علمه ورسالته في الأصل كامنة في هذه النقطة، أي أن يقيم ويحدد الطيب والسيىء والحق والباطل والجميل والقبيح، وإلا فان العلم إذا ظل في المرحلة الأولى ـ كما يظن العلمانيون والقائلون بمبدأ العلم للعلم وحياد العالم ـ فسوف يبقي عقيماً، وإذا لم يقم العالم بتعيين القيمة وإذا لم يتخذ موقفاً بالنسبة لما يعلم، وإذا لم يعلن حقانيته من بطلانه ونفعه من ضرره، من الذي إذن ينبغي عليه أن يقوم بهذا العمل؟ هل هم السياسيون والعوام والمتعصبون العميان الجهلاء؟

وعلى هذا النسق سوف ترون أن النزاع الذي لا طائل من ورائه والذي احتدم بين الجناحين المعروفين والذي هو نتيجة سوء العرض والخلط في موضوع البحث ينتفي موضوعياً وذلك لأن العلم ينبغي أن يكون محصوراً في إطار التحليل ومعرفة الواقع،

= والأدبية بالنسبة لنا صعباً ومليئاً بسوء الفهم والتعبير، كما وقر في أذهان الجميع هذا الظن المتوهم القائل بأن اللغة الفارسية ليس لديها الاستعداد الفني الكافي لتحمل المعاني العميقة الجديدة وعاجزة عن بيان دقائقها وخصائصها، وقد قمت في عدد من النماذج ببيان أن هذه الفكرة خاطئة، ليس هذا فحسب بل إنه يمكن باللغة الفارسية العادية لا بتخريجات بعضهم المضحكة نقل أعمق المفاهيم العقلية والعاطفية وأكثرها مغلقات بحيث تبدو الترجمة أجمل من النص.

وإذا أراد أحد أن يقيمه أو يأخذ جانب القبول أو الرفض منه أو يقوم بتأييده وإنكاره يمسخ ويصير أداة في يد آراء شخصية أو ميول دينية وسياسية واجتماعية خاصة سبق تحديدها، ولا مفر من أنه بدلاً من أن يواصل طريق الموضوعية والصراط المستقيم لملوع الواقعية ويصل إلى المنازل أو النتائج التي يصل إليها بنفسه، يصير مثل فلسفة العصور الوسطى وفنونها، مطية تسحبها ميول الأفراد أو الجماعات وآراؤهم المسبقة التي تأخذ في حسبانها أهدافاً حددت سلفاً إلى ناحية أخرى وتوصلها إلى منازل أخرى، وعلى حد قول دو لاكروا «لا توجد آفة أكثر قتلاً للعلم وأكثر تحريفاً له من أن تملي عليه نتائج مطلوبة من قبل، كل نوع من الالتزام يلزمه التقيد والمسؤولية يعني إلغاء الحرية، ولا يوجد في العالم ما هو محتاج إلى الحرية احتياج العقل والعلم لها».

هناك ملايين البشر في العالم أسرى حرب الجهل والانحطاط الاجتماعي والفقر المادي والمعنوي وليست مشكلات حياتهم هذه المجهولات الفلسفية والعلمية وقضايا الوجود والعرض والمادة والطاقة، لكنهم يريدون معرفة كيف يقضون على أنواع الصدأ والأمراض والتحجرات الاجتماعية التي تصيبهم، وكيف ينفثون الروح في الجسد الميت لأممهم ويهبونها الحياة والحركة؟ كيف يصنعون حياتهم، وكيف يتخلصون من أنواع التأخر؟ أية أهداف يحددونها وأي طرق يسيرون فيها؟ كيف يعرفون حيل العصر واستغلاله واستعماره وأنواع صناعة الرقيق وتربية السفلة وكيف يقاومونها؟

على كل حال البشرية في حاجة إلى الرفاهية المادية والحرية والنضج والثقافة والمعنويات، وجماهير العالم الثاني والطبقة الثانية في العالمين تحتاج إلى هذه الأشياء حاجة فورية وحيوية، وإذا كان العلم يريد في هذا الموقف ـ وثلثا البشرية ومصير الإنسان وغد الإنسان أمور مرتبطة به ـ أن يتنحى ويصير محايداً وموضوعياً وأن يمنع نفسه عن إيجاد الحلول للقضايا والتنبؤ بها وتقييمها فبأي شيء ينفع؟ هذه التقوى تقوى مشؤومة. لا يوجد في هذا العالم ما هو أكثر مسؤولية من العلم. عندما كنت طالباً في الجامعة قدم لي استاذي العظيم الدكتور فياض الذي كان رئيساً للجامعة أحد الأمريكيين وقال: إنه سوف يبقى في مشهد عدة أيام ليقوم بدراسة آثارها التاريخية وأحوال الثقافة والدين والأدب فيها وعادات سكانها فكن رفيقا له. كان متخرجاً من جامعة هارفارد العريقة كما نال الدكتوراه في علم الإنسان الثقافي في الشرق الإسلامي الإيراني وتعلم الفارسية والأدب والتصوف الفارسيين وهما البنية التحتية لعلم الإنسان الثقافي في إيران. ولكنه لم يستسغ مولانا جلال الدين وسألت عن السبب فقال: لقد كان منحرفاً جنسياً وتعجبت وقلت في نفسي: لا بد أن مولانا له رأي سيىء فيك وإلا فان أشد الناس خبثاً وأكثرهم تعقيداً مهما كانوا أقذاراً لا تدخل رؤوسهم الضيقة الملوثة أية علاقة إنسانية أخرى بين بشرين إلا العلاقة الجنسية لم يجوزوا هذا الاتهام بالنسبة لمولانا.. وكأن أخانا هذا كان أمريكياً جداً جداً.

ثم تحدث عن عمله، لقد قضى فترة طويلة في شيراز

مشغولاً بعلم الإنسان الثقافي وكانت رسالة الدكتوراه الخاصة به عن «الدين عند سكان شيراز في المائة سنة الأخيرة»، كان قد مسح مساجد شيراز مسجداً مسجداً وأحصى أعمدتها ووصف أقطار المآذن وطولها وأشكالها وأنواعها وألوانها وزخارفها وبحث بدقة أوقاف المساجد، وذكر أئمة الصلاة والمقابر وصلوات الجماعة، ومعدل تردد الناس على كل مسجد ومجموعهم، والبرامج الدينية في المساجد والتكايا ومجالس قراءة الروضة والتعزية والوعظ والفتيا والهيئات الدينية وعدد الملات والطلبة الدينيين وأهل المنبر ومئات المعلومات الأخرى بحثها بدقة وقدم لها الإحصائيات كوم متراكم من المعلومات بحيث كان الأمر مهماً جداً بالنسبة لي أنا المسلم الإيراني، قلت: لا بد أن نظريات مثل هذا العالم المطلع الذي يتناول تخصصه علم الإنسان الثقافي والديني عندنا سوف تكون مهمة وقيمة جداً، وتداعت عشرات الأسئلة الحساسة التي تعد الإجابة عليها بالنسبة لي وبالنسبة لكل المتعلمين والمفكرين خاصة بل والناس أنفسهم قيمة جداً، وكنت في انتظار الفرصة لأعرضها عليه واحداً واحداً ليتفضل بالجواب عليها: في النصف الأخير من هذا القرن أي تطور حدث في هذه البيئة؟ هل التحديث الذي دخل على الدين التقليدي تقدم به خطوة أو انحرف به؟ هل للدين في الظروف الحالية لهذا المجتمع دور إيجابي أو دور سلبي؟ تحريكي أو تخديري؟ . . . وكان جواب كل هذا واحداً، مصحوباً بلا شك بابتسامة فلسفية جداً ناتجة عن الطمأنينة الكاملة والعلم اليقيني وتعني أن كل هذه الأشياء قديمة جداً ففي العالم اليوم

وبالنسبة للرؤية والروح العلمية في القرن العشرين حلت القضية: «إن العلم لا يحكم اليوم، هذا عمل الفلسفة والدين والسياسة وميدان العمل عند العلم هو تحليل الوقائع وتفسيرها وكشف الروابط والظواهر» وبعدها تركته ويئست، رأيته وكأنه من سلسلة متعلمينا المفككين الذين سمعوا كلمات متقطعة وممزقة وبعيدة عن الموضوع وأخذوا يرطنون بنفس الطريقة، وكما تقتضي طبيعة الأمية وانعدام الإحساس يتفضلون بتفسير أي موضوع بحسم وتعصب وكبرياء شديد وأن «كل شيء بالنسبة لهم واضح». وعند إبداء الرأي لا يستخدمون أبداً عبارات من قبيل: «لا أدري وأظن، ربما، أغلب الظن، المظنون. . . وغيره».

يقول اناتول فرانس: «العالم هو من يعلم الفرق بين أنا أعلم وأنا أظن» وهذا هو أبو حنيفة: من ضمن خمس مسائل تسأله فيها امرأة عامية يجيب عن ثلاثة بـ: لا أدري، وتندهش المرأة التي ترى أنه كلما سألت نصف فقيه حيها عن مسألة دينية أو علمية أو تاريخية أو فقهية أو فلسفية وطبيعية وطبية وخصوصية، فالجواب في جيبه يخرجه على الفور ولم يقل طوال عمره: لا أدري، وتقول: يا شيخ هل تأخذ أموالاً من بيت المال لكي تجلس في المسجد وتقول: لا أعلم؟ ويجيب الشيخ: لا يا أمة الله، إن ما يعطونه لي من أموال من بيت المال من أجل ما أعلم، ولو أنهم أرادوا على حد قولك أن يعطوني مالاً على ما لا أعلم لما كفت أموال الدنيا.

وتذكرت أحد الذين دأبوا على نقدي ومصدر معلوماته في علم الاجتماع «ميدان علم الاجتماع» ترجمة السيد أربان بور

وأحاديث الأصدقاء. كنت أقول في محاضرة: كان الأستاذ جوروفيتش أعظم أساتذة علم الاجتماع في فرنسا الآن، يقول: اكتشف عالم من علماء الاجتماع في القرن التاسع عشر ١٩٨ قانوناً في علم الاجتماع، أما اليوم فلا يدعي علم الاجتماع الجديد اكشاف قانون واحد كلي مسلم به... وكلما تقدم العلم تواضع، وعلم الاجتماع في القرن العشرين أكثر تواضعاً من كل العلوم الأخرى، وعلى سبيل المثال إبداء رأي علمي بشأن وجود محمد ﷺ وظهور الإسلام في مثل تلك البيئة مسألة معقدة من مسائل علم الاجتماع، فضلاً عن أنه علم الاجتماع المختفي في التاريخ وأيضاً مع معلوماتنا القليلة الناقصة عن كلا العلمين، وهو أمر ليس بالسهل بالنسبة لي على الأقل بالرغم من أن دراستي وأبحاثي ودروسي وحياتي المعنوية والاجتماعية في هذه الميادين الثلاثة التاريخ وعلم الاجتماع والإسلام.

ورأيت الناقد المذكور يتفضل قائلاً بعصبية ولهجة «هذا ولا سواه»: لا يا سيدي، علم الاجتماع اليوم مثل الرياضيات ٢ زائد ٢ يساوي ٤، علم الاجتماع صار علماً له تكنيك، وكل القضايا الاجتماعية قد حلت، وعلى سبيل المثال محمد والإسلام كانا نتيجة حتمية للظروف المادية والاقتصادية في البيئة، أي أنه لما كانت مكة واقعة في ملتقى طرق القوافل تغيرت البنية التحتية الاقتصادية للمجتمع ولا بد أن تتغير البنية الفوقية الثقافية والأيديولوجية، ومن هنا تكوّن محمد في هذه الظروف وظهر الإسلام، فالبطل أو القائد مثل شجرة تنمو في أرض عامرة وخصبة

وجو مساعد يوجد في مجتمع متقدم ومتطور، نتيجة لتغيير الوضع الاقتصادي صارت مكة مجتمعاً متقدماً، وإلا فلماذا لم يظهر في المدينة مثلاً وغيرها من بلاد العرب؟

وبعدها أحسست بالإدانة وذهبت إلى منزلي، وفي المنزل أصبت بالاكتئاب من غبائي هذا، إذ ظللت أفكر في هذه المشكلة خمس عشرة سنة، وقلبت العصر الجاهلي عند العرب رأساً على عقب، وبحثت حول قبائل العرب واحدة واحدة وحول مشاهير مكة والمدينة فرداً فرداً ورؤساء العشائر وكل أسر قريش وكل الشعراء والتجار والشيوخ والقصص والعادات والتقاليد والرسوم والطقوس والعرق وجغرافية الجزيرة وكل العالم في عصر البعثة وحياة الرسول يوماً بعد يوم وأسرته فرداً فرداً وصحابته واحداً واحداً وأعدائه وكل حركاته وسكناته وخطبه وتاريخ الإسلام ومدرسة الإسلام، وكتبت وترجمت وحاضرت في هذه الموضوعات ما يملأ آلاف الصفحات، وتعليمي وبحثي وتدريسي وكل عمري الحقيقي في الأصل وكل حياتي المعنوية مضت وتمضي في هذه الفروع الثلاثة من علم الاجتماع وفلسفة التاريخ، والإسلام، وفي هذا المجال تتلمذت على علماء عظام في الإسلاميات، وقضيت في الخارج بضع سنوات تلميذاً لجورفيتش وآرون عالمي الاجتماع والبورفسير ماسينيون وجاك برك وبرنشويج وهنري ماسيه علماء الإسلاميات، وقرأت دروسهم طالباً، وكل فكري وذكري وأوقات عملي وفراغي قضيته وأقضيه في هذه القضايا، وبعد كل هذا لم أفهم كيف صار محمد محمداً في تلك

البيئة وكيف صار الإسلام إسلاماً في ظل تلك الظروف، وسيادته بالحصول فقط على معلومة بسيطة غامضة وردت في كتب المدارس الثانوية أن «مكة كانت مدينة على طريق التجارة» قام بحل معادلة مجهولة غامضة لا تحل وذلك عند الوداع على باب منزله دفعة واحدة، وتفضل بالجواب، ومضى.

(ما رأيه هو بأن الإسلام ظهر أصلاً في المدينة وليس في مكة).

والآن هيا وامض واقرأ الكتب واسهر الليالي حتى الصباح واقتل النوم، وهيا من هذا التاريخ إلى ذاك التاريخ ومن هذه النظرية إلى تلك الفرضية، ومن هذه الوثيقة إلى تلك الوثيقة وهيا افترض ورد على فرضيتك، وهيا تحير، وهيا قل:

إذا كانت مكة بيئة صالحة ومحتاجة للحركة والأيديولوجية الثورية، وإن الإسلام ومحمد نتيجة لظروفها الاجتماعية، إذن: لماذا كانت هذه البيئة مثل الحجر الصلد في مواجهة هذه البعثة، مقاومة وغير قابلة للتأثير، وظل نضال ثلاث عشرة سنة على الدوام دون تأثير وكان نتيجة مائة شخص أغلبهم «من المتفرقين ومن الموالي والعبيد والرقيق» فضلاً عن أن هؤلاء هاجروا إلى الحبشة والمدينة، وبدأ الإسلام من الهجرة أي بعد أن ترك مجتمع مكة؟ وإذا كانت البيئة المتحركة والمتطورة تجارياً قابلة للجديد وراغبة في التطور فلماذا كانت المدينة المتحجرة المغلقة التي كانت قائمة على الزراعة وعلى بنية بدوية قبلية أرضية قبول وتنمية لمثل هذه الثورة

العالمية العظيمة وتغيير اجتماعي وثقافي وديني فجائي وجذري؟ وإذا كان وجود مكة في ملتقى طرق تجارة عاملاً لظهور نوابغ مثل محمد وعلي لماذا في بداية هذا الطريق وهدفه الأصلي أي إيران واليمن والروم الشرقية التي كانت قمة الحضارة والتقدم والسلطة والقدرة الاجتماعية والثقافية لم يظهر نبوغ الإسابور ذو الأكتاف وهرقل؟ وإذا كان الوجود في طريق القوافل يخلق مثل هذه المعجزات والكرامات، ينبغي إذن أن يوجد أعظم نوابغ الدنيا ومصلحي العالم داخل «مقهى زيدر»، وإذا كانت البيئة المتقدمة المتحضرة تخلق بشراً عظماء، والعلاقة بين النبوغ الإنساني والمجتمع هي علاقة الأرض بالشجرة المثمرة ممن هنا نما محمد وصحابته الثوريون في مكة لا في مكان آخر، قياساً على هذا كان ينبغي في نفس الوقت أن يظهر «الله» في المدائن والقسطنطينية والعياذ بالله. ورأينا أنه حتى «حمار الله» لم يظهر فيهما. وأيضاً استناداً على نفس هذا الأصل العلمي الجديد، كان ينبغي أن يخرج النوابغ الذين غيروا وجه التاريخ لا من الصحراء القاحلة والمواطن المتأخرة وبين بدو، بل في القلب النابض القوي لأكثر الحضارات والمجتمعات تقدماً: فيكون موسى الراعي لابس الأسمال الذي يرعى خراف شعيب من واشنطن، وعيسى الصياد الشاب الوحيد لا من سواحل البحر الأحمر الساكنة ومن بين شعب فقير مستعبد بل من لندن، ومحمد اليتيم الذي كان يرعى غنم أهل مكة في قراريط، لا من الصحراء المميتة ومن بين قبائل بدوية بل من جامعة السوربون والكوليج دي فرانس في باريس، أما في عصورهم

لخرجوا من الروم وهليوبوليس وهكمتانة «همدان» ونيسابور وبلخ والقسطنطينية، ومن بين أناس راقين وحضارات إيران والروم العظمى.

كل هذه التساؤلات لا طائل من ورائها، ودليل عدم فهم علم الاجتماع، وعدم وجود جدلية ورؤية مادية طبقية، اللهم إلا إذا كانت تحل مثل الرياضيات، ٢ زائد ٢ يساوي ٤، فالقافلة تمر من هناك، ثم يتغير البناء الاجتماعي، ومن داخله يقفز جبراً محمد وعلي وعمر وأبو بكر وأبو ذر وبلال وكتاب مثل القرآن وكلام كنهج البلاغة وثورة شاملة عالمية تنمي الثقافة وتخلق الحضارة وتصنع التاريخ، ودفعة واحدة في ظرف عشر سنوات أو عشرين سنة.

بهذه البساطة؟ نعم بهذه البساطة. فعلم الاجتماع اليوم علم الأشياء التي توضع في آلة تامة الأتوماتيكية اسمها «الديالكتيك»، وأي مجهول من المظنون فعلاً أنه لا يحل تضعه بسهولة تامة داخل البنية السفلية، وبطرف إصبعك الأصغر تدق فيقفز الجواب خارجاً من البنية الفوقية ويسقط داخل جيبك فتخرجه وتعطيه لمن يسألك، فهذا هو الجواب حتى لو كنت أنت نفسك لا تفهم ماذا تم، ألست ترى أن كل هذه الأجوبة قد تأطرت وتقولبت و «تكلشهت» و «فبركت» وصارت على وتيرة واحدة؟ التكنيك الألكتروني كامل الأوتوماتيكية للمادية الديالكتيكية!!!

أهذه هي الماركسية؟ أجل ماركسية الورد والبلبل.

علم الاجتماع والالتزام:

المصيبة العظمى هي أن علم الاجتماع في القرن العشرين قد سن في الجامعات ومؤسسات البحوث العليا، وأنه حصر في قلعة العلمانية وابتلى بالمرض العضال الموضوعية والانزواء العلمي. . . وفي المستشفيات الأكاديمية، وضعوه على الفراش، وانهمك الأساتذة المتخصصون بتمريضه، ومنعوا الناس من الزيارة.

عندما كان البروفيسور جوروفيتش أعظم نوابغ علم الاجتماع المعاصرين في فرنسا يقول في قاعة ديكارت وبلهجة قاطعة غاضبة: «ينبغي استخدام علم الاجتماع كأداة للوصول إلى أهداف سياسية. لا ينبغي أن يتحول علم الاجتماع إلى تكنيك، كل ميل أيديولوجي يمسخ علم الاجتماع، لا ينبغي أن تستغل الحقيقة العلمية لصالح المصالح الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ينبغي أن يكون علم الاجتماع مبرأ من أي التزام، وينبغي أن يكون على حذر من التنبؤ والحكم وتقييم القضايا أي تحديد الصالح والطالح، والإرشاد والاقتراح وتقديم الخطط وإبداء خطوط السير واتخاذ

المواقف، الخلاصة ينبغي أن يحذر من إبداء الرأي والدفاع والدعاية لمسلك ما ومن باب أولى التخطيط وتحديد الأهداف السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وإذا أردنا أن نحدد رسالة لعلم الاجتماع اليوم فإن رسالته هي عدم الالتزام بأي نوع من الرسالات. والقيد الوحيد على العلم ينبغي أن يكون الحرية من أي قيد، لسنا في القرن التاسع عشر حتى يقوم علم الاجتماع المغرور الساذج بتكوين المدارس الأيديولوجية وخطوط السير الاجتماعية والسياسية ذات اللون الديني ويصير خادماً للسياسة والأحزاب والطبقات الاجتماعية والعواطف القومية».

وعندما كنت أسمع هذا النوع من الاحتجاجات العلمية الموضوعية في علم الاجتماع على لسان واحد من أبدال علم الاجتماع المعاصر وأعلامه العظماء، كانت الرعدة تتملكني وكان صراع بين العلم والعقيدة قد نهض في داخلي وكان يمزق روحي إرباً في شك وحيرة عظيمين، فلو كنت مضطراً ألا أرى نفسي، ولو كنت لا أحس بالمسؤولية لواصلت بمقتضى ذوقي الشخصي وميلي الباطني الفلسفة وعلم الدين والنقد الأدبي والفن، بحيث يروي ظمأ روحي، ولواصلت الكتابة وهي عندي نوع من «مزاولة الحياة» وأعظم أنواعها. . . بل والنوع الوحيد الذي يمكن من أجله تحمل ثقل هذه الدنيا وغثاثتها وأهلها. لكني لم أكن فرداً حراً.

فمن ناحية كانت جذوري الطبقية قد جعلتني مسؤولاً، فمن بين ملايين الاستعدادات التي سجنتها الثقافة الجديدة والتحديث الجديد ـ الذي فرض على بلدي ـ في الأرياف المغلقة الراكدة،

وطريق الخروج ودخول الجامعات من أبوابها الاستقراطية ومن باب أولي الخروج من البوابات الخاصة للبعثات إلى الخارج للدراسات العليا مسدود أمامهم، واحد فحسب قد استطاع «بفضل الله» و«مساعدة الحظ» و«في غفلة من الزمن الأعوج» أن يفر من هذه القلعة المغلقة، ومن بين فجوة في جدار الجامعة يقفز إلى داخلها بل وفجأة يجد نفسه في قافلة تحمل أولاد الأشراف ومدللي المملكة وزبدة البورجوازية الجديدة في المدينة وأحياناً أولاد خانات الإقطاع الذين أصبحوا عصريين إلى مراكز الحضارة والثقافة والقوة والثروة والصناعة واللهو والقصف في العالم.

مثل هذا الشخص الذي وجد نفسه فجأة وعلى سبيل الخطأ مثل عملة ملغاة في صندوق العملات الرائجة، لا يملك ضميراً حراً وإرادة خالية ليختار ما يريد. إنه مسؤول خاصة وان الناس هم الذين يتكفلون بنفقاته. أنا الإيراني القروي في مثل هذه الأوضاع آخذ نقود هذا الفلاح الذي يعتبر «أكل خبز القمح» النشيد الحماسي الذي يبعث الفخر فيه ووجود ما يكفي طعامه من الغلة لمدة سنة أكثر مثل حياته، وأتي من بين أناس ـ أصبحوا بعد كل هذه الحضارات العظيمة والثقافات الغنية ـ يشتهرون الآن في العالم بالأمية والجوع والتأخر وانعدام الحضارة، لا حق لي أن أذهب ثم أعود بعد سنوات وأنفخ أوداجي وأنا أعني أن هناك مسافة واسعة أصبحت تفصل فيما بيني وبين هؤلاء الناس، وأتساءل: أي تفاهم يمكن أن يكون بيني وبين هؤلاء الناس المتدينين المتحفظين المغلقين الذين يعيشون في القرون الوسطى؟ لقد درست الفيزياء

الذرية وجراحة البلاستيك والفلسفة الوجودية المعاصرة وعلم الاجتماع عند دوركهايم والأوبرا والباليه والسيمفونيات الكلاسيكية ومسرح العبث وفلسفة اللامعقول عند كامو والتشاؤم العميق عند كافكا والعصيان والتمرد الهيبي والسيريالية التقدمية في الأفلام الإيطالية وموسيقى الجاز والعالمية والقومية الحديثة العرقية والكنسرفاتوار و. . . الخ، أما هؤلاء الناس فهم لا يزالون سجناء في الزنزانات المظلمة لتاريخهم ودينهم وتقاليدهم التي ترجع إلى العصور الوسطى ويعجبون بأشعار حافظ، وينتشون من مقامات «شور» و«أبو العطا»، وبدلاً من «زرير» يعشقون الحسين بن علي وبدلاً من رستم يمجدون علياً بن أبي طالب، والخلاصة أن آدم وإبراهيم وإسماعيل والقرآن ومحمد وسلمان وأبا ذر ونهج البلاغة والروح القدس في مأثورنا الشعبي حلت محل الأوستا والزند والبازند والدينكرد وارزنك اردا ويراف نامه والشابور كان وزرداشت وماني ومزدك وكسيو وكسودرز وكيومرث وكاو «البقرة» و«فره ايزدي» المجد الإلهي[1]، كنت أعلم أية حيل وفنون صنعة تصلح عند العودة إلى إيران من أجل أن يتحول المرء

---

(١) الزند والبازند: من كتب زردشت، وارزن كتاب منسوب الماني، ارداويراف نامه: رحلة إلى العالم الآخر قام بها الكاهن الزرداشتي ارد اويراف، والشابوركان: كتاب قدمه ماني لشابور الأول وزرداشت وماني: متنبيان إيرانيان ظهرا في إيران قبل الإسلام، ومزدك: صاحب حركة اصلاحية انقلبت إلى شيوعية في النساء والمال، ودرز وكيومرث ويو من ملوك إيران الاسطوريين وكاو البقرة التي أرضعت افريدون وهو من ملوك إيران الاسطوريين، والمجد الإلهي النور الذي يسكن المؤمنين في ديانة زرداشت وأغلبه للملوك. المترجم.

إلى مفكر وناقد وفيلسوف وفنان ومفكر مستنير و«صنم» للمفكرين.

أولاً: هناك أسلوب لكي يصير الإنسان علامة فاضلاً وعالماً كاملاً على المستوى العالمي علّمني الأستاذ جمال زادة[١] ومن علمني حرفاً فقد صيرني عبداً، وهو فعلاً من الأمور التي تجعل من الانسان عبداً، عبد العبيد وفي نفس الوقت أستاذ الأساتيذ، قال لي: «أنت يا سيد بهذه المادة العلمية الإسلامية التي لديك، وربما أنك أيضاً رجل بحث وتنقيب ومن حملة القلم، سوف أدلك على طريق فيه الدنيا والآخرة، فلا ينبغي دون خميرة أو عجين أن توقد التنور خالياً وأن تسقط داخل سوق الاشاعات والشهرة الكاذبة والسخرية من العرب والعجم وأنت خالي الوفاض، ولا ينبغي أن تدفن عمرك تحت جبل من الكتب في الدراسة والبحث والعناء والتعب وتنفقه هدراً ينبغي على المرء أن يحسب حساب العمل العلمي الذي يقوم به، وأن يختار عملاً علمياً له جمهور وله مؤيدون، وليس اليوم يوم الذهاب وكتابة الحواشي على الأسفار[٢] أو تفسير القرآن، اترك هذه الأمور لنفس المشايخ الذين يقومون بها، ففيها أسوأهم

(١) المترجم: محمد علي جمالزاده: رائد من رواد الأدب الفارسي المعاصر، ولد في أواخر القرن الماضي ولا يزال يعيش في جنيف. قضى معظم حياته خارج إيران. له عدة مجموعات قصصية وروايات وعدة دراسات ومقالات عديدة من الأدبين الفارسي والعالمي.

(٢) المقصود الأسفار الأربعة أشهر كتب ملاصدرا الفيلسوف الإيراني المتوفي ١٠٥٠ هـ المترجم.

وأولاهم[١] إنني لا أريد أن أقيدك بلا شك، وأقول على سبيل المثال ـ والسبب في أنني اخترت هذا المثال سبب شخصي ـ لأنني كنت أفكر فيه منذ سنوات لكن المشاغل لم تسمح، وكثيراً ما فكرت في أن أقوم فيه بنفسي أو أطلب من أحد المعدودين أصحاب الوزن الثقافي وأهل هذا النوع من الدراسات أن يقوم به، وهو خدمة للتاريخ والأدب، وله صلة خاصة بقضايا علم الاجتماع وعلم الأديان وعلم النفس في مجتمعنا، بالإضافة إلى أن الموضوع تاريخياً في مرحلة حساسة جداً ومهمة في تاريخ إيران ولا تزال حية، وعصرنا الحالي استمرار مباشر لها. . .

في المكتبة الوطنية في باريس وفي القسم الشرقي مخطوطات عربية وفارسية تعد وثائق هامة جداً وقيمة جداً وعلمية عن ميرزا علي محمد الباب وميرزا يحيى صبح الأزل وميرزا حسين علي بهاء والشخصيات الأخرى البارزة في البابية والبهائية من قبيل الرسائل والخطابات والنظم والأدعية والتفسيرات والأقوال والاحتجاجات والألواح، ولو استطعت ـ خاصة فيما يتعلق بالباب أن تجد في جمع النسخ وتدوينها وتصحيحها والمقارنة بين نسخها وتحشيتها وتوضيحها والقيام بترجمة مختصرة أو كاملة لها إلى الفرنسية، ويمكن أن تقدم هذا العمل كرسالة للدكتوراه، وإذا أردت سوف أقدمك إلى أستاذ مهتم بهذا

(١) المترجم: النص الفارسي: هم خدا وهم خرما: الله والبلح معاً وهو مثل يضرب للجمع بين الدين والدنيا أو الرغبة في نيل رضا الله ورضا الناس معاً.

الموضوع جداً، وفي نفس الوقت تكون قد قمت ببحث صعب في تاريخ إيران وفي ثقافتها في العصور الحديثة عظيم القيمة سواء بين مستشرقي العالم أو علماء إيران فوق ما تتصور، الخلاصة يا سيدي العزيز أنك بخطوة واحدة سوف تصبح علامة وباحثاً مشهوراً ومحترماً وأثبتت التجارب المرة فيما بعد أن ذلك الحكيم كان صادق الحديث:

وما يراه الشاب في المرأة يراه الشيخ في قطعة من اللبن

ورأيت أن رفاقي المطيعين العقلاء الذين كانوا محترمين ومنصتين وفي أيديهم أصل الموضوع وجعلوا نصيحة «الشيخ المجوسي كالدر معلقة في آذانهم» و«صبغوا السجادة بالخمر»[١] ووصلوا إلى الآلاف والألوف، وقرعوا باب الدنيا والآخرة معاً. وعلى حد قول أخوان (اميد) شاعر عصرنا الواعي[٢] «دون تعب الإياب والذهاب فجأة وبخطوة واحدة ساروا قدماً» أما أنا القروي المتعصب المثالي، والرجل النظري العاطفي الغريب عن «الواقعية» و«الموضوعية» و«حتمية التاريخ» و«اقتضاء الزمان» و«ضرورة العصر»، قمت خلافاً «للنصائح المشفقة» و«التعاطفات العاقلة» و«التفكير في المصلحة» الصادرة من كبار القوم وعقلائهم، والناس «الناضجين» و«المجربين» و«المحنكين» الذين

(١) التعبيرات بين الأقواس من شعر حافظ الشيرازي. المترجم.

(٢) مهدي أخوان ثالث (م. اميد) شاعر إيراني معاصر من المدرسة الحديثة. ولد سنة ١٩٢٨، من أشهر دواوينه «آخر الشاهنامة» و«من هذه الأبستاق» و«ارغنون» و«خريف في السجن». المترجم.

يمسكون نبض الزمان في أيديهم، وكانوا ينشدون في أذني بإخلاص: «امض في طريق مضى فيه السالكون» وخلافاً للمثل العامي الذي يعد عصارة تجارب عديدة مكثفة في تاريخ هذا الوطن ومجتمعه وحيلته «إذا أردت ألا تفتضح فكن في لون الجماعة» وحزنت وتعلقت بقول عيسى «امضوا في طريق السالكون فيه قلائل» واستمعت إلى الأمر المثالي «خالف ما تعرف به العامة»، وبدلاً من هذه الأعمال العميقة جداً والصعبة والمحترمة والعلمية، جئت وترجمت «سلمان باك»، وسرعان ما أدركت أن هذا الكتاب الذي هو ثمرة سبع وعشرين سنة من بحث رجل مثل لويس ماسينيون أعظم عالم في الإسلاميات وعلم الاجتماع الإسلامي في العالم المعاصر ليس عملاً علمياً أو تحقيقياً أو صعباً أو محترماً، أما المفكرون فقد فهموا كل شيء من قراءة ما هو مكتوب على الجلد وصاحوا: «هه، سيرة سلمان الفارسي، كتاب ديني، عمل رجل رجعي متعفن، لا بد أنه مراثي ونواح وما يشبهها»، أما العلماء الأعلام وحجج الإسلام العظام فشأنهم أجل من أن يقرأوا كتاب إفرنجي مسيحي أرمني ملحد أجنبي لا يعرف أصول طهارته ونجاسته بشأن سلمان صحابي رسول الله، أما الفضلاء وقراء الكتب وأهل المنابر فالأكثرية التي كان لديها حسن نية وحسن ظن بي فقد سكتوا لأنه «ليس من المفهوم في الأصل ماذا يريد أن يقول»، أما الأقلية المترصدة جداً «لئلا تصاب بيضة الإسلام بلطمة من طرف الأجانب والشباب المتفرنج الذين لا يرتدون زي أهل العلم ويتدخلون في الأمور

الدينية دون اكتساب إجازة نقل الحديث أو نيل إجازة الاجتهاد، وقد سمعوا من مخبر صادق أنه يوجد في مقدمة الكتاب نصف عبارة من المترجم فيها إشكال كثير، وليس من المصلحة أبداً أن ينشر هذا الكتاب»!

هذا جاء بالماء وذاك بالتراب ورموا صاحبنا بزنبيل من الطين

وذلك «المخبر الصادق» كان رجلاً كتبياً ينشر الكتب الدينية ورجلاً «موضوعياً» و«متديناً» و«طيباً»، وكنت للمرة الأولى بعد سنة من إتمام ترجمة سلمان، وبضمير مستريح لأنني فضلت «سلمان باك» على «ميرزا علي محمد الباب»، حملت نسخة من الترجمة إلى دكان السيد المخبر الصادق المتدين، فأخذها مني وتفحصها ظهراً وبطناً، ثم رأيته قام وذهب خلف الدكان ولم يمض كثير حتى عاد وقد أمسك بعدد من وحدات الوزن وضعها في كفة الميزان ووضع «سلمان باك» والبروفسير ماسينيون ووضعني أيضاً في الكفة الأخرى، وبعد الوزن تفضل وأعلن قائلاً: «لا، لا يساوي خمسة أو ستة تومانات، أجل، لا» وجلست، وبغربة وضعت رأسي بين يدي ومن خلال دخان سيجارتي، رأيت سحنة الأستاذ العجوز جمال زادة منتصرة، وقد شرق الدمع في عينيه من شدة الضحك.

ثانياً: تكنيك تحويل المرء إلى «مفكر» مشهور في الميادين التي ظهرت حديثاً من قبيل النقد الأدبي والشعر الجديد والماركسية وعلم الاجتماع اليساري والأدب الجديد والفن الحديث. وتكنيك هذا العمل من طراز تقليدي موروث ومجرب. فطلاب العلوم

الدينية الذين لا يستطيعون ـ لعدم استعدادهم أو لوجود مشاكل عائلية ـ إكمال تعليمهم والوصول إلى درجة الحكيم أو المحدث أو الأصولي أو المتكلم أو المفسر أو الأديب أو النحوي أو يصيرون شيئاً في المعقول، والمنقول، لا يجدون محيصا من الإمساك بخيط المنبر[١] وما داموا قد عجزوا عن دراسة العلوم الإسلامية عليهم أن يقوموا بالدعوة والتبليغ[٢]. لا تظنوا أني أبالغ، هل سمعتم مرة واحدة أن أحد العلماء أو المجتهدين أو الفقهاء أو مراجع التقليد قد ذهب إلى المنبر وتحدث إلى الناس؟ إن المنبر دون مستواهم، إن مكانهم هو المحراب، المنبر هو مكان الرسول ومنشدي الروضة والنائحين لا حجج الإسلام والآيات العظام. . . الخلاصة أنه من بين طلاب العلوم الدينية، أولئك الذين لديهم الاستعداد والقدرة على مواصلة العمل والتعب الشديد ويصلون إلى درجة الدكتوراه «الاجتهاد» ينفصلون عن الناس ويختفون في «حفرة» انفرادية تسمى المحراب، وعلاقتهم مع الجماعة منحصرة في أداء صلاة الجماعة والقيام بالاستخارة والفتوى وحساب الخمس والزكاة وسهم الإمام والبيوع وختم مجالس العزاء وقراءة صيغة عقد الزواج لعدد من

(١) المترجم: المقصود هنا: القيام بالوعظ واحتراف إنشاد الروضة أو سير آل البيت في المناسبات الدينية أو الحلقات في المساجد التي تعقد للفتوى.

(٢) هذه هي إحدى علل انحطاط الإسلام وضعفه والرؤية الدينية المنحطة والمبتذلة عند قومنا، إذ يلزمهم تعلم الدين على أيدي أناس أرادوا أن يتعلموا الدين ولم يستطيعوا، إذا أرادت وزارة الثقافة والعلوم عندنا غداً توظيف معلمي العلوم الجديدة وأساتذتها من بين الراسبين فقط، فماذا يكون الوضع؟

الأفراد المحدودين في العائلات الفخمة والارستقراطية والمحترمة... الخ[١].

والآن فإن هذا الطالب الراسب «الذي طرد من المدرسة»، ترك الدراسة، وينبغي عليه مضطراً أن يختار المنبر بدلاً من المحراب، ويعلم الناس ما لم يستطع هو تعلمه، وفي أول خطوة تطرح أمامه قضية «إيجاد السوق»، وينبغي على مقيمي المجالس

---

(١) المترجم: يا لها من سخرية يثيرها توارد الأفكار، مناظر شيوخنا العظام وعلمائنا الأجلاء منشورة في الصحف بين المدعوين لحفلات الزفاف الفخمة، في الفنادق الفخمة، بين النساء الفخمات والرجال أشد فخامة، بحيث يبدو منظر العمامة (الفخمة) نشازاً في الصورة، ثم نقرأ في الصحيفة أن الذي تلى صيغة العقد هو فضيلة... الأكبر أو وزير... أو فلان عضو هيئة كبار العلماء (العلماء بماذا؟) وحين يحدث سيل أو حريق أو حادثة مروعة بذهب ضحاياها بالعشرات لا نجد منظر عمامة واحدة لشيخ خف لمواساة المكلومين هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تجمعهم حول ولي الأمر والمتعهد الوحيد بالرتق والفتق يتسقطون الكلمة من «فيه» العظيم وعلى الفور «يفصلون» لها «اللباس» الشرعي المطلوب، وإذا اعتلى أحدهم المنبر تعسف الدين تعسفاً شديداً ليوافق بينه وبين «الدولة»، حتى إذا رأوا حرمة الدين تذهب ويفصل ما بينه وبين الحياة بجرة قلم لا يتحركون، ومن فوق المنبر حين يتحدثون تحس أن المسافة بين المنبر وباحة المسجد قد انقلبت إلى مسافة ما بين المشرقين، وإذا استضيفوا في التلفزيون فأحاديث مكررة معادة عن الخطبة والنكاح والزواج والطلاق والعتاق وكأن عقولهم توقفت عند القرن الأول، أما دور الإسلام في التوعية فهم لا يعلمون عنه شيئاً، وفلسفة الإسلام السياسية والاقتصادية فيعانون خلوا شديداً، والدور القيادي يبادر الإسلام إلى الإمساك به عن جدارة واستحقاق فهم في غفلة وتحت غطاء، وثورة إيران؟ ماذا أقول؟ كل قارىء يعلم الآراء العظيمة والفتاوى النارية التي انطلق يصدرها عمال الظلمة ووعاظ السلاطين، ولا يدري المرء علام يضحك أعلى جهلها الشديد وخلطها بين المذاهب وإثارتها الأحقاد أم لصيغها شديدة العفن؟

والحجاج المحترمين وأصحاب الهيلمان والمشرفين على الأوقاف والمساجد والتكايا ورؤساء الهيئات والحاجات المحترمات المقيمات لأنواع الروضات الوراثية والأسبوعية والشهرية والموسمية والحفلات الدينية، على هؤلاء وأشباههم ونظائرهم أن ينتبهوا لوجود «السيد»، وعليهم أن يشكلوا رسمياً هيئة لعرض مزايا البضاعة الجديدة من قبيل جرس الصوت وطبقته وفخامته وعذوبة اللهجة وأصل النغمة ونورانية البشرة وملاحة البيان وطمأنينة الحركات وصحة المخارج وصنعة النحنحة والسعال وفن الدخول إلى الموضوعات وبراعة الاستهلال والختم والدعاء وآلاف النقاط الأخرى الموجودة في هذه الحرفة حرفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي أدق من الشعرة. والقضية هي قضية إيجاد السوق أو بالمصطلح الأوروبي «جعل السيد مشهوراً» بين الناس. . .

حسن، إنهم لا يستطيعون الإعلان في الإذاعة والتلفزيون والأفلام الكرتون وإعلان الصوت والصورة، كأن يقولوا مثلاً «هذا العام عام السيد الشيخ مراد منشد الروضة» أو «دموع حارة، ألم ذو ضجيج، بكاء زائد فقط بمراثي الواعظ المحترم جناب السيد خير الذاكرين المؤثرة» أو «قبل أن يحبس صوته ويغلق قلبه على كنوزه أسرعوا لدعوته» و«بالنقد والتقسيط، من أجل الذين يقيمون عشر مجالس، تخفيض كامل».

هذه الأمور لا تليق بهم دون مستواهم، لكل شيء طريق يتناسب مع هذا الشيء:

أولاً: يتناول بعض الأوراق البيضاء، وتسجل عدداً من «المنابر المحترمة» من منابر الوعاظ المعروفين ذوي الجاذبية المعروفة، والذين شابت شعورهم في هذا الأمر، ودراسة الكتب المختلفة من قبيل روضة الشهداء والمجلد العاشر من بحار الأنوار للمجلسي رضوان الله عليه ومجالس المؤمنين للشوشتري وجنات الخلود وكشف الغمة وطوفان البكاء واللهوف للسيد طاوس. . . وابن شهر آشوب المازنداراني قدس سره ومنتخب التواريخ للمرحوم الحاج ملا هاشم. . . وتقوم بصنع هيكل عام لعدد من الروضات، وتختار خطبة محترمة من بين خطب أهل المنبر وتضعها فوقها، وتطوف بدواوين محتشم الكاشاني وآية الله التبريزي وتحفظ عدداً من الأبيات المؤثرة والنواح المفتت للقلب، وتضعها في مواضع مناسبة وعلى رأس كل موضوع «ودفعا للملل» (وهذا تنبؤ في موضعه) جهز عدداً من الملح الأخلاقية والدينية من هنا وهناك وضعها في مواضعها المناسبة، ومن أجل تغيير حال المجلس عليك أن تحفظ عدداً من الحكايات كلا على حدة، لتكون في متناول اليد كفواتح للشهية أو «كباب إضافي»، وعليك أن تجمع اثنتي عشرة رواية مناسبة مؤثرة ذوات نتائج أخلاقية حسنة عن عدم قيمة الدنيا وعدم الاهتمام بالمال والثروة وتحقير العمل والكدح من أجل الحياة والتخويف من الموت وإنكار الحياة وذكر القبر والحث على القناعة والصبر والتحمل والحكمة والفقر والمرض، وعليك أن تجمع بعض العبارات الخطابية التي تتناول هذه الموضوعات،

وتوضع كلها في فجوات النص وشقوقه وفرجه، وكل هذه الحقائق والآيات والروايات والأشعار والأمثال والخطب عليك أن تربطها ببعضها بحيث تستطيع في الوقت المناسب أن تصل إلى أكثر الفصول حساسية وهو نقطة الأوج في التحريك، وفي قمته يحدث الانفجار ثم تبدأ بالطبقة الدنيا من الصوت بالتنهدات الدينية وهي في الواقع «أصل المصيبة» فالوضع مناسب لأن تحول المجلس إلى «كربلاء»، وتظفر من الحاضرين ببكاء شديد، وعندما تنتهي من ذكر المصيبة المقصودة عليك ألا تفعل كما يفعل المبتدئون فتخفض من لهجتك قليلاً قليلاً ثم تصمت بالتدريج، لا، في نفس أوج الغليان والفوران والبكاء والصياح والإغماء والضجيج والضعف والصدام والنصال والسيوف والدروع تعمل في الرؤوس والرقاب عليك أن تحتفظ بالسيف وفجأة تقطع، أي أن الجملة آخر جملة وأكثر الجمل تأثيراً ينبغي أن تكون: لا، لا يستطيع لساني الكلام بعد، أي عليكم أن تكملوا في أذهانكم، جسدوها في أرواحكم. هذا هو ما فهمه الفنانون الأوروبيون أخيراً من أنه لا ينبغي أن يتم الفنان عمله تماماً ويترك القارىء أو السامع في حالة انفعالية إيجابية أو سلبية أو حالة إيجابية، بل عليه بعدم اتمام عمله، أن يترك القارىء أو السامع نفسه مسؤولاً ومشاركاً في العمل الفني الموجود أمامه، لأنه على حد قول سانت بيف الناقد الفرنسي الشهير: «إن الأثر الفني الجيد مثل قطعة من الحديد المحماة تتشكل تحت مطرقة الفنان وسندان القارىء أو السامع».

وبهذه الطريقة فإن نص العمل قد دون، وينبغي إعداد عدد من الروضات من أجل الأيام الخاصة: روضة الإمام الحسين، روضة الأمير علي الأكبر، روضة الأمير علي الأصغر[١] (بالنسبة للرسول والإمام الصادق لا توجد روضة لأن موتهما لا يصلح للمجالس، ومن هنا فبالنسبة للرسول أو الإمام الحسن لا يذكرون اسما للرسول، ومن جهة ما فالحق معهم).

المرحلة الثانية: بعد إعداد النص وتأليفه وإعادته، يأتي دور ارتداء الملابس الرسمية وإغلاق الحجرة ووضع عدد من المساند فوق بعضها والجلوس أمام المرآة، وبعد قراءة متأنية شديدة الوقار وبطيئة للخطبة، تدخل في المتن ومخاطبة الناس: أيها الناس، أيتها الأخت، أيها المشتغل في السوق، أيها التاجر، أيها الفاجر، الكاسب حبيب الله... وعليك بالدقة والانتباه الذي يصل إلى حد الوسوسة والانتباه إلى حركات اليد لكي تناسب الموضوع وجعل الأصابع على هيئة مخروط تشير بطرفه إلى براعم القلوب إشارة

---

(١) طالما فكرت لماذا لقب «الأمير»؟ إذا كان الأب في الحساب فلماذا لا يطلق اللقب على الآخرين؟ لماذا لا يقولون شاهزاده حسن أو شاهزاده حسين أو شاهزاده جواد، ثم فهمت... لا إن الأم هي التي في الحساب، فأمهما هي شهربانو ابنة يزدجرد الساساني ملك إيران، ومن هنا فخيار الذاكرين والدعاة والمتحدثين عن ثورة الحسين بن علي، في اختيارهم لنسب وصفوة لأولاد الحسين بن علي، فضلوا شهربانو على الحسين ويزدجرد على الإمام وابنة الملك الساساني على ابن علي بن أبي طالب. ورأيت أن الأمر عجيب فإن الأحاسيس القومية عند أهل المنبر جديرة حقاً بالتقدير، ومهما بحثت لم أكتشف من أين ظفروا بقصة شهربانو هذه، لأنني لم أجد لها مصدراً تاريخياً.

قريبة ثم فتح المخروط على الفور، وتدخل باليد الأخرى في المعركة، وتلاحظ الخطط المعينة لحركات الرأس والحاجب والرقبة والكتف وغيره. . . شعر لا داعي له:

إنني أدعي تماماً أني لست كوعاظ المدينة

لا أقوم بالدلال والغنج من فوق المنبر

وفي كل هذه المراحل إياك أن تحيد عن النموذج إياه للواعظ المعروف والمحبوب في المدينة أو الدولة.

المرحلة الثالثة: بعد إتمام الإعادة، تصبح المرحلة الأساسية هي الميزانسين: العرض، الآن، كل شيء تماما، أعظم روضة، أعظم إخراج، لكن من أين يفهم الناس؟

المصطاد، مكان الصيد، متعهد المجلس، العلماء، هذا هو المجلس الوحيد على سطح الكرة الأرضية جغرافياً، وعلى مدى التاريخ زماناً الذي ليس له حساب أو كتاب أو قيد، حرية، لقد جاء الناس زرافات من كل الجهات وكل الطبقات، لرؤية السيد ونيل ثواب الحضور في منزل السيد والأشتراك في مجلس الروضة عند السيد، أما من الذي يصعد إلى المنبر وماذا يقول فلا يهم، إنهم يأتون إلى مجلس عالم المدينة لا من أجل العلم بل من أجل نيل الثواب، ومنشد الروضة الذي لا مجلس له أمامه «بحبوحة» أي مجلس عند أي عالم في الأيام الخاصة «لازدحام طبقات الشعب»، عليه أن يطير ويهبط فوق المنبر، فيكون قد قطع الدرجات الأولى للرقي والشهرة والخبز والدين والدنيا، ومن هذا

المجلس إلى ذاك المجلس الذي أقامه عالم آخر، ومنه إلى مجلس الروضة العام في منزل سيد آخر، ويلقي بضعة من المجالس الرئيسية المحرقة، وسوف نرى أنه في نفس شهر رمضان أو في نفس العشر الأول من محرم، صار السيد بخطوة واحدة واعظاً مشهوراً، أدخل رأسه بين الرؤوس، وقليلاً قليلاً تظهر رأس متعهد المجلس والدعوة. . . إلى آخره، وقليلاً قليلاً سوف يصل المحترمون من الأقاليم القريبة ليقوموا بتقديم «السيد» ودعوته، وإذا لم يأت أحد فمازندراان موجودة، هي الموطن الذي اكتشف السادة أخيراً، وهو آخر كشف جغرافي بعد اكتشاف استراليا على يد «كوك»، هذا هو آخر أسلوب مجرب من أجل الشهرة.

أما أهل المنابر الجدد، وعاظنا العصريون الذين حلوا محلهم فينبغي عليهم أيضاً أن يقتدوا بسنة أسلافهم، إعداد بعض الأوراق البيضاء وتدوين عدد من مجالس الروضة التي تناسب العصر. لا شك بدلاً من ملا محمد تقي المجلس وملا هاشم القزويني عليهم اليوم أن يسرعوا صوب جان بول سارتر والبير كامو وصمويل بيكيت وبرتولد بريخت. . . الخ ويكفي ترجمة ريبورتاج صحفي أو مقالة واحدة أو مسرحية قصيرة مكونة من عشرة أو عشرين إسماً خاصاً وثلاثين أو أربعين كلمة في الحوار، نقد كتاب أو شرحه، سيرة ذاتية، قطعة من الشعر الغلط الفاقد لكل شيء والحائز على جائزة أولى لأكثر الأعمال خلوا من المعنى، على كل حال يكفي أن يكون الإسم الطنان. «موضة»

و«الغرض هو ما يتبقى منه من أثر» أما كون هذه الترجمات بلا معنى، فهذا شيء لن يقلل من قيمته وتأثيره غير المعتاد في القراء الأعزاء، عندما يكون اسم بريخت أو بيكيت فوقه، فمن الذي يجرؤ على القول بأنه لا يفهم؟

بدلاً من ذلك سوف تسمع صيحات الاستحسان، وكم من «لذيذ» و«عميق» و«فلسفي» سوف يصيحون بها، والبعض سوف يرددون تعبيرات وعبارات بعينها أحسوا أنها لا بد تحمل معانٍ عظيمة جداً، ثم الاستنادات والتفسيرات والتبريرات التي لا تقال، في الواقع تحملها قاتل وسماعها مفل للروح، كل ذنوبك سوف تختفي. الخلاصة أن هؤلاء القراء شركاء المترجم في الجريمة، فالمترجم عندما يترجم نصاً لا يفهمه يكون هدفه هو نفس هدف القارىء من قراءته، ومن هنا فإن أحداً لا يذهب إلى المباحث ليوقع به ويمضي إلى حال سبيله!!

حَسَنٌ، أين يكون مجلس الروضة العام لهؤلاء السادة؟ المجلات، لا تلك المجلات المنزلية والنسائية والعامية، هذه تكايا وهيئات وموائد نذرية وروضات موسمية، إن المجلس هو مجلة السادة العلماء، انشر ترجمة لمقالة أحد الأعلام المشهورين الخصوصيين الأوروبيين في إحدى هذه المجلات العلمية التي ظهرت حديثاً (لا يحتاج الأمر إلى جهد: واسطة، وسيلة، تليفون لهذا، بطاقة من ذاك، لقاء مع ذياك، ان شاء الله سوف تنجح، هذا هو طريقها).

سوف تصير العالم الثالث[١]. كيف يصير معلوماً؟ الدليل أنك سوف ترى أنهم دقوا بابك ودخلوا وجلسوا، وفي البداية يلتقطون لك بعض الصور المعبرة بالمنامة والروب دي شامبر متمدداً فوق «كنبة»، أو متخذاً وضعاً إلى جوار المكتبة أو واقفاً في الحديقة (وهذا يعني أن سيادته يقضي أوقات فراغه في المنزل ومع الورود والطيور).

وإذا كنت تريد أن تكون وجودياً فينبغي أن يكون هناك قط أسود ـ فهو أيضاً له دخل في الموضوع ـ كي يجذب اهتمام القراء الذين يريدون أن يعرفوا الحياة الخاصة لكاتبهم المحبوب ونمطه،

---

(١) المترجم: يشير شريعتي إلى ظاهرة «النجومية» أي صناعة «نجوم الفكر» على غرار «نجوم السينما» يكفي أن تنجح قصة أو مقالة أو مسرحية أو حتى قصيدة واحدة لزيد من الناس حتى يضمن بها الخبز والصيت إلى آخر العمر فالخطوة التالية مباشرة مكتب دائم في إحدى الصحف، ومنه الانطلاقة الكبرى. أصبح السيد مفكراً كبيراً ومن حقه أن يتحدث في كل ما يعن من أمور، ويشرح ما يحدث في أركان العالم الأربعة، ويفسر ويبرر ما وراء الأحداث وما وراء القرارات. أصبح له الحق كل الحق في أن يتحدث في الأدب بينما يصمت أساتذة الأدب وفي العلم بينما ينزوي العلماء في معاملهم وفي الطب وفي الفن. . . الخ، يصير منظراً وعالماً أيديولوجياً في كل الثورات، يفسر خلفية الحرب الطائفية في إيرلندة كما يفسر الأسس الخفية لثورة إيران كما يفسر ظاهرة عبادة المطرب في أمريكا هو ملح كل طعام وهو الروائي والمسرحي والقصاص والشاعر الناقد رواياته المسلسلة تصبح على الفور كتباً، ثم تمثل في الأذاعة والتلفزيون والسينما، والسيد نفسه مشغول صباحاً في جريدته وعصراً في الإذاعة ومساء في التلفزيون، وهو لا يمل أبداً ولا يفرغ دكانه، ويا ويلنا لو كان يعلم لغة أو لغتين إذن لصار الفيلسوف الأوحد وباعث النهضة ومجدد الحضارة. . . الخ، وهو يعتمد على ضعف الذاكرة عند الجماهير وانشغالها بلقمة العيش لكي يجدد جلده دائماً فهو بالأمس فيلسوف الاشتراكية ومترجم بريخت، واليوم مروج الانفتاح وصديق اليهود. . .

وبعد أن تتم هذه الأمور يبدأ الريبورتاج: نريد أن نعلم منك ككاتب واع في عصرنا، كيف تحلل قضية مسؤولية الفنان أو الشاعر والتزامهما في العالم الثالث؟

هل يكون لشاعر مسؤول «فمما لا شك فيه أن الشاعر غير المسؤول ليس شاعراً» الحق أنه إذا حدث قحط في نيجيريا أن يسقط في الذهنية وهي ملمح من ملامح الثقافة البورجوازية أو المثالية وهي إحدى سمات الإقطاع؟ كما تعلمون أن «مبدئية الشكل» في الفن حيلة بورجوازية[١].

إن الرؤية البورجوازية غير قادرة على طرح القضايا بصورة كلية، والبورجوازي يملك في الأصل رؤية تجريدية ودينية ولا جدلية، وبهذه المعايير هل للأدب الجديد في إيران شخصية... هل «الجو الشعري» عند نيما... الخ[٢]

تمام، دقيقك نخل، وغربالك علق، وخبزك غمس في الدماء، وتحولت إلى واحد من شخصيات الفكر في زماننا، ولو أنك تملك الاستعداد الذي كان عند أسلافك فالذين كانوا يحفظون عدة أمثال عربية وعدداً من الآيات القرآنية والأحاديث المتواترة وعدداً من المصطلحات الفقهية والكلامية والأصولية واستعمالها في محلها أو في غير محلها على المنبر وحسب

(١) بورجوازي أي شرير، والشر هو كل ما لا يعجب به مفكرونا اليوم، أي أنه ليس موضة بالفعل أو كان موضة وانتهى زمنه.

(٢) المترجم: نيما يوشيج رائد مدرسة الشعر الحر في إيران توفي سنة ١٩٦٢.

المناسبة قد صاروا في خطوة واحدة فضلاء تحملوا المشاق وأكلوا دخان المصباح «أي سهروا الليالي» و«الموازين في أيديهم»، تعلم أنت أيضاً بعض أسماء الأعلام المعروضة بقدر معتنى به، عليك أن تحفظ بعض عناوين الكتب مثل «الطاعون» و«الأحمر والأسود» و«الإنسان هو الإنسان» و«سجناء الطونا» و«الأم شجاعة»، وعليك أن تكون حاضر الذهن وتحفظ مصطلحات أهل الفن بالقدر الكافي ويا حبذا لو كان ذلك بلغاتها الأصيلة ـ ليس المطلوب كلها بلا شك، فما هو صعب لا ضرورة له ـ مثل الستكشر والترياد والديالكتيك والـ«إيماج» وجو الشعر والمسؤولية والالتزام والبروليتاريا والسربلو والانتلكتويل. . . وعليك أن تفسر وبقول الدكتور هزار خاني «تتلاعب بها بهذه الطريقة في قول أو قولين»، وإذا استطعت أن تحفظ عدة عبارات أو جمل قصيرة من هذه الكتب أو عن هؤلاء الكتاب وتستخدمها في بياناتك فـ«نور على نور».

قواعد ثلاثة:

هذا هو ما يجري في زماننا، وهذه هي سير أولئك الذين يعتبرون العيون التي تمد مجتمعنا بالغذاء المعنوي ويأخذ قومنا إيمانهم معرفتهم عنهم، وكما نرى كلهم صورة طبق الأصل: السلفي والعصري، الديني والعلماني، اليساري واليميني، مستنير الفكر ومتجمد الفكر، حيثما نعيش كلهم واحد ومن نوع واحد وأسلوب إعدادهم واحد ومجال استعمالهم واحد.

القاعدة الأولى: كل من كان من أهل العلم والأدب والفن والقلم، وله على كل حال نشاط في هذه الميادين، هو مجبر على أن يلجأ إلى مظلة ما ويستند على قاعدة ما وإلا فسوف يبقى وحيداً غريباً في هذه الصحراء القاحلة المحرقة الخالية مضموراً شريداً وسوف يموت. هذه هي «سنَّه الأولين» في تاريخنا، والسيرة القديمة لثقافتنا وأدبنا وفننا، إن السلاطين المشجعين للشعراء والعظماء وأرباب البيوتات كانوا كما يقول البيهقي[١] يجذبون إليهم فناناً مغموراً ليرفع أسماءهم إلى أعلى عليين، وسيرة الأنوري[٢] تحتوي على مصير مزدوج لأهل العلم والفن عليهم أن يختاروا واحداً منها.

وإذا «رفعت رأسك هناك فتنة»، ينبغي أن تفعل كما فعل الفردوسي[٣] فتكون شريداً هلعاً، في خفية من أعين «الجواسيس» و«عمال الحكومة» تأكل حساء الأكارع ولحم الرأس وبعد ثلاثين سنة من المجهود المستمر، تشكو جزاء رجولتك وشهامتك ونبوغك وشرفك من قحط السنين والجوع: عيناي وأذناي أمسكت بهما الآفة وضيق ذات اليد وقحط السنين سلبا القوة لا كنت شيخاً

---

(١) المترجم: أبو الفضل البيهقي، مؤرخ من العصر الغزنوي (القرن الخامس الهجري) صاحب التاريخ المسعودي المشهور بتاريخ البيهقي. انظر الترجمة العربية لصادق نشأت.

(٢) المترجم: المقصود أوحد الدين الأنوري شاعر المدح في عصر السلاجقة.

(٣) المترجم: أبو القاسم الفردوسي شاعر إيران العظيم في القرنين الرابع والخامس وناظم الشاهنامة في ثلاثين عاماً من الجهد المتواصل دون أن ينال أي تقدير من السلطة التي كان يهمها شعر المديح فحسب.

وتعاني هذين فمن المصيبة الشيخوخة والمسغبة[١].

وهكذا تموت، ويأتي عالم الدين الفقيه الأعظم ومفتي الشرع الشيخ أبو القاسم الجرجاني ويصدر فتواه قائلاً (بالرغم من أنه كان رجلاً عالماً ومتدينا، فقد ترك الصراط المستقيم وأنفق عمره في الحديث عن المجوس والملحدين) ثم يمتنع عن القيام بصلاة الجنازة عليك[٢].

يا له من مسرح مثير للغثيان تاريخنا السياسي هذا، حتى في أوج مجدنا وقوتنا وتقدمنا وحضارتنا، تبقى ابنة الرجل العظيم في أمتنا بلا صداق، ورجل نتن مثل «اياز»[٣] يوافق بزينته وبشرته الصافية ودلاله وغنجه واستعداداته الأخرى مزاج حضرة السلطان الغازي، مجاهد الإسلام ورافع لواء التوحيد وفاتح معبد سومنات، من له شجاعة رستم وحكمة سقراط[٤]، فيصير مقرباً للخان والخاقان ومحبوباً للخواص والعوام وممدوحاً للشعراء والكتاب. لكن أمثال الأنوري الآن أمامهم ثلاثة ملاجىء ثلاثة من أماكن التنشئة «وفي الأغلب ثلاثة من محال الميلاد».

---

(١) المترجم: البيتان من شاهنامة الفردوسي.

(٢) الناشر: المكان الذي يحتوي على أقوال الشيخ الجرجاني خال في النص وما بين القوسين نقل بتصرف من دولتشاه السمرقندي. المترجم: هناك رواية أخرى أن الفقيه كان كرامياً لم يحدد إسمه وأنه رفض دفن الفردوسي في مقابر المسلمين لأنه كان شيعياً «انظر المقالات الأربع لنظامي ترجمة عبد الوهاب عزام».

(٣) المترجم: اياز مملوك للسلطان محمود الغزنوي. انظر معلومات أكثر في المقالات الأربع.

(٤) المترجم: يسخر شريعتي من الصفات التي كان شعراء محمود يسبغونها عليه.

القاعدة الثانية: هي الدين، وأقصد به «ما يسمى بالدين» مخروط رأسه المحراب وقاعدته السوق وحواشيه الأرياف وفي داخله: المدرسة والمسجد والمحراب والمنبر والتكية وهيئات العزاء الديني واللغة العربية والطبقة البورجوازية الكلاسيكية والثقافة الموروثة والرؤية التقليدية والنمط المتعصب.

القاعدة الثالثة: الانتلجنزيا، جماعات المفكرين، وأقصد بالـ «فكر» والانتلجنزيا من يسمون بهذا الإسم، مخروط رأسه غير واضحة وتحته الجامعة، وجوانبه أي حواشيه دواوين الوزارات وبداخله: المجلات والمسرح والتلفزيون والأحاديث الصحفية والمقهى والبيرة وأماكن التجمع واللغة الأجنبية والطبقة البورجوازية الجديدة الخاصة[1] والثقافة المستوردة والرؤية التقليدية والنمط المتعصب.

---

(١) ذلك أنه خلافاً لما يظنه مفكرونا الصادقون وعلماء الاجتماع عندنا ـ تقليداً لعلم الاجتماع الأوروبي: إن البورجوازية الجديدة هنا ليست بنيتها التحتية الرأسمال الوطني والانتاج والصناعي، من هنا لا تصدق عليها قواعد علم النفس البورجوازي لهذه الطبقة. لكنها وليدة عاملين أولهما الوساطة وثانيهما الشهادة وأقصد بالوساطة القيام بالوساطة بين المنتج الأجنبي والمستهلك المحلي، فهم ممثلوا دخول السلع الانتاجية للرأسمالية الصناعية الغربية وبيعها لجماعة المستهلكين أي مجتمعنا. وأقصد بالشهادة المتعلمين في الداخل والخارج الذين يشكلون في أوروبا طبقة المثقفين المميزة لكنهم في الدول التقليدية التي دخلت فجأة مرحلة التحديث الأوروبي، وعلى أساس ذلك هناك مئات الأعمال الجديدة والحاجات الفنية والإدارية والاجتماعية والاقتصادية تخلق وكلها تدور حول المحور الأصلي وهو العصرية في الاستهلاك والشكل وبالطبع تصير الحاجة ماسة بشدة إلى التخصصات والخبرات المناسبة التي لم يكن لها وجود سابق، وحملة الشهادات هؤلاء هم الذين ينبغي عليهم أن يسدوها. ومن هنا ففي مثل هذه المجتمعات يتمتعون بأوضاع اجتماعية ممتازة جداً. ففرصة شغل المناصب الحساسة والسرعة الخارقة للعادة في=

على كل حال، هناك ثلاثة طرق أمامك، مكتوب في أول كل منها على حجر حديث إن لم تقرأه على واحد فاقرأه على الآخر والأول والثاني والثالث طريق العسل والراحة والسرور هو قرين العار، لكنه يفضي إلى المدينة والرياض والعمران، والرابع طريق

= التقدم والصعود إلى المراتب العليا والرفاهية والمداخيل المرتفعة أكثر كثيراً بين جماعة «حملة الشهادات الجدد» خاصة «الشهادات الأكثر تناسباً» وحتى عن الطبقة المشابهة في الدول الغربية. وما يمكن أن يجعلكم تترددون في قبول هذا الرأي أنكم تقارنون بين جماعتين متشابهتين في مجتمع متقدم وفي مجتمع نام بطريقة مباشرة، في حين أنه لا ينبغي أن تفصل جماعة أو طبقة أو ظاهرة اجتماعيةً عن إطارها العام أي قوام المجتمع، ولا ينبغي أن نبحث الأمر بصورة مجردة، لكن الطريقة العلمية هي أن نأخذ في الحسبان نسبة دخل حملة الشهادات من مجتمعاتنا مع الدخل العام للناس أو دخل جماعات أو طبقات من قبيل العمال والفلاحين والملاك الصغار والحرفيين وأهل السوق ثم نقارن هذه النسبة مع نسبها المتشابهة في المجتمع الإنجليزي مثلاً أو الفرنسي ونستنبط النتائج. ومن هنا أقول إن حملة الشهادات على المستوى الراقي أو النوع التخصصي في الدول التقليدية الآخذة بالتحديث أصيبوا بجنون السرعة، وأنا اعتبر البورجوازية الجديدة وهذا صحيح من وجهة نظر علم الاجتماع من ضمن المقولة الخاصة: وساطات الاستهلاك، والعصرية في الأصل هي إيجاد وجوه استهلاك جديدة، والعاملون عليها وساطات «كمبرادور» ووجوه الاستهلاك الجديدة تخلق مشاغل وتخصصات جديدة والعمال هم حملة الشهادات. وبناء على هذا كما أن مبادىء علم الاجتماع والمقولات الاجتماعية للبورجوازية في هذه المجتمعات ليست واحدة مع ما للبورجوازية الغربية. والدور الاجتماعي والطبقي لهؤلاء المثقفين لا يشبه بحال من الأحول ما للمثقفين الغربيين.

المترجم: لعل وضع حملة الشهادات ضمن البورجوازية الجديدة خاص بوضع إيران في عهد البترول، وهناك دول أخرى تدهور حملة الشهادات والمثقفون فيها أيا كانت شهادتهم وخبراتهم إلى مستوى معيشي ما دون طبقة البروليتاريا، وصعد أصحاب الحرف والتجار فعلاً إلى تكوين بورجوازية جديدة، وقد ساعد على ذلك البنية الاقتصادية الطفيلية لمجتمعاتهم وعدم وجود دخل عام والاعتماد على الاستيراد ومصائب أخرى.

من يمضي فيه لا يرجع، لا صريخ فيه، إن رفعت رأسك ففتنة، وإذا صمت تماماً فأنت مستريح ومغمور.

كل من كان شاباً باحثاً على الشهرة والرزق، ينبغي عليه عند أول خطوة يخطوها في عمله أن «يحدد قاعدته الاجتماعية» (المصطلحات هنا ذات معانٍ خاصة)... الأنوري الآن ليس أمامه طريقان إذا لم يرغب في أحدهما فليدفن في قطعة الأرض التي تعد من أملاكه الخاصة، الطريق الأول وقد سبق ذكره[١] أما الطريق الثاني فهو أن يمحو من شاهنامته تلك الأبيات الوقحة التي تصرخ بالرفض[٢] والبدعة، وأن يقوم بعمل تعديلات في الجزء الخاص بين إيران والعرب ومتن خطاب رستم[٣] بحيث لا يجرح الإحساس الديني العام ولا يكون سبباً في تزلزل عقائد الشباب، وعليه قبل أن ينشر «شاهنامته» أن يحملها إلى حضرة السيد الشيخ أبي القاسم الجرجاني (فهذا من قبيل الاحترام للسيد... وأيضاً... حَسَنٌ من قبيل المصلحة، فمن ناحية... نحن الآن نتحدث بصراحة... هذا عمل لازم، فسيادته فقيه، سهر الليالي ستين عاماً وحضر على أستاذ، ودرس في الخارج، يعرف الإسلام أكثر منك أنت أبو القاسم الفردوسي الفلاح من قرية باج ومعلوماتك عبارة عن معرفة محدودة باللغة البهلوية وهي لغة المجوس ودراساتك عبارة عن شاهنامة أبي منصور والأساطير الجاهلية وتاريخ الإيرانيين

---

(١) المترجم: طريق الأنوري أن يسلك الطريق الشائع ومورد قبول الناس.

(٢) المقصود التشيع.

(٣) المقصود ما ورد على لسان رستم من سب العرب. المترجم.

الزرداشتيين المجوس عبدة الشمس وسير كسيو وكسودرز ورستم وتهمينه واسفنديار وسهراب والعنقاء والشيطان الأبيض في مازنداران).

أجل احمل الشاهنامة إلى السيد، اترك الشباب والطيش، وليعطها السيد بدوره إلى أحد المحترمين في السوق أو فضلاء المركز الديني أو أئمة الجماعة الأبرار ليلقوا عليها نظرة، فإما أنهم سوف يرون أنها صالحة للنشر ونتيجة له سوف يشطبون على مدح علي واللمز في عمر والفحش في العرب والكلام الذي تفوح منه رائحة ما بالنسبة للعباسيين أسرة الرسول وخلفاء المسلمين، وهذه التهورات الخطرة الركيكة بالنسبة للسلطان محمود الغازي، وبدلاً منها سوف يقولون: هيا انظم مائتين أو ثلاثمائة بيت في مدح صحابة الرسول الكبار وبالأخص الشيخين وفي ذم الإيرانيين القدماء والغض من شأن القومية وثقافة زردشت وهذا النوع من النقاط الفرعية. وإما أنهم سوف يقولون: هذا الكتاب من «الكتب الضالة الفاسدة المفسدة» وسوف يلقون به بعيداً، وبدلاً منه سوف يوصونك: ما دام لديك هذا الذوق والقلم والطبع السلس والاستعداد الطيب عليك أن تذهب وبدلاً من الشاهنامة انظم «عمر نامة» أو «أبو بكر نامة» حتى تظفر بالدنيا والآخرة، الدنيا مزرعة الآخرة، من لا معاش له لا معاد له.

أمام الأنوري طريق ثالث، طريق محترم، يستطيع به أن يصل إلى إسم ورسم وينمو، ويرفع عنقه بالصمود والحرية، «ويدل على الفلك ويفخر على النجم»، ويحك رأسه بالسماء رفعة، ويمنن

على العالم وآدم والبشر والقومية والجيل الحالي والقادم وبل على الفكر والإحساس والعلوم والفنون والآداب، وهو: «إذا كان الأنوري لم يرد أو لم يردوا له «أن يمضي في واحد من هذين الطريقين المعهودين ويصل إلى الدين والدنيا، فإنه يستطيع أن يأتي إلى طهران، وبلطائف الحيل يجد طريقه إلى واحد من أماكن التجمع الفكرية، ويعمد، ويشرف «بالمذهب الرسمي الحق» و«يحدد اتجاهه» ويتعلم لسانه وما هو متعلق به من حركات وسكنات، وبعدها خبزه مغموس ومخبوز وسوقه رائجة.

الخلاصة أن الطريقة هي طريقة كرامات بابا طاهر العريان[١] «أمسيت كردياً وأصبحت عربياً»، بنفس القدر الذي يفهمون به أن «سرجك مائل» سوف يهوونك، كل كلام فارغ سوف تتفضل بقوله سيستمعون إليه، حتى ولو كانت معرفتك بهذا الدين والمذهب بقدر معرفة «كل مندلي درويش» عن التصوف أو الأستاذ حسين القصاب عن التشيع، أحياناً إذا كان التعالم الذي تقوم به والتجشؤات التي لا محل لها وتطلقها تختلف عن أكثر قواعد هذا المذهب بديهية وتناقضها، لا مانع، لن ينتبه أحد، ليست القضية هي قضية المدرسة والاشتراك في الأفكار، القاعدة هي الاشتراك في الحدود والثغور، فالموضوعات العلمية والفكرية والأيديولوجية هي قضايا البنية الفوقية، أما بالنسبة للبنية التحتية فهي موضوعات

(١) المترجم: بابا طاهر العريان أو الهمداني من صوفية القرن الرابع والخامس وصاحب رباعيات شهيرة. يسخر شريعتي من قوله المذكور في المتن، إذ كيف يصبح الإنسان شيئاً ويمسي شيئاً آخر؟

الأحاسيس والعواطف والسمات والمصالح والمزايا والنجاح النقابي والجماعي و«الشللي». القاعدة هي أنهم «يفهمون بعضهم البعض» ويحبون بعضهم البعض، اليوم يقوم أحدهم بنقد الآخر في «مجلتهم» وفي اليوم التالي لا بد أن يقوم برد جميل النقد، ولما كانوا جميعاً يؤمنون بأن الفنان في عصرنا خاصة في العالم الثالث لا بد وأن يكون ملتزماً، فكل واحد قد التزم ألا يكون ملتزماً بشيء اللهم إلا أن يخل بوعده أو بعهده للجماعة. لا جدال هناك مسائل أطرف وأكثر رومانسية تجري في الأمور لكن عفة الكلام تمنع قولها، وينبغي أن يمر عليها خمسون سنة حتى يمكن الخوض فيها طبقاً للقوانين الدولية. إذاً. . . ماذا يفعل الأنوري؟ لقد فعل ما فعل، وأمثال الأنوري لم يبتلوا أبداً بمشكلة «ماذا أفعل؟» ولا يبتلون وربما لن يبتلوا أبداً. إذن قل: ماذا يفعل الفردوسي، ماذا يفعل ناصر خسرو[١]، حتى الآن لا أجد حلاً بالنسبة لهذين، وفي مستوى العمل العلمي أو الأدبي أو الفني لـ «سقا زاده» و«فردين»، يمكن دون أن تستغل هذه الواجهات الزجاجية الثلاث الملفتة الجذابة «أن يستند إلى قاعدة ما، لأن جماهير الشعب في هذه المستويات، دون توصية وتأييد وخلفيات مصنوعة أهل للتمييز، لكن ماذا عن المستويات العالية؟

أما أن يأتي واحد مثل «تقي زادة» فيأخذ بيد أحد الذين

(١) المترجم: ناصر خسر القبادياني المروزي شاعر ومفكر وفيلسوف إيراني إسماعيلي، كان مطارداً من السلطة ومات في المنفى لسوء علاقته مع السلطة، ولد ٣٨٤هـ، وتوفي ٤٧٠هـ. انظر المقدمة العربية لترجمة جامع الحكمتين للمترجم.

سافروا حديثاً ويسحبه ويجعل منه علامة فاضلاً ومفضالاً وأديباً أريباً، لأنك قمت بمقابلة النسخ والتصحيح والتحشية وتوضيح الواضحات، عندما يطبع عملك، وقبل أن يخرج كتابك إلى السوق يكون كتاب العام وتصير أنت نفسك باحث العام وأجرك أجر العام وجيبك جيب العام ويشتري مصنع اللبن المبستر والزبادي ألف نسخة من كتابك دفعة واحدة من أجل المكتبة التي في منظوره أن يؤسسها للعمال والموظفين، والألف نسخة الأخرى تشتريها وزارة الثقافة والتربية والتعليم ولا تترك رجلاً كاتباً بحاثة ليغتم لعدم نفاد كتابه، وقبل أن تباع نسخة واحدة منه تقوم بتوقيع عقد الطبعة الثانية مع المؤسسة.

وإذا لم تكن من أهل الدنيا وكنت من أهل الألم وتعاني من ألم الدين، أجعل قلمك وقفاً على نشر الدين المبين والدعوة للمذهب الحق الجعفري، وخذ كم شهادة بخط حضرات الآيات المباركات فحواها أنك «فعلت كذا وكذا وكيت وكيت» وينبغي أن تتضمن ألقاباً تفضي إلى الخبز والماء قد أنعموا بها عليك من قبيل «حجة الإسلام وثقة الإسلام» وصورها، وصبها في السوق وأماكن ازدحام المؤمنين، وقدم بعضها إلى الوعاظ المحترمين موصياً إياهم بأن يذكروا بعض الروايات والنقاط من هذا الكتاب فوق المنبر، واجعل أنت نفسك «منبرين» في تاسوعاء وعاشوراء وقفاً على بيعه، ومادمت قد هيأت الأرضية قل للرفاق أن يوزعوه وسوف توزع ألف نسخة في جلسة واحدة. الخلاصة أنك تكون قد صرت داعية فاضلاً ومحدثاً خبيراً وخطيباً مقتدراً وكاتباً عالماً، بل

ويستخدمونك عند السفر إلى الأعتاب العالية لمزارات الأئمة وزيارة الحرمين الشريفين، وهناك سوف يدعوك أهل العلم وتدعوك الجمعيات والمراكز الدينية والمؤسسات دعوات لم تكن أنت نفسك تنتظرها.

وإذا أراد أحد أن يسير في طريق «السالكون فيه قلائل» فماذا سيفعل؟ إذا كان عمله لن يضر «أكل عيش» أحد مثل «سبك شناسي» أو تصحيح تاريخ سيستان لبهار[1] فإنه على حد قول المرحوم بهار سوف يشمل بـ «مؤامرة الصمت»، كأن لم يكن. أما إذا كان له شأن بأمر الزمان أو أبناء الزمان، سوف تنهمر عليه السهام من القواعد الثلاث، وسوف يلقى من كل صوب إلى الصوب الآخر، وبين الجميع سوف يتهم بثلاث تهم متناقضة وإذا كانت شخصيته واضحة تماماً وضد «الضرب والكسر»، وإذا كان من معدن سيىء ليس لديه ميل في جبلته إلى الباطل، ولا هو ينجذب إلى مغناطيس المناضد، ولا عقدة خمول الذكر تجذبه إلى الشهرة والصيت، وقضى عمرا في الجهاد والصبر ومواجهة القوة والظلم بحيث لم يعد الاتهام يؤثر على بدنه، وتجاهل المصالح العديدة في سبيل الحقيقة، بحيث إن لطمة «التكفير» لم تكن تجعله يجثو على ركبتيه، وأن مادته العلمية والثقافية والفكرية قد قومت منه، بحيث لا يستسلم لركلات «النقاد المخصوصين» أو أنظار المشرفين على العلوم القديمة والجديدة، فإن أسلوب علاجه الوحيد والفريد آنذاك هو النذالة.

---

(١) المترجم: محمد تقي بهار (١٣٠٤ هـ ق. ـ ١٣٧٠ هـ ق) شاعر وصحفي ومحقق وأستاذ ومجاهد إيراني. له عدد من الكتب والأبحاث والدواوين.

اذا يمكن عمله مع السيد جمال الدين؟ لا هو يمسك بمكتب أو بمحراب، ليس محتاجاً لا إلى الإسم ولا إلى الخبز، لا رأسه تدخل في أنشوطة القوة ولا قلبه معلق برباط الذهب، ولا يمكن اتهام الرجل الذي وهب حياته للإيمان ولم يترك خناق الاستعمار، والاستبداد لحظة واحدة[١]، ولا يمكن أيضاً بالنسبة للرجل الذي يعترف محمد عبده المفتي الأعظم في العالم الإسلامي بالتلمذة على يديه ويمدحه ارنست رينان المفكر الأوروبي المشهور بالنبوغ الخارق للعادة بدهشة، لا يمكن لأحد الفضلاء في المركز الديني أو حملة الشهادات شبه الأوروبيين الذين ذهبوا إلى أوروبا أن يزيحه من الميدان أو يقول عنه: لا، ليس لديه شيء، انه نمط سياسي موهوب وجاذبيته نتيجة أنه يتحدث بما يعجب الشباب ويطرح قضايا جديدة أو قضايا قديمة بأسلوب جديد، وإلا فلا عمق لديه، ولا مادة علمية تذكر ولا موازين في يده، ولم يدخل مركزاً دينياً... ولا علم له تماماً بالروح العلمية للعصر في العالم والأحداث الفكرية للعصر... إذاً ماذا نفعل به؟ عجباً، لقد صار إس المتاعب. السبيل الوحيد هو ما ذكرت، التمريغ في الطين، هو السيد الفقير تماماً الشريد، لا منبر له ولا محراب ولا جماعة ولا منصب ولا مقهى ولا مجلة ولا جريدة ولا أي شيء، هو ومضغة من اللسان في فمه وقلم بخمسة قروش في يده والسلام. على «ظاهري الصلاح» هؤلاء و «أشباه الملات» الذين: إما أنهم

---

(١) في تلك الأزمنة لم يكن التكنيك المعاصر موجوداً بحيث يمكن مونتاج الصور أو اصطناع الوثائق التاريخية بالحيلة.

يحقدون عليه حقداً شخصياً لأن ظهور شخصيته أذى مركب النقص عندهم وأثار حقدهم بحيث أوشكوا على الاختناق، عليهم إذن أن يوعزوا إلى أعوانهم وأنصارهم الذين يشبهونهم وليقولوا لهم أن يندسوا بين الناس وبين المؤمنين في السوق ويقولوا: هيه... معلوم بالطبع يا سيد، إذا كان صادقاً في كلامه فلماذا لم يقتلوه حتى الآن؟ لماذا لا يقاومونه؟ هناك أفراد مطلعون كانوا مقربين منه فيما سبق يقولون أنه «لم يختن»، إذا كان كذباً، فلماذا لا يكذبه رسمياً؟ لماذا لا يرد على المدعين عليه؟ لماذا لا يبدي علناً أن هذا الأمر لا حقيقة له ولا أساس؟

وفي ذلك العصر، في السنوات ما بين ١٢٩٠ و١٢٩٧ هجرية لم تكن هناك أفلام فارسية أو تليفزيون أو مجلات «اطلاعات بانوان» و«زن روز» و«روشنفكر» بحيث تحل لهم هذا الإشكال وحتى يستطيع السيد بطريقة من الطرق وبشكل وثائقي وبالوسائل السمعية والبصرية أن يرد على أعدائه رداً مفحماً وفاضحاً، وهل كان السيد جمال الدين الأسد آبادي منذ مائة سنة أن يأتي إلى «سبزة ميدان» ويقوم بعملية «ستربتيز» حتى يطمئن الناس إلى أن المسألة ليست صحيحة وأن أعداءه الذين عجزوا عن أي نوع من المجادلة وجهاً لوجه اختلقوا هذه الفرية من أجل القضاء عليه؟ والناس أيضاً، أولئك الذين يأخذون آراءهم من الشائعات والأفواه... من منهم بعد سماع هذه التهمة، يركب عربة على الفور ويذهب إلى منزل السيد ويعاين الأمر شخصياً، ناهيك عن أن آراء العوام دائماً ما هي إلا مختلطة ومشوشة وبلا

نظام أو ترتيب، ألا أحد هناك ليقول: سيدي هب أن هذا الأمر صحيح، لكن ما هي علاقة «الاختتان» بالآراء السياسية أو النضال الاجتماعي أو القضايا الأيديولوجية الثورية والمضادة للاستعمار؟ وفي رأي العوام المتعلمين أو غير المتعلمين الذي يستطيع أن يكون مناضلاً ضد الاستعمار هو الذي يكون قد اختتن فحسب.

بناء على ما سبق، ليس أمام مفكر أو كاتب أو فنان جاد ومتسام أكثر من خيارين: إما الانتساب والاعتماد على واحد من هذه الأقطاب الثلاثة القوية ومصيره النجاح المخلوق لساعته والخارق للعادة، الخليق به أو غير الخليق، وفي كلتا الحالتين أكثر مما يستحق، أو الانتساب إلى الناس والاعتماد على نفسه، ومصيره الفشل المتوالي، والحرمان وخمول الذكر والموت اختناقاً في مؤامرة الصمت أو في شعب الصياح، أو التحطم والسقوط تحت الأقدام أو أن يلوث بالطين.

ينبغي في البداية أن يدرك الناس قيمة الفكر وعمق الفن وخلاقية النبوغ وأن يحددوا قيمته بالتالي. والناس إما عوام كالأنعام واما متدينون وإما عصريون، والصنف الأول تسيره الأوضاع والأحوال، والجماعتان الأخريان لكل منهما مراجع تقليد وأئمة جماعة ومفتون رسميون وقادة معنيون، يصدرون لأتباعهم أصول العقائد والفتوى، ومن هنا فإن هذا «الديك الذي يؤذن في غير أوان» سوف يتعرض للسهام من اليمين واليسار، وهو جدير بفتوى التكفير ومصداق للآية «خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين» والنظام الموجود هو نظام قبائل العرب، وكل من يريد أن

يعيش في مكة، يلزمه إما أن يكون عضواً في إحدى العائلات القرشية الكبيرة، أو إذا كان قد جاء من البادية أو من قبيلة أو من ديار بعيدة وغريبة، لا بد له أن يكون حليفاً «لإحدى الطوائف الشريفة، أو مولى لواحد من الشيوخ، أو يعلن أحد سادة بني عبد مناف قائلاً: هذا الغريب في حماي، أو يكون رسمياً عبداً، ويكون وضعه واضحاً أمام نفسه وأمام الناس، لكن إذا جاء أحد وقال: أنا إنسان حر وأريد أن أعيش بجوار بيت إبراهيم محطم الأصنام، ولن أدخل تحت حماية الملأ والمترفين أبي سفيان وأبي جهل وأمية بن خلف، ولن ألصق نفسي بحاجب معبد الأصنام أو سادنه أو ساقيه، ولن أقلد أيضاً أولئك الذين مشوا خلف إبل القوافل أربعة أيام ووقعت أعينهم على مدينتين في حدود الشام أو الحيرة أو غسان أو إيران، وعاشروا فترة من الزمن بضعة من السماسرة والصبيان عند الإيرانيين، أو أعراب على الحدود شبه أجانب، والآن جاءوا يتنفجون في مكة ويرطنون بكلمات متقطعة غير مفهومة سمعوها هنا وهناك، واستغلالاً لجهل العرب، يتفوهون بالكلمات الإيرانية أو الرومية الضخمة بلا مناسبة، ولا ذلك الأحمق الذي تعلم أساطير رستم واسفنديار من مقاهي إيران ثم يأتي كل يوم إلى جوار الكعبة وداخل المسجد الحرام ويقصها بالتفصيل للعرب الذين لا يفهمونها ولا يتمتعون بها، أريد أن أكون أنا نفسي، لا مقلداً ولا أسيراً مرتبطاً ولا منجذباً ولا راهباً، لا، لن تستطيع، هنا مكة قريش، كلها حول معبد الأصنام، لكل أسرة شرفها الذاتي يمثل حيثيتها الاجتماعية وأنت رجل بلا صنم، وإذا لم تقم بالارتباط

بواحدة من هذه القواعد في المجتمع الجاهلي عن طريق حليفك، لن تستطيع أن تقف على قدميك، فكل رقيع طويل الجدائل شقي ومنكوب وتافه يعد الاستمناء أكثر أعمال حياته أهمية، سوف يسمح لنفسه أن يصب كأسه فوق وجهك وأن ينفث عن كل العقد الموجودة في لا شعوره فوق رأسك مستريحاً ولأول مرة في حياته يظهر نفسه، ويثبت وجوده، وأيضاً سوف يقوم السادة العطوفون برعاياهم العارفون بقدرهم المشجعون للسفلة بالربت على رأسه وأذنه والانعام عليه[١] . . . أطال الله عرقول ذلك الحيوان حسن الرعي.

كل هذا صحيح، أما الفنان أو المفكر الذي يريد أن يكون حليفاً لواحدة من هذه الطوائف الثلاث في قريش، يكون قد نظر إلى المجتمع بنفس العين التي نظر إليه بها الأنوري والفرخي[٢] وأبو علي. لكن هؤلاء لم يعرفوا طبقة غير محسوسة لكنها ذات جذور ومقتدرة ومخلصة أو كانوا فاقدين للاستعداد والجدارة للنفاذ في هذه الطبقة، والرسوخ فيها وعقد العلاقات معها. ترى: ما هي هذه الطائفة؟ إنها: الناس.

---

(١) كان السوقة والأوباش قد أحاطوا بأحد المناضلين الصامدين وأخذوا يقذفونه بالحجارة وبإسم الشعب أخذوا يهتفون ليمت فلان، فاستدار إليهم وقال ببرود ولهجته المحلية «اهتفوا بحياتي لأني لو لم أكن حياً لما اعتبروكم بشراً ولما أعطوكم مالاً لتأتوا وتسبوني وتقذفوني بالحجارة فادعوا لي بطول العمر.

المترجم: الرواية وردت في شأن سيد حسن مدرس. أحد المناضلين الأحرار في مرحلة رضا شاه.

(٢) المترجم: شاعر من شعراء المدح في العصر الغزنوي.

لا تظنوا أني أعاني من عواطف ديمقراطية ورومانسية ثورية. ومفكرونا يستخدمون هذه الكلمة بتفصيل ولوعة وحرقة وذوبان. لكنهم في هذا مقلدون ومترجمون ويقلدون الاشتراكيين واليساريين السياسيين في أوروبا. ويعرفون الناس من الأشعار والأناشيد والأعمال الأدبية والشعبية. فالجماهير والشعب في لغتهم وأحاسيسهم كلمة ترادف الكلمات الأوروبية Demo و Masse People أي أن ما صدقتها نفس هذه المصطلحات الموضة والمحبوبة لدى مفكري أوروبا. تماماً كما يقوم شاعر مرتبط بالقديم ومقلد عندنا اليوم بمزاولة «العشق» عن طريق مصطلحات «الساقي» و«القلب» و«العشق» والسبب في هذا تعلقه ولذته بتقليد حافظ ومولانا وسنائي والوقوع تحت تأثير المثنوي والحديقة وديوان حافظ، لا لأن قلبه في الواقع قد أخذته أنوار إشراق ذلك العشق وتلاطمه بقلبه أو لأنه فهم المعنى العميق والباطني للقلب والساقي. هذه المفاهيم السامية اللانهائية لا تستوعبها دائرة إدراكه وأحاسيسه الصفيحية.

وأشباه المفكرين عندنا الذين يتحدثون كل لحظة عن «الناس» و«الجماهير» يعانون هذا الوهم النفسي التقليدي، وإلا فالحقيقة أنهم لا يأبهون بالمصدقات العينية لهذه الألفاظ في الحواري والأسواق وأماكن العمل والمزارع والمدن والقرى، فإذا التقى أحدهم بهم عبس بوجهه، وبآلاف من أنواع اللمز والهمز وحركات العين أخذ يسخر منهم وبآلاف من أنواع الاشمئزاز والتأفف والقرف يطوي طرف سترته ويبتعد.

عندما أقول «الشعب» فلست مضطراً إلى اكتشاف ما صدقه العيني والواقعي عن طريق الآداب الاشتراكية والمفاهيم الديمقراطية والثورة الفرنسية الكبرى والأيديولوجيات الشعبية وكأنه مجهول علمي أو قانون من قوانين علم الاجتماع، والعلم بالشعب ليس علماً حصولياً، بل علم حضوري، هو علمي بذاتي، ولكل جماعة ضمير جماعي وروح جماعية، واحساس بـ «نحن». هذه الـ «نحن» الموجودة في الـ «أنا» الخاصة بي هي الشعب. ويظن بعضهم أن الآداب الملتزمة تطلق على ذلك النوع من الكتب الذي يكون في خدمة الشعب، ولا بد أن تكون سياسية، ولا بد أن تكون موجهة ضد الوضع الطبقي والنضال ضد الرأسمالية، والاستغلال، وتتحدث فقط عن القضايا الحادة المعاصرة والأحداث اليومية والصدامات العينية والواقعية للطبقة المحكومة، أجل، هكذا هي. لأن الآداب الملتزمة تعني القرار الذي اتخذه مؤقتاً الكتاب والفنانون المرفهون الشبعون أولاد السادة بأن يساعدوا الشعب لكي يخلصوه من هذه العبودية الاجتماعية. برافو، هو قرار عظيم ومؤثر ومفيد ليس بلا شك لأنه ضرورة حيوية وحاجة شخصية أو جماعية، فأولئك الذين اتخذوه لا يعانون هذا الوضع، إنهم متمتعون ومستريحون ولا يتألمون، فالقرار إذن على أساس إلزام أخلاقي، عمل من أعمال الخير الإنساني، النفس اللوامة.

إذا رأيت أن هناك أعمى وبئر، من الذنب أن تجلس صامتاً. لكني لست ذلك المفكر البورجوازي أو الأرستقراطي الموجود في الطبقة الحاكمة بحيث ألقي نظرة من نافذة قصري على هذا الشعب

المسكين الذي يدب على الأرض كقطيع من النمل ويعيش في هذه الثقوب السوداء المسماة بالعشش والأكواخ والمنازل الطينية البسيطة ووجهه في غاية الشحوب، ثم يرق قلبي، ثم أفكر وأقول «هؤلاء أيضاً بشر» شكراً ولا يصح في هذا الموقف الذي يعاني فيه أبناء جنسي من المشقة والجوع والعبودية معاناة مباشرة، أن أتمدد هنا إلى جوار التدفئة المركزية على الحشايا والوسائد المحشوة بريش النعام وإلى جوار مجموعة من المشروبات الأوروبية، وفي عالم السكر والتعب الناتج عن الحفلات المستمرة والملل من الرفاهية والفراغ والشبع والامتلاء والوصول إلى أخر الخط في كل اللذات والنعم والامتلاك، وأصل إلى عدم الانتظار «ثم أفكر في اليأس الفلسفي والخواء والعبث واللامعقول، وأتساءل: هل الوجود يسبق الماهية أو أن الماهية تسبق الوجود؟ وهل الإنسان مسير أو مخير؟ أو أعاني من أحاسيس رومانسية مؤلمة ومشؤومة، وأنشد الشعر «لظلي» من أجل تلك «النافورات الذهبية» أو طائر الكناري البريء[١]، كوني إنساناً يتحتم علي أن أذهب إلى الناس، وأن أضع نفسي في صفهم وأن أجاهد حتى أفهمهم، أن أتعرف على آمالهم وآلامهم ومعنوياتهم، وأساعدهم عن طريق فني في الوصول إلى أهدافهم.

لست خلف نافذة الطبقة الثالثة أو فوق سطح ذلك القصر، أنا واحد من نفس هذا الشعب يتحرك على طوار الشارع ثم يهبط إلى

---

(١) المترجم: يسخر من رواية البومة العمياء لصادق هدايت ومن أشعار فروغ فرخزاد.

هذه الأغوار السوداء ثم يخرج منها ويحيا مع أحزانه وهمومة وأنواع عشقه وآلامه وعقائده الخاصة. لست ملتزماً بأن أعاهد الناس بأن أوجه لهم فني وإحساسي، ليس لهذا معنى بالنسبة لي فأنا الشعب ذاته أتبع أسلوباً واقعياً له ما صدق خارجي وعيني في نظرتي وفي أسلوب عمله الفني. عندما أفتش في داخلي وأتناول إحساساتي وآمالي واحتياجاتي الفردية أكون واقعياً أيضاً لأن من يكون هو نفسه من الشعب، فإن كل تجليات روحه وحركات فكره تتلون بلون الشعب حتى عشقه ودينه ورؤيته الكونية الفلسفية وحياته الخاصة، إن أغانينا الريفية بالنسبة للمضمون ليست من الآداب الملتزمة، لكن من الذي لا يفهم من أول شطرة أن هذا ريفي يحب أو ريفي يشكو أو ريفي يغني؟ كل أبعاد حياته وأوضاعها العينية والمحلية والطبقية متجلية في هذه الأمواج والمظاهر للروح الفردية والأماني الشخصية.

عندما أقول الشعب فأنا غير ذلك المتعلم البورجوازي يتحدث تحت تأثير الرومانسية الاشتراكية عن طبقة يوتوبائية وميثولوجية، إنني أتحدث عن طائفتي، طائفة عينية وواقعية ولها وجود خارجي مثل وجودي تماماً بل أكثر وأقوى من وجودي، إن درجة وجودها ليست أشرف وأقوى من درجة وجودي فحسب، بل إنني وبشكل مستمر أستمد الصيرورة الوجودية(١) لذاتي من هذه

---

(١) ينبغي أن أنبه إلى أن كلمة «أنا» هنا ليست ضمير متكلم بالمصطلح النحوي، وليست إشارة إلى كاتب هذه السطور. «أنا» هنا ضمير متكلم فلسفي واجتماعي، يعني فرداً من الناس، جزءاً من الكل بالنسبة لـ «نحن».

الطائفة، طائفة الشعب، وإذا أردنا أن نتحدث بلغة القرآن ينبغي أن نقول «طائفة الناس» في مقابل الطوائف الأخرى، طوائف «الملأ» و«المترفين»، طوائف فرعون وقارون وبلعام بن باعوراء(١).

ومع كل هذا فلست أقصد بالناس الرؤوس والنفوس، العوام كالأنعام أشباه البشر ذوي القيم بالقوة لا بالفعل، لأن قيمهم مرتبطة بالجهة التي يقبلونها من بين الصفوف الأربعة المحددة، وهم في الأحوال العادية فاقدون للقيم، سوف تقولون: لا إنهم يكدحون وينتجون، هذه فائدتهم لا قيمتهم، والقيمة Valeur غير الفائدة.

على كل حال: الشعب بالنسبة للسياسي غير الشعب بالنسبة للفنان أو الكاتب، وبالرغم من أنني أرى أن قولهم بأنه يجب على الفنان أن يلصق نفسه بواحد من تلك الأجهزة الثلاثة وأن يصير حليفاً لواحدة من تلك القبائل الشريفة وإلا فمصيره موت خمول الذكر والعبث ناشيء من العجز والغربة عن الناس، فإنني أعتبر أن الحديث عن الشعب بلهجة سياسية ديمقراطية وهم عاطفي وخيالي

(١) في علم الاجتماع القراني وهو علم اجتماع طبقي صريح، يعد المجتمع طبقة دائمة، وهناك ثلاث طبقات تشكل الطبقة الحاكمة، أشير إليها في ثلاثة رموز: فرعون القوة السياسية الحاكمة، وقارون: القوة المسيطرة الاقتصادية، بلعام بن باعوراء: القدرة الحاكمة الدينية والفكرية (رجال الدين الرسميون والعلماء والكتاب ومثقفو السوء) والطبقة المحكومة هي الناس (وتساوي الجماهير وعيال الله والرسل من هذه الطبقة في مقابل الطوائف الثلاثة الأخرى) هؤلاء الأشخاص الثلاثة فرعون وقارون وبلعام هم نفس ممثلي مدينة كورف كورنيت الذين جاءوا إلى سيزيف في مسرحية روبير موريل المسماة سيزيف والموت.

والناس في رأيي هم أولئك الذين يستطيعون أن يكونوا متكأ فنان أو كاتب حر متمرد «تلك الجماعة من أفراد مجتمع ما وصلوا إلى الوعي والتمييز، وأيضاً لم يتشكلوا في واحد من تلك القوالب المفروضة الرائجة المحددة سواء كانت سياسية أو فكرية أو دينية».

وكل أملي في مستقبل هذه الأمة مرهون بهؤلاء، نفس هؤلاء الأحرار الواعون الذين لم يتقولبوا والظمأى إلى إيمان جديد وصحيح. أولئك الذين نفد صبرهم بالنسبة للوضع الراهن لا أولئك الذين يشبعهم دينهم أو يهبهم السكينة واليقين، ولا أولئك الذين يعطيهم إلحادهم الغرور العلمي والتنفجات الحديثة والمتقدمة الـ «آخر صيحة»، بل أولئك الذين لم يفقدوا بعد القدرة على الاختيار، وهذا أعظم ثروة لديهم هؤلاء هم المفكرون الذين لا قالب لهم ولم «يحددوا» ولم يتنبأ بهم، لا الذهب والقوة أسرار شخصيتهم المعنوية والفكرية وحريتهم ولا هم تجمدوا في قوالب تقليدية موروثة كالدين، ولا صنعوا واستخدموا على أساس نماذج مستوردة مقلدة ومترجمة. هؤلاء فحسب هم الذين يملكون الجرأة على التمييز والقدرة عليه وإمكان القيام به.

عندما يطرح «كلام جديد» في المجتمع أو إنسان جديد، فإن هذين النمطين المصطنعين لن يستطيعا التعرف عليه أو تحديد قيمته الحقيقية سلباً أو إيجاباً أو نسبياً. فذلك الذي بقراءة «صرف مير» حطم مائة قفل وجنزير، ودرس جامع عباسي للشيخ بهائي ويستطيع أن يصرف «اشترتن» في كل صيغها كالماء الجاري ودرس العلوم الدينية وجاوز السطح والقشور وطوى المعقول والمنقول،

لا يحتاج إلى قراءة هذا الكتاب أو رؤية هذا الإنسان اللهم إلا من أجل أن يكتب عليه «رسالة ردية» لقد حكم عليه حكماً مسبقاً، أما الفئة الثانية فطبقا للمعايير التي يظنونها لا تتغير وعلمية جدلية مائة في المائة فسوف يدينون الكتاب من جلده أو الرجل من على البعد ويستخرجون جذوره الاجتماعية والتاريخية بإعجاز أسلوب الجدل ومبدئية الاقتصاد، ولن يدفعه شيء إلى بحث هذا الرأي أو الفكر الجديد اللهم إلا كتابة النقد.

لم ينظر أحد من أهل هذين القالبين إلى كتابي «معرفة الإسلام» ومن جلده أصدرو الفتوى والحكم القاطع. فالأول بمجرد أن رآه قال: ماذا؟ هل يترك المرء بحار الأنوار «للمجلسي» والكافي «للكليني» وكحل البصر للمرحوم الحاج الشيخ عباس ثم يأتي ويقرأ السيد الدكتور فلان المتفرنج؟ والثاني بمجرد أن رآه قال: نعم، ديني، الدين أفيون الشعوب، الدين اخترعه الأغنياء فيما مضى حتى لا يصبح العمال والفلاحون واعين، وحتى يتحملوا استغلالهم وسيطرتهم... ليس فيه ما يقرأ.

هذا الثالث فحسب، هذا المفكر الذي ليس مخرفاً ومغلقاً إلى حد أن يقنع بالبحار وكحل البصر، وليس محدوداً أو ساذجاً أو متظاهراً بحيث «يشبع» بمصطلحات أربعة ومقالين مترجمين، إنه لم يتوقف في شكل ثابت قط، إنه لا يزال يتحرك ويبحث ويفكر ويحلل، إنه هو الذي يتناول كتابي مثل أي كتاب آخر قد يكون رداً على كتابي ثم يفتحه، وهو الوحيد الذي يقرأ بعد القراءة والفهم، هو الوحيد الذي يحكم بنفسه ولا يستعير الأحكام الموضوعة

والمصنوعة للاستعمال من المنتجين ذوي العلامات التجارية. هؤلاء هم الناس. ولا جدال أن الناس هم الذين يخاطبهم الفنان أو الكاتب أو الذي عنده ما يقال. لقد جربت، إنهم هؤلاء، وهم أذكياء وواعون وصادقون ومخلصون. لهم حاسة شم حادة ويميزون رائحة الإنسان من بين نتن الروائح العفنة الكثيرة، رأيت الفنانين الغربيين الذين لم يكونوا أبداً حلقاء أي قبيلة، وكان مجرد ذكر أسمائهم أو نشر خبر عنهم أو صور لهم أو إشارة إليهم وإلى أعمالهم من الأمور الممنوعة، كانوا شخصيات «تهرب» إلى المجتمع، يتكتم ما حولهم في كل مكان دائماً، وفي مقابل هذا فإن «الأقنعة» كانوا دائماً وأبداً فوق صواري الأعلام، لكن هؤلاء الناس كانوا يفهمون بالرائحة بتلك الحاسة الخاصة التي تعلم القريب والحس الفطري لتمييز الخطر ومعرفة العدو وهو ما أسميه بالإشراق الاجتماعي، إنهم يجدون من يقف إلى جانبهم.

هكذا كانت أمتنا دائماً، انظروا إلى التاريخ، تصوروا العصر والزمان، منذ ألف عام أو يزيد، كان هناك أمة لغتها البهلوية، غريبة عن العرب وكل ما يجري في بلاد العرب، ذات دين وأدب وروح وتاريخ وثقافة وعرق آخر، وفجأة يتقاطر عليها جند خالد بن الوليد والمثني ومسعود ويزيد بن المهلب داعين: هيا أسلموا. الله والقرآن ومحمد وأبو بكر وعمر وعثمان. أرسل عمر الجيش الفاتح ومن بعده عثمان، ثم وقعت الخلافة الرسمية في أيدي بني أمية لمدة مائة سنة، ثم في أيدي بني العباس ستمائة سنة، كانت المنابر والمحاريب والمساجد والحكام والقادة والقضاء والفقهاء والكتاب

والعلماء كلهم يقولون نفس الكلام، منذ البداية كانوا يقومون بالدعاية لنفس هذا الكلام. لكن هذا الشعب وبنفس هذا الذكاء الغامض، نفس الرؤية لما هو خفي، و«التكتل في الظهر» ونفس «إشراق الاتجاه» فهموا أن: لا، ما هو موجود في الظاهر له صورة في الباطن، وفهم ما يجري وراء الستار، وسمع الأصوات المؤقتة التي سرعان ما صمتت في بلاد العرب وسجون الخلفاء من بين تلك الضجة والعربدة لمهرجي الحكومة. ووراء هذا الجيش الإسلامي الفاتح وهذه العمائم واللحى والمآذن، عرف في بلخ وطوس وما وراء النهر ذلك الرجل الوحيد الغريب الذي بقي مجهولاً ومدانا في مدينته وبين رهطه وقبيلته وعرقه وإخوانه في الدين، وهرب من المدينة وفي ظلام ليالي النخيل حول المدينة وضع رأسه في بئر وأخذ يشكو آلامه العظيمة للبئر، وعلم أن الحق معه:

لو كان محمداً إماماً لي لتركت
الدين القديم إلى الدين الجديد
لكن عمل هذا الأحدب كان ملتوياً
إذ كان يريد الأمر منا بفظاظة

كيف فهمت الدعوة إلى العودة إلى الذات:

حدث منذ عام أن نشرت: «من أين ننطلق؟» وطرحت قضية «العودة إلى الذات» وازدادت ضجة المفكرين العصريين علي وتضاعفت بحيث أوشكوا على تقديمي «كرجعي عابد للتقاليد» و«كعنصر هارب من المستقبل وضد التقدم» و«عابد للتقليد»

و«متحسر على الماضي» وأذكر أن بعضهم كان يظهر البحث وذاك كأكبر دليل على إدانتي الحتمية وسقوطي الحاسم وجريمتي الواضحة، وبدون أن يدخلوا في أصل الموضوع كانوا يعتبرون كتابتي لهذا البحث دليلاً كافياً وكان عليهم فحسب أن يثبتوا أنني كتبت هذا الكتاب.

وللأفكار في مجتمعنا أيضاً مصير مثير للحزن والضحك في نفس الوقت. في البداية عندما يطرح كلام جديد، يتكتلون بسرعة وشدة ضده، ولا يسمح أحد قط لنفسه في أن يتردد في الرد عليه ونقضه. فهذه هي أفضل وسيلة للتظاهر والتنفيس عن العقد وفرصة لأن يقول كل من يريد «أنا رجل»، فإذا لم يكن لهذا الكلام جذور، أو كان الذي قاله غير ثابت القدم تماماً، وكان يريد فحسب أن يسن بدعة من أجل التفنن العلمي والأدبي. فأمره معلوم تماماً، يذهب هو وكلامه إلى حيث ألقت ملعوناً ومطروداً أو على الأقل منسياً تماماً، لكنه إذا كان عنيداً وليس ممن يؤكل لحمهم ولكلامه قاعدة قوية وثابتة، وإذا كان على وجه الخصوص قد وجد سنداً له واستطاع أن ينقل قولاً عن أسود أو أبيض أو أصفر أو أجنبي ليجعل لهذا الكلام يداً وقدماً فإن كلامه يثبت ويتشكل ويفتح له مجالاً ويجد القبول العام، النصر، النجاح، لكن هذا في حد ذاته بداية المصيبة، يصير الكلام «درجة» جديدة، وما دام قد صار آخر صيحة جديدة فسوف يبتذل ويصير قبيحاً وعامياً وصحفياً بحيث ينبغي على صاحب الكلام أن يبادر ويعتزل.

هذه «العودة إلى الذات» الرجعية الدينية عابدة القديم المنحطة

صارت آخر صيحة، وترجمت مقالتان أو ثلاث عن الكتاب السود. ووضع الفكر هنا مثل وضع الموضة، تابع للمنبع والواضع والمدافع، وانتشاره رهين واجهة عرضه. تماماً كما لو قام خياط ومصمم أزياء إيراني بعرض «الجوب الطويل»، ومهما كان قد أبدى فيه من ذوق وابتكار وفن وجمال وإعجاز، لم يكن لأحد أن يتردد في القول: أجل هذا مخرف ورجعي، لكن عندما يصممونها هم، تسمى بالماكسي وتكون المنتصرة تماماً على «الميني».

وعندما فهم مفكرونا الذين يتبعون «الموضة» أن نيريري وإيما سيزار يعتقدان في أنه ينبغي أن نعود إلى ذواتنا، لم يشك أحد في صحة القضية. هذه هي موضة خريف ١٩٦٧ في ذلك الوقت بلغ الأمر حداً أن الرقعاء ذوي الجدائل والصبيان العابثين الذين تشكل رؤيتهم الكونية عدداً من اسطوانات موسيقى الجاز و«الخنافس» والطواف حول مدارس البنات، أخذوا يتحدثون وكأنهم يتحدثون عن آخر اكتشاف في عالم موضة الأفكار، وعلى طوار كل شارع وخلف كل منضدة مقهى وأعمدة كل صحيفة ارتفع صوت اجترار هذه الكلمات: ينبغي أن نعرف أنفسنا، إن الابتلاء بمرض التغرب تقليد للأوربيين، الاستناد على ثقافة الذات، الحضارة، الأصالة، احياء التقاليد... الخ[1] ثم دخل المفكرون وأهل القلم والفن إلى

---

(١) قدماؤنا فقد من كلتا الطائفتين هم الأغراب عن الأحداث الفكرية التي تصل أولاً بأول منذ ثلاث سنوات عندما ألقيت محاضرة عن محو الثقافة والتفريغ من الذات فهم الأستاذ... الذي كان حاضراً أنني أريد أن أقول إنه يجب علينا ونحن في القرن العشرين وعصر السفينة أبولو أن نعود إلى عهد أردشير دراز دست «طويل اليد» وسابورذي الأكتاف وقورش ودارا بالرغم من أنني أدنت صراحة القومية وعبادة العرق.

الطريق قائلين: يا الله، فلنذهب ولنعرف ذواتنا، ولنعد إلى ذواتنا التي تحمل روحنا الحقيقية وإلى ثقافتنا وفكرنا اللذين ابتعدنا عنهما وصرنا غرباء عنهما، ومن أجل هذا ماذا نفعل؟ ومن أين نبدأ؟

أكثر مراحل القرار حساسية، رأس منعطف التاريخ وتحديد المصير، فلنجمع الرقصات الشعبية ولنبحث عن الأمثال العامية والقصص والأغاني والأناشيد العاطفية ولنحققها وندونها وننشرها، ولنجمع كل عاداتنا وطقوسنا المحلية في العرس والحداد والأعياد والألعاب والرياضات والأطعمة والألبسة وأدوات الزينة وطرز التزين. ولنبعث من جديد تمثيلية «الحر»[١] بتكنيك جديد مع حفظ نمطها ونصها الدراماتيكي، ولنمثلها على المسرح في «مهرجان الفنون» في شيراز. ونستخرج من جديد «المسرح فوق الحوض» ولنستخدمه لأنه موشك على الانقراض ومن الممكن لا قدر الله أن تحرم منه البشرية إلى الأبد، ويواصل مستقبل الثقافة والمدينة والفن النضج بدونه.

«وعراقة الحمار» التي صار جيلنا الجديد نظراً لابتلائه بالتغرب لا يعرفها، وقام هجوم آلية الرأسمالية الأوروبية يجعل شريحة المثقفين الواعين عندنا عاجزين عن فهمها وهي ممثلة الروح ولوح التاريخ المنقوش عند جماهير أمتنا، لنكشف عنها النقاب ولنضعها في الواجهات الفاخرة لمحلات الزينة من أجل سيداتنا ربيبات اليوم،

---

(١) المترجم: الحر بن يزيد الرياحي أحد الأبطال الذين انضموا إلى الحسين في كربلاء وقتلوا معه.

ولـ «تدكور» بزينات خيالية مثيرة للدهشة والخيال تحت أنظار الجيل المبتلى بالرفاهية المفرط فيها الموجودة اليوم في إيران، وحتى لا ينسى هذا الجيل نفسه في أوج الظهور المحير للعصرية الأوروبية والآلية الجديدة، ولنعلق «مخلاة الحمار» على جدران منازلنا للزينة، ولنضع خرج ذلك الحيوان الأعجم الرمزي على جدران حجرات الضيوف وبجوار البار، ولنضع تمثالاً لأنثى الحيوان المذكور مصنوعاً من الجلد والقطن إلى جوار شماعة الملابس، ولنعلق صينية أكل من النحاس الأحمر وصينية ذات حواف وقدر وحاملة قدر بنقوش مصبوبة على أبواب شققنا وجدرانها مع زوج من الأحذية القماشية الفاخرة وهذا كله تعظيماً للآثار الغالية للفن الإيراني الأصيل، كما ينبغي أن نعلق عقداً من الخرز الذي يعلق على الحمير «ثانية نفس هذا الحيوان الرمزي. . . ما العلاقة بين هذه الحركة لمعرفة الذات وإيجاد الذات وبين الحمار عند هؤلاء المفكرين؟». . . نعم عقد من خرز الحمير من تلك الخرزات الضخمة المعوجة العامية الزرقاء سيئة الشكل التي توضع تحت الحوض، عليك أن تعلقه في عنق مدام رقية كوكتي اللطيف «وهي قد صنعت من قمة رأسها إلى أخمص قدميها حسب الموضة حتى نظرتها وابتسامتها وجلوسها ومشيتها وكلامها وهزة رأسها ويديها وسحنتها وهي تدخن وتنفث الدخان كلها رسمت بمشقة بناء على رسالة علمية» (لا جدال في أن هذه هي الحالة الطبيعية والحقيقية الوحيدة للعودة إلى الذات)، ولنحضر برج قلعة أو مصراعي باب مزلاج ولنضعه أمام العمارة المتأمركة الحديثة (اولترا)، ومن أجل

جذب السياح الأمريكان والأوروبيين لنفتح المطاعم والفنادق، ثم لنشتر عدداً من الخواتم الفضية بفصوص من العقيق والموجودة في أصابع زوار كربلاء ذوي الشيلان واللحى المحناة، وذلك بمقدار معتني به، ولنضعها في أصابعنا. . .

وأي مبتلٍ بالتغرب والتفرنج لا يكون أكثر احتراماً وأكثر معقولية وأكثر فائدة عن طريق هذا النوع من معرفة الذات والعودة إلى الذات؟

إذا كانت العودة إلى الذات وإحياء الثقافة المحلية والانطلاق من الأصالة التاريخية والمعنوية لمجتمعنا هي هذا، فينبغي أن نرفع الشعار المغرض الذي رفعه المرحوم العلامة تقي زاده: «إن الحل الوحيد هو أن نصير أوربيين من قمة الرأس إلى أخمص القدم» ويجب استناداً على فتوى هذا المفتي للعصرية وصناعة المفكرين المحدثين في مجتمعنا أيضاً أن نلقي قنبلة الاستسلام للأوربي ونفجرها.

هذا الشعار القائل بأنه «لا ينبغي علينا أن نقبل كل ما يفعله الأوروبيون أو ما يقولونه ينبغي أن نفكر بأنفسنا، وينبغي أن يكون لدينا الاستقلال في مواجهتهم»، قد صار علةً وحجة محترمة من أجل تبرير الأمية وانعدام الإحساس واصطناع الخزعبلات عند أولئك الذين لا يعرفون حوا من لو[١]، فأخذوا يبدون أن إعلان

(١) المترجم: التعبير الفارسي هررا ازير تشخيص نميدهند والهر صوت يستدعي به الرعاة خرافهم والبر صوت يذبونهم به. والتعبير العربي يستعمل أيضاً لمن لا يستطيع التفرقة أصلاً.

الاستقلال الفكري والامتناع عن تقليد الحياة الأوروبية والثقافة الأوروبية هو اعطاء صك الحرية لهم لفعل ما يريدون، وبدلاً من الدراسة والبحث في المدارس العلمية والنظريات وأسس العلوم الإنسانية وبخاصة علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي، وعلم الإنسان الثقافي والفنون والآداب، يكفي أن تذهب لرؤية فيلم إيراني، ويكفي عن طريق البحث العلمي من طراز أبحاث فردين وبري غفاري وظهوري وبيك إيمانوردي أن تدرك عمق المجتمع وعلم النفس الاجتماعي الإيراني، وعلى سبيل المثال برؤية فيلم «آدم وحواء» وركيزته الأصلية اختلاس المراهقين العارفين بالفن النظر إلى أسافل أعضاء أمهم حواء أن تفهم الميثولوجيا الإيرانية والثقافة الدينية لشعبك، وفي المقهى أو بارات بدرومات لإله زار تنفذ إلى الأعماق الخفية لروح «الجماهير الحقيقية» واحساساتها وشخصياتها ورؤاها ومثلها هؤلاء التابعون للموضة والمضادون الجدد للغرب الجدد يبررون فحسب ابتعادهم عما يجري في العصر بعدم إيمانهم بأفكار الأوروبيين وآرائهم، أو لإدانة أحد أصحاب الرأي في هذا الموضوع دون أن يفهموا كلامه، فيتوسلون بسلاح «الابتلاء بالتغرب» ويدلون بآرائهم بفلسفة قائلين: لا ينبغي علينا أن نردد ما يقوله الأوروبيون، وإلا فإنهم إذا علموا عبارة أو صفحة من أي كتاب غير إيراني لوضعوها على رؤوسهم وطافوا بها منادين: الحلوى، الحلوى وعندما يتفوه أحد بكلمة أو بكلمتين يناقضان هذه البضاعة يشهرون عليه ثانية نفس السلاح المضاد: الميل إلى القديم والميل إلى الماضي والدين

وعبادتهما، أحد هؤلاء المفكرين أتباع الموضة الشغوفين، بعد أن دلوه على عدد من الصفحات كتبها كاتب هذه السطور فحواها أنه لا ينبغي أن نقع تحت تأثير مفكري الغرب وكتابه وقبول كل ما يكتبونه في قضايا علم الاجتماع والقضايا الاقتصادية والثقافية والفنية، هب فأعلن أن الهجوم على الآلية والبيروقراطية والتكنوقراطية والرأسمالية والعبودية الجديدة لطبقة العمال التي غرضها مجرد حيلة سياسية استعمارية، تحدثوا فيها عن عمد حتى ننصرف نحن الدول المتأخرة عن التقدم والتكنيك والآلة ونخاف منها، وأخذ يحذرني بحكمة قائلاً: سيدي، لا توجد آلة في زهدان وسجستان وبلوجستان، ولا بد أن توجد، واستغلال رؤوس الأموال في إيران أمر حيوي جداً والنظام الرأسمالي نظام راقٍ جداً.

كل هذه التوصيات مستندة على أنه لا ينبغي أن نقبل كلام الأوروبيين، حجة خبيثة لإخفاء جهله بالقضايا الحساسة والعميقة المطروحة في عالم اليوم وعدم العلم بالفرق بين الآلة والآلية، وعدم فهم هذه النقطة الواضحة الصريحة وهي انني أتحدث عن الحضارة الجديدة ومشاكلها وانحرافاتها لاعن بلوجستان وسجستان، وعدم العلم بأن الجماعات اليسارية والمفكرين المضادين للامبريالية والاستغلال والمناضلين الأحرار أنصار الشعوب في العالم هم الذين يقاومون الآلية والبيروقراطية والتكنوقراطية وهي الوجوه الجديدة للاستغلال والاستعمار وأن التكنوقراطية غير التكنيك والبروقراطية الـ «بيرو: المكتب»، وعدم

العلم بأن العلموية عبادة العلم من أجل العلم «غير العلم»[١] كما أن المفكر الإنساني الذي يعادي القومية ليس عدواً «للقوم».

ولما كان هؤلاء غرباء تماماً عن هذه المسائل فلا هم يفهمون معانيها العلمية ولا جذورها الاجتماعية، ولا أولئك الذين وضعوا نظرياتها، فان أكثر الطرق احتراماً، وبدلاً من أن يقول «لا أعلم» هو أن يقول: هذا من كلام الأوروبيين، ولا ينبغي قبول ما يطرح في أوروبا، ويظنون أن أوروبا مدرسة فكرية ينبغي أن نتكتل ضدها في جبهة محددة ذات هدف واحد، ومع كل هذا، فبعد بضع صفحات قمت طبقاً لما تفضل بقوله بالشروع في بيان رأي جديد، فقفز من مكانه صائحا: اضبطوا. . . هذه النظرية لا توافق ما جاء في السطور كذا من صفحة كذا من كتاب كذا لفلان الأمريكي، ثم دحضا لنظريتي توسل بقول آخر وجده في كتاب «البيرمالية» القديم الذي كتبه للمدارس الثانوية[٢]. وبهت، لماذا؟ لأن هذا القول كان يثبت رأيي بصراحة، ويرد بوضوح نظرية «معرفة كل إنسان» التي كان الناقد يدافع عنها، كيف لم يفهم هذا السيد المدرس حامل الليسانس كلاماً بهذه البساطة والوضوح وتوسل رداً عليَّ بما كان

---

(١) كان قد ظن أني بمخالفتي للعلموية ضد العلم. ولم يكن يعلم أن أقوى جناح يناضل ضدها هو الجناح الاشتراكي لأن العلموية تؤمن بمبدئية العلم واستقلاله عن أي نوع من الالتزام الاجتماعي والسياسي والطبقي، وهم يؤمنون بمبدأ استخدام العلم للوصول إلى أهدافهم الأيديولوجية وخدمة الناس.

(٢) حتى بالنسبة للفارسية صار قديماً جداً، وعلى ضفاف السين ومكتبات الشوارع في باريس وضع في المزاد ضمن الكتب التي أسقطت من الحساب، واشتريته كاملاً بأربعة فرنكات «حوالى خمسة أو ستة تومانات».

ينبغي أن أستعمله في الرد عليه؟ . . . ثم فهمت بعدها أنه نتيجة للسرور والفرح الذي طرأ على المذكور لمعرفة عبارة أجنبية، ولأنه لم يكن يعرف أيها يلقى صدرها أم عجزها، ولم يستطع منع نفسه من نقل عبارة عن أوروبي وترك القراء جُهَّالاً بهذا الفضل.

هذا النوع من التناقض والتشتت في الفكر والرؤية والشخصية، ينشأ من أن القضايا الفلسفية والعلمية والاجتماعية والفنية تنتشر بين مفكرينا بنفس الأسلوب الذي تروج به تصميمات الأزياء والزينة وعادات الحياة أي بأسلوب الموضة وعبادة الموضة. عندما تطرح فكرة جديدة في الخارج وتتسرب إلى إيران، تصير موضة، ورداً على الألسنة، وبعد فترة تنتهي موضتها وتقدم وتترك مكانها لموضة جديدة.

هؤلاء لا يعرفون أن قضايا مثل الميل إلى اليسار والاشتراكية والليبرالية والإلحاد والعرقية والواقعية، وفي الأيام الأخيرة الاعتقاد بالأصالة الثقافية ومقاومة الابتلاء بالغرب والعودة إلى التاريخ والثقافة الشخصية القومية الأصيلة المعنوية، والتحرر من قيد التقليد الأعمى المثير للغثيان للأوربيين، قضايا ليست في بساطة تسريح الشعر أو رفع السروال أو توسيع رجله أو خط الحاجب أو طراز السيارة والموبيليا والديكور في المنزل أو نظارة أودري هيبورن أو التزين على الطراز الياباني، يمكن تغييرها بترجمة البوردا والتشاور لمدة نصف ساعة مع مستشار التجميل الخاص لمؤسسة مرجريت ستور أو رؤية فيلم خيالي أحياناً. ماذا أقول؟ هذه القضايا حتى ليست من نوع القضايا العلمية في فروع

الفيزياء والكيمياء والطبيعيات والتكنيك الرياضي الذي يكفي «الاطلاع عليها»، فبالإضافة إلى جانبها الفكري والعلمي يوجد جانب إنساني وأخلاقي ليس مرتبطاً بالتعليم والحفظ فحسب، لكنه ذو ارتباط أيضاً بالخصائص الروحية ونوع الرؤية والضمير والشخصية عند الفرد. من أجل أن يصحح جهلي وخطأ رأيي بشأن السبب في مرض ما، ومن أجل أن يبدل الجهل إلى علم، يكفي أن أعرف وجود الميكروب وما يقوم به من عمل، لكن من أجل أن يتحول المرء إلى اشتراكي، يعد معرفة النظرية القائلة بنقل ملكية الإنتاج من الفرد إلى المجتمع جانباً من الأمر أو وجهاً منه، ووجه الأمر في الأصل هو مقدمته، فالاشتراكي يكون حتى نظرته اشتراكياً. إنه ينظر إلى المجتمع والناس والطبقات والجماعات والاماكن وكل القيم. . . وماذا أقول؟ بل إلى الألوان والجماليات بطريقة أخرى، بل يراها بصورة أخرى، هو صاحب رؤية كونية مختلفة وسلوكه الاجتماعي متميز، إنه يحلل كل القضايا الإنسانية والاجتماعية والتاريخية والفلسفية والعلمية والأدبية والفنية برؤية خاصة به. ليس عقله فحسب اشتراكياً بل وقلبه أيضاً، من المستحيل أن يحب مثل بورجوازي، من الممكن أن يكون مادياً، لكن ماديته تختلف عن مادية عابد للحياة أو عابد للمال، فالاشتراكي المادي من الناحية الأخلاقية متدين حقيقي، إنه يعتبر الاقتصاد أصلاً، وهو يعتبر الحياة المادية العينية في الدنيا هي الحقيقة الموجودة فحسب والجديرة بالاعتقاد والارتكاز لكن في الفكر فحسب وبالنسبة للآخرين أي المجتمع. أما عملياً وأخلاقياً

فهو من الناحية المضادة ينظر إلى اقتصاده وإلى حياته نفس النظرة التي ينظر بها زاهد عابد لله. إنه يضحي بروحه وماله ببساطة، في مقابل ماذا؟ أفي مقابل الجنة والجزاء الإلهي؟ لا... بل في سبيل مثالياته، إذن فهو مثالي، مؤمن بمبدئية المعنويات وبعدم قيمة الماديات، من الممكن لاشتراكي أن يكون متديناً، لكن الله الذي يعبد والدين الذي يمدحه والرسول الذي يتبعه لا يشبه أبداً ما لاخوانه في الدين غير الاشتراكيين. فبلال وعبد الرحمن بن عوف وأبو ذر الغفاري وعثمان بن عفان في عصر واحد ومن أتباع دين واحد، لكن مفهوم الله والتوحيد ورسالة محمد في روحي بلال وأبي ذر على شكل ما وفي فكري عثمان وعبد الرحمن بن عوف على شكل آخر. والمسافة الموجودة بين هذين المفهومين لله وهذين الإسلامين أكثر من المسافة الموجودة بين الله ويهوه أو بين الإسلام واليهودية.

وبالنسبة لقسيس كنيسة مادلين في باريس أن المسيح جاء ليقيم «التعايش السلمي والحياة بالحب» بين كل الطبقات الحاكمة والمحكومة، بين القيصر والناس والغني والفقير والسيد والخادم، لكن المسيح نفسه جاء ليحل المساواة والإخوة محل التفرقة والظلم وهذان المفهومان مختلفان. وأن يكون المرء يسارياً يعني أن يكون نوعاً آخر من البشر، أن يكون له ضمير خاص، وليس بمعرفة هذه المعلومة القائلة إنه في الثورة الفرنسية الكبرى كان ممثلو الجماهير يجلسون في المجلس في الناحية اليسرى، وكان ممثلو الأشراف والأمراء والأثرياء يجلسون في الناحية اليمنى، أما المتغاضين

والسطحيين والذين لا يملكون القدرة على اتخاذ القرار أو الذين ينامون دائماً في وسط «اللحاف» في الوسط، ولا علم لهم بمن هم في عالم اليسار اليوم ومن هم في اليمين ومن هم بين الجسرين، ولا حتى بقراءة كتبهم أو ترجمة كتاباتهم.

العلم والعمل:

في سنة ١٩٦١ كان الجيش السري المعارض لاستقلال الجزائر قد تشكل تحت قيادة الجنرالات المفلسين الذين طردوا من الهند الصينية وأفريقيا، ولم يكن قد بقي في أيديهم من كل إمبراطورية فرنسا ومجدها وعظمتها إلا الجزائر، كان الصبيان الفرنسيون من أولاد الأشراف بين سن الخامسة عشرة والعشرين، وكانوا جميعاً مصابين بعقد الافتراس والتوحش وسادية قتل البشر وأداء أدوار الممثلين في الأفلام قد قويت عندهم وبلغت درجة الانفجار نتيجة للرفاهية وإنعدام إشراف الأبوين قد انضموا إلى هذا الجيش، كان هؤلاء معادين للنظام اليميني الديغولي الذي كان من صنع أيديهم، وحاولوا مرات اغتيال ديغول نفسه. وكان أفراد هذا الجيش يدسون القنابل في مطاعم الطلاب المسلمين، وفي إحدى مستشفيات الصدر التي كان شيوخ العرب يعالجون فيها منذ سنوات فتحوا مدافعهم الرشاشة على الجميع وأحدثوا مذبحة. وكان من بين نشاطهم تهديد المفكرين والشخصيات التحررية الفرنسية، وفجروا القنابل مرتين أو ثلاث مرات في شقة

سارتر، كما هددوا جورج جوروفيتش الذي كان أستاذاً في السوربون بالقتل. كان المتبع عندهم أن يرسلوا خطاباً في البداية كتحذير ثم خطاباً ثانياً كإنذار ثم الإعدام، وكان جوروفيتس العجوز الذي كان رفيقاً للينين وتروتسكي الروسيين سنة ١٩١٧، ثم قضى سنوات هارباً مطارداً من الفاشية، قد تلقى الإنذار. رجل عجوز غريب، ليس معه من سلاح إلا الكلمة[١] وكان الضمير الإنساني وعاطفة حب العلم وتعلق التلمذة والرابطة في العمل والزمالة قد أثارت كل طلاب السوربون وأساتذتها من كل مذهب وعرق ومسلك سياسي، فأضربوا جميعاً يوماً عن العمل اعتراضاً على الجيش السري وإعلاناً للتضامن مع أستاذ كان فخر علم الاجتماع في فرنسا ودفاعاً عنه، كان الجميع من طلاب وأساتذة قد تجمعوا في فناء السوربون ومدخلها بوجوه مشتعلة غضباً وضمائر مهانة. حتى البوليس أعلن مشاركته. وفجأة سمعنا أن الأستاذ الوحيد الذي لم يتضامن ودخل قاعة الدرس هو ريمون آرون، وأن شخصاً واحداً حضر درسه، ريمون آرون الرجل الذي كان بشهادة الجميع يعرف الماركسية أكثر من ماركس نفسه

---

(١) ذات يوم بعد تلقيه للخطاب الثاني جاء إلى قاعة الدرس. كانت هذه اللحظات أكثر لحظات حياته رعباً. كنا جميعاً خائفين على حياته. دخل كالمعتاد ساكناً وقوراً. وجلس إلى منصة الأستاذ ووضع حقيبته الجلدية السوداء الصغيرة التي كانت تبدو وكأنها تذكار من العصر القيصري فوق المنضدة وأخرج تلك العصا القصيرة الغليظة السوداء ذات العقد، وقال وهو يرفعها بيده المرتعدة العجوز مثل سيف: لقد اشتركت في الثورة بهذه العصا، وبنفس هذه العصا سوف أقاتلهم. الناشر: هذا القول لجوروفيتش لم يذكره شريعتي لكن رواه أحد الحاضرين في نفس المحاضرة.

بمراحل. وعندما تكون المادة العلمية في أوجها لا تستطيع أن تغير الروح، فأي تأثير إذن يمكن أن يكون لقراءة بعض المقالات أو عدد من المسرحيات من هذا وذاك وغالباً ما تكون مترجمة على أيدي مترجمين يختارون السهل؟

وهنا نرى نفس البحث القديم الذي كان مطروحاً في ثقافتنا الإسلامية يطرح نفسه، وهو مبحث الصلة بين العلم والعمل، والعناية الشديدة التي أبداها علماؤنا العظام بأنه ينبغي على المتعلم قبل دخوله مرحلة الفلسفة والفكر العقلي الحر أن يراعي قواعد التقوى والأخلاق حتى لا يصير ثرثاراً سطحياً مصطنعاً للدين لا أساس له ومتكبراً، ووعيهم العميق بأن العلم غير الإيمان، وتقسيم درجات المؤمن والفاسق والمنافق والعالم والحكيم والعالم الذي لا يعمل بما علم، وتعريف الإيمان بأنه «اعتقاد بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأعضاء»[1] والبحث في المعرفة والوجدان والهداية والقلب والتوفيق والنور والفطرة، وكلها أمور تقدم الدليل على أنه بتكرار الشعارات والأقوال والمصطلحات

---

(١) إن العمق الفلسفي والعلمي والاجتماعي الذي منحه علماء الأخلاق عندنا خاصة من الشيعة لمعنى العمل ـ وهذا هو الفرق بين الشيعة والسنَّة وبخاصة المرجئة الذين حصروا الدين في القلب واعتبروا العمل خارج التعريف ـ يتضح أكثر عندما نعلم الأبحاث الجديدة لفلسفات العصر ـ وبخاصة البراغماتية والوجودية ـ التي تعتبر العمل فحسب هو الخالق لماهية الإنسان، وقضية الوجود الكامل أو المطلق في فلسفة ماركس وعلم الاجتماع عنده. إنني أرى هذه العبارة لسارتر «إن الإنسان يخلق ماهيته وحقيقته في العمل» تفسر الآية «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره».

المشهورة وعناوين القضايا المتداولة بين الاشتراكيين أو الأحرار الثوريين أو المفكرين التقدميين لا يمكن للمرء أن يتحول إلى اشتراكي أو ثوري أو مفكر، النتيجة النهائية والحقيقية لهذا الأمر أن هذا الأسلوب سوف يخدع أحد اثنين: أولهما فئة من عديمي المحتوى السذج المتعطشين للكلام والمحتاجين إلى سلوك طريق والانتماء إلى مدرسة فكرية وحاجتهم وتعطشهم مقرونان بعدم الوعي والخواء سوف يشبعان بصوت هذا الطبل الأجوف وهو أضخم رنينا من أي صوت آخر، وسوف يمنحوا الإحساس الكاذب بانتفاء الحاجة ونيل اليقين، أما الفئة الثانية التي سوف تخدع وربما كان الضحية الأولى، فسوف يكون هو نفسه المتحدث، فليست هناك آفة أكثر انحطاطاً بمستوى تعقل الإنسان وتقدمه ووعيه من «اليقين الخادع»، لأن اليقين في كل أمر يستلزم الوقوف عنده ومن بلغه يتوقف عن البحث والتنقيب والاطلاع لأنه لا يعطي الفرصة لاحتمال آخر، ولما كان قد اعتقد أنه «هذا ولا سواه»، فإنه يعتبر من البداية أن كل فكرة أخرى باطلة، وكل رأي جديد يدينه سلفاً، ويستوجب ذلك أن يكون فكره محصوراً في هذا القالب، ولما كان الفكر والعلم في حالة حركة وتطور ونضج دائمة، فإنه يزداد تأخراً كل يوم، ويصير أكثر غربة عن الواقع وابتعاداً عنه، وثانياً: لما كان يقوم بالحكم على كل القضايا العلمية والإنسانية التي تجري وعلى كل ما يحدث ولم يطرح قبلا بنفس معاييره ومحكاته الثابتة، بدلاً من أن يقوم بتناولها ببحث حر وتحليل اجتهادي وعلمي ومنطقي ويصل إلى نتائج جديدة

ويكتشف مجهولات جديدة، يشغل نفسه بتبرير الوقائع وتأويلها، ويكون كل همه أن يطابقها بمعاييره، وهو عندما يلجأ إلى البحث العلمي والاجتماعي في الغالب لا يكون ذلك من أجل كشف مجهول أو معرفة واقع، بل يجاهد أكثر لإثبات معاييره ومقاييسه التي يؤمن بها، ويبحث عن جمع القرائن والأدلة التي تثبت حقانية عقيدته المسبقة ونهائيتها، ومن هنا يبتلى مثل هذا الشخص بالدوغماتية والجمود الفكري.

كنت أرى كثيراً من الطلبة الشيوعيين ليست لديهم الرغبة في قراءة صيحفة «الأومانتيه» اللسان الناطق لحزبهم، وكلما عنت قضية سياسية أو اجتماعية كانوا يتجهون إلى «لوموند» المحايدة «أو التي تبدو محايدة» وإلى الصحف المرتبطة بأهل الفكر التقدميين الأحرار، وغالباً ما كان جوابهم عندما كنت أسألهم عن السبب مقروناً بابتسامة ذات معنى: نعم... لا... الخلاصة اتجاه الأومانتيه واستنتاجاتها ورأيها من الأمور المعلومة.

ومرة ثانية لكي أمنع أنواع سوء الفهم أو سوء التعبير، ينبغي أن أوضح أنني لست ضد اليقين، والإيمان والانتساب إلى مدرسة فكرية صريحة ومتميزة، بل إن كل جهادي من أجل ذلك أي من أجل الانتساب إلى مدرسة صريحة ومتميزة فالإنسان «حيوان متعصب»، وكل مصائبنا حدثت من أن جيلنا القديم ابتلى بالتحجر، وابتلى جيلنا الجديد بالعبث والخواء أي لا إلى الدين ولا إلى الإلحاد فهو جيل دون اتجاه دون أيديولوجية ودون مبدأ عقائدي ودون شخصية ودون تعصب ودون هدف... لا شيء

بالمرة، وهذا دليل على التوفيق العظيم الذي بلغه «هؤلاء» في برنامج «جعلنا خالين من أي شيء».

لكن الفرق بين أن يكون المرء متحجراً وبين أن يكون متعصباً هو: إنني أستطيع أن أكون متديناً متعصباً وفي نفس الوقت تكون رؤيتي وإحساسي ومعرفتي عن الدين في حالة تلطف ونضج دائمين، وقول الرسول في شأن سلمان وأبي ذر يدل على أن الدين ليس مجموعة من الأحكام والمفاهيم الثابتة الوتيرية الجامدة، وكل إنسان يدرك درجة من هذه الحقيقة بمقدار عمق إدراكه وثرائه الثقافي ليست سواء وإدراك آخر بل تختلف عنها تماماً وقول الرسول هو «لو علم أبو ذر ما هو في قلب سلمان لقتله» وهنري ليفير ماركسي، لكن إيمانه بهذا المذهب لم يجعله أبداً أسيراً للتوقف والدوغماتية الفردية والعلمية. وحرية الفكر والخلاقية العقلية والرؤية المتطورة الكاملة غير فقدان العنان وعدم الإيمان والسطحية الدينية.

ومن هنا لما كان تحول المرء إلى اشتراكي ليس ممكناً بقراءة عدد من الكتب المترجمة بل على المرء أن يغير نفسه، ينبغي عليه أن يصنع نفسه، وإلى جوار العلم، عليه أن ينمي في نفسه وجدانها الخاص وروحها الخاصة، ومن البديهي أن النضال ضد «الابتلاء بالتغرب» والإقلاع عن التقليد والاستغلال في مواجهة ثقافة الغرب وأفكاره وخططه ومدارسه الفكرية والاجتماعية وصيغة حضارته ونوع ثقافتها مرحلة ينبغي أيضاً لنيلها من سلوك طرق صعبة وعلى مراحل كثيرة.

والذي يستطيع حقاً كمفكر أن يدين تقليد أوروبا، ويمحو عن نفسه داء التغرب، ويكتسب الحق في الحديث عن ثقافته وتاريخه هو الذي يكون قد قطع مرحلتين تكامليتين إلى الواقع: الأولى المعرفة الصحيحة والعميقة بالثقافة والحضارة الأوروبيتين، والثانية: المعرفة الصحيحة والعميقة بتاريخه وعلم الاجتماع الخاص به وثقافته ودينه.

ومن أجل النضال ضد التغرب علينا أن نعرف الغرب، فنحن في العادة نطلق على البنات أو الأولاد أو الرجال أو النساء الذين تدهورت شخصياتهم، وبلغوا مرحلة الابتذال ويقومون بتصرفات مثيرة للغثيان سخيفة كتقليد القردة، والدمى المزينة الخالية من كل محتوى ثقافي ومعنوي وليس لديها أي فن إلا فن الاستهلاك نطلق عليهم لقب «متفرنجين» أي يقلدون «الفرنجة أو الأوروبيين»، وهم أنفسهم، نفس هؤلاء الضحايا الأشقياء للرأسمالية وصناعات الاستعمار الفاخرة، الاستعمار الجديد أو القديم يرون هذا في أنفسهم. إن الاستعمار لا يعرفنا بأنفسنا بصورة ممسوخة فحسب، بل يبدي حقيقة حضارته وثقافته أيضاً في نظرنا ممسوخة وفارغة وكاذبة. لأن كيفية معارف الإنسان هي التي تصنعه.

وهناك قول لهايدجر نصه: «كل ما نعرفه جزء من وجودنا» ومن هنا فطريق الخلاص الحاضرة من داء التغرب والعصرية المثير للغثيان هو المعرفة الحقيقية لسمات الغرب وروحه، إن الترياق من لدغة العقرب يستخرج من نفس سم العقرب.

وهذا واقع جدلي عميق ومجرب: لماذا احتفظ المتعلمون والمفكرون والمفكرون والهنود والجزائريون والفيتناميون والأندونيسيون والأفارقة بشخصياتهم في مواجهة الأوروبي أكثر منا وقبلنا؟ فالفتاة الهندية تلبس الساري بفخر وتضع الخال الأزرق على جبهتها وتدرس في السوربون وكمبردج أو كونسرفتوار باريس الفيزياء النووية والموسيقى. ولما كانوا اختلطوا سنوات طويلة بالانجليزي والفرنسي والبلجيكي والهولندي عن قرب، فإنهم يتحدثون باللغات الأوروبية بل ويفكرون بها، يفكرون مثل الأوروبيين ومن هنا فإن الخوف المتوهم وعقدة النقص التي تنشأ عن المعرفة الناقصة والبعيدة والوهمية لا تدفعهم إلى التقليد المبالغ فيه والطفولي، بل يعلمون أن رؤية نمط مقلد ومتشبه ومثير للغثيان هو بالنسبة للأوروبي مثير للغثيان، إننا حين ندخل مجتمعاً عشائرياً أو ريفياً نعترف بشخصية وقيمة لرجل أو امرأة عشائرية أو ريفية أصيلة أكثر من اعترافنا بها لذلك الصبي في المقهى على جانب الطريق والذي أصبح نتيجة لاتصاله بالسائقين والمسافرين من سكان المدينة يشرب العرق ويلعب الورق ويعلم الاسطوانات التي تذاع في الإذاعة ويحجل حولك بحركات سخيفة ولهجة مصطنعة ونظارة غامقة وسروال ضيق ويجاهد عن طريق نبرة كلامه ونكاته وتعبيراته الحضرية وسب أهل قريته والسخرية منهم في افهامكم أنه لم يعد بعد من جنس هؤلاء الوحشيين الذين لا يفهمون شيئاً ولا خبر عندهم عن الدنيا، بل ولا يدور بأذهانهم شيء عما هو التلفزيون والرموش الصناعية

والكباريه والرقص، نفس هذا القدر مثير للغثيان مثلما يقوم كريم فكور وبيزن والفنانون الآخرون الخياليون في إذاعة طهران بصنع «أغاني شعبية» ثم يغنيها المغنون الخياليون في إذاعة طهران بأسلوب ريفي، نسأل الله أن يهب المستمعين المظلومين الصبر الجميل عليه[١].

(١) المترجم: وحدث ولا تسل عما يذاع في إذاعتنا المصرية على أنه يعبر عن الشعب ومشكلاته من أغان أو تمثليات وعن مضامينها المضحكة ولهجاتها والمشكلات التي تدور حولها وهلم جرا.

سنوات القرار:

نحن الآن في مرحلة من التطور التاريخي خاصة وأننا قد بلغنا وعياً اجتماعياً ذاتياً بالنظر إلى المراحل المشابهة في الدول الأخرى يمكن أن نسميها بتعبير اشبنجلر «سنوات القرار» أي المرحلة التي يتكرر فيها سؤال وحيد في «الداخل» و«الخارج»، وكل مفكر يطرحه أمام نفسه وأمام الآخرين وهو: ما الذي ينبغي عمله؟ ولم أرغب قط وحسب المعتاد في أن أرفع من نفسي بخداع الآخرين وأعطي جواباً مثل الأجوبة التي تعطى في امتحان وبيان عدد من الوصفات الحادة الحريفة الجذابة. هذا نوع من الخداع والتظاهر القبيح المضر. ليس للمفكر الحق أبداً في أن يتحدث بلغة السياسيين فالسياسي نظراً لاستعداده الغني يتحدث بأقواله بقوة وحسم وجاذبية مؤثرة يذوب الآخرون شوقاً لقولها، لكن ليس لديهم الاستعداد لقولها في حين أنهم ينفعلون عند سماعها، وهنا يكمن سر الاتجاه والشعبية المتحمسة والضجة وهي الأهداف النهائية للسياسي، والهدف من كل هذه

الأقوال ومن كل ما يتحدث عنه(١).

وفي علم الاجتماع الخبروي «الخاص بالمعرفة» ذكر هذا الاستعداد الخاص الذي يبدو واضحاً وقوياً عند بعض الأنماط تحت إسم الحاسة السياسية(٢). والمفكر الحقيقي لا يفكر في إقبال الناس عليه أو الشعبية أو ما يقبله العصر. إنه قبل أن يفكر في السيطرة على الآراء والأفكار يفكر في تصحيحها، حتى ولو ضحى بحيثيته الاجتماعية وهذه أعلى مراحل التضحية ونكران الذات عند مفكر صادق.

---

(١) المترجم: ظاهرة الزعامة في العالم الثالث من أهم ظواهره والتي أضاعت سنوات الكفاح عبثاً، انظروا إلى أشباه الملوك الذين قاموا في البداية بانقلابات عسكرية خططتها وأيدتها وكالات المخابرات العالمية وسرعان ما أطلقوا عليها لقب الثورة، وسرعان ما فتك الزعيم ببقية الدمى ثم ادعى من بعدها الأبوة للشعب القاصر والقيمومة عليه، وأصبح يرى نفسه صاحب الحق الوحيد في الكلام والتخطيط، فهو المفكر الوحيد والملهم والفنان والمفكر والمهندس والطبيب، ثم يتحول على شعبه فيكون أكثر طغياناً وأشد نكرا من الملك المطرود أو الأجنبي المحتل، إن ديكتاتورية الزعيم في حد ذاتها جدلية معاصرة، كيف سجن ويقوم بسجن أعدائه وكمّ أفواههم ويقوم بكمّ أفواه شعب بأكمله، وثار ضد الأجنبي ثم يفتح الباب للأجنبي بريادته؟

(٢) وهي غير الفكر السياسي وعلم السياسة والمدرسة السياسية وغيرها، ترون في جماعة ما شخصاً أو شخصين يتقدمان تلقائياً ويسيطران على الآخرين وتدريجياً يصيران مرجعي الأمور وأهل الحل والعقد، وعلى سبيل المثال يذهب فصل مدرسي إلى نزهة أو رحلة، ولا يمر وقت طويل حتى يبرز من بين الطلبة. دون انتخاب من الآخرين بل ومع وعلى كره من بعضهم ولا يلبث أن يجمع كل الأمور من قبيل الانفاق العام والميزانية والقيادة والابتكار والتخطيط... وبالتدريج ترى الجميع حتى الاستاذ والمشرف الرسمي على الجماعة قد أسلموا لحاهم لصاحب العظمة، إنه يستغل تردد الآخرين وخجلهم وانتظارهم وتحرجهم ويقيم ضجة ويثبت نفسه، ثم يمتطي الأمر.

ان تحويل العوام إلى متشبهين بحيث يكونون فقط «مستهلكين» للمنتجات الأوروبية مصيبة اجتماعية، وتحويل المتعلمين أو حملة الشهادات أو أشباه المثقفين عندنا إلى متشبهين بحيث يتحولون إلى تراجمة وفاتحي طريق وسماسرة للأجهزة الصناعية والإدارية للاستعمار القديم والجديد في بلد ما في سبيلها. . . «لا أدري في سبيلها إلى ماذا» مصيبة اجتماعية كبرى، لكن نتيجة لما أسلفنا بعد تحويل المفكرين وهم مخلصو أممهم وأنبياؤها وأصحاب الرسائل فيها ويعتبرون عيون مجتمعاتهم ومصابيحها وقوة الوعي والتعقل وتحديد الاتجاه فيها مأساة تطرح فيها قضية موت الأمة أو حياتها ووجودها بكل ثرواتها المادية والمعنوية أو عدمها.

وكما قلت: ليست رسالة المفكرين هي الزعامة والحكم والقيادة السياسية والتنفيذية والثورية للشعب، هذا أمر وقف على الناس أنفسهم، وما لم يأتوا هم أنفسهم إلى الميدان، لن يستطيع أحد أن يتعهد بالقيام بأعمالهم نيابة عنهم، وأعظم الشخصيات الفكرية أثبتوا في مرحلة انتصار ثورة ما أنهم لم يكونوا زعماء جيدون. وفي القيادات التي كانت تبدو فيها وجوه المفكرين فحسب كانت غيبة الجماهير محسوسة تماماً، والمكان الخالي للسجن «الأمية» لا يستطيع طبيب أو مهندس أو فيلسوف أو كاتب أو فنان أو شاعر ملأه. فعمل المفكر هو إيقاظ ضمير المجتمع، ومنح العوام الوعي الذاتي وتقديم تفسير وتحليل

إيدلوجيين وعمليين للظروف الاجتماعية الموجودة وبيان المثل وخطوط السير ونقل الواقعيات المتناسبة والمتناقضة في الحياة الأخلاقية والثقافية والاجتماعية إلى احساس الناس ووعيهم واستخراج المنابع المدفونة والمواد الخام للطاقات المعنوية والفكرية في تاريخ الأمة وثقافتها، والخلاصة تعليم الجماهير وتربيتها سياسياً وأيديولوجياً. وأولئك الذين يقولون متعجبين مشككين: هذا فحسب؟ لا يعلمون ماذا يعني هذا، أجل: هذا وكفى. وأولئك الذين يطرحون كل هذه الطرق والمتاهات واحدة بعد الأخرى ويحللونها ويتحدثون عن كل منها بالتفصيل، ويأخذون بالأيدي ويسيرون بها خطوة خطوة، إنما يسببون المشاق لأنفسهم والمتاعب للآخرين. والمعلم الذي يعدد كل ما يراه من أشجار وجبال وبحار وصحاري ووديان وآبار ومنحدرات وسحب وسموات وشموس وأقمار وأنجم ويقوم بتعريفها، إنما يقوم بأمر عقيم، ينبغي على المعلم فحسب أن يمنح عينين، يعلم «الرؤية» و«السير» فحسب، ليس سلوك الطريق عمله وحده، فهو عملهم أيضاً إذ ينبغي عليهم سلوكه ورؤية ما يستحق الرؤية فيه.

وهذا القول لروسو عميق جداً: «أشر للناس على الطريق، لا تضع الخطط من أجلهم، علمهم كيف يفهمون، وهم أنفسهم سوف يجدون الطريق وسوف يضعون برامج لأعمالهم». هذا هو ما قام به أمثال تولستوي في روسيا قبل ثورة اكتوبر ومونتسكيو وفولتير وروسو وديدرو في فرنسا قبل الثورة الكبرى وسيد جمال الدين

ومحمد عبده والكواكبي ونائيني[١] وطالبوف[٢] وحسن البنا في حركات اليقظة المضادة للاستعمار والاستبداد في الدول الإسلامية وكاتب ياسين وبن إبراهيم وفرانز فانون وهنري الج وعمر مولود وإيما سيزار في بعث افريقيا، لقد أيقظوا الثورة في شعور عصرهم وضمائر أممهم وإدراكها ورؤية شعوبهم ووعيها، هذه هي كل رسالتهم، وكل ثوري لا يكون على نصيب من «الثقافة الثورية القوية الفتية» يكون زبد غليان بلا محتوى وخواء قام فجأة وبنفخة همد.

وماذا يعني تحويل المفكر إلى متشبه؟ لتحليل هذه الظاهرة المنحرفة بعمق وتقص للجذور، ينبغي علينا من وجهة نظر التاريخ وعلم الاجتماع أن نحلل كيفية التكوين الاجتماعي لهذه الطائفة، ومعرفة عوامل تكوينها، وظروفها السياسية والزمنية والثقافية.

الأرضية الواقعية والمنطقية لخصائص المفكر الأوروبي:

للمفكر في الأصل مهما كانت مرحلة التطور الثقافي والاجتماعي في مجتمعه، ومهما كانت ميوله رؤية نقدية، وأقصد

---

(١) المترجم: الشيخ محمد حسن نائيني أحد مراجع الشيعة العظام في العصر الحديث «١٢٦٥ ـ ١٣٥٥ هـ. ق.» صاحب «تنبيه الأمة وتنزيه الملة» وهو أحد المؤلفات العظيمة في الفكر السياسي الشيعي المعاصر.

(٢) المترجم: عبد الرحيم طالبوف أو طالب زاده. أحد قادة التنوير في إيران الحديثة (١٨٥٥ ـ ١٩١٠). من أهم كتبه «مسالك المحسنين» و«كتاب أحمد» و«ما هي الحرية» ساهم بأعماله في التمهيد الفكري للحركة الدستورية والتنوير الفكري والسياسي.

بهذا التعبير أنه: أولاً: معترض بالنسبة للوضع الموجود وفي نفس الوقت مجاهد لكي يضع بدلاً منه الوضع المطلوب(١).

في أواخر القرون الوسطى قام نضج البورجوازية واتساع أفق الرؤية الكونية وتغيير خط سير العلم من التفكير في الموت إلى التفكير في الحياة وتدهور الإقطاع وقيام الحركة البروتستانتية داخل الكنيسة الكاثوليكية والعودة إلى العالمية والفكر العقلي والمنطقي الحر اليوناني وردود الأفعال في مواجهة الاستبدال الفكري والعلمي للكنيسة، وكل هذه العوامل نتيجة للحروب الصليبية الطويلة والاتصال بالحضارة والثقافة المتحررة في المجتمع الإسلامي الراقي في القرون الوسطى، كل هذه العوامل قامت تلقائياً باحداث ثورة فكرية وعلمية مضادة للكنيسة، وظهرت نجوم لامعة في قمة المخروط الثقافي في أواخر العصور الوسطى قامت بتيار علمي وأدبي وفني مستقل خارج الكنيسة والاسكولاسيه الدينية الموجودة، ونفس هذا التيار الثقافي أظهر جماعة متميزة من المفكرين والعلماء في مواجهة جماعة العلماء الرسميين يسمون في المصطلح المعاصر بالمثقفين. . ومن الناحية التاريخية يمكن القول بأن القرن السابع عشر هو النهاية الحتمية للروح المتسلطة لمرحلة العصور الوسطى وبداية سيادة الروح العلمية غير الدينية. وسمات جماعة المثقفين الأوروبيين كلها نتيجة منطقية وطبيعية للظروف العينية للمجتمع الأوروبي. هم يعبرون عن ظاهرة كان ينبغي أن

---

(١) إذا ظل في المرحلة الأولى أي مرحلة الاعتراض فحسب، فهو عدمي وفوضوي، والمفكر فوضوي، لكن إلى جوار شيء آخر.

توجد وكان ينبغي أن توجد بهذه الخصائص. وهذه الجماعة ذات جذور طبقية وثقافية بورجوازية. فالبورجوازية، بعد تحطم القلاع المغلقة في أوروبا في العصور الوسطى والاتصال بالشرق ورواج التجارة الدولية ثم اكتشاف أمريكا واستراليا واستعمارهما وتأسيس شبكة بحرية عالمية، وتوسع التجوال والرحلات والكشوف الجغرافية، اتخذت سبيلها إلى النضج بسرعة، وبدأت هذه الطبقة بنضال فكري واجتماعي وتقدمي وثوري ضد الجبهتين المتحالفتين: الكنيسة والإقطاع والأرستقراطية ذات الجذور المتعفنة المرتبطة به، والثورة الفرنسية الكبرى أحد التجليات الواضحة لهذه الحركة. ومن هنا يمكن اعتبار حركة المثقفين الأوروبيين في العصور الحديثة رد فعل في مقابل هاتين القاعدتين القويتين المتسيدتين على المجتمع والروح الأوروبية: الاقطاع والكنيسة الكاثوليكية، هذه الوضعية الاجتماعية والرسالة التاريخية الخاصة بها تفسر كل خصائصها الآتية وتبينها:

١ ـ الجنوح المضاد للكنيسة والرؤية اللادينية، والجهاد من أجل طرد الدين من مسرح الحياة والمجتمع والعلم إلى جدران المعابد، هذا جنوح حتمي ومعقول لأن البابا كان يعتبر نفسه نائب الله على الأرض ومالك الروح القدس، ومن هنا فإن سيطرته على كل شؤون الحياة الفردية والاجتماعية والسياسية والعقلية والذوقية لكل الأمم المسيحية كانت قابلة للتبرير. ولما كانت أوروبا تعتقد أن الحروب الصليبية وما نتج عنها من هزائم من فعل الكنيسة، ومن ناحية أخرى كان رجال الدين يقومون بالقضاء على كل حرية للفكر

بل والكشوف العلمية بغلظة، وكانت محاكم التفتيش الدموية تقوم بالمحاكمات المتتالية للعلماء والمفكرين بل والمتدينين ورجال الدين متحرري الفكر، وكانت الحروب المذهبية تؤدي إلى المذابح الرهيبة في أوروبا.

(بحيث قتل في برشلونة وحدها ثلاثمائة ألف شخص، وفي فرنسا كان من نتائج المذابح العامة للبروتستانت أن قضي تماماً عليهم قضاء تاماً، وفر الباقون، وهبط تعداد السكان في فرنسا وانهار الاقتصاد الفرنسي)، وبلغ قتل البشر والارهاب والاختناق حداً لم يبلغه في قوم قط وفي نظام قط فظ ووحشي طوال التاريخ البشري، وطوعاً أو كرهاً يجب أن يكون الاتجاه الذي اتجه إليه العقل والعلم وحرية الفكر اتجاهاً مضاداً للكنيسة، والرؤية والاحساس اللذان غلبا عليه يغلب عليهما سوء الظن بالدين. هذا الحكم الصريح الذي أصدره المستنيرون والمفكرون الواعون في الغرب لم يكن غضباً وانتقاماً فحسب من الوحشية التي كانت لدى جهاز الكنيسة، بل كانت التجربة العينية والمنطقية تؤيده، وذلك لأن الغرب طوال الألف عام السابقة على المسيحية كان ذا ثقافة وحضارة وقدرة اجتماعية وفكر متحرر شديد الإزدهار، كان العصر الذهبي للغربي، هذا العصر المستنير المفعم بالحركة والقوة، بسيطرة المسيحية دخل في مرحلة مظلمة وإرهاب وتوقف وضعف ظل طوال العصور الوسطى وطوال الألف عام التي حكم فيها الدين انطفأ مصباح الثقافة والنبوغ والحرية والتقدم والعلم والأدب والفلسفة، وبعد ذلك ومع وجود النهضة وإحياء الروح العلمانية

والحرية الفكرية في القرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر تلك التي كانت ترفع يد المسيحية عن المجتمع وتصارعها، استرد الغرب الروح وحدثت قفزة علمية وفكرية خارقة للعادة وتفتحت الحضارة الحديثة تفتحاً مدهشاً ومن المسلم به أن تقدم هاتان التجربتان هذا الحكم كمبدأ منطقي ومسلم به ولا يقبل الإنكار:

أ ـ أنه توجد بين الحضارة والدين علاقة عكسية، بمعنى أنه كلما سيطر الدين ماتت الحضارة وكلما تنحى استردت الحضارة الروح.

ب ـ إن الكنيسة في العصور الوسطى هي الغطاء المعنوي والثقافي لنظام الاقطاع الاجتماعي، ففي الحروب الصليبية كان البابا هو المفتي والإقطاع هو المحارب، وكان هذا يبين الصلة المباشرة بينهما بوضوح، وخاصة وأن الغرب قبل المسيحية كان ذا حكومة قومية بل وامبراطورية، وكان تحت سلطانه جزء كبير من العالم، كما كانت أمم متنوعة قد انضمت إلى هذه الامبراطورية العظيمة وكانت تدار حول محور مركزي، كما كانت اليونان قد قدمت للعالم أول تجربة للحكم الديمقراطي، لكن بعد سيطرة المسيحية على أوروبا انقسمت الحكومة المركزية والقومية إلى عدد من ملوك الطوائف المتفرقين المنفصلين، وبعد الامبراطورية والديمقراطية كان ظهور الاقطاع يعد رجعة وتقهقراً تاماً للغرب إلى مرحلة بدائية من التاريخ، وتبدل المجتمع والرؤية الكونية المتحركة والمنفتحة إلى رؤية إقطاعية مغلقة وراكدة وضيقة، وكان الدين هو

السبب في هذا التطور(؟) الاجتماعي والمدافع عنه، لأن البابا كان يخشى دائماً من أن تقوى القومية وأن تظهر على أساسها قوى سياسية في أوروبا يمكن أن تصير مصدر إزعاج لنظام حكومة الله على الأرض، وكان يقاومها دائماً، ومن وجهة نظر علم الاجتماع يستند النظام الاجتماعي الاقطاعي على أساس التقليد والمفاخر القومية والسلفية والعلاقات الاجتماعية الموروثة وتقسيم المجتمع إلى أشراف وعبيد وبعد الصلة بين الانتاج والاستهلاك الثابت والمتوازن وبالتالي «انغلاق الاقتصاد» وتوقف البنية التحتية الاجتماعية وجموده وانغلاق الرؤية الكونية وتوقف الفكر والإحساس وجمودها. ومسيحية القرون الوسطى أيضاً كانت السبب في هذا الشكل، ونتيجة له تجمدت في مثل هذه الظروف الاجتماعية وصارت محدودة، ونتيجة لذلك اتجهت أنظار كل حركة وكل فكر إلى الجسد الاقطاعي لمجتمع القرون الوسطى. وهذا الواقع أدى إلى هذا الحكم عند المفكرين وهو: إن الدين في الأصل نتيجة للظروف الاجتماعية للمرحلة التاريخية الاقطاعية والإنسان فيها مرتبط بالأرض ومتصل بها والزارع في هذه المرحلة إنسان ديني لأن طبقة الاقطاعيين تستند على الدين من أجل تبرير الوضع الراهن وتقديسه وإقناع الناس بالجبر الإلهي لمصيرهم وتأميلهم بتعويض فقرهم وكدهم وعبوديتهم في هذه الحياة الدنيا بعد ذلك في حياة الآخرة وهكذا كان الأمر.

وهذا الادعاء القائل بأن البابا هو نائب الله وحامل الروح القدس وخليفة بولس المقدس من ناحية، وإعلان هذه الفلسفة التي

تقول للبشر: إن الغرائز ولذات الحياة والعالم المادي والجهاد من أجل كسب المال ليست هدفاً للإنسان، بل إن هدفه هو تجديد الاتصال بالله من ناحية أخرى، كانت تؤدي من طرف آخر إلى هذه النتيجة: من هنا فإن البشر قطيع ينبغي أن يسلم زمامه إلى يد الراعي. وهذا النوع من التفسير والتبرير للإنسان والدين كانت نتيجته غالية تماماً على الحياة الدينية والروحية في أوروبا، فاستبداد رجال الدين هو أفدح أنواع الاستبداد وأكثرها ضرراً في تاريخ البشر، والآن: باسم المسيح الذي كان يقول: اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله، أقدم البابا وحرس الروح القدس ودعاة السلام والمحبة والعشق العام على إقامة البنية السياسية لنظامه على أساس النظام الامبراطوري الروماني القديم. وفي مواجهة هذا النظام الديني، من الطبيعي أن يطرح المفكرون الأحرار شعار فصل الدين عن السياسة من أجل تحرير العلم والناس، إذ كان «فصل الدين عن السياسة» يخلص دفعة واحدة المفكرين والأحرار والفلاسفة والعلماء والكتاب والفنانين وحتى جماهير الناس من السيطرة السياسية والاجتماعية لجهاز الكنيسة الفظ المتعصب الذي كان يتدخل في أمور الحياة حتى في الأذواق والجماليات والفنون وبُلي المجتمع باختناق مميت، ووضع مئات القيود على العقل والابتكار وكان أيضاً يخلص الأقليات الدينية التي كانت محرومة من الحياة تحت سيطرة الحكومة الكاثوليكية ومعرضة على الدوام للمذابح والتعذيب، ومن محاكم التفتيش التي كانت كل يوم تفتك بنابغة من نوابغ الفكر الحر، وأهم من ذلك كله كان يسمح للأمم التي لم

يكن لها الحق في الاستقلال السياسي في ظل نظام الكنيسة ليس هذا فحسب بل وكانت محرومة من حق الكتابة والكلام بلغاتها القومية بدلاً من اللغة اللاتينية التي اعتبرت لغة للإنجيل(؟)، كان يسمح لها بأن تتخلص من نير تسلط الكنيسة الرومانية وأن تتحول إلى حكومات قومية تحل محل الامبراطورية اللاتينية المقدسة.

كان المذهب الكاثوليكي يعتبر هذه الدنيا دنسة والغرائز معادية لله والحياة المادية حقيرة والجمال والنعم الموجودة في هذه الدنيا قبحاً وفساداً، وكان ميدان كفاحه الأصلي التضحية بالحياة في سبيل الموت، وفرض الميل إلى الزهد وطلب العزلة والتدين المنحرف الصوفي والانطواء المعنوي الذي في ظله ينبغي أن ينحى الإنسان عن نفسه في مواجهة الله. ومن الطبيعي أن يكون الاتجاه المنطقي والتقديم للحركة الفكرية التي كانت تحس بالعواقب الوخيمة التي تؤدي إلى الضعف والانحطاط التي تفضي إليها الأخروية «الاتجاه إلى الآخرة» المنحرفة، والتي كان الدين يدعو إليها في المجتمع الأوروبي الضعيف الفقير في العصور الوسطى، أن يكون تلقائياً اتجاهاً أرضياً ومضاداً للسماء، وإعطاء المبدئية للحياة الواقعية في هذه الدنيا والتقدم والقوة المادية أو الجنوح إلى الطبيعة في مواجهة جنوح الكنيسة إلى ما وراء الطبيعة. إلى الواقعية في مواجهة المثالية المفرطة الكاثوليكية.

والنظام السياسي عند البابا نسخة طبق الأصل من النظام الامبراطوري الروماني القديم. والبابا هو القيصر نفسه، يتوج أي يضع على رأسه وجسده رداء السلطة العالمية. ويجلس على عرش

السلطة الرومانية، ومثل القيصر الذي كان ينتخب من قبل مجلس الشيوخ الروماني، ينتخب هو من مجلس الكرادلة والكرادلة الكاثوليك هم شيوخ الرومان، ومجلس القناصل هو هو مجلس الشيوخ، والبابا عنده جيش ومحكمة وبلاط وجهاز إداري واسع في العالم، وحتى عندما اضطر إلى تحمل الحكومات القومية والسياسية في أوروبا، أقر هذا التقليد الذي يقضي بأن على الملوك أن يأتوا إلى روما وأن يضع هو بنفسه التاج على رؤوسهم، والآن أيضاً يشرف بعض رؤساء الجمهوريات بتقبيل يد البابا بعد انتخابهم، وبهذا يظهرون بأنهم يأخذون صك الحكم من يده باسم الله ملك السماء (لا من يد الأمة أو الناس)، وهذا يعني أن البابا لا يزال يدعي نفسه راعياً لكل رعايا المسيح الباقين وملوك الشعب المسيحي ورؤساؤه حكام من قبله[١].

هذا النظام الذي كان نظرياً وعملياً هو نفس النظام الامبريالي والاستبدادي للقيصر بإسم المسيح واعتقاداً بأن قوة الحكم تنفذ من «أعلى» إلى «أسفل» حدد الاتجاه السياسي والاجتماعي للحركة

---

(١) المترجم: كانت مظاهر استقبال البابا في رحلته الأخيرة إلى بولندا الشيوعية وإلى أوروبا وإلى امريكا البروتستانتية تثير التساؤل كثيراً حول توقيتها «بعد انتصار ثورة إيران» وحول الطقوس التي قام بها الشيوعيون والبروتستانت عند استقبال البابا وسعي اولئك الذين نبذوا الدين فصعدوا إلى القمر، وفضلاً عن قداس عام يقام في بولندا الشيوعية، فإن هؤلاء العلمانيين في أوروبا وأمريكا كانوا يسارعون لتقبيل طرف ردائه أو الشرب من مياه اغتساله إلى غير ذلك من المظاهر الجاهلية الوثنية التي قام بها هؤلاء المتحضرون مما لو قام به جبلي لم ير المدينة أو ريفي المولد والمعيشة هنا لوصم الإسلام كله بعبادة الخرافة. . . واعتبروا يا أولي الأبصار.

الفكرية والأحرار الأوروبيين، فالديمقراطية (أي حكم الناس كمنبع أصلي للقدرة الحاكمة) والقومية: أي الحكم المستند على استقلال الأمة وأصالتها وحرية الشعب في تحديد مصيره وكيفية حياته السياسية وشكله الاجتماعي، وهذا في مواجهة الامبريالية المسيحية والبابوية الكاثوليكية.

كانت القومية حركة تقدمية تحررية مضادة للامبريالية، وكان شعارها هو الاستقلال السياسي والقومي والحرية الدينية في مواجهة سيطرة الكنيسة الكاثوليكية، وإحياء اللغة الأم في التعليم والتربية والأعمال العلمية وحتى الدينية وترجمة الإنجيل إلى اللغات القومية في مواجهة ادعاء الكنيسة أن اللغة اللاتينية هي لغة الله وأن الإنجيل هو كتاب الله[1] وذلك حتى يخرج الإنجيل من احتكار رجال الدين الرسميين الذين كانوا يستحمرون الناس لجهلهم باللاتينية لغة الإنجيل الوحيدة، ويكون في متناول أيدي ذوي الأفكار الحرة وتأسيس المدارس ونشر الكتب والدعاية للدين وحتى تعليم الأطفال، ومن هنا كانت القومية في ذلك العصر سلاحاً ضد الامبريالية وضد الاستبداد وحركة تحررية تقدمية وثقافية.

لم يكن نشاط الكنيسة منحصراً فحسب في الهدى الروحاني

---

(١) بالرغم من أن الإنجيل الأصلي كان باللغة العبرية، ولم يكن عيسى يعلم اللاتينية، وأعلنها رجال الدين لغة للمسيح وإله المسيح مثل كل الأصول السياسية والثقافية للإمبراطورية الرومانية القديمة.

المترجم: كانت العبرية داخل المعابد، وكانت السيادة في وقت ظهور عيسى للآرامية.

والأخلاقي للناس، بل كانت تتدخل في كل أمور الحياة حتى المشاكل العائلية والعاطفية واليومية تدخلاً مباشراً وقسرياً، في حكومة الكنيسة كان على كل شيء أن يكون دينياً، وتمتع أي إنسان بحقوقه الأولية في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية مشروط بأن يكون كاثوليكياً وبتبعيته للكنيسة الرسمية وقبوله لكل الأحكام والتعاليم وحتى الأوامر غير الدينية التي كانت تصدر عن هذا الجهاز الحاكم، وحركة «علمانية» المجتمع والحياة الاجتماعية وهي سمات جماعة المفكرين الأحرار الأوروبيين في القرون الحديثة رد فعل إنساني ومتحرر في مواجهة القيود اللاأخلاقية واللاإنسانية. فالحكومة دينية، والمؤسسات الاجتماعية والإدارية كلها دينية، وأجهزة التعليم والتربية دينية، والأبحاث الفلسفية والعلمية والفنية والإدارية كلها دينية، بمعنى أنه ليس لغير الكاثوليكي الحق في أن يتدخل في السياسة أو يتبوأ منصباً سياسياً مهما كان صغيراً، وليس لفيلسوف أو عالم الحق في أن يخطو خطوة واحدة خارج القوالب الفلسفية والنظريات التي وضعها هذا الدين في العلوم الطبيعية وعلوم النبات والهيئة والطب، ومن المحتم على الرسام أن يرسم قصص التوراة أو صور عيسى ومريم والملائكة والقديسين، وعلى النحّات أن يلبس تماثيله الملابس المحددة تماماً، بل عليه في الأصل أن ينحت تمثاله طبقاً للنموذج والأساس الذي وضعه رجال الدين، ولا بد للكتاب باسم المسيح والإنجيل مراعاة الوحدات الثلاث عند أرسطو في الفن والأدب بدقة ذات وسواس ديني، ومن المحتم على المدارس تدريس

تعاليم الكنيسة للتلاميذ باللغة اللاتينية، وللتلميذ حق الدرس إذا كان كاثوليكياً فحسب[١]، وأتباع المذاهب الأخرى محرومون من كل الحقوق الاجتماعية المحصورة في الكنيسة[٢].

ومن هنا فإن حركة علمانية الحكومة ونظامها والمؤسسات الإدارية والتشكيلات والأصول الاجتماعية وكل وجوه الحياة المختلفة في المجتمع، تعني تحويل الحياة الاجتماعية إلى حياة إنسانية، أي أن تكون الإنسانية شرطاً من أجل الحياة في المجتمع محل القيد الذي كان موجوداً وهو كون الإنسان كاثوليكياً. ومن هنا فالمحتم والمنطقي أن المفكر المتحرر والمحب للإنسان لا يمكن إلا أن يكون علمانياً.

وأوروبا في القرون الوسطى وهي الأرضية الاجتماعية لنضج الحركة الفكرية ونموها كما قلت، كانت مجتمعا مستنداً على قاعدتين اجتماعيتين ثقافيتين: الدين والاقطاع، وكان المذهب الكاثوليكي عبارة عن «تحويل فلسفة ارسطو والثقافة

---

(١) حتى اليوم في باريس لا تزال دور الرضاعة والحضانة التابعة للكنيسة ترفض قبول الأطفال غير الكاثوليك.

(٢) كانت الكنيسة ترفض بشدة طلب كل الدول الإسلامية ببناء مسجد في روما. وإذا علمنا أن أفخم. الكنائس في الدول الإسلامية بنيت في أوج القوة العالمية للحكومات الإسلامية أو جددت، وأن خلفاء الإسلام كانوا قد خصصوا ميزانية من بيت المال لترميم الكنائس والحفاظ عليها ومن أموال الزكاة وهي ضرائب دينية كانوا ينفقون على مراكز العبادة للأديان الأخرى سوف نفهم قول لويس جاردوييه إن الحكومة الإسلامية ليست نظاماً سياسياً مذهبياً بمعناه الأوروبي الكاثوليكي.

المترجم: وافقت إيطالياً أخيراً بضغط من دول النفط على بناء مسجد.

اليونانية الرومانية القديمة الوثنية إلى المسيحية» وحفظت التقاليد الغربية القديمة في قلب الإيمان الشرقي الجديد بل واشتدت وتحجرت بشكل أكثر وأشد، بحيث أن كل تجديد وكل بدعة وكل ابتكار يفسر ككفر وعصيان، وكل تغيير كان يستوجب الخوف ورد الفعل العنيف من الكنيسة. مثل هذه الروح التي ابتليت هي نفسها بالتجمد وعبادة التقاليد الجاهلية الارستقراطية والثقافية والفكرية حلت في الجسد الاجتماعي للاقطاع وهو نفسه نظام راكد ومتحجر ومغلق وعابد للتقليد وضد التغيير والتقدم وعدو لكل تجديد وحركة.

في مثل هذا المجتمع يكون رد الفعل عند المفكر متميزاً: عبادة الجديد، الحرص والحماس لكل تغيير وابداع، وسوء الظن والنفور من الميل إلى الماضي وعبادة التقليد وكلها علامات تشير إلى إدانة الدين كحارس على القدم وعبادة الماضي وعداوة كل إبداع وكل حركة.

كان العلم خادماً للكنيسة، وكانت مهمته تفسير العقائد الجامدة التي كان رجال الدين ينشرونها بإسم الدين والقيام بتأويلها، ومن هنا كان هو نفسه متحجراً ومتوقفاً، أبعدته الرؤية المذهبية الخاصة عن الحياة الطبيعية، وجرته إلى البحوث والتدقيقات الكلامية والميتافيزيقية والكليات والقياسات الذهنية والمجردة، كانت إحدى رسائل سان أوغسطين النابغة المعروف تتناول هذا القبيل من الموضوعات: كم عدد الملائكة الذي يمكن لهم أن يتجمعوا في سن إبرة؟ كيف تتحد الذات اللاهوتية بالذات

الناسوتية؟ كيف يمكن لثلاث ذوات مستقلة أن تكون في نفس الوقت ذاتا واحدة بسيطة؟

وقام المفكر بتخليص العلم من هذه العبودية فإن علم العصور الحديثة الذي كان سجيناً مدانا وفر من سجن الدين بعد ألف سنة تلقائياً، تكون طبيعة حكمه عليه والوضع الذي يتخذه بالنسبة له معروفين. خاصة وأنه بعد تحرره، اتجه إلى التقدم طفرة وفجأة وبصورة ثورية، وبعد ألف سنة من الظلمة الوتيرية الراكدة، يسمى القرن السابع عشر قرن العقل، والقرن الثامن عشر قرن التنوير والقرن التاسع عشر قرن الأيديولوجيات والقرن العشرين قرن التحليل، وتفتحت مواهب فلسفية مدهشة وتحولت أوروبا بعد سقوط الكنيسة إلى يونان ما قبل سلطة الكنيسة، والعلم الذي كان أسيراً في سجن الدين وفي زوايا المدارس منكباً على نسخ التوراة والإنجيل وأقوال بطرس وبولس والحواريين والقديسين، أو في الناحية الأخرى من السحب بحثاً عن الحقائق الكلية للعالم والإنسان ووراء جدار العالم والإنسان، هبط إلى الأرض وعاد إلى الطبيعة والمجتمع، وهجر البحث عن الحقيقة الذي لا طائل من ورائه، وقام بالبحث عن القوة ذات الثمار، وعرف الدنيا وأظهر المجتمع والتكنيك وسيطر سيطرة متزايدة على الطبيعة والمجتمع والتاريخ، وله في كل يوم كشف وفي كل يوم اختراع، وتغير كل شيء، وصارت أوروبا قوية متمتعة غنية، واكتسبت الحياة طعماً آخر ونغمة أخرى، خرج العلم من القلعة المغلقة لرجال الدين وصار في متناول أيدي الجميع.

العلموية:

وكل هذا الانتصار والقدرة الخارقة للعادة، وكل هذه الكشوف والكرامات الواقعية التي أبداها العلم المحرر من الدين، أدى إلى ظهور العلموية، مبدئية العلم أو عبادة العلم، وكانت العلموية نتيجة لثلاث علل معقولة وطبيعية ومنطقية:

١ ـ الذكرى السيئة التي كان يحملها من «الالتزام». التزام في عهد خدمته وعبوديته المضادة للعلم طيلة ألف عام من عمره الديني. ومن هنا كان «والحق معه» نفوراً وخائفاً من كل التزام، فالالتزام عنده يعني العبودية وفرض أهداف غير علمية على العلم، وكأنه يريد أن يقول: لا ينبغي لأية قوة قط أن تملي على الأهداف، وأن تضع لي مبادىء، أو تحدد لي خط سير، أو تقيدني بقبول أي قدسية أو حقيقة أو مصلحة أو قاعدة مسلمة. الحقيقة هي تلك التي أصل إليها في أبحاثي الحرة، بقوة العقل وهداية المنطق والقاعدة العلمية والمشاهدة الحسية والبحث والمقارنة العينية والتجريبية في ساحة الواقع فحسب، لا ما يقولونه لي بأنه يجب أن أصل إليه، العلم هو الذي يوجه كل شيء، العلم أساس، العلم فقط من أجل العلم فحسب، لا يوجد

شيء قط جدير بالحرية وفي حاجة إليها مثل العلم، وحاجته إليها حيوية، واصطناع الفلسفات والبحث في المجردات والكليات وأسلوب القياس والمثل والاستحسان والإشراق الأسكولاسي تؤدي إلى غرق العلم في الأوهام والذهنيات، ولا تؤدي إلى الكشف عن مجهول إطلاقاً، كما لا تؤدي إلى أية معرفة دقيقة موثوق بها. والحقائق الكلية والأولية للوجود، وجوهر الأشياء وعلة العلل في الأمور والقضايا الغيبية والميتافيزيقية غير قابلة للمعرفة، تكفي ألف عام من «محلك سر» والبقاء العقيم في خدمة أرسطو.

٢ ـ ميدان عمل العلم هو الطبيعة والواقع، وأسلوب عمله المشاهدة الحسية والاستقراء، والبحث والمقارنة العينية والتجريبية وهدفه أيضاً معرفة «المظاهر والظواهر» (لا الجوهر والكنه وحقيقة الماهية)، وكشف الروابط بينها، ثم استخدامها في خدمة الحياة والتقدم والقدرة وسد الحاجات الواقعية والعينية للبشر (التكنيك)، وهذه الروح الجديدة للعلم كانت رد فعل صحيح وحيوي عنده في مواجهة الاسكولاسية.

٣ ـ وفي النهاية: الغرور. فإن كل هذه الانتصارات السريعة المدهشة والسيطرة المتعددة على الطبيعة، والتنقيب في الحياة المادية ومعرفتها واستخدامها، والسيطرة على القوى التي كانت غالبة ومسيطرة وقاهرة دائماً، كلها جعلت العلم مغروراً. فاستقلاله واعتماده على نفسه وصحة تشخيصه وألوان النجاح العظيمة المعجزة الفجائية، وفي مقابل هذا ضعف منافسيه أي العرفان

والدين والفلسفة الأولى وعلم الكلام و. . . عدم جدواها، فلا هي اكتشفت مجهولاً ولا هي وصلت إلى مدى ليس فحسب في طريق الحياة المادية البشرية بل في طريق سيرها وسلوكها أيضاً، هذا أدى إلى هذا الحكم تلقائياً وهو: إن العلم فقط هو ما له قدسية، والعلم فحسب هو منبع وعي الإنسان وكل ما لا يعلمه العلم ولا يستطيع أن يعلمه وهم، وكلام العلم قاطع، والحقيقة الواقعية ما لم تكن علمية فهي ليست موجودة.

وليس للعلموية سوى هذه الأحكام الثلاثة، وهي نتيجة منطقية وطبيعية للظروف العينية والواعية للمجتمع والعصر وروح العصر والثقافة التي ظهرت فيها: العلم من أجل العلم والجنوح إلى الواقع المجرد، والامتياز للعلم. وهذه استجابات ثلاث في مواجهة الحكمة الاسكولاسية. فلما كانت الاسكولاسية قد قامت بإجبار العقل على البحث فيما وراء الطبيعة وعن الحقائق المطلقة والمجردات اللاهوتية (الميتافيزيقية)، قام العلم فقال: ينبغي البحث في نفس هذه الطبيعة والكشف عن الوقائع المحسوسة والظواهر المادية والقوانين الناسوتية (الفيزيائية). وعندما كانت تقول: الأسلوب الوحيد هو الاتباع الجبري للقياس الأرسطوي أو الكشف والشهود الذهنيين العرفانيين، كان العلم يجيب: لا، بل أسلوب المشاهدة والتجربة والاستقراء للمحسوسات والجنوح إلى الواقع، ومن هنا يقول كلود برنارد «ما لم ألمس الله تحت المبضع الذي أقوم به بالجراحة فلن أؤمن به»، وعندما تعلن الكنيسة أن إلهام الروح القدس هو السبيل الوحيد لمعرفة الحقائق وتعتبر

العقل أعمى والعلم فضولاً، يقول العلم: اعتباراً بمصيرك العقيم وإشراقياتك الدينية وبشهادة التاريخ، فإن طريق المعرفة الوحيد والدقيق والصحيح هو المعرفة العقلانية، وكلامها فقط هو الموثوق فيه والمسلم به، وعلى هذا النحو فإن المفكرين الجدد الذين نهضوا في مواجهة العلماء الدينيين في القرون الوسطى وفي مواجهة الاسكولاسية ابتلوا منطقياً وحتمياً بالعلموية.

وتمتد الجذور الطبقية للمفكرين الأوروبيين الجدد إلى الطبقة البورجوازية الجديدة الوليدة والثورية، الطبقة التي أخذت في النضج والتقدم بسرعة بعد الحروب الصليبية واكتشاف القارة الجديدة والاتصال بأفريقيا وآسيا واتساع الرحلات البحرية والبرية وبالتالي اتساع التجارة الدولية وتدفق الثروات التي لا حدود لها لكل منابع الثروة في العالم على أوروبا الوسطى والغربية والشمالية، فالبورجوازي رجل مال وتجارة وتمركز في المدينة وعمل صناعي، وفي مقابل إنسان المرحلة الإقطاعية الزراعية وعمله محدود ومرتبط بالأرض وموسمي، ودائرة حركته وابتكاره محدودة نجد أن البورجوازي إنسان متحرك وبالتالي متطور ومغرور ومتكبر وقابل للتغير وعابد للجديد وجنوح إلى المستقبل ومستزيد وذو رؤية كونية منفتحة وقليل التعصب ونفور من التقليد والكلاسيكية وضائق بالفضائل الارستقراطية بل ومبادىء الأخلاق. فالمبدأ الأخلاقي الأساسي عند البورجوازي هو التقدم، وفلسفة حياته التمتع المادي ومبدئية الاستهلاك، وهذا في مقابل أخلاق الإنسان القديم وأساسها «الفضيلة» وفلسفة حياته

مبدئية «المعنى»[١] ومن هنا فبالرغم من أن البورجوازي متدهور أخلاقياً، وينبغي اعتبار رواج الثقافة البورجوازية مرحلة سقوط للقيم الأخلاقية والأسس المعنوية الإنسانية[٢] لكنه من ناحية الإيمان والاستعداد للتقدم أفضل من الإنسان القديم (لأن التقدم في حد ذاته فضيلة)، ونفس هذا الاستعداد والإيمان هو الذي أوجد البروتستانتية الجانحة نحو الدنيا والمتقدمة في قلب الكاثوليكية، وقضت على الإقطاع، وخلقت الحرية والديمقراطية والروح الثورية المضادة للرجعية، والتحرك والإبداع، والحياة الصناعية والمادية المتقدمة الجديدة في أوروبا.

وكان المثقف في هذا العصر يعتبر عقل الطبقة البورجوازية المفكر في أوروبا، وكان في طليعتها يناضل ضد الدين والأقطاع والتجمد والخرافات الماضية، وكان يحمل كل خصائص الطبقة البورجوازية التي سيطرت حديثاً والتي كانت تجاهد في إقامة الجنة الموعودة على الأرض بالعلم والتكنيك في مقابل الدين الذي كان يسعى في خداع الناس وصرفهم عن الدنيا ويعدهم

(١) هنا تطرح قضية عميقة جداً وهي أن الأديان ربما لأنها ظهرت في مرحلة سابقة على تكوين الحكومة بل وتشكيل الطبقة البورجوازية ـ قد قبلت الروح الأخلاقية الخاصة بمرحلتها التاريخية، إما في بدايتها وإما خلال تطورها التاريخي.

(٢) إنني هنا واقع بشدة تحت تأثير «مدرسة الاشتراكيين الأخلاقيين الألمانية» في القرن التاسع عشر (وليس الإيمان بها)، تلك المدرسة التي قامت بنضال خاص ضد البورجوازية على أساس المثالية الهيجلية، وهي ذات أهمية شديدة خاصة للاهتمام بالبعد المعنوي للإنسان والذي يزول في البورجوازية، ومؤسسها من تلاميذ هيجل، وكان ماركس أحدهم قبل أن ينضم إلى الشيوعية.

بالجنة الموجودة في العالم الآخر. ومن هنا كانت البورجوازية كطبقة اجتماعية تقدمية وثورية في حد ذاتها، ومن الناحية الفكرية طبقة منطقية ومستندة على العلم ومنفتحة ومتحركة، ومن الناحية الروحية متحررة طبقياً ومضادة للارستقراطية. وكان المثقف الأوروبي وقاعدته الاجتماعية هذه الطبقة في صراع فكري وعلمي مع علماء الدين الذين كانوا يستندون على قاعدة اجتماعية هي الارستقراطية الاقطاعية، وبالتالي تعهد برسالة تاريخية خطيرة وليدة ضرورة ومقتضيات وواقع مجتمعه، وكانت هذه العوامل هي التي دفعته إلى مسيره هذا وأوجدت فيه هذه الخصائص الفكرية عوامل منطقية. وها أنتم ترون أنني في هذا التحليل لا استندت على قضايا ميتافيزيقية ولا على أسلوب ذهني وتجريدي ومثالي.

والآن بالنظر إلى هذه الحقيقة المجمع عليها وهي أن المثقفين بالمعنى الأخص أي المفكرين في الدول غير الأوروبية ـ التي دخلت في القرن الأخير مرحلة التحديث أي تقليد الأشكال الأوروبية في الحياة الفردية والاجتماعية ـ هم نسخة بديلة للمثقفين الأوروبيين الجدد، إذ أن المتعلمين والمفكرين عندنا أخذوا كل الخصائص الفكرية والمعنوية والأحكام والاتجاهات الفلسفية والعلمية والدينية للمتعلمين والمفكرين الأوروبيين عن وعي أو غير وعي، ندخل إلى هذا المبحث العلمي القائل بأن أحد خصائص الرؤية العامية: التفكير المطلق والرؤية المجردة. وكما يقول شاندل: «إن الفكر البشري قطع مرحلة طويلة في

طريق نضجه حتى وصل إلى المرحلة التي يقول فيها: من هذه الناحية الرأي كذا، ومن الناحية الأخرى الرأي كذلك، بهذا الاعتبار كذا وبالاعتبار الآخر كيت»، وإحدى خصائص اللغة العلمية أنها تستخدم الصفة التفصيلية أكثر من استخدامها للصفة التفضيلية، لأن الإنسان بعد أن تخلص من رؤيته العالمية النسبية، تعرف لأول مرة وهو على عتبة دخوله «رؤيته العالمية المطلقة» على مفهوم النسبية. والرؤية المعتمدة على التفكير المطلق والرؤية المجردة ـ وهما توأمان ـ سمة للحكم العامي، لكن ليس بمعنى أن المتعلم ترك الرؤية غير العلمية بسبب العلم الذي حصله ولسنا بحاجة إلى إثبات هذه القضية القائلة بأن الرؤية غير المحصول العلمي ونبلي أنفسنا ببحوث منطقية وأدلة عقلية وذهنية، فنحن كل يوم على اتصال بجيش العلماء العوام، وكل إنسان يعرف علماء بارزين قضوا أعمارهم منكبين على الكتب وشاخوا في المكتبات وقاعات الدروس والمطابع ويعلمون الكثير لكن الفهم الذي لديهم عن الدنيا والحياة فهم منحط وسطحي وعامي. وفي العالم والمجتمع وفي مواجهة الألوان والخطط والأصوات والمعاني المدهشة جداً يمتلكون عيوناً عمياء وآذاناً صماء وقلوباً وعقولاً غبية ومظلمة ومتجمدة، هذا النوع من العلماء العوام الذين يوصفون بتعبير السيد حاجي شيخ محمود الحلبي «بحار العلم التي لا سواحل لها لكن بمقدار عقلة أصبع من العمق» كثيرون بين الصفين الموجودين من العلماء عندنا: الصف القديم والصف الجديد، والسبب في ذلك هو التشابه الذاتي والخلقي

بينهما. كلاهما مقلد وكلاهما متعصب وكلاهما غريب عن واقع عصره وبيئته، ومن هنا يبتلون بـ «الدوغما» ويضيعون في ذهنياتهم الإملائية والإلقائية، ومن هنا فإن عالمنا العصري بمجرد أن يتعلم عدداً من الدروس عن الفيزياء والكمياء أو علم الاجتماع أو علم النفس يحس بنفسه وكأنما كشفت أمامه كل أسرار الكائنات وكل المجهولات في روح الإنسان وتاريخه ومجتمعه ومستقبله، وتجد الكبرياء والهيمنة الفكرية والحسم والنهائية في فكره وسلوكه وقوله بدرجة تخيف سادة نفس هذه العلوم من أمثال أنشتاين وبلانج وداروين ونيوتن ووليم جيمس، وعالمنا القديم بمجرد أن يتعلم بضع دروس من اللغة العربية والأدب العربي والفلسفة والمنطق اليوناني القديم الذي تحول إلى إسلامي والقضايا المتعلقة بالحقوق والآداب، يظن نفسه حاملاً لعلوم الأوائل والأواخر وجامعاً للمعقول والمنقول، وحجة الإسلام وأعظم آيات الله وسند الإسلام[١] ورجال الدين.

هذه السمة العامية أي التفكير المطلق والرؤية المجردة التي ابتلى بها علماؤنا لا تعد انحرافاً معنوياً فحسب ولا يمكن تحديدها كقضية من قضايا علم النفس أو بحث من أبحاث المنهجية والفلسفة العلمية، لأننا إذا علمنا أن تغير الرؤية والأسلوب الفكري لأوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر هو الذي صنع حضارة اليوم

---

(١) هذا النوع من الفهم تسرب مباشرة إلى المجتمع الإسلامي من الجهاز المسيحي وبخاصة مؤسسة الكنيسة الكاثوليكية.

وتحرك اليوم[1] نستطيع أن نفهم بوضوح أن رؤية علمائنا المتخصصين في العلوم القديمة والجديدة التي ترجع إلى العصور الوسطى إلى أي مدى تتدخل في تحجرنا وتوقفنا الاجتماعي والثقافي اليوم.

(١) ثانية: على أنصاف المفكرين الذين سمعوا عن قضية البنية التحتية والبنية الفوقية ألا يصرخوا قائلين: إن تغيير الرؤية القمرية في حد ذاته كان نتيجة للعوامل المتعلقة بالبنية التحتية في المجتمع الأوروبي، وقد ذكرت لبضع صفحات خلت هذه العوامل وهذا الحكم لا يغير مبدأ علم الاجتماع بدليل أن واحداً من الماركسيين الأجانب يؤمن بنفس الرأي.

جغرافية الكلمة:

إن مفكرينا التقليديين إذا سمعوا فكرة يعرفونها بل ويؤمنون بها في تعبير جديد غير معلوم يعجزون عن فهمها، وإذا سمعوها من أحد ليس أجنبياً وليس في صفهم المتميز يثورون بعنف ولما كانوا لم يفهموا ما يجب عليهم القيام بدحضه، فإنهم يسقطون في تناقضات وآراء وتفسيرات بدائية ومضحكة. ألقيت محاضرة تحت عنوان «جغرافية الكلمة»[١] وأقصد بالكلمة المعنى الاصطلاحي لها في لغة الحديث أي الفكرة أو النظر أو الرأي أو الأطروحة أو الرأي الجديد والكلام[٢] بنفس ذلك المعنى الذي أورده شاندل ضمن جدله الطويل المؤثر مع دي لاشابل وهو براغماتي متعصب مؤمن بالعينية حين يقول «... ثقافتنا من صنع أناس كان لديهم كلام للقول»[٣].

---

(١) اليوم لدي شك بالنسبة لجمال هذا المصطلح وفصاحته لكني لا زلت أؤمن ببلاغته وتأثيره في ذهن السامع أو القارىء.

(٢) بالمصادفة يتفق العرب والفرنسيون في استخدام معادل هذا اللفظ بنفس المفهوم.

(٣) التضاد والتوافق بين الفكرة idieé والعمل action بحث عميق ورائع جداً خرج اليوم من ميدان الأبحاث الكلامية والفلسفية وبعد ظهور المدرستين البراغماتية والوجودية اتسع وحمي وطيسه أكثر مما كان مطروحاً في فلسفة هيغل وبعدها عند ماركس.

كان ما تناولته أنه ينبغي فصل الكلمات المطروحة في الميادين الفلسفية والعلمية تماماً عما يطرح في الميادين الاجتماعية والسياسية. ففي ميدان الفلسفة والعلم، تطرح حقيقة كلمة ما فيتلقونها بعينها ويزنونها بمعايير علمية ومنطقية وتجريبية، ويطلقون الحكم بشأنها: حق أو باطل منطقية أو غير منطقية ذات قيمة أو غير ذات قيمة... لكن في المجتمع والسياسة، ينبغي أن تتدخل جغرافيتها أيضاً في البحث والحكم تدخلاً مباشراً، وإغفال هذا الأمر يؤدي إلى عواقب وخيمة لا تعالج، وهناك أحكام علمية أفدح وأشد ضرراً من الجهل المطبق والأحكام الجاهلة، وهذا بسبب أننا في طرح قضية فكرية في المجتمع نبحث فحسب في أسلوبها العلمي الصرف بينما ننسى قرينتها الجغرافية أو الزمنية.

سئلت عدة مرات: ماذا ترى في آراء «كسروي»[١]؟ وفي الغالب عندما تطرح هذه القضية يأخذ طرفا الدعوة: المؤيد لكسروي والمعارض له في تناول نظرياته واحدة بعد واحدة، ويقدمان أدلة علمية ومنطقية وتاريخية وفلسفية متعددة لإثباتها أو دحضها، ويبحثان آراءه في الدين والإسلام والأخلاق والله والتاريخ وعلم اللغة والتشيع والتصوف وحرق الكتب والبهائية والأدب الفارسي وحافظ وسعدى والخيام وما إليها ويصلان إلى نتائج وآراء منطقية وعلمية مختلفة وكأنها على سبيل المثال نظرية النسبية لأنشتاين أو التكامل عند داروين أو سيادة الغريزة الجنسية عند

(١) المترجم: أحمد كسروى باحث إيراني معاصر كان ينادي بالعودة إلى إيران القديمة.

فرويد أو أصول الاقتصاد السياسي عند آدم سميث. في حين أن المجتمع موجود حي نشط وواعٍ وحساس وصاحب آلام واحتياجات وإيمان وآمال ومحدود في زمان أي في مرحلة من السنين وكأنه «فرد» أي شخصية إنسانية، له جسد مادي متشكل من أعضاء (وبتعبير أحد علماء النفس وهو تعبير مناسب فيزيولوجيا اجتماعية)[١] وله أيضاً روح حية وشاعرة وذات إرادة وضمير هي تقريباً ما يسميه لويس برول الهدف الجماعي L'ame collective ويسميه دوركهايم الضمير الجماعي Conscience Collective. وفي الحقيقة فان هذا المجتمع هو الشخصية الحقيقية والواقعية الإنسانية وليس الفرد. فالفرد عبارة عن حيوان، حيوان في رأي الاجتماعيين يستمد كل شيء من المجتمع وهو رأي نرى أنه مبالغ فيه، إذ ينبغي أن نقول إنه إما يأخذ كل شيء من المجتمع أو ينميه في المجتمع.

على كل حال، القضية هي أنه ليس في المجتمع من واقعية لأثر قط مجرداً عن كل المجتمع وعلماء الاجتماع أو المتخصصون الذين يختارون واحداً من الأسس الاجتماعية[٢] أو إحدى الظواهر

---

(١) بالرغم من أنه لا يمكن أن تكون الفيزيولوجيا الاجتماعية هي علم الاجتماع كما أن الإنسانية ليست علم الإنسان.

(٢) إنني أرى شخصياً أن رأي الفردانيين والبسيكولوجيين رأي تجريدي ومثالي إلى غير حد لأنها تنزل بالواقع المستقل والغالب والمربي للمجتمع إلى مستوى، «تجمع» أو «شكل» أو «إناء يشمل أفراد البشر» ـ أو على الأكثر إلى مستوى «منظمة أو نظام اجتماعي مكون من أفراد» ولا أريد أن أقبل النظرية الأكثر رواجاً: نظرية الاجتماعيين لأنها لا تعطي أهمية للحقيقة الإنسانية أو بتعبير هايدجر للوجود الحقيقي والذاتي للإنسان أي إلى الـ «أنا» بالمفهوم العرفاني والوجودي. فالمجتمع ليس تجمعاً من=

في المجتمع أو الواقعيات الموجودة فيه ويضعونها مجال الدراسة والبحث، يشبه ما يقومون به تماماً أن يقوم أحد بقطع عضو من جسد إنسان حي ثم يقوم بدراسته، فكل قضية اجتماعية قابلة للبحث فحسب والدراسة في قلب ذلك المجتمع، وفي «حيثيتها» الاجتماعية.

وفي باحة الحمام بالرغم من أن الجميع عراة وواضحون وبلا غطاء أو زينة، لا يمكن لأحد أن يعرف حقيقة أيهم ينبغي أن يراه ويفهمه خلف مكتب الإدارة أو في حجرة الدرس أو في المحراب أو فوق المنبر أو في السوق، ومن هنا ففي المجتمع يناط فهم كل

= أفراد مستقلين، هو جسد مكّون من خلايا يأخذ منها الدم والشكل والحياة، مع وجود فرق وهو أن الخلايا في هذا الجسد الاجتماعي ذات وعي وإرادة، ومن هذا المفهوم، سوف يكون لمسؤولية الفرد معنى ومنطق، وإلا فإن اعتبار الفرد ليس شيئاً إلا ما يأخذه من المجتمع ثم اعتباره مسؤولاً أمام المجتمع تناقض في القول واضح ومضحك ويشبه أن نعتبر الشجرة التي تتبع حتمية الطبيعة ولا تنمو ولا تثمر الا بمقتضى الطبيعة وعوامل جوها وتربتها مسؤولة عن ثمرتها، لأن الجبر ولمسؤولية متناقضان معاً، لأن المرء الذي يستطيع أن يختار بإرادته المستقلة والحرة على الرغم من كل الظروف مسؤول ويقول مولانا جلال الدين الرومي بأسلوبه الخاص: عندما ترمي كلباً بحجر، بالرغم من أن الكلب يرى أن الحجر هو الذي شج رأسه، لا يأبه به، بل ينبح على الفور في وجهك، لأنه حتى الكلب يميز بأن العلة ليست مسؤولة دائماً عن النتيجة ولأن علاقة العلية غير علاقة المسؤولية، لقد ميز بين الحجر وبينك، بأنك فقط المسؤول عن هذا الفعل لأنك أنت فقط الذي تملك الحرية والاختيار:

وبالرغم من أن السهم يخرج من القوس فأن أهل العقل يرون أنه منطلق من القواس

وفي رأيي أن الفرد والمجتمع وجودان بينهما دائماً علاقة من العلية والمعلولية متقابلين ومعيار هذا التأثير الثنائي مرتبط بميزان القدرة والأثر الوجودي للفرد والمجتمع مثل علاقة الإنسان بالطبيعة.

شيء اجتماعي «بمصطلح دوركهايم» بفهم الأشياء التي صنعت هذا التركيب الكلي وذات علاقة متقابلة معه.

وكثير من القضايا الاجتماعية والدينية التي نطرحها اليوم نعجز عن إدراك مفهومها الواقعي لأننا ننتزعها من جسدها الحي أي بيئتها الاجتماعية وجوها الزماني وضمير المرحلة التي ظهرت فيها وروحها، وكلها جزء لا ينفصل عنها، وننظر إليها في صورة «موضوع مستقل ومجرد وعلمي» كيف يمكن فهم الحجاب أو تعدد الزوجات أو الإحساس بهذا المعنى إلا إذا وضعناها في قلب المجتمع والزمان والروح المسيطرة للمرحلة والظروف التاريخية التي ظهرتا فيها وتشكلت وكانت مفهومة؟ حتى الأمور البسيطة من قبيل الموضة والتزين والشكل في الملابس، بما أنها ظواهر اجتماعية فهي ذات معنى في موضعها الاجتماعي فحسب، وإلا مسخناها كلية وجردناها من محتواها الاجتماعي. فإطلاق اللحى على سبيل المثال إذا جردناها كظاهرة من جوها الاجتماعي ماذا يمكن أن يكون لها من معنى؟ إطلاق اللحى هذا في جونا الاجتماعي التقليدي يجد مفهوماً دينياً ومقدساً، وفي أمريكا اللاتينية يجد معنى ثورياً وفي أمريكا الشمالية وأوروبا يعبر عن معنى فلسفي وتمرد وعصيان، وإذا أعطينا هذه «القضية» الموضوعية بشكل مجرد وانتزاعي، شئنا أو أبينا سوف نخرج باستدلالات بشأن لحى أتباع كاسترو في امريكا اللاتينية التي تحمل معانٍ سياسية وطبقية وأيديولوجية واتجاه معاد للامبريالية ومعاد لأمريكا وثوري ويساري ومعاد لحرب فيتنام مثل التي سنخرج بها

بشأن لحى القساوسة المعادين لكاسترو وسوف ننظر إليهما بنفس العين التي سننظر بها إلى لحى الهيبيين الكثيفة وهم ضدهما معاً.

إن ما سوف يطرح في الجدل المنطقي بين الصفين: المدافعين والمعارضين سوف يكون مسائل من هذا القبيل: إن اللحية علامة على رجولة الرجل، واطلاق اللحى عمل بمقتضى الطبيعة وناموس الخلقة لأنها لو كانت زائدة لما أنبتتها الطبيعة. واللحية عضو من أعضاء البدن وحلقها يشبه تماماً أن يقص أحد أنفه بمقص بدليل أحمق أنه عضو قذر أو أنه لا يتناسب مع وجهه، والفرق بين الرجل والمرأة في الظاهر هو في الالتحاء أو عدمه، وكل من يزيل لحيته عنده ميول نسائية ومن الناحية الفيزيولوجية تكون هرمونات الأنوثة أقوى عنده من هرمونات الذكورة، إن اللحية فيها عظمة وجميلة وتضفي وقاراً، واطلاق اللحى يعطي إمكانيات متعددة للزينة والتزين والتفنن... وعلى العكس يأتي المعارض بأدلة من هذا النوع في دحض اللحية، وسوف يقدمون الانتقادات إلى أتباع كاسترو ويحمي وطيس المعركة. هذه الأبحاث أية مساعدة سوف تقدمها في معرفة اللحى والملتحين في العصور المختلفة والبيئات المختلفة؟ ينبغي الاهتمام بجغرافية اللحية حتى نفهم معناها، إذ أننا أخرجنا اللحية من ظروفها المكانية والزمانية أي من جغرافيتها التاريخية، فلن يبقى في أيدينا إلا قبضة من الشعر.

أقصد بجغرافية الكلمة أنه يمكن معرفة صحة قضية فلسفية أو علمية أو أدبية أو بطلانها بمعايير المنطق والاستدلال، والتجربة، لكن بالنسبة للقضية الاجتماعية ينبغي أن تكون لدينا

معلومات عن زمانها ومكانها، ثم نقرر في شأنها، لأنه في العلوم تكون القضايا إما صحيحة أو غير صحيحة، لكن في المجتمع والسياسة ليس الأمر بهذه البساطة، لأن كل القضايا الاجتماعية ذات ارتباط وثيق ورابطة علية متقابلة وتأثر مقترنان لا يتجنبان، وكل هذه المعايير الخارجية والقضايا الالتزامية ينبغي أن تتدخل مباشرة في الحكم عليها، لأنه أحياناً تكون قضية ما صحيحة في حد ذاتها ومنطقية ومعقولة وذات قيمة، ويكون طرحها في أرضية معينة وفي زمان معين مرضاً وانحرافاً وتصير فساداً وكارثة، وعلى العكس تكون قضية ما خرافة في حد ذاتها ولا منطق لها وغير صحيحة من وجهة نظر الواقع الفلسفي والعلمي أو الفني والأدبي بل وتكون قبيحة ومبتذلة، قد تكون في أرضية معينة وفي زمن معين عاملاً إيجابياً بناءً، وتركيزي على هذا الموضوع أكثر بسبب أنه يمكن فهم كل القضايا الفكرية والاجتماعية والسياسية والتاريخية وما هو مطروح في الشرق والغرب بالانتباه إلى هذا الموضوع، ليس هذا فحسب بل وفهم الرسالة الاجتماعية للمفكرين الذين يطرحون قضايا في مجتمعاتهم وينطلقون منها أو يواجهون القضايا التي تطرح ويطرحها غيرهم، وعليهم أن يعرفوها جيداً يتخذوا منها موقفاً صحيحاً، فمن ناحية من الضروري معرفة هذه النقطة لأن غفلتنا عما أسميه «جغرافية الكلمة»، ترك ميدان المجتمع خالياً ودون عقبات أمام الاستعمار المحتال الخبير في الغرب لكي يستطيع بطرح ما هو قابل للرد من الناحية الفلسفية والعلمية والأدبية والفنية أن يحول دون ما ينبغي

طرحه بالفعل. وفي هذه اللعبة وبسبب أننا فقط لم نكن واعين بالقضية القائلة لكل مقام مقال ولكل موضوع مقام.

إن النقد الذي أوجهه إلى كسروي قبل أن أدخل في متون آرائه وأفكاره وآثاره موجه إلى الزمان الذي اختاره لطرح قضاياه فالناس في الغالب يفتحون كتبه كما يفتحون كتباً علمية أو أدبية، ثم يفكرون في صحتها أو سقمها، ولم يفكر أحد قط في هذا الموضوع: إنه بعد سنوات طويلة حصلت الأمة على حق التفكير والكلام واتخاذ القرار بحرية، فرصة ومصادفة عابرة، قليلاً جداً ما وقعت في يدها عبر تاريخها الطويل، وتعلم أنها سوف تفر من يدها سريعاً، وفي مثل هذه الفرصة الاستثنائية التي وجدت بعد لأي، يكون طرح القضايا التي يمكن طرحها في أية فرصة من قبيل الخيانة.

يروى أنه في إحدى جلسات مجلس شورى الأمة، كانت الحكومة قد قدمت لائحة ما وعند التصويت عليها كان تعداد النواب المؤيدين والمعارضين لها متساوياً. وكانت الجلسة في انتظار دخول أحد النواب حتى تتحدد نتيجة التصويت، كان مصير اللائحة رهن هذا الشخص رفضاً أو قبولاً، ومرت لحظات في الانتظار وكانت العيون مركزة على باب الدخول، ولم يدخل أحد، وكان المرحوم مدرس(١) زعيم المعارضة، وفجأة وقعت عيناه على

---

(١) المترجم: سيد حسن مدرس من كبار المجاهدين في التاريخ الإيراني المعاصر والوحيد الذي وقف في وجه رضا شاه. اغتيل في منفاه على يد عمال رضا شاه في ١٩٣٨.

أحد الحاضرين في الجلسة وقد وضع رأسه في جيب ثوبه وراح في النوم، كان أحد أولئك المتعصبين عن جهل من نفس نوع النواب الذين قال عنهم «عين الدولة» عند الاستجابة لمطالب الدستوريين بتشكيل «عدا التخانة» وانتخاب نواب من الأمة من أجل تشكيل مجلس نيابي إن البلاط موافق بشرط واحد وهو ألا يتدخل النواب أبداً في أمور السياسة في المملكة، ومما لا جدال فيه أنه كان من مؤيدي الحكومة، ولا شك أن رأيه كان الموافقة على اللائحة، ولكن بالصدفة ونظراً لميوله الدينية، كان يميل إلى سيد مدرس شخصياً ربما لأنه من السادات وللباسه الديني، وذهب مدرس الذكي على الفور وجلس بجواره وقال: ليس من المعلوم إلى متى يطول هذا الأمر، وصلاة الظهر وجبت، أليس من الأفضل أن نذهب إلى حمام المجلس فنتوضأ ونصلي ثم نعود؟ وتركا الجلسة معاً وتوضأ، وبمجرد أن رفع ذلك الجاهل يده بادئاً الصلاة، خرج مدرس وأغلق عليه الباب من الخارج، وبمنتهى السرعة وصل إلى الجلسة وأعطى صوته، ورفضت لائحة الحكومة بفارق صوت واحد، وبعد أن انتهى الأمر، عاد مدرس وفتح الباب وقال بلهجته الأصفهانية الجميلة لسجينه الأبله: في النهاية يا مؤمن، هل كان وقت الصلاة؟

إن ما أقوله يتعلق بجغرافية كلمة ما، فالصلاة عماد الدين، وأعز العبادات، وهي الحديث مع الله وثواب الصلاة في وقتها معلوم. . . لكن انظروا لو أننا فصلنا هذه الحقيقة المطلقة والمقدسة عن ظرفها الزماني والمكاني ونظرنا إليها كقضية فلسفية وعلمية

ودينية وعاملناها بمقتضى القيمة التي لها، كيف سنحكم على الأمر؟ لكن ليس مدرس هو الذي يتصرف على الدوام، أكثر علمائنا ومفكرينا القدامى والجدد كانوا ذلك النائب المتعصب الجاهل عابد الحقيقة.

فالقومية حركة تحررية وتقدمية، وكما رأينا صارت هذه المدرسة الفكرية في العصور الوسطى سبباً في الاستقلال القومي ومنح الشخصية الثقافية والتاريخية والأصالة المعنوية والسياسية والاقتصادية لشعوب متعددة، وكان الأبطال والقادة القوميون دائماً وفي كل مكان من أكثر الشخصيات البشرية قدسية، ولا يزالون هكذا، وهناك مئات الأدلة المنطقية والعلمية والاجتماعية والتاريخية في إثبات صحة هذا المعتقد، وكانت القومية دائماً حركة مضادة للامبريالية وللاعتداء وأعظم مدافع عن حياة الأمم وعزتها، لكن بمجرد أن قامت هذه المدرسة التي تهب الحياة في القرن العشرين في المجتمع الإسلامي، تمزقت الامبراطورية العثمانية ـ التي كانت كقوة مهاجمة إسلامية عالمية قد أمسكت بزمام أوروبا الشرقية وتقدمت نحو الغرب ووضعت أوروبا كلها في ورطة شديدة ـ إرباً، ثم صارت كل قطعة منها مثل حلوى الملبن سهلة المساغ بين براثن الاستعمار وتحت أسنانه.

وبأي حماس وشوق كان العرب الأشقياء ينظرون إلى العاب لورنس الإنجليزي وفمه، ذلك الذي كان قد جلب لهم القومية كهدية من انجلترا، وعلى الفور انتشرت الفلسفات والأشعار والأناشيد والأبحاث الاجتماعية والتاريخية وكلها صحيحة وكلها

على حق في تمجيد القومية في أنحاء العالم الإسلامي الموحد، وذلك دون أن يفكر مفكرونا وأحرارنا في جغرافية الكلمة ويسألون: لماذا شاعت هذه الكلمة في هذا الوقت؟ ولماذا أشاعت في هذه المنطقة دفعة واحدة؟ وكيف حدث فجأة وفي وقت واحد أن فتح اللبنانيون والمصريون والعراقيون والترك والهنود والبربر وكل الأمم الإسلامية عيونهم على أصولهم العرقية؟ من خلف الجبهة ودفعة واحدة، ومن قلب الجيش المهاجم انطلقت كل الحلوق بألبان قبطية والبان لبنانية والبان بربرية وألبان عربية والبان تركية. ولم يمر وقت طويل حتى رأينا العالم الإسلامي قد تمزق إلى عدد من «البانات» وكل بان تحولت إلى لقمة سائغة في فم الاستعمار الغربي.

وبقيت تركية وحدها مثل أسد بلا لبدة ولا ذيل ولا بطن، وفي مقابل هذه الهزيمة في كل الجبهات والطرد من كل أراضي شرق أوروبا، وتمزق كل أعضائها، وفصلها عن كل تاريخها وثقافتها ودينها، وتدهورها من قوة عالمية عظيمة إلى مرتبة كاريكاتير فكاهي لزرافة[١]، وكل ما حصلت عليه هو النعرة القومية وعطلة يوم الأحد بدلاً من يوم الجمعة، وأباً مفروضاً إسمه مصطفى كمال، لم يكن تركياً في الأصل.

فالدين وتقديس العلم والديمقراطية والليبرالية كلها حقائق

(١) المترجم: الزرافة بالفارسية: شتركاو بلنك أي جمل بقرة نمر فالجمل لعنقها والبقرة لجرمها والنمر لجلدها.

عظيمة وعوامل مقدسة للتقدم المادي والمعنوي للبشرية، وفي نفس الوقت إذا نظرنا جيداً سوف نرى كم من الجراح القاتلة التي أصيبت بها آسيا وأفريقيا من نفس هذه الكلمات، كلمات في تلك الجغرافيا لها حساب يحسب، وفي هذه الجغرافيا مجرد كلام فارغ، وليتها كانت كلاماً فارغاً فحسب، كم من المغارم الثقيلة دفعناها من أجل هذه الكلمات... خرافة وهباء.

عندما يريد وصي خائن لقاصر أن ينقل أملاكه إليه خفية، يتوسل لخداعه دائماً بشعار مثير، بقانون راق أو حقيقة مقدسة، وبحسب ما يستدعي وضعه الروحي وذوقه يحثه على الرياضة أو اللهو أو مواصلة التعليم أو زيارة الأماكن المقدسة والعبادة والأعمال والتلقينات الدينية الأخرى، أو الدراسة والبحث والأعمال الأدبية والفنية، أية واحدة من هذه الكلمات التي طرحها ليست حقيقة مطلقة بشكل مجرد؟ أيها ليس قابلاً للدفاع؟ لا شك إن الاعتراض على أي منها يدل على جهل وبدائية بل وبلاهة، وما هو مسلم به أن حقانية هذه الكلمات تخدع حتى الضحية نفسها، فهو نفسه يقوم بمواصلتها بحماس وشوق وجدية ونشاط بل بتظاهر ومباهاة وإيمان وعشق كأنها رسالة إنسانية عظمى، بل ويضحي من أجل القيام بها.

حينما كان المسلمون يعتقدون أن الأجانب نحس وأن المسيحيين كفرة وأنه لا ينبغي الاتصال بالكفرة ولا يصح أكل طعامهم ولا يمكن عقد صداقة معهم، ولا ينبغي أن نحب اليهود

والنصارى، وحتى في عهد الشاه طهماسب[١] عندما سمح لعدد من التجار الانجليز المشكوك فيهم بالمثول بين يديه بعد قيود وشروط كثيرة بالنسبة للبس الأحذية ومكان الجلوس وطريقة الاستقبال، يأمر الشاه بأن يقتلعوا مواطىء أقدام هؤلاء «الأنجاس» من القاعة وعلى طول الممرات والدرجات والأفنية وحتى باب الخروج، ويلقوا بترابها بعيداً، ويرمموها من جديد.

ما الذي ينبغي عمله؟ ينبغي أن يستقر الاستعمار في قلب هذه الأمة وما هو طريقه؟ الأخوة الإنسانية، مكافحة الخرافات.

لقد كرهت دائماً حقد المسيحيين المتعصب الوحشي على اليهود، بتهمة احتمال اشتراك عدد من اليهود في قتل المسيح، يعتبر جنس كامل قاتلاً للمسيح، وتعرض كل الأجيال طوال التاريخ للتعذيب والأذى غير الإنساني، ثم الانشغال على مدى ألفي عام بالمذابح الوحشية ضد اليهود، وزرع الحقد ضد اليهود في قلوب الأطفال المسيحيين على أساس هذا الاتهام، وتشكيل الحركات اللاإنسانية المضادة للسامية، هذه الفكرة البلهاء الوحشية كأن نعتبر نحن الإيرانيين الحقد العرقي على العرب جزءاً من إيماننا الديني وعقيدتنا الشيعية لأن ابن ملجم أو شمر بن ذي الجوشن كانا من العرب[٢]. كنت مثل كل المفكرين

---

(١) المترجم: من ملوك الصفوية ٩٣٠٠ ـ ٩٨٤ هـ. ق.

(٢) من الممكن أن يقال أن هذا القياس خطأ لأن علياً والحسن كانا من العرب، لا، هو صحيح لأن عيسى المسيح نفسه كان من اليهود.

والإنسانيين أتمنى أن يحكم الكنيسة أحد البابوات المستنيرين ويمحو هذه الوصمة القذرة الخرافية عن ذيل الديانة المسيحية والبشرية المتدينة ويبرىء جنساً من عواقب اتهام اتهم به أفراد منه منذ حوالي ألفي عام. وتحقق هذا الأمل. فالبابا المستنير عقد جلسة رسمية من كرادلة العالم في روما، وأشترك أعظم أقطاب الدين المسيحي من المذاهب المسيحية الأخرى لأول مرة، ولم يعتبر العرق اليهودي متهماً في قتل المسيح بذنب اشتراك عدد من اليهود فيه، ليس هذا فحسب، بل أعلن رسمياً أن هذا النفر لم يشترك أصلاً في قتله، قرار ثوري وإنساني، مجلس المسيحية بحث في ملف قضية قتل عيسى الذي قدم منذ ألفي عام، وبرأ الجنس اليهودي، لكني حين أسمع كلمة الحق هذه من فم البابا بيوس الثاني عشر سنة ١٩٦٠[١] في إطار جغرافية: فلسطين ـ إسرائيل ـ الصهيونية ـ العرب ـ الاستعمار، والإسلام والمسيحية واليهود وبيت المقدس وقناة السويس وعبد الناصر وبن غوريون وأمريكا والفاتيكان وتل أبيب والشرق والغرب والرأسمالية والاشتراكية والعالم الثالث والثورات التحررية المضادة للاستعمار لا أستطيع أن أخلص خناق فكري من مخالب هذا السؤال: هل مؤتمر الفاتيكان وفتوى البابا بتبرئة اليهود بلا ارتباط بما يجري الآن في فلسطين وبالعلاقة الخاصة بين الغرب وإسرائيل وبالتالي

---

(١) الناشر: المقصود على ما يبدو هو البابا يوحنا الثالث والعشرين لأن تاريخ وفاة البابا بيوس هو ١٩٥٨، والجلستان الرسميتان للمجتمع كانتا في عهد يوحنا الثالث والعشرين الذي ظل بابا حتى ١٩٦٣ وبول السادس.

بين المسيحية واليهودية في مواجهة الإسلام وفلسطين؟

ومن هنا فهناك قاعدة: أنه خلافاً للفلسفة والعلوم، لا ينبغي في المجتمع والسياسة أن نخدع بحقانية فكرة ما، بل يجب أن نزنها بالظرف الاجتماعي، نفس ما عبر عنه حضرة الأمير «الإمام علي بن أبي طالب» الذي كان هو نفسه ضحية لهذه الحقائق المغرضة[١] في هذه العبارة البسيطة جداً والكاملة في نفس الوقت: «كلمة حق يراد بها باطل»، فشعار الخوارج شعار تقدمي جداً ومطلق: «عدم التفاهم مع معاوية، الحكم لله لا للبشر ولا لأسر معينة ولا لأجناس معينة» وشعار معاوية كان هو الآخر شعاراً محترماً جداً: «الاعتراض على قتل الإخوة بعضهم البعض ووحدة المسلمين في ظل القرآن»، كان منطق المعترضين على خلافة علي منطقاً ديمقراطياً مائة في المائة وإنسانياً وتحررياً ومضاداً لاحتكار السلطة والأرستقراطية القبلية والتفرقة العنصرية والعائلية وفحواه: إن الرسول ﷺ من بني هاشم وإذا صار علي وهو من بني هاشم خليفة له فسوف يبقي الحكم حكراً على أسرة واحدة، وسوف يظل بنو هاشم أسرة حاكمة على الدوام ويحرم الناس إلى الأبد من القيادة، وإذا كان خليفة رسول الله من غير بني هاشم، سوف يكون الحكم للناس كما يقول الإسلام لا

---

(١) المترجم: من قبيل الحقائق المغرضة مهاجمة الثورة الإيرانية بأسلحة سماحة الإسلام والعفو عند المقدرة وعدم جواز مطاردة رجل مريض وهلم جرا مما يروج له الاستحمار الجديد حيث تنتزع كل الحقائق من بنيتها الاجتماعية وظروفها الزمنية وتطرح لتشويه الثورة الإسلامية.

للعائلات، وسوف يحل فضل التقوى والعلم كمعايير للقيادة بدلاً من فضل التراب والدم... وهل مبدأ البيعة والشورى في انتخاب القائد أكثر تقدمية وإنسانية وإسلامية أم مبدأ النسب والتعيين والوصية؟[١]

أي مفكر مستنير يشك أدنى شك في صحة هذا الاستدلال والقيمة المطلقة لهذا الفكر حين يتناوله مجرداً عن ظروفه التاريخية والاجتماعية والسياسية؟ لكننا رأينا أن هذا المبدأ المنطقي التقدمي الإنساني الشعبي طبق من هنا، ثم صعدت فوقه الجاهلية والسلطة الوراثية والنظام الفاشي العرقي وغصب الحقوق من الناس والقضاء على الروحانيات ونهب كل الثروات المادية والفكرية ومسخ الروح الشعبية والثورية وتغيير مسار الاتجاه التقدمي التحرري للإسلام الأول، وكان أول من داسته هذه الأمور تحت أقدامها هو نفس هذا المبدأ المنطقي والتقدمي والإنساني والشعبي، أي أن كلمة الحق عندما تطرح في جغرافية باطلة تقتل نفسها.

وكان أصل القضية أن قريشاً لسابق خصومتها للإسلام كانت تفتقد فرصة الوصول إلى الحكم بعد وفاة الرسول، ولو كان علي قد أمسك بزمام القيادة، لكانت المسيرة الإسلامية السياسية

---

(١) من بين الاختلافات بين القضايا التي تطرح في ميادين الفلسفة والعلم وتلك التي تطرح في ميادين القضايا الاجتماعية هي أنه: «في العلم ينبغي النظر إلى القول لا إلى القائل في حين أنه في السياسة ينبغي النظر أولاً إلى القائل ثم إلى القول».

والاجتماعية قد توجهت وجهة أخرى في المجتمع الذي كان هو قد صنعه والنظام السياسي الذي كان هو قد أقره، ولبلغت الجماهير وعيها ونضجها بحيث يقضي تماماً وإلى الأبد على أرضية إحياء الأرستقراطية القومية والاستبداد والخلافة الوراثية أو باصطلاح المسلمين أنفسهم «الكسروية والقيصرية» في قلب المجتمع، وبعد هذه الفترة من القيادة الملتزمة الثورية، كان الناس سيحصلون على جدارة الوصول إلى الحكم وإمكانية الوصول إليه وتأسيس الحكم الديمقراطي المبني على البيعة والشورى أي «أصوات الأفراد» ومن هنا فأول إعداد للأرضية من أجل حكم بني أمية وتجديد النظام الإيراني الروماني في الإسلام، أي إحياء الحكم الفردي الوراثي كان تنحية علي، كيف؟ بشعار الديمقراطية ومعارضة الحكومة الوراثية والعائلية.

ويدل واقع التاريخ على أن مبدأ «البيعة والشورى» في الإسلام صار سبباً في القضاء على مبدأ البيعة والشورى في تاريخ الإسلام وإلى الأبد، وأن النضال ضد الحكومة العائلية «في ذلك الوقت وفي تلك الأوضاع والأحوال والظروف الخاصة في المجتمع الإسلامي» قد هيأ الأرضية لإحياء الحكومة العائلية، لأنه ـ وكما قلت في محاضرات «الأمة والإمامة في علم الاجتماع» في مؤسسة الإرشاد ومحاضرة البيعة في نقابة المهندسين ـ: إن بحث التطورات السياسية والثورات التي حدثت في نصف القرن الأخير في العالم الثالث والتي أخذ فيها القادة التقدميون والعصريون للأمم المتأخرة وبعد طرد الاستعمار الخارجي والاستبداد الداخلي بنظام

الحكومة الديمقراطية الغربية[١] كنظام للحكم عندهم تقليداً للرؤية التي سادت بعد الثورة الفرنسية الكبرى، يثبت هذه الحقيقة القائلة إنه في مجتمع متأخر تسيطر عليه تقاليد رجعية ونظام اقتصادي منحط وعلاقات اجتماعية جاهلة وغير إنسانية وتسيطر فيه قوة على آراء الناس، بينما الجماهير فاقدة للنضج الاجتماعي والوعي القومي والطبقي والسياسي، يكون شعار الديمقراطية أو حكم أصوات كل الناس خدعة يستطيع أعداء الشعب في حماها أن ينحرفوا بمسيرة حركة الشعب، ويذهبوا أدراج الرياح بكل الثمار الثورية التي حصلوا عليها في نضال الأمة ضد الاستعمار والاستبداد.

لا ينبغي أن تخدعنا الكلمات والألفاظ: الحرية، الشعب، حكم الجماهير، أصوات كل أفراد الأمة، الانتخاب الديمقراطي

---

(١) المترجم: وليتهم أخذوا به نصاً وروحاً وباطناً، لكن الواقع المر أنهم قدموا ـ صورة مشوهة لها فحسب فلا يوجد دولة من دول العالم الثالث ليس فيها دستور مفصل على قامة الحاكم ومجلس شعب منتخب بالطرق إياها عبارة عن ألعوبة لا يملك إلا الموافقة وبعد توقيع الحاكم، ويحل برغبة الحاكم وينعقد برغبة الحاكم ويرقص في كوارث الأمة ويغضي عن مصائبها ويشترك في احكام العقدة حول عنقها ويشارك في الإثم مشاركة فعالة، ولا أذكر الأسماء فالنموذج فاضح ومكرر... ثم تأتي لعبة الاستفتاء المأخوذة من النظام الغربي أيضاً والتي تكون نتيجتها معروفة سلفاً وإلا فهل يمكن أن يوافق شعب موافقة إجتماعية على عبوديته وعلى التنازل عن حقه في الإضراب وهو الذي تتمتع به الآلة ويتمتع به الحيوان، ومن ثم فإن الكلمات العظيمة التي تكونت لها مدلولات محددة عبر التاريخ أصبحت الآن وعلى يد الزعماء في العالم الثالث خالية من أي محتوى وفي حاجة إلى إعادة صياغة... والحديث ذو شجون... وحدث ولا تسل.

وكلمات من هذا القبيل، وكما قلت ينبغي فقط وفقط أن تعطى معانٍ في ظرفها الزماني والمكاني لأنها تأخذ معانٍ في هذه الظروف، وهذه الكلمات بشكل مطلق ومجرد لا يمكن أن تعطي أي معنى، وهذه الكلمات تأخذ الشكل والإحساس والاتجاه في المجتمع وفي الظروف العينية والواقعية للمجتمع، وهي في كل جغرافيا سياسية واجتماعية ذات معانٍ خاصة وتأثير خاص. إنها غير مفاهيم من قبيل: كروية الأرض ومركزية الشمس والدورة الدموية وهذا القبيل من المصطلحات العلمية التي هي في كل مكان وفي كل وقت ذات معانٍ ثابتة ومحددة. بالنسبة لواحد من جراحي القلب يكفي أن يتعلم الأصول الثابتة لزراعة القلب ثم يقوم بإجراء العملية سواء بين السود في جنوب أفريقيا أو البيض في أوروبا الشمالية أو في مجتمع ديني شرقي أو في مجتمع صناعي علماني غربي، سواء في العصور الوسطى أو في سنة ٣٠٠٠، وبها يصل إلى هدفه المحدد المسلم به، لكن ليس لأحد الإيرانيين الحق بعد أن يكون قد تعلم الاجتماع في أوروبا أن يفعل كزميله الذي تعلم الجيولوجيا، ويقوم بعد عودته إلى إيران بتطبيق ما تعلمه هناك هنا، دون انتباه إلى الوضع الخاص لمجتمعه. لماذا إذن يوثق في صحة أعمال الأطباء والمتخصصين في العلوم الطبيعية أو التقنية في إيران وفي دقتها لكن أعمال كثير من علماء الاجتماع وعلماء النفس وعلماء التربية عندنا والذين نالوا الدكتوراه من أعظم المراكز العلمية في أمريكا وأوروبا يأتي معلم في مدرسة المعلمين المتوسطة في القرية وإسمه صمد

بهرنكي[١] ويسخر منها تماماً سخرية دقيقة وصحيحة وفي محلها؟ الجواب: لأنه كما يقول البروفيسور جوروفيتش: «لا يوجد مجتمع بل توجد مجتمعات» ومن هنا فإن ما يثمر نتائج عظيمة جداً وراقية في مجتمع ما، لا يحمل في ثناياه بالنسبة لمجتمع آخر إلا الخراب والضعف، وتكون نتيجته شؤماً وضرراً على هذا المجتمع.

لماذا لم يقف واحد من مفكرينا أمام هذا الموضوع الحساس جداً متأملاً مرتابا وهو أنه في سنوات ما قبل الحركة الدستورية كيف صار الاستعمار الإنجليزي القذر اللاإنساني معارضاً للاستبداد ومؤيداً لحكومة القانون وأصوات الناس وانتخاب نواب الأمة بحرية أليست الدعوة إلى الإسلام والدعوة إلى الروحانيات حقيقة مسلماً بها وسامية؟ لكن إذا كان المفكر الإسلامي يعيش في ماليزيا فإن مسؤوليته الإسلامية تحتم عليه تحريم الدعوة الدينية بدلاً من أن يقوم بتعظيم الشعائر الدينية؟ لا تصيحوا في وجهي بصيحة «واإسلاماه»، هو الذي يأمر بأن تسلوا سيوفكم على هذه المصاحف.

وقد نبّه رينيه لابوم وهو أحد مخططي الاستعمار الفرنسي العلماء بعد دراسة المجتمع الجزائري وعلم الاجتماع الجزائري إلى أن الجزائر تنقسم إلى عنصرين عرقيين، لكن الإيمان والثقافة الإسلامية وتاريخهما وحضارتهما القويين قد وحدا بين هذين

---

(١) كاتب أطفال وباحث إيراني معاصر توفي غرقاً وهو سباح ماهر سنة ١٩٦٨. المترجم.

العنصرين بحيث أن الجزائر نفسها لا تحس بأنها مكونة من عرقين، وحيثما وصل الإسلام محا الحدود العرقية والخصائص القومية والخاصة بالدم والتراب. هذا الاستعمار المجهز بعلم التاريخ وعلم الاجتماع والقومية والديمقراطية والفلسفة والعلم والفكر المستنير والحضارة... وكل هذه الشعارات التي تصنع «مفكراً حماراً» وهذه الكلمات الساحرة والأوراد الساحرة الخاصة بالاستحمار الغربي اكتشف أن الجزائر مكونة من عرقين: العرب والبربر. وبعد دراسات عميقة ودقيقة لعلم الاجتماع وعلم النفس العرقي والتاريخي والاجتماعي وثقافة البربر والعرب في شمال افريقيا وثقافتهم ورؤيتهم وسلوكهم الاجتماعي، وصل رينيه لابوم إلى النتيجة القائلة بأن البربر يغلب عليهم الجانب القومي أما العرب فيغلب عليهم الجانب الديني، وعلى أساس هذه الأبحاث العلمية قدم برنامجاً من أجل صنع مجتمع «حسب الطلب ومتقبل للأجنبي» للمؤسسات الاستعمارية الفرنسية فحواه أنه «ينبغي نشر القومية بين البربر».

وقد واجه الاستعماريون في آسيا وافريقيا التقاليد القومية القوية، وواجهوا في المجتمعات الإسلامية الإيمان الشديد والوعي الذاتي الديني، وهذان العاملان كانا يقاومان النفوذ الأجنبي وفرض شكل الاستعمار ومحتواه وهو عبارة عن: تغيير الأسس الاجتماعية والثقافية والأخلاقية لأمة ما من أجل تبديلها إلى سوق وتحويل سكانها من شخصيات مستقلة إنسانية إلى مخلوقات خالية ومقلدة ومستهلكة ومستسلمة، وأدخل الاستعمار فجأة كل ثقافته المضادة

للكنيسة إلى المجتمعات الإسلامية، والآداب والفلسفات التي قضت هناك على الإقطاع والارستقراطية المتعفنة والنمطية والكنيسة الرهيبة المستبدة الكاثوليكية واستبداد البلاط والخرافات والأوهام وحركت أوروبا وغلبت عصر التنوير على ظلمة العصور الوسطى، ووضعت المجتمع الغربي في طريق التقدم والقدرة وأوصلته إلى ما وصل إليه اليوم، وبدأ مفكرونا الذين كانوا مفتونين بها حركة النضال ضد الدين والقديم والتاريخ والتقاليد والعادات والطقوس وأشكال الحياة والاستهلاك وهم يظنون أنهم يقومون بأدوار فولتير وديدرو في المجتمعات الإسلامية، ورأينا أن نتيجة نضالهم هي تماماً ما كان الاستعمار ينتظره، ورأينا أنه بدلاً من أن تحدث الثورة الفرنسية الكبرى والتقدم العلمي والنضج الاقتصادي. . . أن مجتمعنا الذي كان على كل حال ذا شخصية وكان واقفاً على قدميه وكان يفكر بنفسه ويصنع بنفسه ويختار بنفسه وكان هو بنفسه، صار جسداً مكوناً من عناصر متنافرة مثل التعبير عن معنى الزرافة في لغتنا: «شتر كا وبلنك أي جمل بقرة نمر». ومن هنا يقول المصلح الكبير الشيخ محمد عبده: «لقد تخلصت أوروبا من الدين وتقدمت، فتخلصنا نحن منه وتأخرنا».

ومن النتائج المنحرفة القبيحة للرؤية المطلقة التفكير هو أنه عندما نذكر الدين يتبادر إلى الذهن مفهوم كلي ومجرد بالنسبة له، وشبيه بهذا أيضاً عندما نقول الإلحاد، في حين أن الأمر في رأيي: كما يقول جوروفيتش: «لا يوجد مجتمع بل توجد مجتمعات» أقول أنا: «لا يوجد دين ولا يوجد إلحاد بل توجد أديان ويوجد

ملحدون» وإذا كان هناك مفكرون أوروبيون كثيرون اليوم لا يعتقدون بالدين، وفي سير النوابغ العظام في العالم نقرأ أنهم لم يكونوا من الطلاب النوابغ في المدرسة قط، لكن عكس هذه القضية ليس صحيحاً بحيث نقول: إن كل تلميذ غبي وبليد يمكن أن يعد من نوابغ المستقبل.

إن المفاهيم الاجتماعية كلها نسبية ذات معنى خاص في كل جو اجتماعي وزماني خاص. إن المرأة الأوروبية تحررت بعد بضعة أجيال من النضج الاجتماعي والثقافي وحريتها نتيجة لتضحيات ونضالات مستمرة وعميقة فلسفية وفكرية واجتماعية وقانونية كثيرة، لقد حصلت على حريتها عن طريق الوعي والثقافة، وبلا شك لا يوجد أي مجال للشبه بينها وبين امرأة منحها «مقص الخياط» حريتها. والثقافة العلمانية والرؤية العلمية المضادة للكنيسة في أوروبا ذات ماض يبلغ ثلاثة أو أربعة قرون من التنوير ومليئة بالجهاد الفكري والعلمي، هي وليدة النهضة ومن تربية جاليليو وكوبرنيكس، والمفكر العلماني الأوروبي إذا وقف أمام نمط ديني له الحق في أن ينظر إليه كما ينظر طرف أعلى إلى طرف أسفل ويحس بأنه متقدم عليه بعدة قرون اللهم إلا إذا كان قبل كل شيء مفكراً أصيلاً ومن الناحية الفكرية متواضعاً ودؤوباً، لكن في مجتمعنا، ينظر فلان الصبي الذي صار مفكراً علمانياً فجأة نتيجة لـ «صدمة الإبريق»[1] ينظر إلي أنا الذي أدرس له الفلسفة الحديثة

(١) الناشر: انظر «ما واقبال» لشريعتي. المترجم: الترجمة العربية لأمين عبد المجيد.

والحضارة الأوروبية والمدارس الاجتماعية والحركات الفكرية المعاصرة ولا يتعلم، وكأنه ديدرو أمام قسيس قديم في كنيسة سان سولبيس.

وكيف وصل مفكرونا إلى الرؤية «غير الدينية»؟ إن «ميكانيكيتها» معلومة. فأبوه كان شيخاً أو حاجاً متعصباً من تجار السوق، وأمه امرأة عامية موسوسة ذات طراحة، ومن الصغر كان البرنامج على هذا المنوال، في الصباح وقبل شروق الشمس كانت أمه تذهب إلى فراشه توقظه بالصراخ والصياح والعويل والأنين والبكاء (والردح) الخاص بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى هذا الأساس توقظه وهو غريق في سكر نوم الصباح ليصلي الصبح، وهو نفسه كان يستيقظ بما لا حد له من الإكراه والضيق والتأفف والقرف والإحساس بالشقاء ويذهب إلى الحمام، وبينما هو جالس لقضاء حاجته، يسمع وقع أقدام تأتي ببطء، وعندما يقترب الظل يحس أن: نعم، إنه «بابا» وبرنامج كل يوم وقد وضع أذنه بجوار الحمام ليسترق السمع ويرى هل يستخدم ابنه الإبريق ويتطهر طهارة صحيحة أو يتبول واقفاً مثل الكلب الأرمني. وبعد أن يقوم الصبي بألف نوع من المشقة النفسية والاضطراب والحذر والخوف والرعب بعملية التطهر ينتقل إلى الحوض ليتوضأ، وثانية يقوم «أنكر ونكير» من خلف زجاج الحجرة بالإشراف بدقة على مسرح العمليات، ثم يقف للصلاة وقلبه يرتعد من الفزع من كل حرف يخرج من مخرجه الشرعي متسائلاً: ماذا ستكون النتيجة؟ وهو يذكر ذكريات مرة عن مئات المرات التي ضرب فيها «علقة

ساخنة» من أجل ولا الضالين، ذكرى تجعل الرعدة تسري في ظهره، والويل كل الويل إن أخطأ في أركان الصلاة، وبعد الانتهاء من مشاكل التجويد والقراءة ينبغي أن يستخرج الحل الأصلي من جدول اللوغاريتمات المسمى بالشيكات، وبعد الانتهاء من الصلاة، تبدأ القرقرة والنقنقة والسب: ضرب الله رأسك بهذه الصلاة البتراء لا رأس لها ولا ذنب... لادعاء... ولا تلاوة سورة من القرآن... ولا تعقيبات، ثم عندما تنمو لحيته يتضاعف شقاؤه، يصير من فوق ومن تحت(١).

وإذا كان المقصود هنا بنتا، فوامصيبتاه، ضحكها داخل المنزل أمام أخيها أو بشاشتها وماذا أقول؟ كونها أنثى وحتى كونها جميلة جرم، مخالف للشرع، ينبغي أن تخفي وجهها أمام السمكة الذكر في الحوض، والدرس والبحث غير قابل للتحمل، لا ينبغي أن يوضع الكلام عنه في أفواه تلك العورات، والخط أيضاً بالنسبة للبنات حرام لأنه طريق الفساد والانحراف، من الممكن أن تكتب خطاباً لصبي، إذن ماذا تفعل؟ ينبغي أن تخفي الجورب الشفاف وحذاء الكعب العالي والباروكة، والمرآة والريميل وأصبع الروج

---

(١) المترجم: كان أحد زملائي يهاجم الدين هجوماً ساخراً لاهوادة فيه وبالرغم من أنه كان متخصصاً في علم النفس إلا أنه لم يفهم أن هجومه هذا من نوع ردود الأفعال، وذات ليلة كنت أجلس معه ومع إخوته وكلهم من المثقفين الذين يتخذون موقف الرفض والسخرية من الدين وتشعب الحديث عن ذكريات الطفولة، واكتشفت أنهم جميعاً يتذكرون بمرارة كيف كان أبوهم يرغمهم على الصلاة في فجر الشتاء البارد والصوم في أشد أنواع الحر.

و . . . الخ داخل حقيبة وتخرج من المنزل بملاءة سوداء وجورب سميك وحذاء «شريف» وغطاء ثقيل للرأس، وبمجرد أن تبتعد عن منطقة الرعب والدين، تتنفس الصعداء، ومع آلاف من أنواع الحرج والإشكال والخجل تقوم داخل تاكسي أو في منعطف حارة أو دورة مياه بخلع شعارها ودثارها الدينيين وتتحول إلى امرأة عصرية، ثم وبعد عدة ساعات تقوم بنفس هذه الطقوس من أجل دخول منطقة الدين العسكرية، ودفعة واحدة ينفد صبرها فتجازف وتتمرد، نوع من تنفيس العقد، تعويض عشرين عاماً من الاختناق والاستبداد والكبت و . . . . رد فعل.

نرى إذاً أن الرؤية اللادينية هنا حالة نفسية وعقدة ورد فعل. لم يصبح صاحبنا مفكراً بلا إيمان ديني عن طريق الدراسة ومعرفة الفلسفة والعلم والثقافة الجديدة والمدارس الفكرية والاجتماعية التي ظهرت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أو تحت تأثير الحركات التقدمية البورجوازية أو الميل إلى الواقعية والمنطق المادي والجدلية والمادية والإنسانية، إن ضغط «الإبريق» و«الحجاب» جعله عصرياً ومفكراً ومتحرراً وجعلها هكذا. إن حرية المرأة تعني هناك تحررها من القيود المنحطة الفكرية والروحية والقانونية والاجتماعية وتعني حرية الاختيار وحرية التفكير وحرية الحياة وحرية الحب الحرية من كل الألوان والتقاليد التي كانت تذكاراً من مرحلة العبودية والذلة ونقص العقل وكسر قدم المرأة. أما حرية المرأة هنا فتعني تحررها من الملابس والزينة التقليدية واستعبادها في سوق بيع السلع الاستعمارية الاستهلاكية ولا علاقة

لها في الأصل بشعورها وثقافتها وروحها وقدرة إدراكها ورؤيتها الشخصية والكونية وثورتها الفكرية وتغيير استحقاقها وجدارتها.

ومظاهر تلك الحرية أن تكون المرأة مثل الرجل، ليس فحسب تستطيع اتخاذ القرار مثل الرجل وتختار وتعلن رأيها ومشاعرها، بل مثل الرجل تماماً تقرر وتختار ويكون لديها رأي وإحساس في مستوى الرجل (ليس من نوع ما للرجل كما يظن العصريون عندنا) وتبدي هذا في عملها وسلوكها وفكرها، لكن مظاهر هذه الحرية هنا هي أن تستطيع المرأة أن تلبس مثل نساء سان دينيس وبيجال ومولن روج، هذا من الوجهة الشخصية أما من الوجهة الاجتماعية فهي أن تصير مسؤولة عن محطة بنزين أو تلبس لباس الجندية. المرأة التي تقضي سنة كاملة تتحدث وتعمل بشأن جهازها بحماس شديدين، وتساوم في مهرها، وتصر على ارتفاع ثمن فستان زفافها والجواهر التي تهدى إليها ووسائل مجلس العقد وفخامة حفل الزفاف، لا تزال جارية بالمعنى الكامل للكلمة، سواء من وجهة النظر الروحية ومن وجهة النظر الاجتماعية، انها لا تزال ترى قيمة شخصيتها في المبلغ الذي يدفع مهراً لها والنقود التي حددت من أجل ذهابها إلى منزل الرجل، وهو نفس المبلغ الذي كان الرجل يدفعه عندما يشتريها، لا يزال للمرأة سعر، وهذا السعر تماماً مثل عصر عبودية المرأة وسوق الجواري مرتبط بجمالها ونضجها وسنها ومهارتها ومستوى تربيتها وأسرتها وأصلها، والعقد وقائمة الجهاز والاجراءات الرسمية لصيغة الصفقة والمجلس التحضيري للخطبة من أجل تحديد القيمة والمهر والقيود والشروط

الجدية القانونية الموجودة تحت العنوان الظاهري: هدايا. . . وكل شيء صورة هذبت وبررت من أجل الاتجار في جارية.

يقول بعضهم إن هذه القيود والشروط من أجل أن الفتاة عندما تذهب إلى منزل الرجل تضع شيئاً ما تحت تصرفه (الاستسلام لإرادته وتمكينه من قضاء شهوته وسد حاجاته الجنسية) وعند خروجها من منزلها تفقد شيئاً (البكارة) وفي مقابل هذين ينبغي أن يقدم الرجل شيئاً وهذا الشيء هو المال ثم المال. وإذا تركنا المصطلحات الأدبية ودقائق صنعة التبرير والتأويل تكون الحقيقة العارية هي شراء كل ما هو إنساني ومتعلق بالمرأة إذ أن ما يحدد للرجل في مقابله هو العملة الرائجة في السوق.

ومن هنا فإن المرأة نفسها تعترف كما يعتقد المجتمع بأن البكارة هي التي لها أعلى سعر فالأرملة والأيم سعرهما منخفض، فهي بزواجها السابق فقدت شيئاً ولا جرم أن ينخفض سعرها وهذا التخفيض في السعر ينبغي أن يعوض بزيادة مؤخر الصداق دليل على أنها جارية ولا تزال نفسها جارية وتفكر كجارية، ومثل هذه المرأة لا تصير حرة بمساعدة البودرة التي تخفي الغضون والريميل وظلال العيون وأحمر الشفاه. ليس لهذه الأشياء دخل بالحرية فقديماً كانوا يزينون الجواري غاليات الثمن زينة كاملة، وبالمصادفة فإن هذه التمثيليات دليل على مركب النقص والتأخر وكون المرأة مخلوقاً من الدرجة الثانية.

كانت مدموازيل ميشن وهي امرأة حادة الذكاء واسعة الأفق

قد سافرت إلى الشرق الأوسط في مهمة صحفية لجريدة «الأومانتيه» وعند عودتها سألتها ما هو انطباعك عن هذه الرحلة؟ ومن ضمن المشاهدات الدقيقة التي شاهدتها خلال رحلتها القصيرة قصت لي: كنت أتمنى دائماً أن أضع في حجرتي سجادة إيرانية جميلة وظريفة، لكني عندما رأيت مشاغل نسج السجاد في إيران فإن كل بدني يرتعد لمجرد أن أتصور أنني أطأ بقدمي سجادة إيرانية هذه الورود الحمراء الفاقعة في سجاجيدكم تأخذ حمرتها من وجوه الصبايا العاملات البريئة الشاحبة. إنني أرى الأصابع الظريفة النحيلة لهؤلاء الأطفال الحزانى الذابلات بين طيات كل عقدة، ليس هذا التعبير الرومانسي من عندي، هو نص الأغنية التي كن يتغنين بها أثناء العمل في تلك المغارات، ثم قرأت بالفرنسية نص الأغنية التي يترنم بها نساج السجاد في إيران همساً، وكانت قد سجلتها، وخجلت أنا الإيراني والذي نشأت في مدينة السجاد وأدعي المعرفة بالجماهير لأنني سمعت هذه الزمزمة عدة مرات ولم أفكر أبداً في معرفة ماذا يقولون، وهذه المرأة الفرنسية التي لا تعلم الفارسية سجلتها كاملة خلال رحلة قامت بها لمدة ثلاثة أيام إلى إيران (وهذا هو معنى حرية المرأة وتقدمها مع محافظتها على رقتها وإحساسها الأنثوي وهو في نظرنا دائماً توأم للضعف والحمق والسخف والسطحية)، ثم قالت: إن التجربة الأخرى التي كانت مهمة جداً بالنسبة لي إنني عندما جئت من أمريكا إلى أوروبا رأيت النساء الأوروبيات أكثر أناقة واتباعاً للموضة من النساء الأمريكيات وعندما ذهبت من أوروبا إلى طهران رأيت النساء الطهرانيات أكثر إفراطاً في

موضة الملابس والتزين من الأوروبيات وعندما ذهبت من طهران إلى شيراز رأيت الأقلية العصرية من نسوة الأقاليم أكثر تقدماً من الطهرانيات. قلت: لو كنت قد استطعت أن تواصلي السفر وتذهبي إلى قريتنا «مزينان» لكنت قد دللتك على فتاة من قرية محمد آباد كان أبوها صانعاً لعراقات الحمير وكانت قد ذهبت هي نفسها إلى طهران واشتغلت خادمة لعدة سنوات في منزل أحد الأشراف المشهورين في شمال المدينة وعادت إلى القرية لتنسم الأخبار، وتستطيعين إن أردت أن تقيمي هناك وتري كم من التأفف والقرف أبدته عند رؤيتها لأحوال نساء القرية: آه آه، اف اف، لا زلتن تذهبن إلى الخلاء وتجمعن الحشائش بأيديكن وتضعن أيديكن في روث البقر؟ ما هذه الملابس الكرباسية الغليظة التي تلبسنها؟ ألا تدمي أبدانكن؟ رأيت زوجة الحاج فلان واغابيبي وهما تظنان نفسيهما من الناس المحترمين لا زالتا تلبسان هذه الملاءة المنقطة وتضعان هذا السروال القصير في ساقيهما... أصابني الغم، لا توجد اليوم امرأة في طهران تلبس هذا النوع من السروال، وإن لبسه أحد يفهمون أنه قروي يحتقرونه ولا يسمحون له بمحل الحمار، يقولون أن لا شخصية له جاء من وراء الجبل... اليوم كل المسائل عن الرجل والمرأة وعن مشاكلكم أنتم أهل القرية قد حلت...

مثلاً عندما أسير في الشارع وتقع عيني على رجل غريب ويعجبني أذهب إليه وأقول له بصراحة: يا سيد بأي لون لونت عينيك... انت «تيب» لطيف جداً. أو يتقدم إليك رجل في الشارع فجأة ويقول: سيدتي... هل قال لك أحد أن قوامك فريد من

نوعه في هذه المدينة؟ قلبي فداك. . . أين منزلك؟ ألا تسمعين الإذاعة؟ ليست سيئة، وتشكر السيدة ذلك الرجل كثيراً. . . الأمور إياها عند القرويين فقط. . . ألا تقرأن مجلة «زن روز»؟ كتبوا فيها أن النساء اللائي يملن إلى السمنة قليلاً عليهن اتخاذ خدين حتى تتحسن أجسادهن. . . هذه أمور حلت، ألم تقرأن شعر السيدة الذي نشر في الصحف والذي تقول فيه بصراحة «خلقت امرأة لكن شهوتي شهوة رجل»؟ انتن في هذه القرية لا خبر لديكن عن الدنيا. . . اذهبن جميعاً واقرأن الدروس وتعلمن الكتابة والقراءة لتقرأن «البوردا» و«زن روز» و«اطلاعات بانوان» ومجلة «السينما» ومجلة «روشنفكر» ومجلة «سياه وسبيد» وكتبا أخرى تعلمكن فن الحياة، إن شاء الله إن جاء التلفزيون وإن جاء الراديو تصرن متعلمات. . . تتحسن الأمور. . . حينذاك سيذهب الكرباس والخرق واللباد والبقر والحمير والخيل والقطن والقمح والشعير والأكواخ المبنية من الطين والقش. . . والقباء والشال والحناء. . . الخ كلها سوف تذهب لحالها وبدلاً منها سوف تأتي السترات والسراويل الأجنبية والجوارب الشفافة التي تظهر البدن من طراز ستارلايت واسطوانات الموسيقى والمسجل والراديو الترانزستور والشامبو وأحمر الشفاه. . . ثم يقام هنا بنك. . . وكل نقود تريدونها تأخذونها منه وتشترون ما تريدون من المحلات وتخرجون من هذا الشقاء. . . ما هذه الحياة؟ من طلوع الشمس إلى غروبها العمل في الخلاء، ثم الأكل في بداية الليل، ثم النوم كالدجاج، وعدم فهم أي شيء عن الدنيا عن الحياة. . . قلوبكم فقط سعيدة

لأنه لا يوجد في قريتكم سرقة أو قمار أو سكر أو زهري أو سيلان أو بيوت دعارة. . . أو أن حدائقكم عامرة وحقولكم خضراء وأهراءكم مليئة بالغلال ومخازنكم مليئة بالسمن والكشك والصوف والقطن والكمون. . . وأن ملابسكم تنسجها نساؤكم ويخطنها وخبزكم يأتي من المزرعة وفاكهتكم من الحديقة وطعامكم من بقركم وغنمكم وطيوركم ومطاياكم خيلكم وحميركم وجمالكم. . . ولا تحتاجون إلى الخارج. . . أهذا كلام؟. . . اذهبوا وانظروا كيف يعيش الناس اليوم ماذا يأكلون وماذا يلبسون، والمتع والملذات واللهو وأنواع الراحة؟ إنكم تتخيلون أن الله قد منحكم نعمة الدنيا لأن لديكم بقرة حلوب، لقد كتبوا في مجلة «زن روز» أن النساء الأجنبيات يملأن «البانيو» يعني الحمام باللبن ويرقدن فيه ويغسلن أبدانهن حتى تصير بشراتهن ناعمة. . . انظروا إلى بشراتكن التي لونت بلون ملابسكن الكرباسية وإلى أيديكن التي صارت مليئة بالكنف «القشف» كركبة البعير. . . إلى متى ستبقين هكذا؟. . . وإذا كنت قد تحدثت عن هذه الفتاة التي تنتمي إلى قرية محمد آباد فهذا راجع إلى أنه لسنا في حاجة بعد إلى تفسير النمط الفكري والدور الاجتماعي لمفكرينا العصريين في المجتمعات التقليدية والإسلامية. لأنهم النموذج الكامل لجماعة المفكرين والطليعيين المطالبين بالعصرية والأوربة: فريق ورد أسلوب إعداده في العصور الحديثة على لسان جان بول سارتر[1]

---

(١) المترجم: ورد قول سارتر بالتفصيل في «المفكر ومسؤوليته في المجتمع» لشريعتي والترجمة لنفس المترجم.

والقبيلة حديثة الظهور في إيران جدها الأعلى ملكم خان[١] صاحب اللوترية، ومكان تربيتها «مؤسسة تربية الأفكار»[٢] ونضجها تماماً في بداية القرن الرابع عشر الهجري الشمسي (أي حوالي سنة ١٣٠٠ هـ. ش.)[٣] هؤلاء جعلونا نبتلع العصرية بدلاً من الحضارة، ولم يفهموا ولم يتركونا نفهم أن هذين مفهومين وليسا مفهوماً واحداً، وتاريخ هذين القرنين الأخيرين في كل الدول الإسلامية بل في أنحاء آسيا وأفريقيا دليل على أننا دفعنا الثمن غالياً لعدم الفهم هذا، ويدل على ما أعطيناه في سبيل ما لم نحصل عليه.

مسؤولية المفكر في مجتمعنا:

ليست مصيبتنا الكبرى في تحول العوام المستهلكين إلى متشبهين، وليست حتى في تحول متعلمينا وحملة الشهادات المتخصصين عندنا في الأعمال حديثة الظهور إلى متشبهين، المصيبة الكبرى هي تحول المفكرين المستنيرين، أي المفكرين الذين في أيديهم قيادة الأفكار وتوجيه الروح والثقافة والإيمان في

---

(١) المترجم: ميرزا ملكم خان كاتب ومفكر إيراني معاصر، كان أول من دعا إلى إدخال النظم الأوروبية في الدولة. كما أدخل تنظيم الجماعات الماسونية لأول مرة في إيران، قيل أنه ارتد عن الإسلام أكثر من مرة، أصدر مجلة «قانون» التي كان ينادي من خلالها بتطبيق النظم الأوروبية في إيران، اهتمت الحكومة الإيرانية في أواخر عهد الشاه بنشر أعماله لضرب الحركة الإسلامية.

(٢) المترجم: مؤسسة تربية الأفكار أنشأها رضا شاه لتوجيه العقل الجماعي للإيرانيين لقبول التحديث.

(٣) المترجم: ١٢٩٩ هـ ش. الانقلاب العسكري الذي جاء برضا شاه إلى السلطة.

المجتمع، أولئك الذين حلوا محل علمائنا الدينيين وأولئك الذين يعتبرون ظهراء الزعماء السياسيين والاجتماعيين والقوميين في بلدنا. وكما يذهب متعلمونا إلى أوروبا للدراسة ويعودون أطباء ومهندسين وجراحي تجميل وعلماء جيولوجيا... الخ، فإن مفكرينا أيضاً يعودون اشتراكيين وفاشيين ووجوديين وماركسيين وراديكاليين، و«ينهمكون» بالعمل في المجتمع.

وينبغي أن نعلن صراحة أنه بصرف النظر عن النتائج المشؤومة والتخريب والفرقة التي أثمرتها هذه الجماعة، أنه إذا كان لعملهم قيمة، هو أنهم بهذه الألقاب يجدون لأنفسهم إسماً ورسماً ووضعاً بين الشباب، ومما يثير الأسف أنهم بهذا يرضون أنفسهم.

ذات يوم كنت أتحدث مع أحد ضحايا أولئك المروجين أشباه المفكرين، أي واحد من هؤلاء الشباب الذين يقومون بدور مريدي متعصبي الدين الجهال القدماء لهؤلاء الشيوخ الجدد، كان موضوع الحديث حول: إنه لا ينبغي أن نتحدث عن مسؤولية المفكر بل ينبغي أن نتحدث عن مسؤولية المفكر في مجتمعنا الحالي، والتفرقة بين هذين المبدأين وأحدهما مجرد ومطلق ولا بد أن يكون مبحثا كلياً وفلسفياً وعلمياً، والثاني واقعي وجزئي وعيني وعملي. أخذت أقول على سبيل المثال: إنني واحد من نفس هؤلاء المتعلمين العائدين من أوروبا، فرع تخصصي أيضاً فرع مناسب ويهتم به العصر جداً وبخاصة مفكروه. والآن وقد جئت إلى إيران وجدت نفسي في مفترق طريقين ينبغي أن أختار أحدهما، ليس موضوع الخدمة والخيانة مطروحاً هنا، هنا لا يعاني

المرء من التردد، كل يذهب في طريقه، إن البحث حول المفكرين والضمائر الواعية الحرة. هذان الطريقان هما: إما أن أختار نفسي أو أختار قومي.

الطريق الأول: إنني كاتب ومترجم وعالم من علماء الاجتماع وعلى علم بالأحداث الفلسفية والأيديولوجية والمدارس الأدبية والفنية المعاصرة في عالمنا، كما أفهم أيضاً نبض مجتمعي، وقد ترجمت كتاب «الوجود والعدم» وهو من أعقد الأعمال العميقة والفلسفية البحتة لجان بول سارتر، العمل الذي اعترف مترجمه إلى الأسبانية صراحة أن لا يمكن ترجمة معانيه ودقائقه الفكرية بدقة ونقلها بأمانة ووضوح إلى اللغة الأسبانية وهي قريبة جداً من اللغة الفرنسية، ومن ترجماتي الأخرى «المنحنى الشخصي لحياة ما» بشأن الحلاج وهو من أعمال البروفيسور ماسينيون أعظم المستشرقين في قرننا الحالي، وبضع ترجمات أخرى عن لوي برول ودوركهايم وهالبواكس، ولو نشرتها لظفرت بسرعة تشبه سرعة بابا طاهر في علم الاجتماع، ولصرت أحد أقطاب هذا العلم، ومفكراً. . . ووجودياً.

وهذه هي أسمى الألقاب التي تهدى في عصرنا وأقيمها. لكن هذا السؤال جعلني أتردد في هذا الأمر: بأي شيء تهم هذه الأمور قومنا ومجتمعنا الفعلي؟ إن هؤلاء الناس بآلامهم واحتياجاتهم ومبادئهم وأوضاعهم الاجتماعية والدينية والثقافية لا يتناسبون قط مع هذه المتون، إن هذا يشبه أن أذهب إلى قريتي «مزينان» وأجمع قومي من رجل وامرأة وخان وفلاح ومؤمن وفاسق

في المسجد الجامع، وكعالم عائد من أوروبا اقارن امامهم بين السيمفونية الخامسة لبيتهوفن والسيمفونية السادسة لتشايكوفسكي، أو أتحدث عن مسرح العبث أو انتظار بيكيت أو تكعيبية بيكاسو أو الأسباب الثقافية والاجتماعية لحركة الهيبي، أو أعطي الكلام حقه عن خطأ كثير من قرائنا وأنصاف مفكري أوروبا الذين يظنون أن البير كامو وجودي أيضاً، وأفسر أوجه التشابه والاختلاف بين أفكاره وأفكار سارتر وهايدجر، والنتيجة: تضييع وقت الناس وتعطيلهم عن أعمالهم وحياتهم، وفتنة فكرية وإفساد لكل شيء و«هرجلة» وخداع بعض الشباب ضعاف العقول المنتفخين بالهواء الذين يظنون أنهم فهموا شيئاً من هذه الكلمات وأصبحوا على علم بأحدث القضايا الفكرية وأعمقها في زماننا، لكني في مقابل كل هذا أكون قد حصلت على شيء. . . إنهم سوف يقولون: إن مواطننا هذا ثرثر كثيراً، أنظر أية كلمات ينطق بها، نحن عوام ولا نفهم شيئاً لكن من الواضح أنه ليس من هؤلاء الشيوخ والمتعلمين العاديين. خسارة مثل هذا الرجل بالنسبة لنا الذين لسنا جديرين به. . . إن مكانه هو الخارج، هناك يعرفون لهذا الصنف من الناس قدره، أنظر. . . إنه يتحدث عن أناس لم نسمع حتى أسماءهم.

هذا استغلال سيىء لجهل الناس، حينئذ: ماذا يكون الفرق بين المفكر المستنير الديمقراطي والمتحرر التقدمي العصري وبين ذلك المتكلم والصوفي القديم الذي كان يجمع عدداً من الناس الكادحين المستعبدين الجياع في المسجد أو الخانقاه ويتحدث إليهم عن منازل الآخرة وطبقات جهنم والمراحل السبعة للعشق

والسلوك ومسائل الذات والصفات ووحدة الوجود وعالم الأمر والخلق ودقائق عميقة وفلسفية وذكية، فيم؟! في لا شيء، الفرق بيني وبينه في الألفاظ والحركات والسكنات، وإلا فبالنسبة للناس، سواء تحدثنا كذباً باللغة الصينية أو باللغة السنسكريتية... لا فرق عندما لا يفهم أحد شيئاً، فالبحث عن ماهية هذا الشيء لا مجال له، بالنسبة لجماعة يلهثون في صحراء محرقة ويرون الموت أمام عيونهم سواء تحدثنا عن قصة ليلى والمجنون أو تحدثنا بتاريخ موثق عن الحرب الطائفية في أيرلندا.

والطريق الثاني: لأقل أنني لا شيء (الجهاد الأكبر) ولِأرى في البداية أي طريق أستطيع أن أسلكه لأكون على صلة بالناس؟ بأية لغة أتحدث إليهم؟ ثانياً: ماذا أقول وكيف أقوله حتى ينصتوا إليّ ويقبلوا كلامي، ولا يفسرون أقوالي على أنها غريبة عن ثقافتهم وإيمانهم وعجيبة ومشكوك في أمرها وبعيدة؟

لنفرض ـ وهذا مجرد فرض ـ أنني في أبحاثي الاجتماعية قد وصلت إلى النتيجة القائلة إن: مدينة مشهد هذه مثلاً وهي المدينة التي أعيش فيها (قضية محسوسة وعينية وعلمية، ليست اصطناع كليات بشأن مجتمع كذا أو شعب كذا أو جماهير كذا أو طبقة كذا أو شريحة كذا) وهي مدينة دينية ومركز زيارة (هذه هي سمتها الاجتماعية البارزة) يسكنها ثلاثمائة ألف نسمة، ويومياً يصل إليها ألفا زائر من كل أنحاء الدولة، من المدن والأرياف والقبائل وحتى من أبعد الأركان التي لا تصل إليها يد مفكر أبداً، وإلى جوار ذلك فإن الأكثرية الساحقة لهؤلاء الزوار المتدينين لا يقرأون كتباً ولا

يستمعون إلى محاضرة ولا يسمعون الأخبار والتعليقات والأبحاث العلمية التنويرية من الإذاعة، ولا هم يتعاملون مع السينما أو المسرح الثقافي الجدي، ولا هم على علاقة بالأنماط الواعية المستنيرة، أي أن عيونهم وآذانهم مغلقة، وكل نوافذ الوعي مسدودة أمام وجوههم. إنهم في الغالب ريفيون وفيهم أقلية حضرية، لكنهم جميعاً منتشرون في رقعة واحدة من الأرض ومسائل الكثافة السكانية والتكاثف ليست مطروحة في محيط حياتهم أصلاً وهذا في حد ذاته عامل من عوامل ركودهم الفكري وجمودهم وبقائهم غير واعين، وهم من الناحية الثقافية تقليديون، وبالنسبة للعمل ملتصقون بالأرض وهذا أيضاً عامل آخر، الجاذبية الروحية والاجتماعية هي التي تحركهم وهي التي تجمعهم وتدفعهم إلى التعصب، الشيء الذي يحول دون تشتتهم الظاهري وعزلتهم الداخلية هو الدين.

هذه هي معلوماتنا، فما هو هدفنا؟ كما قلت إن رسالة المفكر المستنير هي منح الوعي للجماهير والتنمية الاجتماعية والثورية لآرائهم وأفكارهم، وما هو المجهول لدينا؟ نعلم أنه لكي يوعًى فرد أو جماعة أو يربيان، على المرء أن يكتشف أولاً طريق الإرتباط بهم وعليه ثانياً أن يعرف لغة التفاهم معهم أي شخصياتهم وثقافتهم ومن ثم فإن المجهول هو: أي طريق يمكن من خلاله الاتصال بهؤلاء الناس أي الثلاثمائة ألف نسمة الذين يسكنون مشهد وأيضاً هذه القافلة الأبدية التي لا تنتهي من الزوار الذين يمرون بهذه المدينة من أعماق هذا الوطن، بأية لغة يمكن الكلام؟ الجواب: الدين.

إن جماهير الناس في هذه المدينة يجتمعون معاً في المنازل والمساجد والتكايا، وفي أيام المناسبات وكل أسبوع باسم الدين. وبين الجماهير لا يوجد تجمع قط ليس ذا أهمية خاصة بالنسبة لعالم الاجتماع أو المفكر الذي يكون بينه وبين الجماهير عمل. ويمكن أن نحدد تعداد هذه المجالس بحوالى عشرين ألف مجلس، والمجتمع الشيعي في الأصل، وبسبب تقليده الخاص مجتمع حزبي ذو تشكيلات. ويمكن اعتبار هذه المجالس مراكز علمية دينية تتشكل على أساس فكر واحد وإيمان واحد متميز وقوي وبشكل طبيعي، وفيها تتعرف الجماهير بشكل مستمر على أصولها العقائدية، وفيها يلقن الإيمان. مثل هذا المجتمع يشبه مدينة مدت فيها الأنابيب (خلافاً لمدينة يوجد فيها في كل حي أو في كل منزل بئر) يمكن إصلاحها بنفس البساطة التي فسدت بها.

لكن هؤلاء الزوار، وهذا المزار ملتقى الجماهير التي ليس لها ارتباط ببعضها من أي نوع، وفي المتوسط يأتي كل فرد من جماهير الناس حضرياً كان أو ريفياً أو قبلياً مرة واحدة إلى هذا المكان، وإلى جوار هذا فليس في وضع سائح أو عابر سبيل أو تاجر بل في حالة روحية قابلة ومتهيجة وحارة. فإذا استطاع مفكر واع وعارف النفاذ داخل هذه الشبكة الدينية واتخاذ طريق إلى هذا الملتقى العام للجماهير، وبث أصول الوعي والتنوير فيها، يكون مثل مادة تدخل الدم عن طريق نقطة صغيرة ثم تطوف أنحاء الشرايين بسرعة شديدة، وتدريجياً تصل إلى كل الخلايا وتجذب إلى كل أعضاء الجسد، ويكون قد حقق نجاحاً عظيماً في أن يبسط

كلمته إلى كل الشرائح وإلى كل الزوايا في المجتمع وينفذ في أعماق فكر الجماهير وقلوبها، وعمل بهذا الحجم بالنسبة لمجتمعنا الراكد الغافل والذي لا هدف له أمر حيوي وفوري وصعب أيضاً بالنسبة للمفكر.

وإذا كنت قد وصلت في أبحاثي إلى هذا الحد وبالتالي أحسست أنه بدلاً من ترجمة أعمال سارتر أو البحث في مسرح العبث، ينبغي علي ـ من أجل هؤلاء الزوار وهم جماهير الشعب والنص الذي يتعاملون معه هو كتب الأدعية وكتب الزيارات ـ أن أختار النصوص الأصيلة المستنيرة للأدعية الإسلامية من بين آلاف النصوص المنتحلة والمنحرفة والتي لا طائل من ورائها، ثم أقوم بترجمتها ترجمة بسيطة وأفسرها تفسيراً موعياً، أو ـ بالنسبة لهذه العشرين ألف جلسة دينية التي تتشكل على أساس ثورة دموية وحركة ثورية مضادة للرجعية والاستبداد والانحراف الديني، أن أبحث عن بديل للروضات والبكائيات المخدرة المنحرفة الرائجة المضادة للتشيع، والتي تبث الخمود، والخرافة والضعف والذلة والكذب في أذهان الخلق، وأبحث في المتون التاريخية الأصيلة، وأعرف بحقيقة مدرسة الانتفاضة وفلسفة الحركة الإسلامية وروحها، والاتجاه التحرري المضاد للخلافة والموجود في التشيع، ولا ينبغي علي أبدا أن أتردد في القيام بهذا العمل، هذا بالرغم من أنني أعلم أنني إذا قمت بالعمل الأول فسوف أقدم للناس كمفكر مستنير عصري يعرف الوجودية والماركسية وسارتر وبيكيت وكيركغاردو . . . الخ، وإذا قمت بالعمل الثاني فسوف

أكون كاتباً دينياً يكتب كتب الدعاء ويدون متون مجالس الروضة. ولا شك أن مقام مفكر يتحدث عن مدارس أوروبا الفكرية ويكتب شيئاً عن نقد الفنون والآداب المعاصر ليس كمقام رجل دين ينقح متون كتب الأدعية.

وهنا ينبغي على المفكر أن ينسى نفسه، وإنكار الذات هو الشرط الأول للقيام بالخطوة الأولى في هذا الطريق، هنا لا يمكن للمرء أن يطلب الآخرة والأولى معاً، لكن من بين هؤلاء الرفاق الهواة في الأسس من يمكن أن تدلنا عليه ويكون هكذا؟ ان اعظم فدائييهم مستعدون للتضحية بأرواحهم في سبيل عقيدتهم الطاهرة ومن أجل الناس لكن بشرط أن ينتبه الناس إليهم، أشخاص اجتمعوا معاً من أجل الحرية حتى يستقبلوا الموت بإخلاص وسخاء، لكن جمعهم يتبدد اختلافاً على أيهم يكون رئيساً. يذكروننا بقصة أبي جهل عندما وقف عدوه على رأسه يحز عنقه، كان الطلب الوحيد الذي طلبه منه أنه أشار بطرفه إلى أسفل عنقه: أي حز من هنا، لكي يكون رأسي أعلى من كل الرؤوس بمقدار العنق، عندما تضعون الرؤوس على الحراب.

ما هو الهدف إذن من الكتابة والكلام؟ ألكي يعرف الناس أنني كاتب ومفكر مستنير وعالم وتقدمي؟ هل المهم أن يعرف الناس أسماء X و Y؟

كنت في مفترق هذين الطريقين: إذا نشرت كتاب سارتر سوف أصير عالماً بسارتر، فيلسوفاً، وبدلاً منه نشرت كتاب «أبو

ذر الغفاري» لكن في خمس طبعات متتالية، وقرأه على الأقل مائة ألف شخص، فأبو ذر صحابي الرسول متشيع لعلي، محبوب ومحترم، يؤمن الناس به وبكلامه إيماناً دينياً، كلامه ينفذ في قلوب الناس مثل آيات القرآن ويكون جزءاً من إيمانهم ومن عقيدتهم. من هو أبو ذر؟ ثوري عظيم، ومعاد للارستقراطية ومضاد للاستبداد ومضاد للرأسمالية (الكنز) وضد الفقر وضد التفرقة، إنه أفضل من يتحدث عن التربية والهدف هو أن يعي الناس، أن يعلموا أن الدين ليس هذا الذي يجرعونهم إياه، وصنعوه هم لاستحمارهم، ويعلموا أيضاً أن الحياة ليست هي ما هم عليه. الهدف هو أن أوصل رسالته لكل الناس «عجبت لمن لا يجد قوتاً في بيته ولا يخرج على الناس شاهراً سيفه»[١].

لكن لا شك أنه في مجتمعنا القارىء، الجانحون إلى القديم والجانحون إلى الجديد سواء بسواء قد تقولبوا، سوف أصير كاتباً دينياً وشتان بين من ينشر كتاباً عن أبي ذر ومن يترجم كتاباً لسارتر، لكن إذا حددت الأمر وهو أن التعريف بأبي ذر أكثر تأثيراً بالنسبة لايقاظ قومنا ومنحهم الوعي الذاتي والطبقي، والاجتماعي من

---

(١) هناك نقطتان عميقتان وعظيمتان في هذه العبارة: الأولى أن أبا ذر لا يقول للمحروم الحق أو يجب عليه أن يقوم بثورة مسلحة بل يقول: إنني أتعجب لماذا لا يقوم بثورة مسلحة، الثانية أنه يقول إن الثورة تكون على الجهاز أو الطبقة الحاكمة أو المستغلين أو الأثرياء بل «على الناس» لماذا؟ لأنني إن لم أملك قوتاً في منزلي فكل الناس مسؤولون عند الحكم عليهم بالموت.

وهناك قول لدوستيويفكي إن الساكت على الجريمة كالمشترك فيها لكن الخلاف بين القولين واضح.

البحث في الوجودية، فلا ينبغي أن أخشى الأحكام المتقولة مهما كان عددها كبيراً، بل لا ينبغي أن أخاف من حكم الروح المسيطرة على المجتمع ومن تلقيها، ان الذين يتنازلون عن حيثياتهم في سبيل المبدأ وفي سبيل الناس أعظم من الذين يضحون بأرواحهم في هذا السبيل.

وطالما ظل مفكرونا وكتابنا ومترجمونا وأهل الفكر عندنا عباداً للموضة يجدفون مع التيار ليصلوا بسرعة ويستلفتوا الأنظار فالناس في محنة. وكما يبدو فإن هؤلاء الناس المساكين سقطوا مرة ثانية فريسة للترويجات الفكرية وخداع العوام والتلاعب بالمريدين الجدد، وماداموا يربون على أيديهم ينبغي أن تمر ألف سنة أخرى على هؤلاء الملعونين.

والسبب الأصلي لكل هذه المصائب، ليس الاستبداد وليس الاستعمار وليس الاستغلال، كل هذه نتائج، هناك سببان: أولهما الاستحمار. . . وثانيهما: أيضاً الاستحمار.

والاستحمار على نوعين: الاستحمار القديم والاستحمار الجديد.

خلاصة البحث

والآن ينبغي أن نعلم:

١ ـ إن القضايا السياسية والاجتماعية خلافاً للقضايا الفلسفية والعلمية قضايا نسبية، ما يصدق على عصر ما ومجتمع ما، أو يؤدي إلى نتائج بناءة وتقدمية، يكون في زمان آخر ومجتمع آخر بلا معنى أو نتيجة وأحياناً يكون ذا نتائج مخربة وجالبة للانحطاط.

٢ ـ أن ما يجري في مجتمع أوروبا وثقافتها وفكرها وأفكارها الفلسفية والاجتماعية والسياسية نتيجة طبيعية ومنطقية للعامل التاريخي والشروط الاجتماعية في أوروبا، وإن انتقاله إلى مجتمعات ذات تاريخ مختلف وظروف اجتماعية مختلفة، بقدر ما هو خداع في الظاهر ومحدث للحركة وراق في نظر العيون التي لا ترى سوى السطح، أمر لا نتيجة منه إلا تضييع أعظم الفرص وأفضل المواهب الإنسانية وإفساد القيم.

٣ ـ أن السياسة بمعنى إحساس الفرد بالانتماء إلى جماعة ما

أو مجتمع ما[١] ومسؤوليته تجاهه ومنحه الوعي والاشتراك في قيادته هي السمة البارزة عند الإنسان المتقدم.

٤ ـ إن المفكر المستنير لا هو بالفيلسوف ولا هو بالعالم ولا بالكاتب ولا بالفنان، والمفكر المستنير هو متعصب ذو وعي ذاتي يحس بروح عصره وحاجيات مجتمعه، وعنده رؤية ذات اتجاه محدد ولديه أيضاً قيادة فكرية. وهذا الوعي والرؤية وعي ورؤية خاصان يتحققان وينضجان في مسيرة التجربة الاجتماعية والعمل الثوري أفضل من تحققهما عن طريق الأفكار المجردة الذهنية والدراسة، والاطلاع على المدارس الفلسفية والتخصصات العلمية، لأن حركة «الفكر المستنير» هي مواصلة حركة الأنبياء في التاريخ، أي أن المفكرين هم «هداة الأمة» وغالباً كانوا أميين، في حين أن المثقفين هم النماذج المواصلة للحكماء والعلماء والأدباء في التاريخ، نماذج نضجت، ويمكن أن نرى بوضوح الشبه بين الرسالة والاتجاه عند قادة الحركات التحررية الثورية المضادة للرجعية والاستبداد والنهب والاستعباد والتفرقة بين الأمم في العصر الأخير وبين الرسالة التاريخية لشخصيات مثل إبراهيم وموسى ومحمد، ويمكن أيضاً أن نرى التطابق البين جداً بين أعمال رجال مثل هيغل وديكارت وكانت وباستور وهايدجر وقيمتهم الحقيقية والفكرية كممثلين للانتلجنزيا المعاصرة، وبين النمط الفكري لأشخاص من قبيل أرسطو وأفلاطون، وديمقريطس

(١) وهو ما يسمى في لغتنا بالتعصب.

وبطليموس والكندي وأبي علي بن سينا والغزالي وملاصدرا[١]، هذا الوعي والشعور بالقيادة وهما ميزة المفكر ليسا بمعنى «الزعامة والحكم» بل بمعنى منح الحركة والاتجاه للمجتمع الذي يحمل المفكر تجاهه «مسؤولية فردية»: كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته.

٥ ـ ولأن المجتمع والقيادة الاجتماعية ليسا أمراً مجرداً ومطلقاً، وكل مجتمع له وضع خاص مرتبط بظروفه الاجتماعية الواقعية ومرحلته التاريخية وروحه الاجتماعية ونوع ثقافته، فإن المفكر على خلاف الطبيب أو عالم الطبيعة أو الفيلسوف لا يستطيع أن يكون مفكراً بتعلم المبادىء الاجتماعية والمدرسية العامة ومعرفة القضايا التي كانت تقدمية وبناءة في أرضية خاصة لأنه كما قلت: المفكرون هم الذين يواصلون العمل الذي تعهد به الرسل في التاريخ، والآية القرآنية الكريمة: «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه» تعني أن من تعهد بإيقاظ الناس وهدايتهم عليه أن يتحدث إليهم بلغتهم، ليس بالمعنى الذي قاله كل المفسرين أن موسى على

---

(١) ومن هنا ينبغي اعتبار الفقيه والحكيم والمتكلم وعالم الأصول والحكيم الإسلامي والعارف في صف العلماء والمتخصصين، واعتبار شخصيات من قبيل سيد جمال الدين والكواكبي ومحمد عبده في صف المفكرين المستنيرين. فهؤلاء هم الذين يقول رسول الإسلام في شأنهم «العلماء ورثة الأنبياء» ويقارنهم بالرسل الماضين في قوله «علماء أمتي أفضل من أنبياء بني إسرائيل» ومن هنا فالعالم في المصطلح الإسلامي هو من يتميز بالوعي الذي يهدي وشعور القيادة، وهذا هو علم الإمامة فالعلماء المتخصصون يمنحون المجتمع قيمة وغنى ثقافيين، أما هؤلاء فهم الذين يمنحونه الروح والحركة والاتجاه ومن هنا خوطبوا «أنتم ساسة العباد وأركان البلاد».

سبيل المثال كان يتحدث بالعبرية ومحمد ﷺ كان يتحدث بالعربية، ليس هذا في حاجة إلى قول، وهل يصح أن يبعث رسول إلى قوم من اليهود ويتحدث اللغة الصينية؟ فالمقصود أن الرسل لم يكونوا مثل مفكرينا يجلسون معاً ويتبادلون معاً الكلمات الفلسفية والعلمية جداً وليست لديهم الجرأة على أن يقوموا من كافيتيريا أوتيل بالاس ويسيروا خطوة واحدة في السوق أو بين عمال القمام والمحاجر، أو في المساجد وقرية محمد آباد ليروا ما هو شكل الشعب والجماهير الكادحة التي يحبونها غياباً ويحددون لها ما تقوم به بالوكالة، وماذا يفعلون وكيف يفكرون، ليس الرسول هو فلان المفكر التقدمي جداً الاشتراكي أو غيره الذي عندما يدخل مقهى ما أو تكية ما أو محلا لتجمع الفعلة والمزارعين، يسكت من حوله خوفاً وحذراً، ويظن الناس أن «السيد الأجنبي» قد وصل وينبغي أن يكونوا على حذر، ويحس هو أيضاً أنه دخل مجتمعاً غريباً لا يوجد بينهما أي نوع من التشابه والتفاهم، هذا هو معنى لسان القوم، هذا اللسان ليس الفارسية أو العربية أو العبرية، هو ثقافة قوم ما وروحهم وعواطفهم وحاجاتهم وآلامهم ومتاعبهم وأمانيهم والجو الفكري والروحي والاجتماعي عندهم.

كانت ماري انطوانيت تتحدث بنفس اللغة التي كان الثوريون في القرن الثامن عشر يتحدثون بها لكن عندما أخبروها أن الناس قد ثاروا لأنهم لم يجدوا الخبز قالت بنفس الفرنسية التي يتحدث بها الناس: إذا لم يكن لديهم خبز بسبب القحط أو احتكار القمح فليأكلوا البسكويت والشوكولا، وكان «كديور» أحد نواب مشهد في

البرلمان، وعند عودته من طهران للطواف بدائرته الانتخابية ودراسة مشكلات الناس ومطالب ناخبيه، شكا له الناس ارتفاع أسعار السلع الضرورية وأخذوا يبثونه همومهم أن أسعار المواد التموينية قد ارتفعت بحيث جعلت الحياة قاسية جداً. ولكي يبدي كديور تأييده لشكوى الناس، ولكي يواسيهم ويدلل على أنه أيضاً يشاركهم هذه الآلام قال: في الواقع أمر عجيب جداً، أمر المواد التموينية يدير الرأس منذ عامين أو ثلاثة فقط عندما كان يقدم لك زجاجة شمبانيا أو ويسكي أو جين ذي الثلاث نجوم من النوع الفرنسي أو الأمريكي أو الانجليزي ومع طعام كثير بل ومع الأوز المحمر في الشراب، كان كل فرد يدفع مائتي توماناً وعلى الأكثر إذا كان هناك في الأمر إجحاف مائتين وخمسين توماناً، لكن الآن عندما تشرب كأساً واحداً من الخمر الأجنبية ومع طعام عادي جداً مثل الأرز بالدجاج أو «شاتو بريان» ترى أن الأمر يكلفك من مائة إلى مائتي توماناً، ومن هنا فإن الجميع غير راضين في الباطن، والواحد منا يتقاضى ستة آلاف توماناً شهرياً دون أن يفكروا أن نفقات الحياة في طهران قد ارتفعت عن باريس ونيويورك، ناهيك عما يختص بنا نحن النواب، علينا صادر ووارد، وعندنا مظهر ونفقات طائلة وسهرات وولائم... والخلاصة أن عضو المجلس ينبغي أن يكون داخل المجتمع، إنه رجل سياسي واجتماعي، إنه يتعامل مع الجميع، لا يستطيع أن يغلق عليه منزله ويقبع فيه ويختبىء ويغلق بابه عليه... إنه نائب ليس من زهاد الهنود، من الممكن أن ينفق مرتب شهر أو شهرين على وليمة واحدة، إلى جوار وضع الحياة،

إنكم ترون إلى أي حد بلغ ارتفاع أسعار المواد التموينية».

إنكم ترون أنهما يتحدثان باللغة الفارسية لكن على موجتين، كلاهما يستخدم نوعاً واحداً من الألفاظ، لكن معنى أي كلمة وروحها وإحساسها يختلف بين ذهني شخصين من طبقتين اجتماعيتين مختلفتين وجوين ثقافيين مختلفين. هذا اللسان المقصود هو لسان الحياة لا اللسان الذي يستخدم في الأدب:

كم من هندي وتركي متفاهمين معاً وكم من تركيين كأنهما معاً غريبان، منذ بضع سنوات كان أسلوب السيد «فلسفي» على المنبر قد ازدهر بحيث كان كل منشد روضة يحفظ متون مواعظه تقليداً له ويستخدم بلاغته وخطبه الخاصة في مجالسه، كان السيد فلسفي خطيباً وواعظاً في مجالس الأعيان والأشراف ورجال المملكة، وفي ذلك الوقت كان «فلان» منشد الروضة المقلد عندما يذهب في محرم إلى قرية «كذا» في كرمان أو خوزستان أو خراسان كان يخاطب الناس الذين تعد أعظم وسائل النقل عندهم الحمار الصغير النشيط وليس منه إلا اثنان أو ثلاثة، وأمام أناس لم يترك سوء التغذية والجوع والفقر إلا بقايا وميض ميت في عيونهم: «أيها الرجال، أيها الأعيان أيها الناس الذين تمرون راكبين عرباتكم الكيرايزر والشيفورليه من آخر طراز بكبرياء وتنشرون الغبار والطين والوحل على رؤوس المشاة ووجوههم، أيها الناس الذين تنفضون رماد سجائركم على القطع التي لم يؤكل الا نصفها من أوزكم المشوي وديككم الرومية...» والمفكر المعاصر الذي يتحدث إلى سكان هذه الدولة وهذا المجتمع وهذا

العصر عن أوروبا وأمريكا هو من منشدي الروضة المبتدئين، يبهر الأبصار.

٦ ـ إن الثقافة هي مجموعة المصنوعات المعنوية لأمة ما أعدت وتشكلت على طول تاريخها، وضمير المجتمع وروحه هو الذي يمنحها هذا الشكل، ومن هنا فلكل ثقافة اتصال مباشر قائم على قاعدة العلة والمعلول وعلاقة منطقية مع الحتمية التاريخية والبنية التحتية الاجتماعية الخاصة به، والفرد عبارة عن خلية اجتماعية يكتسب شخصيته الإنسانية بتبلور الخصائص الثقافية لمجتمعه، ومن هنا فإن ما يسمى بالذات ليس إلا تجلي ثقافة المجتمع في الوجدان الفردي، ومن هنا فإن الشخصية الفردية لكل إنسان هي عبارة عن مجموعة الخصائص المعنوية التي ربيت داخلها «حتميته التاريخية» و«بنيته الاجتماعية» ويتدخل احتمالاً بقدر وعيه الذاتي وقدرة الاختيار عنده في توجيههما، ومن هنا فإن الوعي الذاتي وفهم الشخصية الذاتية عند الفرد هو خلافاً لما قال به التصوف الهندي والزهد المسيحي في أثره.

هو الوعي التاريخي ومعرفة البنية المادية والمعنوية لمجتمعه أي فهم ثقافته، ومن هنا فالمفكر الغريب عن ثقافته غريب عن نفسه، والمفكر الذي يفكر ويحس في جو ثقافي مختلف، مغترب يحس بذات آخر محل ذاته الحقيقية.

٧ ـ إن عالم النفس أو المحلل النفساني أو الطبيب النفساني ليس مثل عالم الأحياء أو الجراح أو الطبيب، بتعلم القوانين العامة

لعلم النفس يستطيع أن يحصل على أي نجاح، بل ينبغي عليه أن يضع أساس الحكم والحل واتخاذ القرار على أساس الفحص الدقيق لمريضه، و«يعرفه» بعد البحث في ماضيه وحاضره ووضعه المزاجي والبدني والروحي والفكري والبيئي والأُسري والعرقي والوراثي وحتى ميوله الذوقية وهواياته وعقائده وشكل حياته، لأن كل فرد يتميز بخصائص تتشكل من كل هذه العوامل المعقدة التي لا حصر لها، وبالنسبة لعلم النفس لا يوجد فرد بل يوجد أفراد. وفي «علم الاجتماع» أيضاً لا يوجد مجتمع بل توجد مجتمعات لكل منها شخصية اجتماعية مختلفة مرتبطة بتاريخه وبيئته الطبيعية وجنسه العرقي وشكل بيئته الاجتماعية والعلاقات الفردية والجماعية وعصر تطوره التاريخي واحتكاكه الاجتماعي والثقافي بالمجتمعات والثقافات والمذاهب المختلفة، واختيار مدرسة اجتماعية أو قبول حل أو الإيمان بعقيدة سياسية واجتماعية وعلمية من قبل المفكر دون معرفة هذه الشخصية الاجتماعية شيء بدائي ولا طائل من ورائه وأحياناً يؤدي إلى مأساة، مثل أن أكتب وصفة لعلاج مريض لا أعلم من هو وما هو سبب مرضه وكيف مرض وما هو مرضه وأية امكانيات مادية أو خصائص روحية لديه. وأصعب رسالة عند مفكرينا اليوم وأكثرها فورية، هي فهم هذه الحقيقة الغامضة الصعبة: لماذا صنعونا وكيف صنعونا هكذا؟ وقبل هذا ينبغي أن تعترف بهذا المبدأ المسلم به وهو أن كل ما فكرنا فيه حتى الآن وبالطريقة التي رأيناه بها حتى الآن، هو تماماً ما أراده الاستعمار وجاهد فيه: حتى نفكر هكذا ونرى هكذا.

يلزمنا نوع من «الشك الديكارتي» شك في أنفسنا وسوء ظن وريبة بالنسبة لعيوننا وآذاننا وأفكارنا وعقولنا وقلوبنا. وليس هذا أمراً سهلاً ولا يتيسر بمطالعة الكتب أو ترجمتها أو معرفة لغة أجنبية، إنه عمل ثوري في الذات.

الذوات التاريخية الثقافية:

لدينا عدد من الذوات التاريخية الثقافية:

١ ـ إيران القديمة: القومية ذات الجذور في التاريخ الأكميني والأشكاني والساساني والدين الزرداشتي، وفي نهايتها تتصل بالأساطير الإيرانية الآرية. الذات المدفونة في «صوص» وفي تخت جمشيد وفي بازار كد، بقيت منها أعمدة محطمة... والخلاصة أن الذي جمع شتاتها هو الفردوسي الفنان الوطني عابد التقاليد بعون من موهبته وتعصبه مرة ثانية في الـ «شاهنامه»..

هذه الذات الثقافية الأولى.... ماذا عنها؟

أ ـ أول شكل ثقافي وقومي للمجتمع الإيراني.

ب ـ مرتبطة بالمرحلة التي تكون فيها التاريخ الإيراني وتشكلت القومية الإيرانية.

ج ـ مرتبطة بالمرحلة الأسطورية لأنها مجاورة لمرحلة ما قبل التاريخ.

د ـ ذات لون قومي فاقع بالرغم من الهلينية في إيران الأشكانية والساسانية تلفت النظر بشدة في بعض الأبعاد الثقافية

وبعض الظروف السياسية لكنها لا تمسخ الشخصية القومية لإيران ولا تحط من الاستقلال الثقافي.

هـ ـ هي مقرونة بالمجد والقدرة والملاحم القومية والعرقية، لأنها في مرحلة كانت إيران السياسية واحدة من الإمبراطوريتين القويتين في العالم المتحضر في ذلك الزمان، وكان اتساع امبراطوريتها يصل من ليبيا إلى السند بل ويمتد إلى الدانوب.

و ـ كانت حضارتنا القديمة واحدة من أكثر حضارات البشر عالمية وتقدماً، فهي وريثة حضارات ما بين النهرين (السومرية، الأكدية، البابلية، الآشورية). والمنافسة المهاجمة للحضارات اليونانية والرومانية، وفي النهاية مانحة مواد كثيرة في بناء الحضارات الإسلامية والأوروبية المعاصرة.

ز ـ تحتوي على أربع حركات دينية كبرى: عبادة الشمس والزردشتية والمانوية والمزدكية والتي تعد من بين أديان التاريخ المشهورة ذات التأثير، فعبادة الشمس انتشرت حتى روما غرباً، وانتشرت المانوية حتى الصين شرقاً وكان لها بنية تحتية فلسفية قوية، وكان للمذهب المزدكي سحنة اجتماعية ثورية هجومية، أما المذهب الزردشتي فذو روح قومية وتقليدية ودينية وأخلاقية وتشريعية على قاعدة من النظام الطبقي والاقتصاد الزراعي.

ح ـ كانت ثقافتنا القديمة ذات عدة ملامح طبقية بل وطبقية مغلقة شديدة الوطأة بشكل يعد من الصعوبة بمكان أن تحس معه بالقومية في حدودها وصورها المعنوية لأن المسافة بل والتناقض

الطبقي بين الطبقات الأربع المغلقة: الأشراف والإقطاعيين، ثم رجال الدين ثم الكتبة ثم الحرفيين والمزراعين، كانت موجودة إلى حد أننا لو تصورناها عناصر تؤلف قومية واحدة ذات روح مشتركة وثقافة مشتركة وضمير مشترك لكانت هذه نظرة بعيدة وكلية وذهنية وتجريدية لا تتواءم أبداً مع الواقع الموجود، لأن هذه الطبقات كانت مغلقة، وكانت هناك أسوار ضخمة عالية عبوس لا باب فيها ولا نافذة قد أحاطت بكل طبقة بحيث إن الفرد لم يكن يستطيع قط وفي ظل أية ظروف أن ينتقل من طبقة إلى أخرى، فلم يكن مستوى الحياة العادية وحده أو الدور الذي تضطلع به كل طبقة في الانتاج أو معدل الدخل أو الرخاء الاقتصادي هي العوامل التي تميز طبقة عن أخرى، بل كانت كل طبقة عالماً مستقلاً منغلقاً على نفسه بتقاليده الاجتماعية وأشكال حياته وروابطه الفردية وحتى تبريراته المذهبية والفلسفية والعلمية والميتافيزيقية، حتى طرز اللباس والزينة ونوع الغذاء والمطبخ. . . وماذا أقول؟ بل ولغة الخطاب في كل طبقة كانت مختلفة عنها في طبقة أخرى. كانت اللغة الدرية هي لغة البلاط والأوستائية لغة رجال الدين ولم يكن هناك لغة قومية واحدة، ليس هذا فحسب بل لم يكن هناك خط مشترك، وكان الخط الأوستائي «وكتابة الدين» خطاً لرجال الدين يختلف عن خطوط الطبقات الأخرى. . . وهذا التميز الطبقي بلغ حداً حتى لم يسمح بوجود موسيقى قومية، وكان كل فرد مضطراً لعزف الموسيقى أو الغناء أو السماع في إطار الموسيقى التي حددت لطبقته، فالأغاني «الخسروانية» كانت خاصة بالبلاط ومحافل

الملوك والأمراء و«الأناشيد» موسيقى العسكريين والأبطال، والزمزمة «باث» موسيقى رجال الدين والرباعي موسيقى الفلاحين والعامة.

إذاً فأية عوامل مشتركة تصنع من هذه العوامل المستقلة الغريبة الطبقية أمة واحدة؟ أهي الاشتراك في التراب أو الدم أو الماضي أو الدين أو الحكومة؟ من بين كل هذه العوامل كان الرباط الوثيق القوي المقوي الذي يكون قرابة روحية وتفاهماً فكرياً وباطنياً هو الدين الذي كان أولاً: أقوى عامل مبرر وحافظ للحدود والثغور المحددة الطبقية وثانياً: فقط وفي أوائل عصر الساسانيين وعلى أيدي ملوك هذه الأسرة صارت الديانة الزرداشتية ديانة رسمية وقومية، وثالثاً: في نفس الوقت الذي تصل فيه هذه الديانة إلى أوج قوتها وسيطرتها ويصير نظام الحكومة دينياً، ويسيطر الموابذة على طبقة الأمراء العسكريين ويكون الإمبراطور الساساني نفسه منها، يصل نفوذها الروحاني في قلب المجتمع إلى الحضيض، ويظهر المذهبان القويان: المانوي والمزدكي داخل إيران بحيث يزدهران بسرعة البرق، ويهزان تماماً جسم المجتمع، ثم تأتي المسيحية، من الغرب، فتنتشر انتشاراً متزايداً بل وتجتاح المدائن عاصمة الساسانيين ومن الشرق ينتشر مذهب بوذا بل ويقيم كعبته في بلخ (كان يقوم بسدانتها أعظم أسرة إيرانية أي أسرة البرامكة).

ومن ثم فإن العامل الوحيد الذي كان يجاهد ليصنع من هذه الأعضاء المتنافرة بل والمتناقضة في المجتمع الإيراني القديم، أي من الطبقات التي كان لكل منها لغة منفصلة وخطا منفصلاً

وموسيقى وفناً منفصلين وتقاليد وآداب وطقوس منفصلة وأوضاع اقتصادية وحياة اجتماعية منفصلة، وحقوق فردية وحقوق جماعية منفصلة، وحتى أشكال ملابس وبيوت وطعوم وزينات مختلفة، العامل الوحيد الذي كان يجاهد ليخلق من هذه الأشياء جسداً واحداً يسمى الأمة أو على الأقل يبدو هكذا، كان مبدأ «الشاهنشاهية» أو عبادة شخص الشاه، وكل التركيز في إيران القديمة من طرف الكتاب والسياسيين وجه لهذا الأمر، ولتبريره الميتافيزيقي والديني وما يسمى بالمجد الإلهي الهمايوني[1] والعلاقة الخاصة بين الشاه وآهورامزدا، وهذا يدل على أنهم في المجتمع الذي كانت كل طبقة فيه تدور حول محور منفصل وتتحرك في خطوط متباعدة ومتنافرة، كانوا يحسون أنه عليهم بهذه الطريقة أن يخلقوا محوراً مشتركاً، وعلى هذا النسق فبدلاً من «القومية» التي تتشكل من أسس مشتركة، صنعوا «مركزية» أي بدلاً من الروح المشتركة صنعوا «ملكاً مشتركاً» وهذا هو الفرق بين الأمة والإمبراطورية، وما يقدم اليوم بإسم القومية هو في الحقيقة مركزية أكثر منه قومية.

لكن ما أريد أن أتناوله هنا هو: حقيقة أن الثقافة الإيرانية القديمة أي مجموعة الأديان والأداب والفنون هي من لدننا وواحدة من الذوات الثقافية والمعنوية ذات الجذور والأصيلة والفخمة والتي

(١) المترجم: المجد الإلهي هو النور الذي يوزعه اهورامزدا على المقربين من عباده ويحظى الملوك بالقسط الأكبر منه. وهمايوني: منسوب إلى طائر أسطوري يسمى «هما» وكل من خفق عليه بجناحيه صار ملكاً. وكان من ألقاب الشاه حتى آخر شاه.

تبعث الفخر فينا، لكن السؤال الذي يطرح نفسه: أين هي الآن هذه الذات الثقافية؟ والإجابة على هذا السؤال مصيرية بالنسبة لنا ولمسؤوليتنا الفكرية والاجتماعية اليوم.

لا شك أن هذه الثقافة الزاهرة والأصيلة توجد في التاريخ فحسب لا في المجتمع.

هل المفكر باحث في التاريخ أو عالم آثار أو عالم اجتماع؟ سوف تقولون: لا شك أنه عالم اجتماع.

لكن: هل يمكن معرفة المجتمع دون استمداد العون من التاريخ، لا شك: لا، لكن التاريخ الثقافي على قسمين: تيار تاريخي منقطع وتيار تاريخي متصل. والمفكر لا ينظر إلى التاريخ بنفس العين التي ينظر بها عالم التاريخ أو عالم الآثار أو باحث في عصور ما قبل التاريخ، فبالنسبة للمؤرخ أو فيلسوف التاريخ يعد التاريخ نفسه كميدان علمه حقيقة مستقلة وأتفه الحوادث مثل أعظم التطورات وأقدم العصور مثل أحدث العصور كلها ذات أهمية في نظره لأن كلا منها عنصر من العناصر التي تشكل التاريخ وهدفه هو كشف مسيرة التاريخ وإيجاد العلل وعوامل التطور والتغيير وقوانين الحركة فيه.

إنه يريد أن يعرف التاريخ، ولا معنى عنده لكونه متصلاً أو منقطعاً أو حياً أو ميتاً، وبالنسبة له تستوي قيمة إناء مكسور كان يستخدمه ريفي منذ عشرات الآلاف من السنين في ركن ما من أركان الأرض وسند ملكية حديقة عقد بين شخصين منذ سبعة آلاف

سنة لأنها جزء مباشر من عمله، إنه لا يفكر ولا يسأل نفسه: هل يتذكر أهل عصره دين كذا أو لغة كذا أو حادثة كذا أو لا يتذكرونها، هل لها من أثر في الزمن الحالي أو لاً؟ ليس هذا فحسب، إنه يهتم أكثر بالذكريات التي مضت ولم تعد منها ذكرى واحدة تشد الاهتمام لأنها مجهولة أكثر، وهو يجاهد لكي يجد كل ما ضاع في الماضي ليوضح كل زوايا التاريخ المظلمة، ومعرفته لما لا يعرفه أحد قط أكثر قيمة، واحتياجات المؤرخ هي التي تبدي حساسياته وأهدافه الخاصة، إنه ينكب عمراً على حجر منقوش حتى يستطيع أن يقرأ خطوطه المجهولة ويكشف الستار عن وجود شخصية أو حدوث حادثة أو علاقة خفيت عن الباحثين المتخصصين ويكافح سنوات ليجد كلمات سفدي[١] عن طريق البحث في اللهجات واللغات والنصوص المختلفة ثم يكتشف اللغة التي كان يتحدث بها أهل سمرقند منذ ألفي عام ولا يفهمها أحد الآن ولا يوجد بها نص واحد. ولا شك أن المؤرخ يأتي صوب الزمن الحاضر والمجتمع الحي، لكن ليس من أجل أن يعرفه، بل في أثر دليل أو أثرٍ وتذكار لواقع تاريخي أو حقيقة تاريخية، هذا هو الذي ساقه إلى هذا الموضوع، تماماً كما يلجأ عالم اجتماع إلى التاريخ، إنه يريد أن يعرف التاريخ، لكي يطل إطلالة عليه من أجل البحث عن مبدأ أو واقع اجتماعي، وذلك عند تحليل قضية موجودة وحية في مجتمعه ولاكتشاف جذورها. فقضية «لبس

(١) المترجم: في النص «سعدي» ولا شك أنه سفدي كما يفيد السياق.

الحجاب» في مجتمعنا، ينظر إليها المؤرخ كظاهرة تاريخية أي ظاهرة ظهرت في مكان كذا وفي زمان كذا نتيجة لعدد من العوامل الدينية أو السياسية أو الطبقية، وعبر العصور وفي كل ظروف محددة تطورت هكذا ثم اختفت في عصر كذا أو مازالت موجودة، لكنها بالنسبة لعالم الاجتماع واقع اجتماعي موجود، إنه يجاهد في فهمها وتحليلها في قلب الظروف الاجتماعية العينية المادية والمعنوية لمجتمعه الحاضر، ولما كانت معرفة حقيقتها الاجتماعية تستوجب معرفة جذورها التاريخية وأسباب وجودها ومراحل تطورها، فإنه يستعين بالمؤرخ، وفي المجتمع الأوروبي الحالي يعد موضوع الحجاب من الموضوعات التي يبحثها المؤرخ في تاريخ أوروبا لأن لها وجوداً تاريخياً في أوروبا، لكن بالنسبة لعالم الاجتماع الأوروبي تعد أمراً معدوماً.

ثقافة إيران القديمة

إن عالم الاجتماع يجاهد ليبحث «تخت جمشيد» الموجود بالفعل، ويعرف وضع بنائه ونوعه ومقاومته وشكله وتركيبه ومواد بنائه وطرازه بحيث يستطيع هو أو يستطيع معماري أن يرممه أو يجهزه لسكن أسرة معاصرة وحياتها أو يقيم وضعه المعنوي في معرفة الناس وإحساسهم وانطباعهم، لكن بالنسبة للمؤرخ يعتبر تخت جمشيد قضية تاريخية ذات حدوث على مر الزمان ومسير العصور والحادثات منذ بداية ظهوره وحتى الآن، وهو يجاهد ليعلم هذا الحدوث في الزمان ويتحرك على طول هذه المسيرة مع تخت جمشيد خطوة خطوة[١]. وها أنتم ترون أن كلا منهما يحتاج إلى الآخر، لكن كلا منهما يقوم بعمل متميز فلو أن تخت جمشيد لا وجود له اليوم في فارس ولو أنه كان قد اجتث من أساسه أو انتهى أمره تماماً في حريق الإسكندر فهو بالنسبة للمؤرخ أمر واقعي

---

(١) يمكن قبول قول شاندل: ان المؤرخ يبحث المجتمع في الزمان وعالم الاجتماع يبحثه في المكان بالرغم من أن هذا التعريف قد فسر التاريخ بمعناه الاجتماعي الخاص.

تاريخي، أي كان له وجود على الدوام، ولكان بالنسبة لعالم الاجتماع أمراً معدوماً.

ومن هنا فإن ثقافة إيران القديمة وحضارتها أو بتعبير آخر واقعها التاريخي ذو وجود بالنسبة للمؤرخ وسوف يكون ذا وجود، وجوده أبدي أزلي لأن لا شيء يفنى في التاريخ، لكن بالنسبة لعالم الاجتماع، يعد واقعاً منتفياً أي لا وجود له في المجتمع.

وقد قام سيف الإسلام السياسي والاجتماعي والثقافي بقطع التيار الثقافي الذي بدأ في إيران بانتصار الأسرة الأكمينية، وانفصلت إيران عن عهدها القديم، بحيث أنه في جيش الخراسانيين العظيم تحت قيادة أبي مسلم الخراساني لم تكن «السيوف المحددة لمصير الخلافة العربية» تذكر أي شيء عن جيش خراسان تحت قيادة رستم فرخزاد[١] الذي كان قد قام من نفس هذه الأرض. كان شعار هذا الجيش ومطلبه إقامة العدالة الإسلامية وليس إحياء حكومة آل ساسان بل إحياء حكم آل البيت، وبيان هذا الادعاء القائل: نحن الخراسانيين نعرف الإسلام أفضل منكم أيها العرب ونحترمه أكثر منكم. ونحن نعلم أن فتح خراسان استغرق منذ عهد عثمان حتى أوائل عهد بني أمية أي النصف الثاني من القرن الأول الهجري، وإن الحركة الإسلامية المعادية للأمويين في خراسان قامت في النصف الأول من القرن الثاني، وجيش أبي مسلم الذي ثار من أجل حكم آل البيت على الغاصبين لحقوقهم

(١) المترجم: قائد جيوش إيران في مواجهة الفتح الإسلامي.

كان مكوناً من الجيل الثاني من الناس الذين استسلموا لسيوف سعيد بن عثمان ويزيد بن المهلب.

والبحث في كتب من أمثال فضائل بلخ لشيخ الإسلام وتاريخ بخاري للنرشخى وتاريخ نيسابور وكتب أسماؤها بقية كتب الطبقات والمدن الإسلامية تدل على أنه في نفس هذين الجيلين الأول والثاني في الإسلام. كانت مدن ما وراء النهر وخراسان بالتعبير الجميل للحديث النبوي بشأن بلح «مثل حبات رمان متكاثفة من العلماء والقضاة والمحدثين والقراء بل والزهاد المسلمين المشاهير».

ونحن نعلم أنه منذ زمن أبي مسلم تغلب نفوذ الإيرانيين على العرب في الدولة الإسلامية، ومنذ بداية القرن الثالث الهجري بدأت الأسر الحاكمة الإيرانية الأصل الطاهرية والصفارية والسامانية والديالمة وآل زيار تحكم إيران، وعدم معرفتهم بإيران قبل الإسلام بلغت حداً بحيث أن علماءنا وأدباءنا ومؤرخينا القوميين في نصف القرن الأخير مهما بحثوا ومهما جاهدوا لا يجدون شيئاً يذكر في هذا الموضوع، بل إن السامانيين الذين كانوا يبدون اهتماماً بالقومية وبماضي إيران أكثر من الباقين وكانوا أكثر علماً ووعياً، كان العمل الذي قاموا به من أجل إحياء هذه الثقافة الميتة هو جمع القصص والخرافات القديمة أي كتب «الشاهنامة» والأطرف من هذا أنه حتى المفكرين والمتخصصين والعلماء والقوميين الذين قاموا بهذا العمل لم يكونوا هم أنفسهم يعرفون البهلوية وحتى أعظم نماذج هذا العمل أي الفردوسي الذي قام بنظم هذا العمل، كان يستخدم مترجماً.

وقد أشرت في محاضراتي في حسينية الإرشاد إلى أن القومية الإيرانية في الأصل وجدت بعد الإسلام، وقد تعسف علماؤنا (الذين صاروا قوميين) أخيراً ليجدوا في مقابل النوابغ العاميين أمثال ابن سينا والخوارزمي حتى شخصية واحدة ذات قيمة علمية وأدبية في إيران القديمة ولم يجدوا، ولم يستطيعوا أيضاً أن يثبتوا أن حركات الأسر الخائنة مثل الأفشين ومرداويج السفاح الرهيب والمقنع النصاب السفاك والدُّمى الأخرى التي كانت في يد الخليفة العباسي، الذين كانوا يجعلون من الناس السذج المنحطين أدوات في أيديهم من أجل استعادة حكوماتهم العائلية في المنطقة، والذين وقعوا في بعضهم بفضل دسائس الخليفة العباسي وأخذ كل يحمل رأس صاحبه إلى حضرة الخليفة العباسي، لم يكن لدى واحد منهم دافع قومي، والوحيد من بينهم الذي ظهر من بين جماهير الشعب، وكان في نضاله مخلصاً ومؤمناً وناضجاً وهو بابك والذي صار ضحية للخليفة على يد نفس هؤلاء الأبطال القوميين الذين صنعوا على يد علمائنا القوميين المعاصرين، كان مزدكياً، والمزادكة حاربوا الديانة الزردشتية ونظام إيران قبل المسلمين.

وأول شعراء بدأوا نظم الشعر بالفارسية بعد الإسلام، ونضجوا في بلاطات إيرانية بعد الإسلام، لا توجد عند أي واحد فيهم أقل شبهة في فكره وروحه وفنه أو لغته مع شاعر أو أديب قبل الإسلام (من اولئك الذين لا بد وأنهم كانوا موجودين) حتى لغتهم وخطهم نسوهما كلياً، وظل هذا النسيان للغة والخط والدين والثقافة والتاريخ والحضارة. . . الخ، حتى استطاع المستشرقون

الغربيون قراءة النقوش البهلوية والأوستائية واكتشاف نقوش دارا وقورش، التي كان الناس يقولون إنها من كتابة الشياطين والجن، وبدأ الاستشراق عمله في أوروبا لمصالح علمية وغير علمية، ثم اكتشفت كل العهود القديمة دفعة واحدة.

ليس المفكر فيلسوفاً، وليس عالماً، وليس رجل دين، وليس عرقياً قومياً، وفي نفس الوقت يستطيع أن يكون واحداً من هؤلاء، لكن ما هو مبدأ بالنسبة له، وما يكون معيار صحة مدرسة ما أو سقمها أو حقانية رأي ما أو بطلانه ليس القضايا العقلية والذهنية والفلسفية والعلمية، وليس الأدلة المنطقية والإلهامات الإشراقية، بل بكلمة واحدة البنية التحتية لاعتقاد مجتمعه وحريته، وأساس مسؤوليته منح الوعي الذاتي الاجتماعي والقومي والطبقي والإنساني لقومه.

هل الماركسية أيديولوجية؟

بين الاشتراكية العلمية (الماركسية) والاشتراكية:

على كل حال أيا كان التعريف الذي نقبله بالنسبة للمفكر، فينبغي أن نتفق على هذا المبدأ وهو أن المفكر المستنير هو مفكر واع له أيديولوجية محددة، أيديولوجية تتفرع منطقياً من رؤيته الكونية. ولا أستطيع هنا أن أقوم ببحث عن الأيديولوجية وأن أطرح معانيها المختلفة، خاصة ـ وخلافاً لما يدور في أذهان الماركسيين الرائجين أو من يعبر عنهم كاسترو ببغاوات الماركسية ـ ليس لمصطلح الإيديولوحية كحال مصطلح الطبقة الاجتماعية في

الآداب الاشتراكية معنى ثابتاً ومحدداً، فهم غالباً ما يظنون أن الأيديولوجية هي المدرسة الفكرية والعقيدة الخاصة لطبقة اجتماعية ما.

تقوم هذه الطبقة عن طريقها بتبرير نفسها وتحديد مثلها ومسير حركتها واتجاهها وكيفية نضالها الطبقي أو على سبيل الخلاصة: أهدافها، لكن من باب التوسع استعملت هذه الكلمة أيضاً بشأن الأمة، ومن هنا سمى ماركس كتابه المشهور «الأيديولوجية الالمانية» ولكن الطريف جدا وجود اختلاف جذري وتناقض فكري شديد بين ماركس، والماركسية، فإن الماركسية بسبب وضعها الاجتماعي والفكري شبه الديني ابتليت بمرض «الابتلاء بالعامة» وأعراض هذا المرض كما يبدو قد ظهرت بشدة في زمان ماركس وأحس هو نفسه به، وكان يتألم منه كثيراً، بحيث صرخ ذات مرة في جماعة من المريدين المتعصبين النمطيين الذين اختلفوا معه في التبرير الماركسي لقضية ما: «إنني ماركس نفسه آخر الأمر، لست ماركسياً».

وأحد الخلافات الشديدة بين ماركس والماركسية كان بشأن الأيديولوجية، والسمة الأساسية البارزة الفكرية عند ماركس هي خلافه الشديد والأساسي والمطلق مع الأيديولوجية، في حين أن الماركسيين يتحدثون دائماً عن الأيديولوجية الماركسية، فماركس يعتبر الأيديولوجية نتيجة ذهنية للمنظرين، وبصرف النظر عن الأيديولوجيات الخائنة المنحرفة التي وضعها مفكرون مرتبطون بالطبقة الحاكمة من أجل تبرير الوضع الراهن، يؤمن عموماً بتفسير

التاريخ والمجتمع ورسم المطلوب من أجل المستقبل، وكل أيديولوجية حتى ولو كانت اشتراكية مدافعة عن مصالح طبقات الشعب الكادحة والمستغلة ومعادية للقواعد الفكرية والاقتصادية والاجتماعية للطبقة الحاكمة لأنها من صنع مفكر ومن عمله أو من صنع فيلسوف ومن عمله، ولأنها خطة مطلوبة، ولأنها عقيدة مرغوبة ولأنها التزام طريق معين للوصول إلى المطلوب وأخيراً لأنها تقول: «هكذا ينبغي الفكر وهكذا ينبغي العمل وينبغي الإيمان بهذه الشعارات والجهاد لتحقيق هذه الأهداف».

بسبب كل هذا فهي مرفوضة أساساً وغير علمية، وأساس الاختلاف بين اشتراكية ماركس وبين الاشتراكية والشيوعية عند المعاصرين له والسابقين عليه أن الاشتراكية كانت بالنسبة لهم عقيدة وبالنسبة له علماً، ومن هنا كان يعتبرهم من أصحاب المدينة الفاضلة. أي أن المجتمع الاشتراكي بالنسبة لهم مدينة فاضلة «يوتوبيا»، وهي أمل كل محبي البشر وطلاب العدالة والمفتونين بالمساواة والإخاء والحرية بين الناس، وهي الحاجة الفورية والنجاة الحيوية للجماهير المحرومة المغتصبة والمستعبدة في المجتمع الظالم الطبقي ومن ثم ينبغي الجهاد لتطبيقها على الأرض وتبديل النظام الاقطاعي الظالم أو النظام البورجوازي أو الرأسمالي إلى نظام إنساني اشتراكي. هذه هي أيديولوجيتهم وهذه هي العقيدة التي يؤمنون بها، لكن ماركس يعلن في مواجهتها اشتراكية علمية أي أن الواقعة العينية للتاريخ تتحرك مرحلة بمرحلة على أساس قوانينها الحتمية الخارجة عن متناول

يد الإرادة والفكر والعقيدة وتتطور وتصل طوعاً أو كرهاً إلى هذه المدينة الفاضلة.

والاشتراكية ليست مصباحاً يضعه ذكاء أفراد من البشر وابتكارهم، وتكنيكهم ليضيئوا بها الليالي المظلمة، ويبددوا الظلمات والمتاهات وألوان الحرمان المتولدة من ظلمة الليل، الاشتراكية شمس تسطع قطعياً في الغد على أساس حركة المنظومة الشمسية وعلى الرغم من كل قوى حرس الليل واختراعاتهم والمستفيدين من الظلمة ومن عمى الناس ليلاً، سوف تضيء كل مكان في العالم، وسوف تحكم العالم، أما ايديولوجيتهم فتقول ينبغي صنع مصباح وإضاءة الليل، وينبغي هدم الرأسمالية وإقامة الاشتراكية، لكن الماركسية ترى أن نصرها أكيد ونهائي ومنظم والمنطقي لحركة التاريخ.

واشتراكية المنظرين اقتراح أما الاشتراكية العلمية فنبوءة الأولى تقول: ينبغي القيام بهذا الأمر أخلاقياً، والثانية تقول: بل القاعدة أن يكون هكذا، الاشتراكية اختراع بالنسبة للأول لكنها بالنسبة للثاني كشف. ويدَّعي ماركس أنه اكتشف قانون حركة قافلة التاريخ، وعلى أساس هذا الكشف العلمي لاحظ أن الاشتراكية سوف تكون بالتأكيد المنزل الأخير، ومن هنا يقول ماركس إنه لا ينبغي أن يدعى الناس إلى الإيمان بالأيديولوجية الماركسية بل ينبغي تعليمهم قوانين تطور المجتعمع وأسلوب كشف حركة التاريخ، إن الاشتراكية تريد أن تعطي الناس إيماناً دينياً أما الاشتراكية العلمية فتعطيهم «وعياً علمياً» والأيديولوجية الاشتراكية

مسألة ذهنية وشخصية أما الماركسية فأمر عيني وموضوعي، الأولى حقيقة لكن الثانية واقع.

ومن هنا فالماركسية ليست أيديولوجية، ليس هذا فحسب، بل هي مسيرة فكرية مضادة تماماً للأيديولوجية. فالماركسية في الواقع لا هي مدرسة عقائدية ولا مذهب أخلاقي ولا تكنيك اجتماعي ولا مدرسة فلسفية ولا نظام مطلوب إقراره محل النظم الموجودة بل هي بعبارة واحدة أسلوب كشف التاريخ أو فهم مسير حركة ومواصلة المنازل المعينة التي يقطعها بإستمرار عالم التاريخ. معه وتلقائياً سوف يصل إلى الاشتراكية أي إلى المنزل الأخير، ومن هنا فإن من يسمي الماركسية أيديولوجية لم يعرفها وقام بتحريف واقعها بل نسب إليها ضدها كأن يقول أحد الداروניين «الأيدلوجية الداروينية» أو يستخدم عالم من علماء الرياضات تعبير «الأيديولوجية النسبية».

لكن مع كل ذلك: الماركسية أيديولوجية لأنه: أولاً: من السذاجة بمكان الادعاء بأن علم الاجتماع وعلم التاريخ وعلم الإنسان قد بلغ درجة في القرن التاسع عشر بحيث يستطيع عالم فيلسوف مهما كان نابغة أن يصل إلى كل القوانين، كان جورج جوروفيتش عالم الاجتماع المعاصر العظيم قد قال في أحد دروسه إن أحد علماء الاجتماع في القرن التاسع عشر كان قد اكتشف ١٩٨ قانوناً علمياً في علم الاجتماع في حين أن علماء الاجتماع اليوم لا يدعون كشف قانون مسلم به والعلم كُلَّما تقدم تواضع، وعلم الاجتماع في القرن العشرين أكثر العلوم تواضعاً، وهذا الاعتراف لا

يؤيد وجهة نظر تلك الجماعة التي ترى التاريخ واقعاً عينياً وعلمياً، والمجتمع جسداً واحداً حياً مثل كل الموجودات المادية والظواهر الطبيعية، وعلى أساس من القوانين المسلم بها والروابط المنطقية العلية يعيشان ويتحركان وينضجان ويولدان ويموتان ويعتبرون هذين صورتين ذهنيتين، ويعتقدون أن هذا الذهن الإنساني الذي يصنع الكليات والذي يصور مجموعة من الحوادث والوقائع المتفسخة القديمة المتولدة من إرادة الأفراد والجماعات «وحدة متصلة عينية، وأن المجتمع الذي هو عبارة عن تجمع من الأفراد وعلاقات بينهم وحدة متصلة عينية ومستقلة عن الأفراد الذين كونوه. مثل هذه النظرية ليس لها اليوم طابع علمي، ويتحدث عنها أفراد لا علم لهم قط بالنسبة للمجتمع والتاريخ ليس هذا فحسب بل يفتقدون الرؤية العلمية أساساً.

وقول جوروفيتش على العكس تماماً دليل الاعتقاد الشديد والجدي عند علماء الاجتماع في القرن العشرين بمبدأ علمية الواقع العيني للتاريخ والمجتمع، وتحذير العلماء من فرض فرضيات ذهنية واهية وأحكام لا اساس لها وآراء خاصة أو آمال وأهداف شخصية وجماعية وطبقية ودينية وقومية وعرقية. . . على المجتمع والتاريخ، وصناعة نوع من فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع حسب الحاجة ومصلحي ومفيد. وهناك فرق بين ذلك المفكر الذي يكشف القوانين العلمية في المجتمع ويكتشف المسيرة الحقيقية لحركة التاريخ، ثم يحدد أهدافه على أساس هذه المعلومات والمعلومات العلمية وبين المفكر الذي يقوم بتحليل مطلوب

للمجتمع وتحديد لمسيرة التاريخ على أساس آرائه وأحكامه المسبقة والمحددة سلفاً.

المفكر والعلموية:

وهنا، احترازاً عن سوء الفهم أو سوء التعبير عن الفكرة أقول: إنني كما ذكرت آنفاً لست مؤمناً بالعلم الحر أو العلم الملتزم، فالأول عبارة عن جعل العلم بلا فائدة وفصل للفكر والنبوغ عن حياة الناس، ومصير المجتمع البشري والأمم المتأخرة والمحرومة التي سقطت ضحية للجهل والفقر والاستعمار الجديد والاستغلال الطبقي وتخليص أغلب البشرية من نظام لا إنساني، والثاني مسخ للعلم وبالتالي فصل الفكر والعلم والنبوغ عن الواقعية العينية والمعرفة العلمية والحقيقية للطبيعة والتاريخ والمجتمع والإنسان، لأنه بمصطلح الحديث النبوي المشهور جداً والعميق والمنهجي عن تفسير القرآن وهو يعني أن تفسير واقع ما بالرأي «سواء كان ظاهرة طبيعية أو أثراً أدبياً أو فنياً أو شخصية إنسانية عظيمة» بقدر ما هو مفيد وذو مصلحة في إثبات رأي «عقيدة أو نظرية» الا أنه بالنسبة للوعي العلمي والمعرفة الحقيقية عبارة عن واقع مضر ومخالف للحقيقة.

وبين هذين الطرفين وأحدهما يؤدي إلى التضحية بالواقع في سبيل المصلحة، والآخر يؤدي إلى التضحية بالمصلحة من أجل الواقع، هناك طريق ثالث هو تطبيق المصلحة على مقتضى الواقع، أي علينا ألا نفرض الأهداف على العلم فنصل إلى اسكولائية

جديدة (كما فعل النظام الرأسمالي اليوم ومبدأ عبادة الاستهلاك في الغرب إذ أخرج العلم من خدمة الكنيسة وأدخله في خدمة رأس المال)، وأيضاً علينا ألا نؤمن بهذا الادعاء الواهي المغرض للعلمويين والمتظاهرين بالعلموية وهو أن نترك العلم ليحدد أهدافه بنفسه ويحملنا معه إلى حيث يذهب، لأن العلم ليس مرشداً ولا يعين الهدف أو يختار الطريق أو يستنتج. . . والطريق الثالث هو أن نحدد بعد أبحاث حرة وبحوث علمية غير ملتزمة الأهداف العلمية والمصالح الحيوية المعنوية والمادية بالنسبة لنا ونختارها.

ومن هنا فالمفكر عالم ينقسم عمله إلى مرحلتين: فهو في المرحلة الأولى علموي، ليس له رأي مسبق أو التزام سسياسي أو طبقي أو ديني أو غيره، إنه يبحث في التاريخ والمجتمع وكأنما لا هدف له إلا فهم واقعهما، لا يريد أن يثبت مبدأ بعينه ولا يريد أن يصل إلى نتيجة معينة أو هدف ثابت، إنه يريد أن يعرف فحسب ويكشف، وبعد أن ينتهي من هذه المرحلة وهي مرحلة العلم من أجل العلم أو العلموية، يعود حينذاك نحو الإنسان أو المجتمع أو الطبقة التي يحمل «التزاماً إنسانياً بالنسبة لمصيرها أو سيرها، ويفكر في آلامها واحتياجاتها ويجاهد في اختيار الطريق والهدف على أسس المعرفة العلمية والواقعيات العينية والقوانين العلمية التي اكتشفها، ويبرز هذا الطريق، ويدفع الحرية والإرادة الإنسانية إلى استخدام هذه القوانين العلمية من أجل تحقيق الأهداف الإنسانية والاجتماعية والطبقية لديه. وهذه هي الأيديولوجية، الأيديولوجية العلمية، فلا هي من صنع ذهن فيلسوف، ولا هي وليدة موهبة

سياسي أو قائد، لكنها عبارة عن «تكنيك: فن».

أجل، فالأيديولوجية الحقيقية عبارة عن تكنيك، ليست علماً ولا فلسفة، لا هي عمل فقط ولا أخلاق، وما هو الفرق بين التكنيك والعلم؟ في التكنيك: الهدف والنتيجة الغائية مقدمة على التكنيك والإنسان هو الذي يحددها، والإنسان هنا في حالة تلقي وقبول، هو تابع ومستسلم محض للواقع الخارجي، ليس له أدنى حق في التدخل فيها، لكن التكنيك عبارة عن فرض الإرادة الإنسانية على القوانين الطبيعية، وبتعبير آخر: استخدام العلم بوسيلة الإرادة الواعية[١] عند الإنسان من أجل الوصول إلى ما يريده. ومن هنا فالعلم سعي الإنسان من أجل فهم الطبيعة وكشف ما هو في الطبيعة، والتكنيك سعيه من أجل استخدام الطبيعة وخلق ما هو ليس فيها، ومن هنا فالأيديولوجية بمعناها الخاص هي التكنيك بمعناه العام.

فعالم النبات ينقسم عمله إلى مرحلتين: المرحلة العلمية وهي عبارة عن كشف قوانين النبات. ومعرفة أنواع النباتات وعلاقتها بالبيئات الطبيعية المختلفة ومعرفة قوانين التلاقح والنمو والإثمار والتطعيم والشتل والتدهور والرقي الكمي والكيفي لكل

---

(١) هذا الوعي من الممكن أن يكون تجريبياً كما أن أسس التكنيك القديم مثل صناعة طاحونة مائية أو هوائية كان على الدوام أمراً تجريبياً (فالطفل دون أن يعلم معادلات فيزيائية أو رياضية متعلقة بالحركة والجاذبية والجو وغيره يقوم بصنع طائرة ورقية واطلاقها في الهواء) ومن الممكن أن يكون وعياً علمياً، والتكنيك المتقدم الجديد هكذا.

واحد من أنواعها، ومجموعة هذه المعارف هي التي تكون علم النبات، والمرحلة الثانية هي المرحلة التكنيكية والعملية في عمله وهي عبارة عن الطرق (المنهج) والوسائل (الأدوات والآلات) المختلفة التي يخترعها على أساس هذا العلم حتى يحصل على ما ليس موجوداً في الطبيعة ويريده[١]، وباستخدام القوانين العلمية الموجودة في علم النبات كما يهوى، يحول المسير الطبيعي لحركتها الكمية والكيفية إلى الجهة التي يريدها، وبإحلال قوانين محل قوانين أخرى، يحطم حتميتها ويفرض عليها الحتمية التكنيكية الإنسانية، وعلى سبيل المثال يجعل من الغصن الذي تحمله الحتمية الطبيعية على أن يكون شجرة تفاح ويثمر تفاحاً برياً سيىء الطعم، يغير هو مساره الطبيعي الحتمي على أساس من المعرفة العينية والواقعية لقوانين هذه الحتمية وباختراع أساليب وأدوات جديدة ويوجهه إلى أن يكون شجرة كمثري، يثمر ثماراً من الكمثري غير عادية وموجهة.

والمفكر أيضاً ينقسم عمله إلى مرحلتين: في المرحلة الأولى وهي المرحلة العلمية من عمله يجاهد من أجل أن يفهم واقعاً علمياً وعينياً يسمى المجتمع، ويكتشف قوانين الحركة والتطور والتكامل وعوامل الفترة والانحطاط والارتقاء لواقعية مستمرة عينية تسمى التاريخ، وفي هذه المرحلة لا يكون لديه التزام أو تعصب قط إلا إدراك الحقيقة ومعرفة الواقعية العلمية للتاريخ والمجتمع، فهو قرين

(١) ينتج أنواعاً جديدة أو متكاملة وعالية من الورود والنباتات والأشجار والثمار لم تكن موجودة في الطبيعة دون تدخل الإنسان ولا تستطيع الطبيعة أن تنتجها.

لعلموي، ومساعد له، وبعد أن يكتشف سلسلة من القوانين الاجتماعية ويحصل على الأصول المسلم بها لحركة التاريخ وتطوره ويكتشف حتمية التاريخ (بتفسيري وهو يعني المسيرة الطبيعية لحركة التاريخ دون تدخل إرادة الإنسان الواعية تماماً مثل المسير الطبيعي والحر لنمو الشجرة البرية) وعلى أساس هذه المعارف العلمية والعينية، يطرح ايديولوجيته وهي عبارة عن الأهداف والمطالب الإنسانية والاجتماعية والطبقية عنده والأساليب والطرق التي توجه التاريخ من مسيره الطبيعي أو المنحرف إلى تلك الناحية.

وخلافاً لما وقر في الأذهان، ليست الإيديولجية دائماً من صنع ذهن أو من نسيج طبع فيلسوف أو كاتب، أو مظهراً للأحلام ومثل المدينة الفاضلة وبعيدة عن الواقعية العينية ـ بالرغم من أن كل الأيديولوجيات المصنوعة والمستخدمة حالياً هكذا بدرجة أو بأخرى ـ فالإنسان ولأنه إنسان، لديه الاستعداد العلمي لادراك الطبيعة والمجتمع وفهمهما، ليس هذا فحسب، بل ولديه قدرة الخلق والإبداع والتوجيه والاستخدام أيضاً، ولديه احتياجات فوق عادية وميتافيزيقية[١].

لأقدم خلاصة لما فصلت القول فيه:

١ ـ ليس من الملزم أن يكون المفكر فيلسوفاً أو عالماً أو

---

(١) لست أقصد بالحاجات فوق العادية والميتافيزيقية المعنى العرفاني الفلسفي فحسب، بل إن كل ما يريده وليس موجوداً في الطبيعة العادية يصر على صنعه (بالصناعة أو الفن) عبارة عن رغباته الميتافيزيقية، وكثير من رغباته المادية من نفس هذه المقولة.

عالماً اجتماعياً أو فناناً أو سياسياً، أو على حد تعبير آخر، متعلماً لكنه «إنسان واع ذو اتجاه اجتماعي واحساس بالارتباط الجماعي والالتزام الإنساني تجاه هذه الجماعة.

٢ ـ هذه الجماعة التي يطرح التزام المفكر بالنسبة لها هي في الأصل جماعة تواجه قضايا إنسانية وعن وعي أو غير وعي هناك المستسلم أو العامي الذي يعيش في المجتمع البشري في عصرنا في مواجهة الأقلية الحاكمة، أو الأمة في مواجهة الاستعمار الاقتصادي والسياسي والثقافي أو الطبقة الكادحة المحرومة في مواجهة التفرقة والاستغلال والنظام الطبقي.

٣ ـ هذا الشرط «الإنساني» أو «الأخلاقي» بالنسبة لالتزام المفكر نتيجة لأن المنافع المشتركة الاقتصادية والاجتماعية لا تستطيع وحدها أن تضمن هذا الالتزام لأنه: أولاً: من الممكن أن يكون المفكر عضواً من طبقة مستغلة أو مجتمع مستعمر (بجر الميم) وهكذا أغلبية المفكرين، لكن في نفس الوقت يكون ملتزماً تجاهه، بحيث أن كثيراً من القادة والأبطال والمفكرين والكتاب والفنانين العظام الذين كانوا من الرأسماليين وأولاد الأشراف والاقطاعيين أو رجال الدين المنتسبين إلى الطبقة المتوسطة، وقاموا في طليعة العمال والفلاحين ضد طبقاتهم (وهذا في حد ذاته أحد المبادىء المطلقة الخالدة للأخلاق، الأخلاق غير النسبية)، كما كان هناك رجال أحرار ضحوا حتى بأرواحهم بسخاء في سبيل حرية أمم من الاستعمار الأجنبي أو الاستبداد الداخلي دون أن يكونوا من أبناء هذه الأمم بل وكانوا من نفس الدول المستعمرة «بكسر

الميم»، حتى في عصرنا ذهب كثير من المفكرين المناضلين من فرنسا وانجلترا وأمريكا إلى أسبانيا وحاربوا الفاشية لتحرير الجمهورية الاسبانية، وهناك كثير من الأوروبيين بل والفرنسيين دخلوا الحرب عملياً إلى جوار جبهة التحرير الجزائرية ضد فرنسا، والبيض الذين انضموا إلى السود في حركة الحقوق المدنية ضد امتيازاتهم هم أنفسهم. بالإضافة إلى أن هذا الالتزام بالنسبة للمفكر التزام إنساني لأنه حتى ولو كان عضواً في مجتمع مبتلي بالاستعمار أو من طبقة مستغلة فإن ما يدفعه إلى الوفاء بالتزامه في أية ظروف هو أخلاقه وإيمانه بالقيم الإنسانية التي تعلو على القيم الاقتصادية والكسب، لأنه بالقياس إلى عامل أو فلاح أو أي عضو في مجتمع متخلف مبتلى بالاستعمار، خاصة إذا كان مفكراً مستنيراً تمنح له الفرصة دائماً لتأمين مصالحه الاقتصادية بعيداً عن مصالح طبقته ومجتمعه، والذي يمنعه من ارتكاب هذه الخيانة هي الأخلاق أي القيم الإنسانية السامية والخيالية.

٤ ـ بناء على قول جوروفيتش «لا يوجد مجتمع بل توجد مجتمعات، إذا أمكن الاعتقاد بأنه لا يمكن في علم الاجتماع تحليل كل المجتمعات والظواهر والعلاقات والمشاكل الاجتماعية المعقدة التي لا حصر لها على أساس قوانين وأصول صحيحة ودقيقة وثابتة وكلية وفي دقة العلوم البحتة مثل الرياضيات والفيزياء وحسمها، كما أنه لا يمكن القيام بتنبؤ نهائي للتاريخ والتطورات الاجتماعية، لأن علم الاجتماع لم يتخذ حتى الآن صورة علم دقيق وكامل، ينبغي إذاً على المفكر ألا يعتمد على نظريات العلوم

الاجتماعية وفرضياتها الكلية، وأن يتجنب تطبيق الواقعيات الاجتماعية المحسوسة عليها منها، وبدلاً من ذلك عليه أن يقوم بالمعرفة المباشرة لمجتمعه عن طريق البحث في التاريخ والاحتكاك بالمجتمع والتفاهم مع الجماهير وإيجاد روابط جماعية وطبقية، وبحث الأسس والمؤسسات والثقافة والدين والخصائص العرقية والقومية والاجتماعية والعواطف والشخصيات القومية والأسس الاقتصادية والطبقية فيه، بمعنى أنه لمعرفة الدين أو الطبقة البورجوازية في مجتمعه عليه بدلاً من أن يلجأ إلى ترجمة علماء الاجتماع أو أفكار الاشتراكيين أن يذهب هو نفسه برؤيته العلمية وأسلوبه الدقيق والمنطقي إلى دينه والتحليل الطبقي لبورجوازية مجتمعه، أي عليه أن يقوم بنفس العمل الذي قام به الاشتراكيون العلماء في أوروبا، ومن هنا فإن تقليد نظريات علماء الاجتماع وأحكامهم وترجمتها وتحليلها على الواقع الموجود في مجتمعنا مرفوضة وغير علمية ومضادة لعلم الاجتماع، بقدر ما هي ضرورية ولا يمكن تجنبها ومعرفة أسلوب العمل والرؤية ومعرفة المدارس والنظريات الاجتماعية من أجل الدراسة والتحقيق المستقل والمباشر للمجتمع لأننا نستطيع أن نقلع عن تقليد الأوروبيين ونصل إلى استقلالنا العلمي والفكري حين نتعلم أسلوب العمل عند الأوروبيين ونعرف أعمالهم بدقة معرفة صحيحة لا أن نكرر أحكامهم وآراءهم ونعمل بها، ولا وجه للشبه بين هذين العملين، كما أن أخذ الوصفة من الطبيب وتنفيذ ما فيها دون استفسار قضية، وتعلم الطب وأسلوبه في الكشف والتشريح قضية أخرى، وهناك

طريق ثالث: وهو عدم الرجوع إلى الطبيب في الأصل ومن أجل الاستقلال وعدم التقليد واعتماداً على ثقافة المرء وأفكاره، القيام بالعلاج على طريقة النسوة العجائز وأدويتهن وسحرهن ودجلهن. الطريق الأول هو أسلوب العمل عند مفكرينا المتفرنجين العصريين والطريق الثالث هو أسلوب تفكير أشباه رجال الدين وطريقة عملهم، والطريق الوحيد هو معرفة القضايا والمدارس العلمية والأيديولوجية الجديدة في ميادين التاريخ والمجتمع والاقتصاد والسياسة ثم نسيانها كلها، والسعي في طريق المعرفة المباشرة والمستقلة للواقع التاريخي والمجتمع والثقافة والدين والإنسان وكل هذه الجوانب كما هي موجودة بالفعل، وهذا برؤية ومنهج علمي اجتماعي جديد وطرح حلول وتحديد أهداف على أساس هذه المفاهيم.

٥ ـ الاعتقاد بالمبدأين «الحتمية العلمية للتاريخ والمجتمع» و«إرادة الإنسان» بحيث يستطيع المفكر كعالم الفيزياء وعالم النبات، وبقدر وعيه ومعرفته بالقوانين الموجودة في قلب الواقع العيني لتاريخه ومجتمعه أن يسيطر على حتميته العلمية ويستخدمها في سبيل تحقيق مثله. والإنسان الواعي الخلاق ليس قادراً بالمرة على نقض قانون علمي أو خلق آخر لكن بإحلال قانون محل آخر، والسيطرة على القوى والظواهر العينية، سواء في الطبيعة أو في المجتمع أو في الفرد، يجعل «الحتمية» تحت سيطرته، ويغير مسيرها وفق هواه، والإنسان كإرادة واعية وخلاقة ومثالية يستطيع أن يتدخل بنفسه بصورة علة فوق طبيعية في مسيرة حتمية الطبيعة وعلاقة العلة بالمعلول.

والاعتقاد بالحتمية المطلقة أو الطبيعية أو المجتمع بشكل يبين أن الإنسان مخلوق مطلق لهذه الحتمية، هو بتعبير جوروفيتش «نوع من الكسل» لأنه مثل الاعتقاد بالقضاء والقدر السماوي والمصير المحتوم المسبق والمشيئة الإلهية، بما أن ينفي عن الإنسان إرادته وحريته المستقلة كقدرة يستطيع بها أن يخلق نفسه ومجتمعه، كما أنه يسلب منه المسؤولية أيضاً.

وينبغي أن نضيف هذا التنبيه وهو أن البحث هنا عن الإنسان بشكل مطلق لا معنى له، لأنه الإنسان بقدر وعيه العلمي والذي يجد القدرة الفنية على أساسه يستطيع كعلة حرة أن يسيطر على حتمية البيئة ويغير نفسه ومسيرة تاريخه وشكل مجتمعه على الرغم من كل العوامل الحتمية، وإلا فإن الإنسان غير الواعي موجود طبيعي صرف من صنع العوامل والظروف المادية والاجتماعية... الخ، ومن تربيتها... مجرد ثمرة من ثمار الخربوزك تأخذ لونها وطعمها وشكلها ووزنها ونوعها من الطبيعة ومن مقتضيات الري والتربة والجو والموسم والحوادث الجزئية والطبيعية.

وبقدر ما يجعل الاعتقاد بالجبر المطلق الإنسان فاقداً للإرادة والمسؤولية وينزل به إلى مستوى نبات أو حيوان، فإن الاعتقاد بالحرية والإرادة المطلقة الإنسانية ونفي القوانين العلمية الموجودة في الطبيعة والتاريخ والمجتمع خارج الإنسان، يجعل الإنسان فاقداً للوعي العلمي والقدرة التكنيكية ويجره إلى عالم الخيال والأسطورة واصطناع الفلسفات وكثير من المتعصبين الجامدين الذين يعتقدون اعتقاداً جازماً بحتمية التاريخ، والتدخل الكامل للبنية الاجتماعية

والبنية التحتية الاقتصادية والذين يعتبرون الإنسان من صنعها صرفاً، ويعتبرون عامل الإرادة والفكر ليس علة بل معلولاً لعلة خارجية هي الطبيعة أو الحتمية التاريخية أو الإنتاج الاقتصادي، ولإثبات هذه النظرية يحتجون بالنوابغ العظام والكتاب والمفكرين والفنانين والشعراء والأبطال والشخصيات الاجتماعية من أمثال أرسطو وأفلاطون وفيثاغورات وكونفوشيوس ونابليون، ويقولون أن هؤلاء بالرغم من نبوغهم وبالرغم من أنهم كانوا يفكرون في مستوى يفوق بيئاتهم الاجتماعية وقاموا بإبداع أعمال فنية غير عادية واختراعها، يمكن في نفس الوقت البحث عن روابط العلة والمعلول بينهم وبين بيئاتهم، وبيان كيف أن الظروف الاجتماعية والمقتضيات الناتجة عن شكل الانتاج والمرحلة التاريخية لمجتمعاتهم هي التي أوجدت نوع الرؤية الكونية والرؤية والعقائد والميول الفكرية والعاطفية والمعايير الأخلاقية والنمط الذوقي عندهم، وأشكال أفكارهم وآثارهم وأعمالهم الفنية ومحتوياتها، وبهذا التحليل يستنتجون أنه حتى المواهب العظيمة الفلسفية والفنية الخارقة للعادة، والإرادات القوية للشخصيات والقيادات وليدة للبيئة الخارجية.

والقضية هي أن المفكر والفيلسوف والأديب والفنان والزاهد والأخلاقي والبطل والقائد شيء وعالم التاريخ وعالم الاجتماع وعالم الإنسان شيء آخر، فأرسطوا بالرغم من أنه «المعلم الأول» ومن أعظم الفلاسفة العقليين، وبوذا بالرغم من أنه أقوى الأرواح الإشراقية في التاريخ، لكن كليهما كانا أسيرين للطبيعة مثل بشر بدائيين ونصف وحشيين، وكانا في مواجهتها بلا سلاح أو دفاع،

ولم يكن لهما نصيب حتى من البخار والعجلة، في حين أن أي فتى بسيط لا يستطيع في القرن العشرين أن يفهم كلام هذين، مجهز في مواجهة الطبيعة ويسيطر على أقوى قواها، والسبب في هذا واضح فالنبوغ والفلسفة والأدب والفن كلها أمور عاجزة في مواجهة الطبيعة، كانت أثينا مليئة بهذه الثروات العظيمة والقدرات المدهشة ومع ذلك فقد كانت ترتعد لأقل عبوس من الطبيعية تماماً مثل قبيلة بدائية، وعالم الطبيعة هو فحسب الذي يضع زمام التكنيك حول عنقها ويمتطيها، حتى ولو كان شخصاً يضيق تلاميذ سقراط من انعدام إحساسه، والمفتونون بهوميروس من «قلة ذوقه» والطفل الذي يطلق طائرة ورقية في الجو انتصر على الطبيعة أكثر من سقراط وأفلاطون وسان أوغسطين والغزالي وبوذا ولاوتسي.

وهكذا أيضاً بالنسبة للمجتمع، يستطيع الإنسان كعلة مستقلة أن يدخل في سلسلة العلل التاريخية الاجتماعية وينتصر على المجتمع، ويلجم قواه الطبيعية لصالحه ويغير شكلها بمجرد أن يعرفها، وعلى أساس معرفته العلمية هذه، يطرح تكنيك تغييرها، والثورة عليها وإصلاحها والعمل على تكاملها كما يهوى ثم يعمل بما طرح، إن الوعي الاجتماعي الصحيح هو الذي يصنع المجتمع لا الفلسفة ولا الفيزياء، ولا الكيمياء ولا الطب ولا الفن أو الأدب والشعر.

٦ ـ على أساس هذه الواقعية الجدلية بين الجبر والاختيار أو الإنسان والبيئة (الطبيعة أو المجتمع) أو بتعبير ديكارت تقابل «باطن الذات أو الذهن» و«خارج الذات أو العين» أو بالمصطلح القرآني»

«سنة الخلق والناس» فإن كل القضايا الإنسانية المادية والمعنوية والفردية والاجتماعية في صيرورة وجريان، والمفكر إرادة واعية وهو عالم بهذه الحقيقة القائلة أنه كلما كان الناس أكثر علماً بالحتمية التاريخية والقوانين العلمية للحياة والحركة الاجتماعية وبنية مجتمعهم، وكلما نضج وعيهم الذاتي الإنساني والاجتماعي والطبقي نضجاً علمياً وصحيحاً، سوف تكون لديهم القدرة أكثر على تحطيم الحتمية التاريخية والطبيعة الاجتماعية التي فرضت عليهم قسرا وفي غفلة منهم، وسوف يجعلون من العلل التي صنعت حتميتهم الفكرية والاجتماعية والأخلاقية والسياسية والطبيعية معلولة لإرادتهم الواعية الخلاقة والمدبرة والطموحة إلى المثل، ومن هذا الطريق فحسب يستطيع الناس ـ أي أولئك الذين صنعوا في المجتمع على غفلة منهم[1] ـ أن يصبحوا الصناع الواعين في المجتمع، وهذا

---

(١) هنا يتضح عبث البحث المعروف الذي راج بيننا والذي فحواه: هل الأديب والكاتب والشاعر هم الذين يصنعون المجتمع والحضارة أو الطبيب وعالم الفيزياء والمخترع والمكتشف والمهندس هم الذين يصنعونها؟ المجتمع المعاصر يصنعه أولئك الذين يعرفون المجتمع ويعلمون تكنيك تغييره وتكوينه ويعملون بما يعلمون، وكما قلت في «إسلام شناسي: معرفة الإسلام»: إن القضية الغامضة التي لا تحل أي قضية الجبر والاختيار التي طرحت في الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام الإسلامي بشكل مسهب فيه وغامض وغير مفهوم، واضحة تماماً ومنطقية جداً وعلمية وصريحة ومقنعة. فـ «السنة» وهو القانون المسلم به والنهائي وغير القابل للتبديل وتمثله القوانين العلمية والروابط الجبرية العلية في الطبيعة المادية والمجتمع الإنساني، أما الناس أو الإرادة الواعية المسؤولة فليست مسيرة أو مجبرة غافلة لهذه القوانين الجبرية «السنة» لكنها مشروطة ومقيدة ومحددة بها. والمنزلة بين المنزلتين بهذا المعنى أي الناس مع السنة. إسلام شناسي ص ٥٠.

المبدأ بقدر ما هو ممثل لحقيقة علمية محدودة ومسلم بها، هو الذي يحدد طريق المفكر ومسؤوليته العامة والدائمة.

والنضال ضد الاستبداد والاستعمار والاستغلال والقضايا الفورية الحيوية من قبيلها هي التي تحدد الهدف الغائي للمفكر ومسؤوليته المطلقة والأبدية، لأن هذه القضايا في حد ذاتها ليست واقعيات مطلقة وأبدية لكنها مصائب وموانع عاقت طريقه، ولما كان التحرك محالاً إلا بالقضاء عليها، فإنه مضطر إلى الجهاد للقضاء عليها وتحطيمها، وهذا مصداق آخر لذلك المبدأ الكلي الذي تناولته ومضطر في الغالب إلى تكراره وهو أن «الاقتصاد مبدأ وليس هدفاً»[1].

---

(١) وهذا عامل يستوجب أن أرى نفسي متفقاً في العمل مع أناس أختلف معهم في الفكر وينبغي أن يكون الأمر هكذا، وهكذا أنتظر من مخالفي في الرأي رفاقي في الطريق. والأمر يشبه أن أخوين ورثا منزلاً عن أبيهما وكلاهما يريد أن يبنيه من جديد بحيث يدخله الهواء والنور وتفتح نوافذه على فضاء فسيح وتتوفر فيه الراحة والحرية والطمأنية وتتجمع فيه كل الوسائل الحديثة للراحة والرفاهية، وتكف عنه أيدي الغاصب والمدعي واللص والمشاكس... الخ، الخلاف الوحيد بينهما أن أحدهما يريد أن يواصل حياته في المنزل الجديد والثاني يريد أن يواصل دراساته، الأول يعتقد أنه بدون وجود منزل أو العيش في منزل بالإيجار لا يمكن أن يحيا حياة طيبة، والثاني يعتقد بأنه لا يمكن أن ينضج في مثل هذه الحياة، الأول يريد أن يبني منزله الخرب الموروث غير الصالح للسكن الذي له فيه شريك ومدعي حتى «يجلس فيه ويحتسي فيه خمره مستريحاً دون أن يضايقه أحد» والثاني يريد أن يجلس فيه ويقرأ المثنوي. حسناً جداً، لكن هذين الشابين المفكرين قد نسيا خراب المنزل واغتصابه والخلاف من جرائه بل والمنزل نفسه وأمسك كل منهما بخناق الآخر متنازعين متظاهرين هذا يقول لذاك: اذهب أيها الرجعي المثالي الديني وذك يقول لهذا: اذهب أيها العصري المادي الملحد.

٧ ـ أن رسالة المفكر ليست القيادة السياسية للمجتمع، وبالرغم من أن القائد السياسي يستطيع أن يكون مفكراً فالرسالة الأساسية للمفكر هي منح الوعي الذاتي السياسي والاجتماعي والطبقي للناس، أي للأمة والطبقة المحكومة المستغلة «بفتح الغين».

٨ ـ بالنظر إلى العالمية والقومية والدين «التقليدي» من ناحية الرابطة المشتركة التي يمكن أن تقيمها بين الطبقات الاجتماعية، تعد مسائل تصيب البصيرة والإحساس الطبقي بالعمى، وهي غطاء خداع لإخفاء نظام التفرقة المسيطر على المجتمع، لأنها قضايا فوق طبقية وعلى المفكر أن يراعي الأمور الآتية عندما يواجهها:

أ ـ أن العالمية أو الإنسانية واقع متعالٍ تأتي مرحلة طرحها وتحقيقها بعد مرحلة النضال الطبقي. وطرح الإنسانية والتركيز عليها قبل هذه المرحلة خدعة أو جهل لاإنساني وهنا تصير الإنسانية عاملاً ضد الإنسانية.

ب ـ ينبغي إبعاد القومية عن مرض عبادة العرق «العرقية» أو مرض عبادة التراب «الشوفينيية» إذ أن مزاجها مستعد دائماً لقبول هذين المرضين، وإقامتها على قواعد عينية وعلمية وإنسانية، فليست القومية واقعاً ثابتاً أبدياً بل ظاهرة جدلية، بمعنى أن القومية تظهر عندما تتعرض للرفض والكبت والتحقير، والتحقير في حد ذاته نوع من الرفض وكبت القيم والفضائل.

فقد ظهرت القومية اليهودية منذ أن تعرض وجودها وقيم

وجودها للإنكار في المجتمع المسيحي الغربي. والصهيونية منطقياً وجبرياً وليدة للحركة المضادة للسامية، ولماذا لم تظهر القومية اليهودية، والفاشية الوحشية العرقية الإسرائيلية في الشرق وبخاصة في المجتمعات الإسلامية التي كانت منذ عهد بعيد محل عمل وإقامة لكثير من اليهود؟

وفي تاريخ إيران نرى أن القومية الإيرانية ظلت صامتة تماماً في مواجهة الفتح الإسلامي لكنها تظهر في عهد الحكم الأموي وتسترد الروح لأن الإسلام كان له شأن بنوع التفكير والعقيدة الدينية فحسب، وكان يريد تغيير الشكل الاجتماعي والسياسي والعلاقات الاجتماعية والفردية في إيران، في حين أن نظام بني أمية كان يجاهد استناداً على العربية والتفاخر القومي في تحقير أمة إيران وإنكار قيمتها الثقافية ومفاخرها القومية وقتل تاريخها، ووقفت الأمة الإيرانية في مواجهة العرب، وقام العرب بخلق القومية الإيرانية بينما كانوا يحاولون قتلها.

وهذه الحقيقة القائلة أن القومية منطقياً ليست مدرسة فكرية بل ظاهرة جدلية تميزها في الظروف الحالية العالمية كأطروحة مضادة في مواجهة الإمبريالية الاستعمارية في شكلها السياسي والاقتصادي وبشكل خاص في شكلها الثقافي والفكري، ومن هنا فإن المفكر حين يعلم هذه الحقيقة القائلة بأن الطبقة المنتفعة وجهاز قيادتها خاصة قد صنع من القومية قناعاً خادعاً وضعه على سحنته الاستغلالية، ومادة تصيب الوعي الذاتي الطبقي بالعمى، ينبغي أن يتخذ موقفاً في مرحلة النضال ضد الاستعمار فحسب في جبهات

هذه القاعدة لأن الاستعمار في زماننا واقعية ضد القومية. والمفكر في مركز مراقبته الحساس والمشرف، ينبغي أن يجعل موضعين من مواضع الخطر تحت نظره دائماً.

١ ـ إن اشعال نار النضال الطبقي عند احتدام النضال ضد الاستعمار على مستوى الأمة، بمثابة إحداث الفرقة والخلاف في وحدة كل القوى المتحررة المضادة للاستعمار، لأن الاستعمار يجعل من الوجود التام لأمة ما أو لمجتمع ما بكل أبعاده وطبقاته مجالاً لهجومه، وفي نفس الوقت من أجل أن يستقر في مجتمع ما يعتمد على قاعدة في الداخل، ويصنع شريحة داخلية مصطنعة، ولكن من المستحيل أن يصير الطابور الخامس واجهة طبقية لبنية المجتمع أو طبقة اجتماعية أصيلة، إن الاستعمار لا يُبلي الجماهير فحسب بالفقر والعبودية والجهل بل يجر معه الملاك والبرجوازية والانتاج القومي إلى الانحطاط والزوال، ومن ناحية لما كان يرفض كل القيم العرقية والخصائص الإيجابية القومية وتاريخ الأمة وثقافتها ومعنوياتها ودينها أو يمسخها، فإن كل القوى الصادقة تقوم مرغمة ضده أيا كانت ميولها العقائدية وانتماءاتها الطبقية وحيثياتها الاجتماعية.

٢ ـ النقطة الخطيرة الأخرى التي ينبغي على المفكر أن يلاحظها هي: أنه بعد نهاية النضال ضد الاستعمار الذي احتدم في جبهة خارجية وبمشاركة كل القوى القومية والطبقات الاجتماعية فإن الأجنحة والشخصيات التي أصبحت من ذوي النفوذ المعنوي والسيطرة المتقدمة نظراً للشجاعة والاخلاص والجدارة التي

أيدتها، عند العودة من الحرب القومية المضادة للامبريالية إلى الميدان الداخلي حيث يبدأ الصراع الطبقي تجاهد لحفظ. حيثياتها ومواصلة قيادتها، ومن موقعها الخاص وسابقتها البارزة ونفوذها الذي اكتسبته في النضال القومي وخاصة بطرح شعار المحافظة على الوحدة الوطنية واتحاد كل القوى والطبقات الاجتماعية، تأخذ في الحيلولة دون النضال الطبقي، وتصبح الوحدة التي كانت حيوية وإيجابية في النضال ضد الاستعمار مضرة وسلبية بنفس القدر في النضال ضد الاستغلال الداخلي.

وهذه هي المشكلة الموجودة حالياً في الهند، فإن الراجات والسادة الهنود الذين كانوا يناضلون إلى جوار الناس في سبيل القضاء على الاستعمار الانجليزي، وكانوا لنضجهم الثقافي ووضعهم الاجتماعي البارز قد وقفوا في الصفوف الأولى للنضال، وبالطبع ظهروا في صورة أبطال قوميين ومتحررين ومضادين لاستعمار الأمة الهندية، الآن وقد احتدمت الحرب الطبقية في قلب المجتمع وقام ملايين الكادحين الذين يسلمون الروح فقراً وجهلاً وقحطاً ليقاوموا الاستغلال المفجع والامتيازات المدهشة لطبقة الراجات، ولكي يسلبوا منهم امتيازاتهم، يرون أنفسهم في مواجهة هؤلاء الأبطال القوميين والشخصيات المحترمة المقدسة المضادة للاستعمار وقادته المبجلين في الحرب على الإمبريالية الإنجليزية وفي هذه المرحلة تتحول أسوار القومية والوحدة الطبقية التي ظهرت في هجوم الاستعمار على كافة الطبقات وأحاطت بوجود المجتمع إلى أسوار تحيط بالحدائق

والمصانع والأملاك ورؤوس الأموال والامتيازات.

فالأخوّة الدينية والأخوّة الوطنية التي تضمن النصر في مواجهة الخطر الخارجي، تكون في مواجهة الخطر الداخلي وسيلة للحفاظ على عدم المساواة بين الأخوين، وعندما تتدخل القومية ويتدخل الدين بين الحاكم والمحكوم وبين من يملك ومن لا يملك تكون عوامل خداع وعوامل تخدير، وكل عامل يعقد بين السجين والسجان، أو بين العبد والسيد صلة أو قرابة قيد جديد في يد السجين وقدمه وربقة جديدة حول عنق العبد تضغطه، ماذا أقول؟ قيد؟ ربقة؟ حول اليد والقدم والعنق؟ لا . . . بل على فكره وروحه وعقله ورؤيته، ولا يوجد عامل يحفظه في العبودية والأسر أكثر احكاماً من هذا العامل، إنه العامل الذي يجعله أسيراً وعبداً ويربيه في الأسر والعبودية، مادة تزرق في دمه.

متى تطرح المدارس المختلفة؟

وهنا ينبغي أن أكرر ما طرحته آنفا وسميته «جغرافية الكلمة» أي أننا في الميادين السياسية والاجتماعية ينبغي أن نفكر في الظرف الزماني والموضع الاجتماعي لفكرة ما أو لشعار اجتماعي وإيماناً بهذا المبدأ ينبغي عند طرح المدارس الفكرية أن نراعي ما يلي، كما ينبغي ذلك عند بيان الطرق:

أ ـ لأن الاستعمار واقع مضاد للقومية وهو فوق طبقية الدولة التي يستعمرها والبنية التحتية لمجتمعها، تكون القومية كاستناد على القيم الفكرية والواقع التاريخي والوجود المتميز القومي المستقل موضع تركيز من المفكر في أكثر النضالات فورية وحيوية، ولما كانت القومية منطقياً واقعية جدلية وليدة للاستعمار والإمبريالية فإن الاستناد عليها ليس أمراً مثالياً وعاطفياً وناشئاً من إحساسات رجعية وعرقية ومفاخرات مغرورة جاهلة، بل هي اتخاذ موقف منطقي وعلمي وشديد الرقي.

ب ـ بعد انتهاء مرحلة النضال ضد الإمبريالية وطرد

الاستعمار تماماً ينبغي أن يتغير شكل النضال على الفور، وأن ينتقل إلى الداخل، واستمرار القومية كوحدة وطنية في هذه الفترة في صورة صراخ وأناشيد حماسية في ميدان غاب عنه العدو وضجيج للتغرير بالناس داخل المدينة، في هذه المرحلة ينتقل النضال من مرحلة القومية إلى شكله الطبقي، وينبغي أن يترك شعار الأخوّة الذي كان له معنى ومجالاً في مواجهة الأجنبي مكانه لشعار «المساواة».

ج ـ في المرحلة الأخيرة تطرح العالمية أو الإنسانية.

وطرح العالمية في مرحلة النضال ضد الاستعمار دعوة للتفاهم والتذكير بالنسب بين الأمة المستذلة والطبقة المستغلة وبين الأمة الاستعمارية والمستغلة «بكسر الغين» وهي في حد ذاتها دعوة لا إنسانية وتذكير مغرض وخداع. وينبغي أن نقبل هذه النقطة كمبدأ، أنه كما أن اعتقاد «القادة القوميين» بأن القومية رابطة أبدية ومثال سرمدي، هذا الشعار بقدر ما هو في مرحلة النضال ضد الاستعمار حيوي وبناء، يصبح بعد طي هذه المرحلة ونيل الاستقلال يتجه اتجاهاً سلبياً ورجعياً وباعثاً على الانحطاط، وأيضاً اعتقاد القادة الاشتراكيين بأن الاشتراكية هدف غائي ومثال نهائي وليست منزلاً على الطريق ينبغي للإنسان أن يتجاوزه لا أن يقف فيه، بقدر ما هو في مرحلة النضال الطبقي بناء وحيوي، يصير بعد الاستقرار الواقعي للاشتراكية عامل انحطاط وفساد في طريق مواصلة التكامل المعنوي والإنساني للنوع البشري.

العالمية في رأيي ينبغي أن تكون أمراً مطروحاً بعد الانتهاء من المرحلة الطبقية في النضال، عبارة عن مدرسة فكرية باعتقادها بمبدأ أن الإنسان هو مخلوق فوق طبيعي وأن استعداد الوعي والاختيار والخلق والذي صنعه في الطبيعة على نسق الله يقوده إلى نضجه القويم وتكامله المعنوي في هذه الأبعاد الثلاثة إلى ما لا نهاية، أي إلى كمال لا يقبل التصور، لكنني كررت هذه النقطة مراراًوهي أن العالمية أو الإنسانية التي من مستلزماتها عدم الإيمان بالحدود العرقية والقومية والطبقية إذا طرحت في الظروف الحالية لن تكون إلا إخفاء للمتناقضات والتضادات اللاإنسانية الموجودة، فهي دعوة إلى الوحدة البشرية عندما تكون الوحدة البشرية مفهوماً انتزاعياً فلسفياً، أما في العالم الواقعي: عالم المستعمر والمستعمر والمستغل الحاكم الذي يملك والمحكوم المفلس والمتحضر والمنحط وساكن الدولة الاستعمارية والمحلي الأبيض والأسود، الغربي والشرقي، والرأسمالي والعامل، الاقطاعي والأجير... سوف تكون خدعة وسفسطة مغرضة لصالح «خمسمائة مليون إنسان ولضرر مليار وخمسمائة مليون محلي» شركة رأسمالي قوي القبضة مع مفلس عاجز.

وللوصول إلى الإنسانية، إذا بدأنا بالإنسانية فقد ابتعدنا عنها إلى الأبد، للوصول إلى الإنسانية في الوقت الحالي على الأمم التي تواجه الامبريالية والاستعمار أن تعبر أولاً مرحلة القومية ثم مرحلة المساواة الطبقية، والوصول إلى الإنسانية قبل أن تتحول الأجناس المحتقرة والأمم التي محيت شخصياتها و«غسلت» من الثقافة

والقيم والأصالة إلى بشر ليس ممكناً، في البداية ينبغي أن يتحول «المحليون» إلى بشر حتى يجد نوع البشر تحققه العيني والواقعي.

(يتحدث أحد المحليين ويذكّر مدّعيي الإنسانية بالقيم الإنسانية المنسية).

كان باتريس لومومبا قد ظهر في سحنة مهدي منتظر منتقم ومسيح مخلص كان ينتظره التاريخ طوال قرون العبودية المشؤومة، واستعمار الجنس الأبيض، والخضوع لتعذيب العبودية وأغلالها داخل زنزانة الاستعمار، وكانت أفريقيا هذه الدمعة الحارة على الأرض تهتز على كراسة الخرائط. أفريقيا هذه التي كانت دائماً قطرة دمع ساخنة تسيل على وجه الأرض أصبحت مثل قلب ينبض، أجل، أليس القلب يشبه في شكله الدمعة؟ هناك دلائل عديدة كانت تجيب عن هذا السؤال المفعم بالآمال والعشق جواباً إيجابياً، لقد دخل الاستعمار العالمي مرحلة الاحتضار، لقد أصبح هناك منافس للرأسمالية في العالم، في العالم المستعبد تنتصب القامات الرشيدة في الأمم البطلة وتمنح العبيد الإيمان والأمل، وتمرد الجيل المفكر الحر في أوروبا جنة البورجوازية وكفر بالمذهب القذر «عبادة الاستهلاك» ومبدأ «القدرة والحياة» مع كل خدعه الفلسفية والفنية والثقافية، ومن بين كل هذه الأمور كان أكثرها أصالة ومنحاً للبشري: أن أفريقيا قد تحركت... ومكان العبودية والجهل والوحشية، نمت من الغضب والتمرد نباتات سامقة ذات جذور وهي تنبت لحظة بلحظة، والأرض التي جعلها التاريخ أرض إنتاج وتصدير عبيد أصبحت تنتج الآن الثورة والحرية والفكر وتصدرها،

تصدرها؟ أجل، ليس هذا بالقول الهزل، أحياناً تدل ظواهر صغيرة على وقائع عظيمة، ولعلني طوال عمري لم أصادف حادثة بهذا المعنى العميق والعظمة، تلك الحادثة التي علمتني أن أفريقيا لم تتحرر فحسب، بل إن حضارة جديدة وثقافة بديعة قد ولدت على الأرض. أجل، رأيت أن «شرفة إيوان مدائن أوروبا تتساقط وأن النار الكاذبة لمعبد نار الغرب في سبيلها إلى الهمود».

كيف؟ متى؟ ذلك اليوم الذي منعوا فيه مجلة «الثورة الأفريقية» من دخول باريس، باريس؟ نعم، مدينة الحرية ووريثة الثورة الفرنسية الكبرى وكاتبة حقوق الإنسان والمنادية بشعار الحرية والمساواة والإخاء، المدينة التي حفظت في الواقع حتى الآن تقاليد حريات الفكر واللغة والقلم والدين والحزب والنقابة وأسلوب الحياة. . . الخ.

عند تقاطع سان جرمان دوبريه وسان ميشيل، تلتقي بكل المدارس السياسية والفلسفية والاجتماعية. . . وفي مكان واحد بالملكيين أي أنصار الملك معارضي الثورة الفرنسية الكبرى وظهور الحكم الجمهوري والمنادين. بعودة ملكية آل بوربون، وإلى جوارهم الفوضويين وشعارهم «لا الله ولا الملك ولا القانون» وبعدهم بقليل الشيوعيون بأنواعهم وكل فرقهم ومذاهبهم: الشيوعي الستاليني والشيوعي الخروتشفي والشيوعي الكوسيغيني والشيوعي البريجنيفي والماوي والكاسترووي والتروتسكي (العالمي) والشيوعي القومي، وإلى جوارهم المزديون، يعني ماذا؟ يعني أولئك الذين ابتلوا بمرض التشرق وهم يمارسون رياضة اليوغا

الهندية وهم باربسيون في القرن العشرين ويقلدون الجوكيين ومرتاضي الهنود (أي ينشغلون بالحقيقة المطلقة وقد طلقوا عقلهم الديكارتي الجاف طلاقاً بائناً، ونورو بنور الإشراق الذي سطع على بواطنهم في قلب الشرق. فأخذوا في إخلاء بطونهم من الطعام وبدلاً من زجاجة بلا خمر يطلبون خمراً بلا زجاجة، وهم حائرون في البحث عن تجرد العنقاء في وادي الطلب)[١] وفي ركن آخر النباتيون، وأبعد قليلاً الرهبان المتعصبون الذين ينتسبون إلى القرون الوسطى الكاثوليكية والذين يذوبون شوقاً إلى عقد محكمة تفتيش وسلخ مرتد أو حرقه، وإلى جوارهم الكاثوليك المستنيرون الأحرار ورجال طائفة الذين كانوا يساعدون المجاهدين العرب من أجل تحرير الجزائر والذين كانوا يأتون إلى فرنسا بالرشاشات تحت آباطهم بدلاً من جوازات السفر فيمدونهم بالملجأ والمال.

بل وأتذكر أنه في سنة ١٩٦٠ لم تكن هناك علاقة سياسية بين فرنسا والصين الشعبية، لكن باريس الحرة كانت قد سمحت للصين ليس بطبع صحيفتها الملتزمة «بكين» وتوزيعها في باريس نفسها فحسب، بل وسمحت لها بمطبعة ومركز ثقافي في فرنسا كان يقوم بالدعاية لأكثر الأفكار تطرفاً وثورية.

لكنهم. . . صادروا مجلة «الثورة الأفريقية» ومنعوا دخولها إلى باريس، ولا يمكن أن يتخذ هذا القرار ببساطة، لا شك أن

---

(١) المترجم: يسخر شريعتي من الأسلوب الصوفي المغرق والعنقاء طائر خرافي يرمز للحقيقة الإلهية ووادي الطلب أحد الأودية التي يقطعها السالك بحثاً عن الحقيقة.

فرنسا استسلمت لهذا العار بصعوبة وبضمير جريح، وبرغم الأنف وعرق الخجل يتصبب من سحنة ماضيها المليء بالمفاخر وخاتم السكوت على شفتيها الصارختين بأناشيدها الحماسية وملاحمها. ولا شك أن الخوف والخطر اللذين كانت تحس بهما من الثورة الأفريقية كانا أعظم من كل هذه الثروات الفياضة من الثقافة والتقاليد وقيم الثورة الكبرى وروح تحررها بحيث أنها لوثت يدها بفعل يقوم به الجبابرة المنحطون والطغاة الذين لا ثقافة عندهم وأعداء الحرية والفكر والإنسان. ففي فرنسا التي تبلغ قدرة الحرية وسلطتها فيها درجة يمكن معها سب المسيح والحديث عن الثورة الصينية ببساطة، ماذا حدث بحيث فقدت تحملها وفضلها وسعة صدرها وخافت من فكر أفريقيا وكلامها؟ لا شك أنها ليست الثورة الأفريقية هي التي أخافت فرنسا بحيث تجاهد لتمنع شرارتها من أن تمسك بطرف رداء هدوئها وأمنها، لأن الثورة إن لم تكن لها كلمة، كلمة تولد الثورة فهي ليست خطرة بالمرة بل هي زبد مهما كان رابياً وواسعاً ودموياً يذهب جفاء ببساطة وبسرعة، ولا يتبقى منه إلا رواسب قذرة عفنة، رواسب على الأقل تسمم جيلاً كاملاً. . . الخوف كل الخوف من أن: المحلي نطق!!! الأسود الوحشي آكل البشر يذكّر الضمير القذر أو الممسوخ الأوروبي مدعي الإنسانية بالقيم الإنسانية المنسية، «أشباه البشر» الأفريقيون يعلمون أصحاب الحضارة المطلقة والثقافة الإنسانية الوحيدة المعاصرة الدروس الأولى في كيفية أن يكون الإنسان إنساناً أو يصير إنساناً، عبيدهم الأوفياء لم يتمردوا على سادتهم فحسب حتى يتخلصوا من

عبوديتهم، بل نهضوا ليصنعوا من السادة أكلة البشر بشراً!!! لم يقوموا من أجل تخليص أنفسهم من قيد الاستعمار الأوروبي، بل قاموا في نفس الوقت لمنح الأوروبي ذلك الذي كان إنساناً ومسخه الاستعمار إلى حيوان عالم وقوي وجعل منه مستعمراً الشفاء، ويعيد إليه ماهيته الإنسانية التي سلبت أنظروا ماذا تقول أفريقيا:

«لنمض أيها الرفاق، لقد انتهت أسطورة أوروبا بالنسبة لنا إلى الأبد، ينبغي أن نبحث لنا عن موضوع آخر. نحن اليوم قادرون على أداء أي عمل بشرط ألا نبتلي بوسواس التحول إلى أوربيين.

من أجل أوروبا، من أجلنا، ومن أجل الإنسانية أيها الرفاق، ينبغي أن يظهر جلد جديد وينبغي أن يخلق فكر جديد، وينبغي الكفاح ليظهر إنسان جديد «فانون» لقد طرحت أفريقيا الأساس الوجودي لأوروبا والفكر الأوروبي والمجتمع الأوروبي والحضارة الأوروبية من جذورها، ليس الحديث فقط عن الاقتصاد والسياسة والصراع القومي والطبقي والصادرات والواردات والضعف والتقدم والجوع والشبع بل إدانة الإنسان الأوروبي وتحطيم حضارته وثقافته ورؤيته، وإعلان هزيمة الأوروبي وانكساره في مرحلة نصره وسلطته، الثورة الأفريقية تريد أن ترفض أوروبا في كل أبعاد وجودها: الإنسان والحضارة والثقافة والمجتمع والحياة والرؤية الكونية والمادة والروح، ثم تخلع سلاحها وتسترد منها دفة توجيه التاريخ والحضارة والفكر والولاية على النوع البشري التي ادعتها سنوات وجعلت المفكرين غير الأوروبيين يصدقون هذا الادعاء ويقولون إن الولاية في أيديهم بالفعل، ثم تأخذ هي الرسالة التي

عجزت أوروبا عن القيام بها لأن أوروبا قد تحدثت عن الإنسان دائماً، ولم تفعل شيئاً إلا أنها قامت بقتل ثلثي البشر ومسخهم والقضاء على إنسانيتهم والتضحية بهم في سبيل مصالحها المادية، وأوروبا في كل ما قامت به تقوم بمطاردة الإنسان وتعذيبه بإسم الإنسانية وقتله حيثما وجدته.

ولفرنسا الحق حتى ولو ضحت بالقانون في أن تقاوم هذه الأفكار الخطرة التي تجعل الجيل المفكر للضمير الأوروبي يكفر بكل قيمه، وتجعل هدفها وضع ضميره ووجوده في عمق إحساسه وإيمانه وتدفع الوعي الذاتي الصادق الإنساني عند أبناء أوروبا إلى العصيان مثل آدم في جنة الرأسمالية والصناعة الغربية، وفي أوج فراغه ولذته ومتعته وسطوته تفتح عينيه اللتين أغلقتهما ملائكة الجنة بعزف الفن والجمال وخداع النصر ونشوى السكر حتى يبصروا إلى أي مدى هم عراة ولا يخجلون، وأي عصيان أخطر وأشد اقتلاعاً من الجذور بالنسبة لسادة الجنة وآلهتها وحجابها من هذا العصيان؟[١]

---

(١) هذا هو العصيان الذي لا يمكن مواجهته بالحيل الاقتصادية ودفع الإتاوات الطبقية وإيجاد العواطف والاشباعات والرفاهيات الكاذبة السطحية والأدوية المسكنة والمؤقتة، وإيجاد دين عبادة الاستهلاك والبحث عن اللذة، وإحداث الصراعات الحزبية والنقابية والفلسفية والفنية المتفق عليها سلفاً والكماليات البلهاء الخادعة التي لا حصر لها (التي يعتبرها المجتمع الغربي درءاً للخطر وتحريفاً لوجهة الهجوم ومسخاً للعدو) ومن هنا أحس أن سادة الغرب الذين استطاعوا السيطرة حتى على النضال الطبقي وحالوا دون ثورة طبقة البروليتاريا القوية الثورية قد خافوا الآن من تمرد الجيل الشاب المتعلم عندهم الذي يزداد وخامة ويتسع ويرفض الشكل العادي للحياة الغربية بحقد، بحيث أنهم لا يملكون في مواجهة هذا الطوفان إلا الشكوى.

ومن هنا ففي جنة الحرية والمتعة والراحة التي فيها كل شيء حر وكل شيء في متناول اليد، الثورة الأفريقية فقط هي الفاكهة المحرمة لأنها فاكهة شجرة الرؤية.

ليس من الملزم أن يكون المفكر أحد المتعلمين بالمعنى الرسمي أو العلماء أو الفلاسفة أو علماء الاجتماع أو المؤرخين، إن المفكر «متعصب واع» ويحدد تعصبه في الموقف الجدلي المتغير والمتحرك بينه وبين غيره، أي تعصبه للإنسان في مواجهة الطبيعة والعوامل اللاإنسانية والمجتمع البشري، وتعصبه للأمة في مواجهة الإمبريالية والفرقة والاستعمار، وتعصبه للطبقة المحكومة المستغلة في مواجهة التفرقة والحكم الطبقي.

وإحدى الخصائص البارزة عند المفكر أن «التزامه الجماعي» غير منصب على «انتمائه الجماعي»، بمعنى أنه أيا كانت الجماعة التي ينتمي إليها من النواحي العرقية والقومية والطبقية فهو ملتزم تجاه الأمة المستعمرة والطبقة المستغلة والإنسانية، لأن العامل في الالتزام هو القيمة وليس النفع والمصالح المشتركة، وهذا هو المبدأ الأخلاقي المطلق والأبدي الخاص بالنوع الإنساني وهو ثابت في كل مرحلة تاريخية ونظام اجتماعي وأساس إنتاجي أو اقتصادي ومن هنا فهو واقع ماوراء تاريخي وفوق طبقي.

وفي مرحلة النضال الإنساني الذي يتجلى في صورة مكافحة العرقية والرأسمالية والإمبريالية والاستعمار والاستغلال الطبقي والاستبداد، ينبغي على المفكر أن يقيم مدرسته الاجتماعية واتجاه

نضاله وأهدافه على أسس قواعد خاصة فلسفية ونظرية، والمساواة الإنسانية والحرية والعدالة والوحدة الطبقية والنضال ضد التفرقة والامتيازات والاغتصاب والقوة كلها حقائق عامة وقيم مشتركة وشعارات تضمن مصالح أكثرية الأفراد والجماعات والنقابات وأتباع المدارس الفكرية والأديان المختلفة. وهي الأكثرية المطلقة في أمم العالم في أية مرحلة تاريخية وثقافية، وأيضاً فكل إنسان يؤمن بهذه الشعارات اللهم إلا أقلية ضئيلة ويمكن أن تؤمن بها في حالة وعيها.

هذه الشعارات شعارات إنسانية مشتركة وقامت الإنسانية بالمناداة بها والسعي والجهاد والتضحية في سبيل تحقيقها عبر التاريخ بطرق صحيحة وغير صحيحة وبصور مختلفة عن طريق الدين والأخلاق والعرفان والأدب والأساطير والفن، وعلى المفكر في نضاله الاجتماعي واتجاهه المضاد للإمبريالية وضد الاستغلال وضد الديكتاتورية أن يستند إلى عوامل مشتركة ودائمة وهذه النقاط شعارات دائمة ومتصلة ومثيرة للحماس خلقتها البشرية، وفي هذه الحالة يقف المفكر وراء الضوابط المحددة والمختلفة بل والمتناقضة المذهبية والنظرية والتقليدية والفرضيات المتنوعة غير الثابتة وغير العلمية والمشتتة والميول العقلية والعقائدية المتناقضة المتضادة، وبالاستناد إلى أسس إنسانية مشتركة يستطيع أن يخرج كل القوى الصديقة والواعية من أطرها المحدودة والدينية والمدرسية والفلسفية والطائفية ويعبئها في جبهة مشتركة ضد الجبهة المشتركة لأعداء الإنسانية أي أعداء الحق والحرية والنضج.

أجل: ألم تكن لهم جبهة مشتركة ولا تزال موجودة؟ فالمستعمر والمستغل والعرقي وطبقة الذهب والقوة تظهر غالباً في لباس الأديان والمدارس المختلفة المتناقضة والمتضادة أحياناً، ولكن أية عين مبصرة يقظى لا ترى إلا أن العقائد والآراء ليست إلا ملابس بالنسبة لها، وإلا فإنهم لا يدينون بأية عقيدة دينية أو فلسفية ولا يتقيدون بها ومبادىء العقائد والأسس الثابتة عندهم في كل دين ومدرسة هي المصالح الطبقية والفردية فحسب، كما أن الناس، بالرغم من أنهم يؤمنون بمدارس وأديان مختلفة وإيمانهم صادق ومخلص، إلا أنهم في نفس الوقت يتفقون في الإيمان بالحرية والعدالة والصدق والحقيقة على الدوام، وأولئك الذين يعادون البشر وهم قلة، قد اتفقوا معاً على الاستبداد والظلم والامتيازات والاستغلال والتسلط والاغتصاب وذلك بتظاهرهم الكاذب بأديان الناس ومدارسهم الفكرية المختلفة.

ولم يحدث قط أن إحدى جامعات الطبقة قد انفصلت عن جماعة متصلة بها قد نسجت خيوطها معها في طبقة واحدة بسبب الإيمان بعقيدة دينية أو فلسفية خاصة، أو دخلت معها في صراع حول قضايا فكرية، بل على العكس تماماً، كلما استدعت مصالحهم اتحدوا على رغم التضاد العقائدي بينهم بل وقاموا يحاربون رفاقهم في العقيدة في صفوف أعدائهم التقليديين، وطول التاريخ وعرض الجغرافيا دائماً وفي كل مكان معرض لهذا الواقع. وحرب الأحزاب (الخندق) حيث شكل اليهود وقريش جبهة متحدة ضد الإسلام ليحطموا «المدينة» القاعدة الأصيلة لحركة التوحيد

على أساس أيديولوجية إبراهيم، نموذج واقعي لهذا المبدأ. كانت قريش حارسة الشرك والوثنية، وكان اليهود يسمون أنفسهم الورثة الوحيدين لإبراهيم وشعب الله المختار وبناة التوحيد والأمة التي حطمت الأوثان في تاريخ البشرية. وبالأمس يشير اشتراك المسيحية مع الاستعمار الغربي (أو التفاهم بين المسيح وقيصر)، واليوم يشير الوفاق التآمري بين القطبين: الرأسمالية العالمية والشيوعية الدولية أن هذا المبدأ لا يزال صادقاً في عالم اليوم ولا يزال مؤثراً في مصير البشر، وتقييد معارضة الاستغلال والتناقض الطبقي والحياة البورجوازية والنظام الرأسمالي ـ التي تنبع من المصالح المشتركة لأغلبية الناس والمطالبة بالعدالة والحرية لكل البشر الأصدقاء، تقييد هذه المعارضة بنوع من المادية الخاصة نوع من التعصب وضيق الأفق بقدر ما ترى طائفة دينية ما أن الطهر والإنسانية أمور خاصة بالمؤمنين بعقائدها وتنادي بأن من هم سواها كفرة وأنجاس ومهدرو الدم وضالون وذاهبون إلى جهنم. حقيقة أن الماركسية في حالة تقدم سريع منذ القرن التاسع عشر، لكن لا ينبغي أن يؤدي هذا الواقع إلى نتيجة خاطئة بتحليل خاطىء، فإن جماهير آسيا وأمريكا اللاتينية قد جنحوا إلى الاشتراكية حباً بها وحاجة إليها وليس من أجل ماديتها، ولا ينبغي أن نسوي بين سبب ميل المثقف القارىء المتفلسف الأوروبي إلى الماركسية وبين أسباب ميل الفلاح الفيتنامي اليوم أو العامل الألماني بالأمس إليها.

المادية والماركسية:

والمادية نظرية فلسفية، وأولئك الذين يعتبرونها حقيقة علمية توصل إليها العلم اليوم، يقيمون ذلك على فرضية هم وحدهم الذين يؤمنون بها، لأن المادية لا هي مرتبطة بالعلم ولا باليوم، ففي اليونان القديمة بل وفي العصر الجاهلي عند العرب[١] كانت المادية موجودة، وكانت الطبيعية موجودة في مظاهر مختلفة مناسبة لثقافة العصر ودرجة نضجه العقلي والعلمي، ولا ارتباط لهما بالعلم لأن الغالبية العظمى من المكتشفين ونوابغ العلم ومؤسسي العلم الحديث والفكر العلمي كانوا عباداً لله وإذا كان بعضهم قد

(١) العربي الذي جاء إلى الرسول وسحق أمامه عظام ميت نخرة ونفخ غبارها في الهواء ثم سأل منكراً: هل تقول إن الله يبعث هذا حياً؟ كان مادياً واعياً لماديته بالمعنى التام، والدهريون وهم مشهورون في ثقافتنا وتاريخ عقائدنا أتباع إحدى الفرق الفلسفية من نفس هذا القبيل من الفكر، ويعرفهم علماء الملل والنحل المسلمون بأنهم فرقة تعتقد بالدهر بدلاً من الله ونحن نعلم أن الدهر يعني الزمان، وقد اعتبروه علة العلل و«المبدأ الأول» لكل مظاهر العالم، كما نعلم أنه كان في اليونان جماعة من المعتقدين بـ «كرون» أي الزمان (ونرى هذا اللفظ في الكرونولوجيا أي وقائع الزمان والكرنومتر أي مقياس الزمان).

كفر من قبل الكنيسة أو لم تكن له علاقة بالكنيسة فقد كان ذلك بسبب حريته الفكرية وتحرره في التفكير ومعارضته للخرافات والتقاليد المنحطة والأسكولاسية التي لا نتيجة منها والجامدة التي كانت الكنيسة تتخذ جانبها باسم الدين، وليس بسبب عدم إيمانهم بالدين وذلك لأن قادة النهضة وبناة الرؤية العلمية وحتى أعظم مكتشفي العلوم الجديدة مؤمنون بالله، وشخصيات من أمثال: روجرز بيكون وفرانسيس بيكون وديكارت وكانت ومونتسكيو وفولتير وجان جاك روسو وجاليلو وكبلر وباسكال وكيركغارد وبرغسون وداروين ووليم جيمس «مؤسس البراغماتية» وآينشتاين وماكس بلانك وياسبرز وآخرين غيرهم إن لم نستطع أن نعتبرهم متدينين بالمفهوم المتداول لله والدين فهم أيضاً معارضون للمادية مثل هيغل وماترلينك بل وجان بول سارتر[١]، واني اعتقد أن السبب في نضال المفكرين المتحررين والمفتونين بالعدالة وتحرير جماهير الشعب المظلومة والذين كانوا قد انجذبوا في القرن التاسع عشر إلى المادية ومعاداة الدين لم يكن الأبحاث العلمية (لأن الباحثين العلماء الجدد لم يميلوا إلى المادية) بل كان السبب هو دور الكنيسة المخدر واتجاهها المضاد للشعوب وتعاون القائمين على الدين (وهم يمثلون واحداً من أبعاد الطبقة الحاكمة مع بعدين آخرين هما البعد السياسي والبعد الاقتصادي)، من أجل حفظ

(١) الإيمان بحرية الإنسان وفضله وأنه مخلوق ما فوق طبيعي في فكر سارتر الذي يعتبر أن خلقة الإنسان غير خلقة كل الأشياء المادية تعد فكرة مضادة للمادية، أخذها سارتر مع خلفيته الروحية وتربيته الجديدة الدينية ذات الجذور من وجودية هايدجر.

الاستغلال والتفرقة والجمود وخداع الناس وتبريرها.

على كل حال، المادية عقيدة نظرية ومدرسة فلسفية خاصة، في حين أن الاشتراكية هدف إنساني وضرورة حيوية. المادية مبحث ينبغي أن يقوم به المفكرون والعلماء في حين أن الاشتراكية في مسيرة مبدأ التحرر والمطالبة بالحق والبحث عن العدالة من أجل الإنسان دعوة إلى رفض التفرقة والتكاثر الفردي والشرك الطبقي، ودعوة إلى اقامة التوحيد الإنساني والخلاصة هي مبحث يطرح في ميدان الجوع والشعب والتمتع والحرمان والامتياز والاشتراك في عطايا الحياة المادية والمعنوية بالنسبة لشعب مجتمع ما. أما القضايا التي من قبيل إثبات وجود الروح أو إنكارها ومبدئية المادة والطاقة أو أي شيء آخر لا هو بالمادة ولا بالطاقة.

لكن هناك قضايا أخرى تطرح في الاشتراكية: هل الفرد هو المبدأ أو المجتمع؟ هل حقوق الفرد مقدمة أو حقوق المجتمع؟ هل قول بورودين أن «الملكية مرفوضة لأنها مضادة للملكية» صحيح أو لا؟ ألا يقوم أولئك الذين يعتبرون أن الملكية حق مقدس بمنح هذا الحق لفرد معين في حين أنهم يسلبون هذا الحق من كثيرين؟ وألا تعني ملكية الفرد لوسائل الإنتاج وضع مصير المستهلك أي المجتمع في يده؟ وألا تؤدي الملكية الفردية في المجتمع إلى التفرقة العنصرية؟ وألن تملك الطبقة التي في يدها الملكية الاقتصادية في المجتمع الحكم الوطني والريادة الشعبية أيضاً بشكل مباشر أو غير مباشر وفي السر أو العلن؟ وأليس النفوذ الاقتصادي عاملاً لكسب القدرات الاجتماعية المختلفة؟ ومع مثل

هذا الوضع الاجتماعي المتميز التي تكون كل أنواع النفوذ فيه حكراً لها، فإن الطبقة الحاكمة التي تجعل كل الهيئات الحاكمة أداة طيعة في يدها بالطبع، وتسيطر على طبقة رجال الدين وطبقة المثقفين داخل دائرة نفوذها، ألن تستخدم الأخلاق والعلاقات الاجتماعية والعقائد والعلوم والفلسفة والآداب والفنون لتبرير الوضع الراهن وفرض رؤية كونية فلسفية وذوق أدبي وإحساس خاص لحفظ منافعها وألن تنحرف بها أسس امتيازاتها واحتكاراتها الطبقية؟ ألن تقوم الملكية الفردية والتكاثر والمنافسة والحرص وحرمان الآخرين والمادية وعبادة المال بترويج التضحية بكل الفضائل والقيم والاحتياجات الروحية ومسخ الشخصية الإنسانية تحت أقدام صنم المال؟ وألن يؤدي اعتماد كل القوى والإمكانات والقوى البشرية على المال إلى ابتذال الثقافة والأخلاق والعلم وعبادة الحقيقة ومعرفة الجمال والعواطف والأحكام الدينية، وإلى وضع القوانين الجائرة ومنع النضج التدريجي لكل الأجنحة والجماعات والأبعاد المادية والمعنوية للمجتمع وتحويل طبقة إلى ذئاب وطبقة إلى ثعالب وطبقة من الأكثرية إلى قطيع من الخراف (رعايا)؟ وألن تقوم بإيجاد الأمراض العضالة لعبادة العرق والأرستقراطية وعبادة الأصل الجنسي و«مذهب الوراثة» والاستبداد لخنق العدالة والديمقراطية وحريات الإنسان وحقوق البشر ومحوها؟ وألن تؤدي في إثر ذلك إلى موت استعدادات ومواهب لا حصر لها وذبولها وتنتهي برواج أنواع من عبادة الأصنام والعبودية بين جماهير الشعب؟ وبالقضاء على عنصر القبح في كل هذا، ألن يصل الأمر إلى أن تكون

ممارسة الكذب والاحتيال وقتل الحقوق وإشعال الحروب والمادية والتفسير العلمي وضيق الأفق الاقتصادي بنية تحتية مبدئية وهدف غائي بل وفلسفة للحياة البشرية؟ وبعبارة واحدة: ألن يبدل الإنسان وهو مخلوق متكامل إلى غير حدود وذو ثلاث قوى فوق مادية هي الوعي والإرادة أو حرية الاختيار والخلق ومن هنا يرى نفسه مخلوقاً شبيهاً بالله ويحمل مسؤولية في العالم لكونه حامل الأمانة الخاصة لله وموجه الطبيعة ومكمل كل ما يفتقده العالم ـ إلى حيوان أعور اقتصادي؟

إن الاعتقاد بهذه المبادىء ليس منوطاً باعتقاد عقيدة ما وفلسفة أولى على الاطلاق، لأنها كلها أولويات إنسانية مشتركة وليست فرضيات أو نظريات خاصة علمية وعقلية وميتافيزيقية وحكمية.

لم يصل ماركس عن طريق الأبحاث الفلسفية والعلمية والجدل في المادية إلى الفلسفة الطبقية وحتمية الجدلية التاريخية ومنها إلى الاشتراكية، لكن على العكس تماماً، كان هدفه الأساسي والغائي هو الاشتراكية بل ومن قبلها تحرير طبقة البروليتاريا أي الطبقة التي كانت قد قامت ضد الرأسمالية التنافسية في كل أوروبا وبخاصة في انجلترا وفرنسا وألمانيا. نعم كان هذا هو هدفه الأساسي والغائي، وللوصول إليه، مال إلى الاشتراكية، ومن أجل تبريرها فلسفياً وتسليحها بالمنطق وإعطائها رؤية كونية أو قاعدة عقائدية، اتجه إلى الجدلية والمادية، وهاجم الدين لأن الدين الذي كان موجوداً في عصره وفي كل العصور كان عاملاً قوياً من عوامل

تبرير الوضع الراهن الذي كان ظالماً دائماً واحتكارياً عن طريق العاطفة الدينية والإيمان الديني، والاعتقاد بالمبدأ القائل أن كل ما هو موجود وكل ما يحدث إنما هو بمشيئة الله أو الآلهة، وكان كل نوع من النقد له أو التمرد عليه يفسر على أنه عمل ضد الإرادة الإلهية وعصيانا في مقابل المشيئة والتقدير الغيبي[١].

لقد رفض الله، لأن إله الدين الموجود هو معين الأغنياء والأقوياء وصديقهم، وهو يحب شقاء الناس وسعادة الحكام، والمقربون منه في بلاطه السماوي هم الذين استطاعوا عن طريق النذور والأوقاف والاطعام والاضحيات وبناء المعابد الضخمة الفخمة والتعهد بنفقات المؤسسات الدينية ومد العباد والزهاد ورجال الدين وهم عمال الله على الأرض بالمساعدة، ووضعهم في الآخرة شبيه بوضعهم في الدنيا، فهم يحصلون على أفضل المناطق الموجودة حول أنهار اللبن والعسل والأراضي الواقعة على ساحل الكوثر، وأفضل المواضع تحت ظل طوبى وأعلى الغرف والقصور في الجنة، ولما كان العبيد والأجراء هم الذين يقومون بالأعمال المادية الدنيئة، وأصبح السادة والأغنياء في فراغ من القيام بهذه المشاغل الدنيئة الاقتصادية والمادية، وكان لديهم من وقت الفراغ الكثير، فإنهم كانوا يستطيعون القيام بتلطيف الروح وتنمية القوى العقلية والعاطفية والتمتع بالمراتب العالية الفكرية والدينية والأخلاقية واكتساب المعارف ومعرفة المعنويات واكتساب الجدارة

(١) انظر محاضرتي «مذهب عليه مذهب: الدين ضد الدين».

لرضا الله ـ أو الآلهة ـ وعنايتها، أما الجماهير الفقيرة التي كانت تنحدر من أسر فقيرة ومحرومة من كل الإمكانات المادية والمعنوية وكانت تكبر (دون أن تربى) ومن الطفولة تنتقل مباشرة إلى أعمال المكارية ورعي الدواب والأغنام أو العمل كـ «شيالين»، وكانت تعيش في أدنى الظروف كالحيوانات ودائماً ما كانت تكافح في سبيل لقمة العيش وكانت أعظم وأسمى مثلها هي أدنى وأحقر المطالب المادية والاقتصادية، فكانت تبقى بالقطع منحرفة ومتوقفة من ناحية المعنويات والأخلاقيات والروحانيات، ولما كانت تعيش دائماً في فقر وعبودية وجهل، فلا محيص لها من ملازمة الكفر والفساد والانحطاط الروحي ومادية الفكر وذلة الشخصية. وهؤلاء الناس المجردون من كل فضيلة ومعرفة وروحانية، كيف يمكن أن يكونوا أعزاء عند الله؟.

ومن هنا فإن العلاقة الموجودة بين الأديان المسيطرة على التاريخ وبين الله وأشراف الناس كانت ذات طابع صداقة ومكافأة، أما العلاقة بينه وبين العبيد والأجراء و«أراذل الناس» فذات طابع رحمة ومغفرة، ومن ثم نتج هذا المبدأ العام المسلم به، إنه لما كان الله هو الذي يحدد مصير كل إنسان ووضع كل جماعة ويقدرهما، وكل من هو في وضع ما فهو فيه على أساس إراداته ومشيئته فمن المنطقي والحتمي أن كل من يعيشون في عز هم أعزاء الله، بينما أولئك الذين يقضون أعمارهم في ذلك هم أذلاء الله.

وقد أنكر القيامة، لأن القيامة في نظر رجال الدين كانت «معاداً» يدفع الجماهير المحرومة المظلومة المنهوبة إلى تحمل

الظلم والذلة وهضم الحقوق قبل الموت على أمل أنه في حياة ما بعد الموت وفي ذلك «المعاد» سوف ينتقم دون ضرر وخطر وحاجة إلى فدائية أو تضحية بالروح أو قتال، بل وسوف يأخذ حقوقه المهضومة مائة ضعف بل ألف ضعف. ومن هنا فإن «المعاد» كان وسيلة تدفع الناس إلى تأجيل التنفيس عن عقدهم النفسية والقيام للمطالبة بحقوقهم والعدالة إلى ما بعد الموت، وأية نعمة وطمأنينة بالنسبة للظلمة وأكلة الحقوق والنهابين والراكبين على كواهل الخلق؟.

وهاجم الإحساس الديني بعنف، لأنه على الدوام وعبر التاريخ، وفي خضم الحرب الطبقية في أوروبا، كان هذا الاحساس هو الصلة التي تقرب والتي توصل والتي تؤدي إلى المحبة والتعاطف بل والتعصب بين طبقتين يعدان من الناحية الاقتصادية والاجتماعية قطبين متنافرين بل ومتناقضين وقفت كل طبقة بمواجهة الأخرى، وكل عامل يؤدي إلى التئام الوعي والخصومة الطبقية بين القطبين: القطب المتمتع الغاصب والقطب الكادح المنهوب ويوجد بينهما وجه اشتراك وصلة قرابة وتعاطف واشتراك في الفكر والقلب يعد عاملاً مضراً، لأن السلام والتفاهم بين الظالم والمظلوم بين من يأكل ولا يعمل ومن يعمل ولا يأكل، هو بلا شك لضرر المحروم ولصالح المتمتع. ففي معبد ما وفي يوم ديني مقدس ما، عندما يرى العامل صاحب العمل قد جلس إلى جواره بإخلاص وحماس وإيمان يبكي مثله على تعذيب المسيح ويحب المسيح مثله، لن ينظر إليه كعدو غاصب قاس مهدر الدم، بل سوف يراه أخا في

الدين عزيزاً وطاهراً ومتديناً ومحبوباً من الله، وحتى لو علم أن مبلغاً من أجره الحقيقي لا يزال طرفه، فسوف يتغاضى عنه ببساطة، وسوف يسامح أخاه في الدين وفي العقيدة وفي القلب.

وحين ينكر القومية فلنفس السبب، لأن «المواطنة» بين فردين ينتميان إلى طبقتين متحاربتين تؤدي إلى رباط عاطفي وشراكة معنوية وثقافية وتاريخية وعرقية، لأن القومية أيضاً مثل الدين تؤدي إلى اشتراك معنوي إما أن يضيع فيه الخلاف الاقتصادي تماماً وإما تخف حدة الإحساس به.

وهو يتخذ من المادية بنية تحتية لفلسفته، ومن الاقتصاد مبدأ أصلياً لكل تطورات التاريخ ولكل الأشكال الاجتماعية وبنية تحتية لكل الثقافات والآداب والفنون والأديان والأفكار والعقائد والرؤى الكونية والفضائل الأخلاقية، حتى يجعل التناقض الطبقي ومنطلق النضال الذي بدأه العمال مطلقاً، ولا يكون شعار النضال في ظل شعارات أخرى بطرح عوامل أخرى إلى جوار الاقتصاد، ولا يفكر العامل في قضية أخرى أبداً أثناء عمله من أجل هدف نضاله، وبطرح هذه الأولية القائلة بأن العامل الاقتصادي هو الذي يصنع كل القضايا الاجتماعية والمعنوية والأخلاقية، يقوى ويتميز بأولوية عامة ومطلقة.

وهذا يعلن «الحتمية التاريخية» كقانون لا يقبل التغير وحقيقة علمية وواقع عيني ليس في متناول الإرادات والشخصيات والرغبات والعقائد، حتى يعتقد العامل الذي يرغب في المساواة

وكسر الاحتكار والامتيازات والرأسمالية والذي هب لتوه للنضال للوصول إلى حقوقه الطبقية وسقوط الطبقة الحاكمة الموجودة وصعود طبقته، أن انتصاره جبري ومحتم، ويرى ضعفه ونجاح الطبقة الرأسمالية ونفوذها أمر مؤقت، ويثق في زوالها ويعتقد فيه كما يعتقد بحلول فصل الربيع أو طلوع الشمس غداً، لأنه لو وكّل تحقق المجتمع اللاطبقي أو عدم تحققه واستقرار الاشتراكية في المستقبل إلى رغبات البشر وإرادة الأبطال والزعماء، وقدرة الطبقات، لكان الشك والاحتمال واليأس في انتظار العمال، ولو أنه هزم في عصر ما أو في نضال ما وسيطر العدو على مصير المجتمع لرسخت فيه هذه الفكرة ولأخذ يحدث نفسه قائلاً: «لقد انتصروا، لن نستطيع أن نقوم بعمل ما، لقد كانوا هم المسيطرون دائماً وعلى مر التاريخ، وفي المستقبل سوف ينتصرون أيضاً، إن الأوضاع والأحوال والظروف السياسية والاجتماعية تشير إلى أنهم دائماً حكام» وهكذا يستنتج أن أسس نفوذهم وسيطرتهم تزداد رسوخاً يوماً بعد يوم وليست قابلة للاهتزاز، إن قوة النفوذ والمال في أيديهم كالمعتاد، واليوم أيضاً استولوا على قوة العلم والتقنية وصاروا أذكى وأعلم، أما نحن فقد سقطنا بين عجلات الآلية وتروسها والخيوط العنكبوتية للبيروقراطية الجديدة التي نسجوها وصنعوها، صرنا أسرى أكثر من العصور الماضية وصرنا عجزة فاقدي الأرجل والأيدي، وأجهزة دعايتهم المجهزة الذكية تقوم بطريقة مباشرة وغير مباشرة بتغيير نمط تفكيرنا في الأصل لصالحهم، وتصنعنا بطريقة وتحمسنا لنمط حياة تقتضيها

مصالحهم، لا أظن أن قوتنا سوف تصل إلى درجة القضاء على هذه الطبقة، لا يمكن أن نجندل الرأسمالية المسلحة المجهزة بأيدينا الخالية التي نمدها إليها كل يوم طالبين لقمة العيش، مجتمع بلا طبقة أمر مثير للحماس ومثالي، ولكننا لا نملك القدرة على ذلك.

والحتمية التاريخية لا تسمح بطرح كل هذه الأنواع من التردد واليأس والضعف والتبرير والتحليل السياسي والاجتماعي وتقييم القدرات الطبقية الموجودة. فالتاريخ مستقلاً عن قوة الساعد وأمل القلب وتدبر فكري وفكره، وعلى أساس مبدئه الكلي الحتمي الجدلي يتحرك من تلقاء نفسه، وكما رأيناه قد طوى مرحلة العبودية قسراً، ووصل إلى مرحلة الاقطاع وطواها هي الأخرى ووصل إلى البورجوازية وفي أوجها إلى الرأسمالية، فإنه طبقا لهذا القانون الحتمي سوف يصل بحركته إلى الاشتراكية والمجتمع اللاطبقي، هذه هي مشيئة التاريخ، وهذا هو المقتضى الحتمي لسنة التاريخ التي لن تجد لها تبديلاً. إن طبقة العمال لن تواجه الطبقة الرأسمالية ولن تبدأ النضال بمشيئتها وقرارها، ولن تنتصر بشرط حسن التفكير واتخاذ القرار الصحيح والتضحية وتعبئة كل القوى ثم التغلب على نفوذها، بحيث تحبط إن لم تتحقق هذه الشروط، إن الاشتراكية تنضج بالحتم، وطوعاً أو كرهاً سوف تكبر وتكبر، وتأكل الرأسمالية من الداخل مثل الأكلة ومثل الجنين، حتى تصل لا محالة إلى لحظة الميلاد.

تماماً كما هو موجود في «الجهاز المدرسي» للماركسية، تستنبط الاشتراكية من مبدأ حتمية التاريخ، والتاريخ من الصراع

الطبقي، والصراع الطبقي قائم على مبدأ الجدلية ومبدأ الجدلية قائم على مبدئية الاقتصاد، وتستنبط مبدئية الاقتصاد من نظام الإنتاج ونظام الإنتاج قائم على أدوات الإنتاج، وكل هذه الأشياء قائمة على الرؤية الكونية الفلسفية للمادية. ولا شك أن أي «فكر» يحصر داخل هذا النظام العقلي الخاص سوف يراه قواماً واحداً وسوف يرى أن هذه القضايا المختلفة مكملة لبعضها، وسوف يجد سلسلة علية منطقية قد ربطت ما بين الطبيعة والتاريخ والمجتمع والفرد والانتاج وأدواته والثقافة والنظام الاجتماعي... الخ بحيث تكون كل منها علة حتمية وعلمية لما بعدها ونتيجة حتمية وعلمية لما قبلها، ومن هنا فإن الاعتقاد بأية واحدة منها يستلزم منطقياً وحتمياً الاعتقاد بالأخرى، لكن لو استطاع هذا الفكر أن يخرج نفسه من هذا الإطار المدرسي، سوف يستطيع أن يفصل القضايا عن بعضها أو يجد لكل منها منشأ علمياً وعلة أو عللاً منطقية أخرى، وبالتخلص من ضرورة هذا التسلسل يستطيع على الأقل أن يحس بوضوح بهذا الواقع القائل إن ادراك الاستغلال والاستبداد الطبقي وتفسيره بأنه ظلم وبالتالي مقاومته أو حتى التضحية من أجل القضاء عليه وإن اقرار العدل والمساواة أمور لا ينبغي أبداً أن تؤجل إلى وقت أن تحل قضايا فلسفية كالجبر والاختيار عند الإنسان أو قدم العالم وحدوثه، فعلى طول التاريخ وعرض الجغرافيا، كانت هذه المبادىء هي الأسس الأخلاقية والروحية لكل المذاهب والفلسفات والثقافات عند كل الأمم وفي كل المراحل المختلفة للتطورات الاجتماعية، فالصراع بين العدل والظلم والمساواة والتفرقة والحرية

والاستبداد وحق ملكية وسائل الإنتاج ومصادره (الأرض) واغتصابها كان محتدماً وظل حتى الآن في كل مكان وفي كل عصر، وكم من الدماء التي بذلت في هذا السبيل، وكم من الملاحم والمآسي الفخمة التي كتبت في سبيل هذه المثل وذلك دون أن يكون من قاموا بها ماديين، وبالرغم من أنهم لم يوفقوا إلى تحقيق هذه المثل على الدوام ونهائياً، فذلك بسبب عدم الوعي الاجتماعي والطبقي والسياسي والقانوني عند الجماهير في الماضي. فإذا كنت أيها المفكر المادي تبني الاشتراكية على أساس الرؤية الكونية المادية الخاصة، وتعتقد أنك بمنهج الجدلية ومبدأ المادية التاريخية والتطور الحتمي لأدوات الانتاج وبالتالي التطور الذي لا يتجنب للنظام الاجتماعي سوف تصل إلى الثورة الحتمية أي هدم النظام الطبقي القديم وإقامة مجتمع لا طبقي اجتث منه الاستغلال الاقتصادي والاستبداد السياسي والانحطاط الثقافي والأخلاقي من الجذور، يستطيع متدين مستنير الفكر أيضاً على أساس رؤيته الكونية الخاصة الروحية أن يقيم اشتراكية اعتقاداً منه في أن الطبيعة نظام معقول وحي على الدوام، تديره إرادة واعية، وكما هو واضح فإن هذا التدبير قائم على أسس قوانين دقيقة لا تتغير وروابط منطقية ومعقولة وخطط وحركات معلومة ومحسوبة ونظم متناسقة ومبدأ علية، ولكل ظاهرة فيه علة ظهور ومنهج تقدير معين وهدف معلوم متنبأ به، ولا بد له من أن يعترف بهذا المبدأ القائل بأن هذا القوام العظيم المتحرك الحي للطبيعة الذي صنعت كل خلية فيه على أساس خطة ما، واستخدمت في موضعها

الخاص بدقة، والتزمت بعمل معين وتتحرك نحو غاية معلومة، ولا يوجد جزء على الإطلاق في هذا «الكل» المدهش عبثاً، ولا توجد حركة فيه «بلا ثمر» وبلا جدوى وبالمصادفة، وهو نفسه لا يستطيع أن يكون جسداً ميتاً فاقداً للشعور ولا معنى له وخواء وعبثاً وبلا هدف خاصة وأن العلم الحديث كلما اقترب منه وصار أكثر معرفة به يزداد فهماً لمنطقية حركاته وعلمية بنائه، ويصل إلى هذا المبدأ الحاسم أنه لا سبيل إلى التناقض والفوضى والمصادفة والعبث إلى هذا الجهاز المعقد المتحرك الحي الجميل، والأطرف من هذا أنه في نفس الوقت الذي تستند فيه أنت أيها المادي إلى أولية العلم وإمكانية التبرير العلمي والعقلي والمنطقي لكل أسرار الطبيعة وحركاتها وظواهرها وتستنتج من ذلك أن الدين وهم وأن وجود الله في الطبيعة، يستطيع هو بنفس هذا الدليل القائل أنه بشهادة العلم يستند إلى أن كل شيء في الطبيعة علمي ومنطقي ومتوازن ويستنتج منه أن في الطبيعة علماً ومنطقاً وعقلاً.

ومن هنا نرى أنه بتقدم العلم، يتقدم العالم، بقدر ما يتقهقر المفهوم الخرافي والتصور الذهني الجاهل والمعرفة العامية غير المعقولة عن الله، وفي مقابل التنوير المتزايد يوماً بعد يوم والذي يقدم العلم والوعي المنطقي والمعرفة الحقيقية للطبيعة، يختفي مفهوم الله ذهنياً، ويتخذ حضوره في العينية لوناً، ويتقدم حضوره في الطبيعة ـ هذا هو الواقع الذي يشهد به التطور الفكري الجديد أنه في الماضي كان شيوخ الدين والصوفية هم الذين يقومون بإثبات وجود الله، واليوم العلماء هم الذين يتحدثون عن وجود الله، وحل

علماء الطبيعة والكيمياء والأحياء والحيوان والنبات وعلماء النفس وعلماء الانسان عملياً محل الحكماء الإلهيين وعلماء الدين والشيوخ المتدينين وسدنة المعابد، وبشكل طبيعي توجهت الأسماع من المعابد والصوامع نحو الجامعات والمعامل لتسمع شيئاً في هذا الصدد، أي أنهم ينظرون اليوم بحثاً عن الله إلى نفس المكان الذي كان قبل ذلك المجمع الخصوصي ومحل التردد المحتكر لمنكري الله.

الرؤية الكونية المنطقية:

إن الرؤية الكونية التي بنيت على المنطق والوعي والهدف الغائي ولا سبيل إلى المصادفة والعبث إليها، عندما يوضع التاريخ أيضاً في قلب هذا العالم فإنها تحوله إلى واقع حي على الدوام ومنطقي، فهو ليس كما يراه بعض المؤرخين من صنع شهوات الملوك أو إرادة الأبطال أو من وضع شخصيات وليس إلا مجموعة من أحداث المصادفة، والأفعال التلقائية، وإنه ليس كما يظن نابليون عبارة عن «مجموعة من الأكاذيب التي اتفق عليها الجميع» وليس بتعبير توماس كارليل «قدم إليَّ بطلاً وسوف اكتب تاريخ عصره»، بل إن التاريخ مسيرة وحدة متصلة له مبدأ حركة متميزة على أساس قوانين حتمية أو بتعبير القرآن «سنن لن تجد لها تحويلاً»، وفي مسيره الطبيعي يمر بمنزل معين وذو خط سير علمي ومرتفعات ومنخفضات وزوايا وحنايا وبطء واسراع نحو هدفه الغائي، أو على الأقل كما هو مسلم به سائر نحو هدف، ومن هنا فالتاريخ الذي هو عبارة عن عمر نوع الإنسان ومسيرة المجتمع البشري الذاتية، أو بتعبير آخر «الزمان العام الاجتماعي» ذو قوانين

علمية محددة يمكن اكتشافها بتدوين علم التاريخ، وكما أن الزمان التقويمي عبارة عن مجموعة من الحركات المتناسقة والمنتظمة طبق قوانين ومبدأ العلية (ومن هنا يمكن تحليلها ومعرفتها علمياً وبكشف قوانينها يمكن إدراك مسير حركاتها ومعرفة مقصدها العام ويمكن التنبؤ بالمراحل القادمة بل وبالأحداث التالية) فإن الزمان الاجتماعي أي التاريخ قد شكل أيضاً بحركات متناسقة ومنطقية من التحركات المختلفة للمجتمعات البشرية هي في حد ذاتها نتيجة لعلل وتابعة لقوانين ثابتة.

لكن، ما هي هذه القوانين وكيف يتطور المجتمع البشري في مسيرته التاريخية وطبقا لأية علل وعوامل، وأية مراحل طواها وسوف يطويها فكل هذه قضايا ينبغي أن يجيب العلم عليها، وعلى المؤرخين وعلماء الاجتماع كلما أرادوا معرفة التاريخ والمجتمع أكثر أن يلقوا بعيداً بحدسياتهم وفرضياتهم وأذواقهم وميولهم الشخصية والعرقية والطبقية والسياسية وتعصباتهم الدينية أو اللادينية وعقائدهم المصنوعة سلفاً وآرائهم المسبقة وعليهم أن يقوموا بمحوها، ثم يقيموها على أسس منطقية وعلمية وعينية، وعلى عالم التاريخ وعالم الاجتماع أن يتنحيا عن الإيمان بمدرسة معينة فكرية أو فلسفية أو أدبية أو فنية أو شعرية، وعليهم أن «يجاوروا» العلوم البحتة.

ونحن نعلم أن مثل هذا العمل يحتاج إلى عدة قرون من الجهد العلمي ومن تقدم العلوم الإنسانية، لأننا إذا نظرنا إلى علوم الفيزياء والكمياء والطب والهندسة وما يسمى بالعلوم الدقيقة ورأينا

علماء هذه الفروع قد وصلوا إلى قوانين عينية كثيرة ومسلم بها تؤيد التجربة صحتها وتثبتها التقنية، وإن معرفتهم العلمية واقعية وحقيقية إلى حد كبير وبعيدة عن الحدس والفرض والذوق الشخصي والعقيدة، بحيث أنهم قادرون على التنبؤ بالمستقبل، ويسيطرون على موضوعات علومهم إلى حد أنهم يقومون بتغييرها وإكمالها وتطبيقها كما يريدون، ويفرضون إراداتهم ورغباتهم ومنافعهم عليها، فإن هذا النجاح ليس وليد المخترعين والباحثين النوابغ في القرون الثامن عشر، والتاسع عشر والعشرين من أمثال جاليليو وكبلر ونيوتن واديسون وباستور وكوخ ودانتون وأينشتاين وبلانك وكار، بالرغم من أن أكثر الاختراعات والكشوف العظيمة اللامعة في العلوم الحديثة التي تقدمت إلى هذا الحد واكتسبت قوتها وسلطتها الحالية على يد نفس هؤلاء النوابغ في العصور الحديثة، ولكن الحقيقة أن هذا النجاح المذهل للعلوم الطبيعية هو نتيجة عدة آلاف من السنين من العمل المستمر وتقدم العلم وتكامله. ولا شك أن الانتصارات المذهلة لعلماء الفضاء اليوم الذين يقيسون بدقة قطر كل كوكب والمسافة التي بينه وبين كوكب آخر والتي تبعد عنا بملايين السنين الضوئية، أو أولئك الذين يرسمون خريطة دقيقة لجغرافية القمر والمريخ إنما هي نتيجة أعمال سابقة في علم الفلك على الأقل من عصر السومريين والبابليين، وعند صناعة أبولو ١٣، لم يشترك في صناعتها لابلاس فحسب، بل وبطلميوس وحتى الصابئة وعبدة الشمس منذ سبعة آلاف سنة في بلاد ما بين النهرين، أولئك الذين كانوا يعتقدون أن لكل واحد من آلهتهم منزلاً في أحد

النجوم، وأن رب الأرباب عندهم أي الشمس يسكن في برج الشمس.

والعلوم الطبيعية التي تسمى اليوم بحق بالعلوم الدقيقة أو البحتة ولدت مع المجتمع والتمدن البشري، ولها تاريخ مدون يرجع على الأقل إلى سبعة آلاف سنة، وقام الإنسان منذ بداية مرحلة فكره وبحثه بالبحث والتنقيب والفكر والتجربة على أساس عاملين: احتياجه الديني واحتياجه المادي وذلك حتى يعرف الطبيعة وخواص الأشياء الطبيعية: الجماد والنبات والحيوان وحتى يعرف أعضاء جسده، وفي هذا الطريق غالباً ما كان منتبهاً إلى خارجه، وبنفس القدر الذي ينظر به إلى ما هو حوله وما هو أمامه، كان يبقى غافلاً عن نفسه وكان في الغالب متفرجاً واعياً بغفلته، ونحن الآن نرى في الحياة والحضارة الإنسانية نتائج هذا التناقض بوضوح، ونرى الإنسان قد خطا خطوتين: خطوة عظيمة إلى ما لا حد وخطوة ضئيلة إلى ما لا حد، فمن ناحية فتت الذرة وصنع أدوات تفتيتها وصنع القنبلة من النواة وقاس قطر الكون ويستعد للسفر إلى المنظومات الأخرى الموجودة في الكون، وفي نفس الوقت ظل عاجزاً عن حل أكثر مشاكله النفسية سهولة وعادية وأكثر مشكلاته الاجتماعية والأخلاقية بدائية في حياته العادية، وفي هذا الشأن لم يخط خطوة واحدة أبعد من الحكم والمواعظ والأمثال التي قدمها القدماء، بل وباعتراف علماء الإنسان العظام تأخر عن ذي قبل وأصبح أضعف من السابقين في السيطرة على نفسه وأكثر بدائية، أما العلوم الإنسانية مثل علم النفس وعلم الاجتماع وعلم

الأجناس وعلم الأديان وعلم التاريخ فقد وجدت موضوعية مستقلة إلى حد ما منذ ما يقل عن قرنين من الزمان، وتعرفت على الأسلوب العلمي والتحليلي ولا تزال في مرحلة جدل العلماء حول الحدود المميزة، وإلى جوار هذا فإن اختلافات الحدود جعلت وجود بعضها وموضوعيته مجالاً للشك والإنكار.

لا يزال هناك كثير من المفكرين يبحثون في موضوعات من قبيل: هل للتاريخ واقع أو أن ذهن الإنسان الذي يصنع الوهم ويصطنع الكليات ويخلق التعميمات وصل في ذهنه مجموعة من الحوادث المتفرقة والشخصيات والمجتمعات الماضية وتخيل منها «مسيراً واحداً»؟ ويظن بعضهم أن التاريخ ليس واقعة عينية وبالتالي ليس علماً يمكن اكتشافه، بل يظنونه نوعاً من الفنون يصنعه المؤرخ بل ويعتبره أمراً صيغ شعراً ينظمه المؤرخ. ومثل هذه الشكوك تحيط بالعلوم الإنسانية الأخرى فعلماء الاجتماع لا يعترفون بعلم النفس وعلماء النفس بدورهم لا يعترفون بعلم الاجتماع، والمعتدلون المتفاهمون من الطرفين مستعدون بصعوبة للتخلي عن موضوع أو عدة موضوعات لمنافسهم.

والعظمة التي يعترف بها لفرويد ويونغ وآدلر تدل على أن الإنسان المعاصر الذي ركب الفضاء اللامتناهي وجعل الجاذبية مطية ذلولةً له، عندما يخطو خطوة واحدة داخله، ينفعل ويندهش كما عند اكتشاف أكثر القضايا الكلية بدائية وبساطة في «النفس» من قبيل العقدة النفسية أو اكتشاف هذا الأمر القائل بأن للذاكرة درجتين أو ثلاث درجات.

ولا يمكن أن نحدد من هو المؤسس لأي علم من العلوم الطبيعية، لأن البداية قد ضاعت في البعد الأقصى المظلم لتاريخ الفكر والفلسفة والدين والحضارة الإنسانية، لكن عندما يدور الحديث عن العلوم الإنسانية بمعناها الخاص فإن الجميع متفقون على وجه التقريب، فعلم الاجتماع مثلاً أسسه أوغست كونت، ومؤسس التاريخ (ليس علم التاريخ الذي لا وجود له حتى الآن) هو ابن خلدون.

على كل حال فإن العلوم الإنسانية وعلى رأسها علم الاجتماع وعلم التاريخ بالرغم من أنها أصبحت ذات طابع علمي، إلا أنها لا تزال بعيدة عن اعتبارها علوماً بالمعنى الدقيق، ومن هنا فإن أكثر القضايا أساسية فيها تبين على شكل نظريات مختلفة وأحياناً متناقضة تطرحها المدارس الفكرية المختلفة، وينبغي أن تمر سنوات طويلة حتى تختفي هذه المدارس الفكرية في ضوء الطبيعة الواضحة والثابتة للعلم، ويستطيع كل المفكرين أيا كانت ميولهم العقائدين والفلسفية الاستناد إلى قواعد ثابتة علمية.

حادثة تاريخية كنموذج:

لقد أعلن منشأ نوع الإنسان كإنسان، فآدم هو المخلوق ذو البعدين المتناقضين الذي وصل إلى الوعي الذاتي، بل وقام بالاختيار (العصيان) في مواجهة إرادة الله، وهذا اعتراف بالإرادة الإنسانية المستقلة في مواجهة النظام الحاكم على الطبيعة وهو تجلي إرادة الله[١].

ومن قصة خلق آدم يمكن أيضاً فهم العالمية الخاصة بالأديان، أي قرابة الإنسان مع الطبيعة (الأرض) من ناحية، ومع روح الله (الإرادة والوعي والقدرة على الخلق والسيطرة على الطبيعة) من ناحية أخرى، ويمكن فهم مسؤولية الإنسان تجاه إرادة الوجود، وتناقضة الفطري وحركته الجدلية التكاملية على الأرض، وشبهه بالله أي ما يسمى بالوعي والاختيار والخلاقية عند الإنسان.

---

(١) من أجل ألا يؤدي القول باستقلال إرادة الإنسان عن إرادة الله إلى الثنوية والإيمان بأقنومين ووجود ذاتين منفصلتين في الوجود (إرادة الله وإرادة الإنسان) ولا ينقض توحيد العالم ووحدته، فسرت إرادة الإنسان على أنها من روح الله التي نفخت في آدم معنى أن استقلال إرادة الإنسان حتى في مواجهة إرادة الله واقعية تعد تجلياً لإرادة الله في حد ذاتها.

لكن من قصة ابني آدم، يمكن فهم أول حرب وتناقض في حياة الإنسان على وجه الأرض، ومن قصة قابيل وهابيل يمكن استنباط فلسفة التاريخ، فقابيل بسبب «مسألة جنسية» هي عشقه لجمال أخته التي كانت خطيبة أخيه هابيل، قام بأول ذنب وحقد وقتل للبشر وخيانة لأخيه وعصيان لأبيه وذنب أمام الله. فمن بين ابنتي آدم تصير الأجمل خطيبة لهابيل، ولا يقبل قابيل. ويرفع آدم قضية الأخوين إلى حكم الله، فيأمر بأن يقدم كل منهما قربانا إلى الله، وأيهما يقبل قربانه، سوف يكون هذا دليلاً على حكم الله وعلى الآخر أن يقبله.

وقبل الأخوان، كان هابيل راعياً، فاختار أفضل إبله الذهبية الغالية القوية، وكان قابيل زارعاً فقرب إلى الله حفنة من القمح المصفر العطن من مزرعته. وواضح أن قربان هابيل الذي لم يدع حق أحد ولم يفكر في المال في سبيل إيمانه، وقرب إلى معبوده أغلى وأعز ما عنده، قد قبل. وفي نفس الوقت لم يستسلم قابيل، وتمرد على حكم الله الذي لم يكن في صالحه، وواصل تمرده واعتداءه. وقال هابيل: إني سلمت لحكم الله ولئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا باسط إليك يدي لأقتلك ولن أفصم عرى الأخوة بيننا، لكن قابيل وقد جن جنونه، استدرج هابيل إلى الخلاء وقتله خفية، وسفك دم إنسان على يد إنسان لأول مرة على وجه الأرض.

هذه القصة كما رويت تفهم غالباً على أنها حادثة تاريخية، ونزاع بين أخوين حول شهوة، وخبث جبلة قابيل وطهر جبلة

هابيل. . . الخ، في حين أن جبلة كل منهما واحدة: كلاهما ولد من أب واحد وأم واحدة وربي في بيئة واحدة وعلى يد مرب واحد، لم يكن المجتمع قد تكون بعد أو البيئات المختلفة حتى يتربى كل واحد بطريقة. وأولئك الذين قاموا بتحليل هذه القضية علمياً ومنطقياً أرادوا أن يستنبطوا هذا المبدأ الذي يريد أن يقول إن الشهوة أو الغريزة الجنسية هي السبب الرئيسي وعلة العلل في الجريمة والذنب، وأن أول دم سفك في التاريخ كان من جراء الشهوة.

هذا صحيح: لكن هذا السؤال بقي بلا جواب وهو: لماذا يسقط قابيل فريسة للشهوة ولا يؤثر هذا العامل القوي على هابيل ويدفعه إلى الخيانة وسفك الدماء وقتل أخيه وارتكاب الذنب؟ ففي هذين الأخوين العدوين ذات واحدة ولهما أب واحد وأم واحدة وبيئة تربية واحدة وبيئة طبيعة واحدة ومدرسة تربية واحدة وتجربة كليهما واحدة: فمن أين هذا التضاد في الخلق والجبلة والسلوك؟ من هنا ينبغي من الناحية العلمية أن نبحث عن عامل يفسر هذين الشخصين المتناقضين عامل لا يكون مشتركاً بين هذين الأخوين.

وبالبحث نرى أن العامل غير المشترك في سيرة هذين الأخوين هو نوع العمل ووضع الحياة الاقتصادية لكل منهما، فأحدهما راع والآخر زارع. وهذا الاختلاف جدير جداً بالتأمل. ماذا يعني الإنسان الراعي؟ يعني إنسان عصر سكنى الخيام والقبلية، إنسان بدائي، أي إنسان المرحلة التي لم تكن فيها الملكية قد ظهرت بعد، مرحلة أن البشر يعيشون فيها في جماعات في أحضان

الطبيعة أحراراً ويأكلون من مائدة الطبيعة العامة، كان صيد البحر والنهر والغابة هو مصدر الإنتاج، ولما كان مصدر الإنتاج وهو الطبيعة السخية البكر موجوداً بالتساوي تحت سيطرة الأفراد، لم تكن الملكية بالطبع موجودة إلا على مصادر الإنتاج الموجودة في الطبيعة، ولم تكن الملكية بمعنى احتكار فرد لمصدر الإنتاج وحرمان الآخرين منه موجودة، وكان المجتمع ينقسم إلى أفراد لا إلى طبقات فالطبقات الاقتصادية تتشكل على أساس الملكية، والملكية أو احتكار مصادر الإنتاج تظهر عندما تصبح مصادر الانتاج محدودة، وهذا عندما يتحول شكل الإنتاج الاقتصادي من الصيد والرعي (استئناس الحيوانات الموجودة في الطبيعة بكثرة وحرية) إلى الزراعة. فالأرض الزراعية محدودة وليست غير محدودة كالنهر والبحر والغابة والصحراء والجبل تحت سيطرة الجميع وزيادة عن الحاجة. وفي مرحلة إنتاج الصيد والرعي في الغابة والبحر يصير الإنتاج محدوداً بقدرة الفرد المنتج، وفي مرحلة الإنتاج الزراعي في المزرعة يصير الإنتاج محدوداً باتساع مصدر الإنتاج ومن هنا ففي مرحلة الإنتاج الموجود في الطبيعة يجاهد الفرد في القيام بزيادة قدراته، وفي المرحلة الزراعية يقوم بالجهاد لتوسيع مصدر الإنتاج والأرض المحدودة الصالحة للزراعة لا يمكن أن تصير تحت سيطرة أفراد غير محدودين، ينبغي أن تكون في النهاية نصيباً لأحد، ويبقى آخر بلا نصيب منها، ومن هنا تقوم الملكية بإيجاد طبقتين:

طبقة محرومة وطبقة مالكة، ويتبدل المجتمع الذي كان

مجموعة من الأفراد إلى مجتمع يحتوي على طبقتين، وإذاً: ما هو العامل الذي يحدد هذا الامتلاك أو الحرمان؟ إنه القوة، فحتى ذلك الوقت لم يكن هناك تبرير فلسفي وعلمي وعرقي وديني ولا معيار اقتصادي وقانوني وراثي ومئات من الزينات والزخارف التي وجدت فيما بعد ووضعت على ملامح القوة، فخبئت عن الأنظار وزينت بحيث لا يزال الكثيرون يخطئون فيها حتى الآن. فالأقوياء الذين كانوا أكثر توفيقاً من الآخرين في صيد البحر والغابة كانوا أسبق من الآخرين في الاستحواذ «الاحتكار» وطردوا الآخرين خارج الجدران. ومن الطبيعي أنه عندما تكون القوة هي معيار الحق، فإن أحداً لا يقيد نفسه بحقه، ويجاهد في الاستيلاء على القدر الممكن والموجود لا النصيب اللازم المعقول. ومن هنا تستقر الأرض في أيدي جماعة من الأقوياء أكثر من حاجتهم وإمكان إدارتها أو العمل فيها، وتبقى جماعة من الضعفاء خاوية الوفاض. والآن لم يعد مجتمع الأفراد الأحرار يتحرك في حضن الطبيعة المنبسط اللا محدود، بل وينتقل من مكان إلى مكان بحثاً عن الطعام، لقد وجد السكن وربط بقيد إلى ماء وأرض، وصارت المزرعة المحدودة مصدراً لغذاء الجميع، وأصبح الملاك الذين يملكون من الأرض فوق ما يتحمله عملهم الفردي في حاجة إلى عمال، والعامل الذي لا يملك أرضاً في حاجة إلى أن يأكل، وهذان الاحتياجان يحددان العلاقة بين الطبقتين وظاهرة جديدة أيضاً: شراء الإنسان الذي لا أرض له المحتاج إلى الطعام من قبل الإنسان مالك الأرض الذي يحتكر مصدر الطعام، ثم المجتمع الطبقي والعبودية والرق، الذي

يحتوي على مالك وأجير وأشراف وعامة وحاكم ومحكوم وحر وعبد وسيد وتابع وصاحب فضيلة وفاقد للفضيلة وطاهر ونجس وجنس أعلى وجنس أدنى، وأشخاص ينشغلون بالفضائل والمعنويات والتسامي الر وحي والفن والثقافة والفكر والعواطف، وأشخاص عليهم القيام بالأعمال الدنيئة الشاقة المبتذلة في المجتمع.

وهابيل راعٍ، أي إنسان مرحلة الحرية وتحرر الإنسان من الأرض، أي الإنسان الذي ينتمي إلى مجتمع بلا طبقة، الشركة الأولى، العصر الذي كانت فيه الطبيعة العظيمة ملكاً للمجتمع ملكاً لكل من يعمل فيها وقابيل زارع أي إنسان مرحلة السكنى وارتباط الإنسان بالأرض، أي إنسان المجتمع الطبقي، الملكية الفردية والاحتكار، الامتلاك والحرمان، استغلال الفرد للفرد، تسلط الإنسان على الإنسان، والأطفال الذين يقطفون من حديقة ويأكلون منها أحراراً وهي مليئة بالثمار، كل منهم في صراع مع الطبيعة، وعلاقة كل منهم بالآخر قائمة على الأخوة والمساواة والسلام والمصالح المشتركة، لكن عندما يجلسون هم أنفسهم إلى مائدة واحدة، يتغير اتجاه الصراع مع الطبيعة ويحل محله الصراع بين كل منهم والآخر، ومن ثم يظهر الحرص والتكاثر وعبادة الذهب والمادية والاحتيال والكذب والقوة والاغتصاب والاستغلال والجريمة والحقد والحرب واستخدام الإنسان والعبودية والاستعمار والتسلط والميل إلى النفوذ والخلاصة وطء كل العلاقات والعواطف والمعنويات بالأقدام في سبيل جمع المال. وهابيل

نموذج لمجتمع اللا طبقة، للشركة الأولى والأخوة المساواة السلمية بين البشر قبل الملكية الفردية وقبل ظهور الطبقات الاقتصادية المتشاحنة والاستغلال. وقابيل نموذج المجتمع الطبقي والملكية الفردية والتناقض والاشتباك الممتزج بالكراهية بين الطبقات وتقسيم المجتمع الإنساني وتبديل الأخوة البشرية إلى تشاحن اقتصادي ووطء الحقيقة بالأقدام في سبيل المنفعة وحقيقي أن الغريزة الجنسية عامل قوي مؤثر جداً في العلاقات بين البشر، وهو واضح في العلاقة بين قابيل وهابيل لكن البنية التحتية الأساسية للرذائل والانحطاط الأخلاقي وجنون المنفعة وعبادة الذات أمر آخر، ومن هنا فإن الغريزة الجنسية المتساوية بين هذين الأخوين تدفع قابيل فحسب، إلى الجريمة، ويبقى هابيل مصوناً من هذه الآفة يحتفظ بشرفه وسلامه ومحبته وإيمانه بالرغم من عدم وجود أية قرينة تشير إلى أنه كان فاقد الرجولة أو يعاني من أي نقص جنسي، ومن هنا فإن قابيل يخون حتى الله الذي يؤمن به، ومقتل هابيل الراعي على يد قابيل مالك الأرض يعني انتهاء عصر الشركة والمساواة الأول، ودول التاريخ إلى مرحلة الزراعة والملكية أي عصر سيطرة الطبقات وتقسيم الإنسانية إلى كتلتين متضادتين متشاحنتين.

ويدخل الإنسان مرحلة تاريخه الحاضرة بموت هابيل والعدالة والأخوة والحرية والمساواة وبقاء قابيل والملكية والخصومة والعبودية والتفرقة، ذلك التاريخ الذي حفظ في مراحل تطوره المختلفة نظام التفرقة بين البشر والتضاد الطبقي، فعصر

الملكية الطبقية يختم عصر الشركة الاجتماعية (أي يقتل قابيل هابيل) وتسيطر الطبقة الثرية القوية على مصير الطبقة الفقيرة الضعيفة، ويحكم النظام القابيلي على تاريخ الإنسان وبالتالي على نوع الإنسان، وتتغلب المنفعة الفردية على المنفعة الاجتماعية، وتصير الأنانية الاقتصادية والسياسية والجنسية وكلها من مظاهر الروح القابيلية أي الروح المسيطرة على النظام الاجتماعي، وقابيل في التاريخ هو الذي يكنز الأموال، ويقيم أجنحة الجحيم، كما يصير مالكاً وملكاً، كما يصير سيداً، كما يسفك الدماء أي روح الأنانية، أي الحرص على امتلاك كل شيء وحرمان كل شخص.

ومن الواضح أن حفظ هذا النظام لا يتيسر كما يقول ماكيافيلّي فقط بكون الإنسان ذئباً، ينبغي أن يكون أيضاً ثعلباً، وكون الإنسان ذئباً يعتمد على السيف والمال (الأول في نعومة الحرير والثاني في لون الذهب)، وكونه ثعلباً يعني أن يستند إلى الدين واليوم إلى الأيديولوجية وإلى جوارها الاستعانة بالفن والآداب والشعر والفلسفة والعلم. . . الخ.

طبقة واحدة ووجوه ثلاثة:

السيف والمال والدين، هذه هي وجوه ثلاثة لطبقة واحدة تلك الطبقة التي كانت على الدوام مسيطرة على التاريخ، وهكذا أظن أن التثليث انعكاس ذهني لهذا التثليث العيني، فالله واحد ذات واحدة ومبدأ واحد وقدرة واحدة ووجود واحد، لكنه على ثلاثة وجوه: انعكاس للتثليث الطبقي، فالطبقة الحاكمة واحدة: ذات

واحدة ومبدأ واحد وقدرة واحدة ووجود واحد لكنها على ثلاثة وجوه مختلفة: القوة والذهب والدين، وفي اليونان القديمة يعد زيوس إلها ذا ثلاثة وجوه، وفي الهند أيضاً «ويشنو» ذو ثلاثة وجوه، وفي روما: صار عيسى بن مريم إلها ذا ثلاثة وجوه، هي الأب والابن والروح القدس ثلاثة في واحد وواحد في ثلاثة، وهذا من الناحية العلمية والمنطقية والفلسفية غير قابل للتصور باطل، لكننا نسيء الفهم، نظن أن الحديث عن إله الكون، وإلا فأي رسول أو فيلسوف أو عقل قد اكتشف أن الله ذو ثلاثة وجوه حتى نرد عليه؟ ان الحديث عن طبقة قابيل التي هي واحدة وثلاث وبينما هي واحدة هي أيضاً ثلاث: إله مسيطر في ثلاثة وجوه، كم هو صحيح، طبقة حاكمة في ثلاثة وجوه: وجه سياسي ووجه اقتصادي ووجه ديني[١] الحاكم والرأسمالي ورجال الدين. . . أرأيتم أنها فعلاً ثلاثة في واحد وواحد في ثلاثة؟ هل رأيتم إلى أي مدى يتسم المنطق الكاثوليكي بالصحة والدقة، هذه الوجوه الثلاثة في جسد واحد سيطرت دائماً على التاريخ وعلى المجتمع قابيل، وفي الأديان الابراهيمية ومن بينها القرآن أشير إلى مثل هذه الكيانات

---

(١) المترجم: وفي عصرنا الحديث قد تتجسد الوجوه الثلاثة في واحد، ومن ثم نقرأ أن فلاناً الرئيس يعظ في الكنيسة يوم الأحد ويمتلك الشركات ويحكم ويسير الجيوش والأساطيل، وأن فلاناً السياسي اليهودي كان يذبح سكان قرى فلسطين العزل وهو يضع الطاقية السوداء فوق رأسه ويرتل آيات التوراة، وأن بابا روما يمتلك أكبر الشركات العالمية وادق نظام مصرفي يغطي وجه البسيطة، ولا يخلو رئيس من أعمال تجارية استثمارية، بينما هو أيضاً يؤلف الكتب، فلم يعد سلطان يقنع بوجه واحد.

الثلاثة للطبقة الحاكمة وهذا التثليث القابيلي في ثلاث شخصيات: فرعون وقارون وبلعم بن باعوراء، ومعمعة نضال الرسل الرعاة ونصلهم الحاد كان متجهاً بدقة إلى هذا الجسد الواحد ذي الوجوه الثلاثة، ومن هنا نرى في سيرة حركات هؤلاء الرسل ومصيرهم كما نقرأه أن هناك أجنحة ثلاثة وقفت دائماً في وجوههم، وبكل قوتها حاولت القضاء عليهم وعلى حركاتهم[١]: الملأ والمترفين والرهبان، فالملأ هم الذين يملأون العيون والأفواه، أصحاب الرقاب الغليظة والرؤوس الكبيرة، والمترفون: الرجال الممتلؤون عنجهية وكبرياء وتنفجاً، أولئك الذين يسيرون بين الخلق مثل الديكة الرومية اتكاء على ثرواتهم العظيمة التي تبرئهم من كل مسؤولية، والرهبان: سدنة المعابد ورجال الدين في الأديان المختلفة.

---

(١) في المسرحية الجيدة «سيزيف» للكاتب الفرنسي المفكر روبير مول التي أخذ شخصياتها من آلهة اليونان القدماء يخطف سيزيف بطل البشر قلم الموت من يد الآلهة ويمنح البشر الخلود في مواجهة الآلهة، وعندما لا يكون موت لن يسيطر الآلهة على البشر الميتين، لكن في هذه الحالة لن يسيطر السادة والملاك على الناس، سوف يتمرد العبيد والفلاحون. ويلتمس السادة من سيزيف قائلين: فلترد إليهم قلم الموت فإن نظام المجتمع قد انهار ويتعجب سيزيف: كيف أن ممثلي الآلهة هؤلاء وهم أنفسهم من البشر وقد وصلوا إلى الخلود يطلبون منه هذا الطلب؟ ولا يرد سيزيف القلم، ويتفق ممثلو الطبقة الحاكمة في اليونان مع آلهة الموت ويصيرون عملاء له ويأخذون القلم من سيزيف بالخدعة ويردونه إلى آلهة الموت حتى يحتفظوا بأوضاعهم ولو كان الثمن هو موتهم، وهنا يئن سيزيف شاكياً: «أواه. . . كنت أظن أن الميتين لهم مصالح مشتركة». وهؤلاء الممثلون للطبقة الحاكمة كانوا أيضاً ثلاثة: أحدهم أرستقراطي والثاني تاجر، والثالث رجل دين.

لكن الحكم العام بالنسبة للأديان خاطىء بقدر ما هو كذلك في الايديولوجيات. ينبغي أن نحدد في البداية عن أي دين نتحدث، وحينذاك نحكم بشأن دوره الاجتماعي واتجاهه ورسالته الطبقية، وقد دلنا علم الاجتماع التاريخي والديني إلى أن الرؤى الكونية الفلسفية والدينية المسيطرة دائماً ما هي إلا انعكاس للنظام الاجتماعي وأشكال الحياة المادية الموجودة عند البشر، ودائماً ما كان الوضع الاجتماعي مفسراً ومبيناً في صورة الدين، وفي الحقيقة فإن النظام العقائدي الديني المسيطر كان مفسراً للنظام الاجتماعي المادي وأن الحقائق السماوية اللاهوتية كانت تصويراً للوقائع الأرضية الناسوتية.

فالهيئة القديمة (التصور الفلكي للأجرام والسماوات) تشمل أفلاكاً تدور حول مركز هو الأرض والسماء نظام طبقي ثابت، وكل طبقة تابعة عقلية تحت العقل الفوقي وفوق العقل التحتي بالنسبة لها، وكل الطبقات تابعة لأعلى طبقة (فلك الأفلاك) والعقل المدبر لها أي عقل العقول أو العقل الكلي. وهذه الهيئة نسخة طبق الأصل من النظام الطبقي في مجتمع مغلق وحركته الدورية.

فالأديان الموجودة، الأديان المسيطرة على التاريخ، كانت دائماً وبلا استثناء أدوات في أيدي الطبقة الحاكمة، كانت واحداً من وجوهها الثلاثة، ودائماً ما كانت طبقة رجال الدين في كل المجتمعات على رأس المجتمع، ودور الدين هو التبرير الفكري والعقائدي للنظام الحاكم وللوضع الموجود وللتضاد الطبقي وتطبيع الوضع الاجتماعي لكل فرد ولكل جماعة ولكل طبقة في سلسلة

مراتب المجتمع بل وجعلها إلهية. وعلى حد قول كريلوف في مفهوم الأناجيل: «إن القساوسة يسمون الناس أغنام الله لأنهم كلفوا من قبل الله برعي الخلق لكي يستطيعوا استغلال صوفهم ولبنهم» كان فرعون يضع قيداً حول رقبة رجل ويمتطي كتفيه، بينما يقوم قارون بتفريغ جيوبه، وكأن بلعم بن باعوراء مكلفاً بالهمس في أذنه برقة وحنان وعطف وإقناعه بأن يتحمل هذا الوضع ويعتبره مشيئة الله، لأنه على حد قول بطرس الرسول: «كل يد تريد أن تخل بالترتيب الموجود في المجتمع فإنها تكون قد اصطدمت بالمشيئة الإلهية».

فالمهمة الرئيسية لهذا الدين، أولاً: إبراز أن الوضع الاجتماعي الموجود على أنه أزلي وإلهي، ثانياً: إرجاء الانتقام من الظالم وإقامة العدل وإحقاق الحق وإدانة الغاصب ورفاهية الحياة والمتعة المادية والخلاص من الكدح والجوع والعبودية إلى مرحلة ما بعد الموت والعالم الآخر، وأيضاً استخدام المركزية الموجودة في المراسم الدينية والإمامة الدينية والوساطة المحتكرة لهم بين الخلق والله أو الآلهة لاكتساب النفوذ والسيطرة على الناس، واتخاذ طبقة رجال الدين مكاناً في صف الطبقة الحاكمة، وتعاملها المختلف بمقتضى الزمان في العلاقة مع الجناحين الآخرين.

فالأديان المسيطرة على التاريخ التي كانت سلاحاً معنوياً في يد الطبقة الحاكمة، كانت في يد أجنحتها القديمة والقوية سداً منيعاً يمنح القوام والدوام لبنية المجتمعات المكونة من أكثر من طبقة المتناسقة شكلاً لكنها مليئة بالتضاد والتناقض والشقوق في طرزها

المختلفة من عبودية ورق وإقطاع وطرز تجارية وأشكال مختلفة من ملكية وأرستقراطية وامبراطورية وإلهية وحتى ديمقراطية، والتي كانت بسبب هذا التضاد الداخلي وعدم الاتساق والتشابه بين الأبعاد والعناصر التي تكونها محكوماً عليها بالفناء والانهيار.

وكل واحد من آلهة الأديان المسيطرة على التاريخ أب لقومه وخالق لهم أما الأقوام الأخرى فمخلوقات وضيعة وغريبة لآلهة أخرى وضيعة وغريبة. فبنو إسرائيل هم أبناء يهوه، ويهوه عدو للكنعانيين، وزيوس إله لليونانيين وعدو لأهل طرواده والبربر (الإيرانيين)، وآهورامزدا أيضاً إله لإيران وعدو لأنيران (أي ماسوي إيران)، وفي النهاية ويشنو إله الرق في العالم (العالم الهندي) الذي خلق من رأسه الملوك والأمراء والأشراف ومن يديه العسكريون والمحاربون ومن صدره البراهمة، ومما دون ذلك جماهير الناس. أما المنبوذون فهم غير آدميين وأنجاس.

والله أو الآلهة بالمعنى العام في الأديان القديمة كانوا ذوي بنية اجتماعية تحتية ومادية محددة. وفي الحقيقة كانت مهمة الأديان منح قاعدة ميتافيزيقية وكونية وأزلية أبدية للنظام الموجود والوضع الحاكم في المجتمع، وكل واحد من هؤلاء الآلهة ممثل للمبدئية، والوحدة والتفاخر العرقي والقومي (زيوس، ويشنو، يهوة، المسيح، اهورامزدا) أو رمز الثنوية الاجتماعية، أي تقسيم المجتمع الواحد إلى طبقتين متناحرتين مختلفتين (ثنوية، ازدواج الآلهة، الخير والشر. . . الخ) أو مظهر للنظام الإقطاعي أو الامبراطوري الشامل لعدد من الوحدات العرقية القومية المستقلة،

وفي نفس الوقت متصلة ومرتبطة (نظام الآلهة الملتزمين، الأساطير اليونانية والآلهة الرومانية والويدية وعبادة الشمس. . . الخ).

والأصنام كل منها يشير إلى سلسلة المراتب العرقية والقبلية والطبقية والأسرية ويفسرها، وحين تكون الآلهة ذات سلسلة من المراتب المختلفة، ويكون الآلهة الآخرون متفاوتين كل عن الآخر من ناحية الشرف والمحتد وموضع القدر ويصدق عليهم أيضاً نظام التفرقة وسيطرة الطبقات والامتيازات العريقة، فإن المجتمع البشري والعروق والطبقات والأسر أيضاً وهي مخلوقة من لدنه وتابعة له وتدبر بإرادته، بحيث تكون كل وحدة من هذه الوحدات المستقلة الإنسانية مرتبطة بإله خاص بها لا تستطيع أن تبرأ من هذا النظم الكوني المسيطر على الوجود والنظام الشامل للعالمين، أو تتصور أن التفرقة العنصرية والتضاد الطبقي والمبدئيات والامتيازات العرقية والذاتية أمور عرضية ومؤقتة وانحرافية وقابلة للتغيير ومن صنع أفراد ونتيجة للاغتصاب والقوة والاجحاف، وفي النهاية قابلة للثورة والتخريب والاصلاح.

وآلهة الأديان كلها رموز ما وراء طبيعية للمبدئيات القومية والعرقية والطبقية والأسرية، ففي هذه الأديان في الغالب إله عظيم وعدد من الآلهة الصغار ذات صلة به بشكل ما (البنوة، الزوجية، القرابة، التبعية) مع حفظ استقلالها وحق تقرير مصيرها وسيطرتها على مناطق نفوذها، وتشكل في مجموعها نظاماً خاصاً في السماء كان مثيلاً للنظام الاجتماعي على الأرض، فإله أو آلهة كل دين، كانت تقيم مجمعاً للأديان يعد ملكاً خاصاً من أملاك القوم (القبيلة

أو في شكلها المتكامل الأمة أو العرق). ورب الأرباب أيضاً كان ذا صلة عرقية وقرابة نسبية بشكل ما مع قومه، وفي الغالب كان عبدة رب الأرباب وأتباعه أبناء له، وقد خلق ويشنو الهنود من جسده بهذه الطريقة: خلق الكاشريين (الملوك والأمراء والأشراف) من رأسه، والعسكريين والمحاربين من يديه، والبراهمة (رجال الدين عند الهنود) من صدره، والباقي أي جماهير الناس مما دون ذلك من جسده، ونرى أن المساواة الطبقية في هذا الدين وانتقال فرد من الشعب إلى موضع الأشراف إلى أي حد غير معقول بل ومحال فالذي يدير في رأسه فكرة المساواة بين البشر أو يعترض على المسافات الموجودة بين الطبقات الاجتماعية أو التضاد بينها، كأنه يريد أن يجعل سواء رأس رب الأرباب وما هو موجود أسفله من أعضاء، وبرومثيوس هو الذي خلق اليونانيين، أما زيوس رب الأرباب عند اليونانيين فيأتي من كريت إلى اليونان ويصير بالتدريج يونانياً ورب الأرباب لليونانيين، وعندما يريد أن يعاقب برومثيوس بتهمة جلب النار المقدسة التي اختطفها من السماء ونقلها إلى البشر (أي اليونانيين) يقيده في أرض نائية أي القوقاز، وعندما يريد أن يزيد عذاب الغربة والوحدة على عذاب الأسر والقيد لهذا الإله الخالق يختار منفاه بين السيكانيين. في الحرب بين طروادة واليونان نرى أبولو وبالاس من ناحية وزيوس وهيراكليس من ناحية أخرى يتقدمان قومهما وقد أمسك كل منهم بخناق الآخر باذلاً كل قوته، حقيقة أن آلهة الشرق ذات تجرد ماورائي وروحانيات أكثر من آلهة

اليونان، إذ أن آلهة اليونان جيران لاصقين لبني البشر[١].

وإني اعتقد أن هذه الأرباب العظمى ذات الجذور القومية والتي هي في حكم الأب أو الملك بالنسبة لأقوامها، كلها شكل تغير وتكامل للطواطم القبلية للمرحلة البدائية للمجتمعات الوحشية. والطوطم كان حيواناً يختار كمعبود لقبيلة ما، وكان أكل لحمه حراماً على أفراد القبيلة، والقبيلة وهي أسرة موسعة وذات منشأ واحد يعد الجد المشترك لكل أفراد قبيلة ما وعائلاتها وعشائرها تنسب نفسها بوعي أو غير وعي إلى جدها الأعلى، وأحياناً تأخذ اسمها من اسمه على شكل صفة نسبية أو اضافة[٢] وأحياناً تضع اسمه عليها دون إضافة (غطفان، هوازن).

وتصبح روح الجد الأعلى للقبيلة روحاً للمجتمع، والأفراد بمدحهم وعبادتهم واحترامهم له، يقدسون الروح الجماعية عندهم ويعظمونها (حالة مثل التي عند الأمم اليوم بالنسبة للعلم القومي)، وهذه الروح تحل في طائر (العقاب عند الجرمان والرومان) أو دابة

---

(١) أي مخلوقات شبيهة بأبطال البشر بكل أحوالهم وخصائصهم وميولهم الشريرة أو الطيبة وما فيهم من غريزة جنسية وعبادة للشهوة واحتيال وكبرياء وحقد واحياناً خيانة للروح والمال والعرض بالنسبة لرفاقهم في العالم الآخر لكن هذا العالم الآخر اليوناني ليس كعالم الآخر الشرقي بعيداً وغامضاً وغير قابل للتصور، فهو فوق قمة الأوليمب على قمم جبال بارناس.

(٢) بني: بني إسرائيل، وفي إيران أيضاً بأدوات النسبة: الياء، ان، زاده، بور، وفي لورستان وند مثل طائفة تقي وند وحسن وند، وربما كان العرب يختارون عند الميلاد كنية أبو أو أم للمولود على سبيل التفاؤل بأن الطفل سوف يصير في المستقبل جداً أعلى لطائفة ما، طائفة تنسب نفسها إلى اسمه مسبوقاً بلفظ بني.

(البقرة عند الآريين خاصة هنود اليوم والفرس القدماء) أو أحد الزواحف (الحية في الشرق الأقصى ولا يزال لها معابد إلى اليوم في الهند الصينية ونيبال ولها سدنة ورجال دين وعباد كثيرون)، وتبقى خالدة ودائماً على صلة بقبيلتها وتحميها على أساس أن القبيلة من أبنائها، ونرى كيف أن المجتمعات البدائية (كما حلل دوركهايم بدقة ومن قبله بحث علماء الثقافة وعلماء أجناس الشعوب البدائية مثل سبنسر وتايلور ومولر شخصياً) تعبد روحها العرقية والقومية في اسم جدها المشترك وفي جسد طوطمها[١] ومن هنا فإن الطوطم هو التجلي العيني والتجسد المادي للاحساس المشترك الجماعي والروح القومية والعرقية عند أمة فيها اشتراك في الدم.

والأمة أيضاً على نفس الشكل الذي كان موجوداً منذ القدم، أو كما تفسر هي الشكل الواسع للمجتمع القبلي، كما أن كلمة nation التي تعني في اللغات الأوروبية الأمة مشتقة من الأصل اللاتيني naitre أي الميلاد، ومن هنا فإن المفهوم الموجود لمجتمع

---

(١) في يوم خرداد (المترجم: السادس من كل شهر إيراني) من شهر فروردين (الشهر الأول في السنة الإيرانية) نقرأ أنه في بداية الخليقة، كانت البقرة توأما في الميلاد لكيومرث الجد الأعلى للاريين في الهند وإيران، ويشير هذا إلى أن الدابة المذكورة كانت طوطما لشعبة من الآريين. ورؤوس الأعمدة في فارس القديمة كل منها على شكل رأس بقرة وتقديس البقرة وتحريم قتلها أو حتى أكل لحمها في الديانة الهندوسية وهي أقدم الديانات الموجودة عند الهنود، تدل على أن البقرة كانت طوطما عند الأمتين اللتين كانتا في البداية أمة واحدة.

قومي في الأذهان هو اشتراك كل أفراد أمة ما في الدم، بمعنى أنهم جميعاً قد ولدوا من أب واحد. وحتى الآن لا تزال الأمم المتقدمة اليوم تفسر تاريخ شعبها بهذه الرؤية، ويعتبر شعب فرنسا نفسه من قبيلة الفرانك، وشعب المانيا يعتبر نفسه من قبيلة الجرمان كما يعتبر الانجليز أنفسهم من قبيلة «انجل»... الخ، بحيث أنه عندما تتحول قبيلة صغيرة بدائية وترتقي إلى أمة كبيرة متحضرة، يتحول طوطمها إلى إله عظيم: ويشنو، زيوس، جوبيتر، آهورامزدا ويهوه. وهذه الأرباب التي صورت مراراً ونحت لكل منها التماثيل، لكل واحد منها ملامح تشير إلى أن المصور أو المثال جاهد في نقل الصورة الموجودة في الأذهان عن جد القوم، ومن هنا فإن ويشنو هندي تماماً فهو حليق اللحية ذو شوارب مبرومة حادة الأطراف سوداء وبشرة داكنة وعينين سوداوين وحاجب أسود، وجوبيتر بطل روماني عظيم وزيوس ذو ملامح يونانية واهورامزدا بالنسبة للخصائص العرقية إيراني مائة في المائة... والمسيح ومريم رجل أوروبي وامرأة أوروبية.

وكما أنه في مرحلة عبادة الطوطم البدائية، كان أبناء القبيلة يعدون أنفسهم أبناء الطوطم الخاص بهم، أيضاً في مرحلة الرب المتحضرة، يفسر أفراد الأمة علاقتهم بمعبودهم على شكل رابطة الأبوة والبنوة، رأينا كيف أن ويشنو يخلق الهنود من جسده، ونعلم أن بني إسرائيل يعتبرون أنفسهم رسمياً أبناء الله ومدللي يهوه، والرومان صنعوا آلهتهم على شاكلتهم وبذلك هيئوا الأرضية لقرابتهم العرقية معاً، وعن طريق الاشتراك وتناول الخبز والنبيذ

المبارك أي لحم المسيح ودمه يصيرون مشتركين معه في الدم والذات، وعلاوة على ذلك، عيسى نفسه الذي يحتوي على عنصرين عنصر لاهوتي وعنصر ناسوتي إنسان روماني فهو في نفس الوقت إله وأب وفي نفس الوقت ابن الله، وفي الغالب فإن الإله العظيم في هذه الأديان خاصة في المسيحية «أب» ويدعى «أبانا الذي في السماوات» وهذا الأمر يذكر بالأصل الطوطمي لهذه الآلهة[١].

(١) يقول قساوسة المسيحية إنهم يحملون قبساً من الروح أي الروح القدس، وهو أحد التجليات الثلاثة للإله. ومن هنا ينبغي أن يرجع الناس إليهم من أجل الاتصال بالله وهم مكلفون بنشر الروح التي يحملونها في العالم، ومن هنا يأتي لقب «روحاني» الذي يلقبون به أنفسهم. وليس لهذا اللقب وجود في الإسلام لأنه لا وجود لهذه الطبقة. وهو موجود فقط عند الشيعة وعلى الأخص شيعة إيران الذين يستخدمون روحاني (المترجم: بمعنى رجل الدين) وروحانيت (المترجم: بمعنى هيئة رجال الدين)، وأظن أنه استخدام جديد لأن هذا اللقب لا وجود له في نصوصنا الدينية والأدبية القديمة، ولا شك عندي في أنه نقل عن المسيحية، وأظن أن ذلك كان على أيدي الصفوية الذين اقتبسوا كل المراسم والشعائر والعلامات المذهبية من قبيل: التكية (إلى جوار المسجد) وهيئات الدق على الصدور وقفل السلاسل حول الجسد بالأقفال وضرب الجسد بالسلاسل والضرب بالقمة (سيف قصير) وحمل الجريدة (المترجم: شكل على هيئة صليب يحمل في المواكب المذهبية) والعلم والعلامة والرسوم، وإقامة التمثيليات (تمثيليات المعجزات والميستر واعادة المسيحيين آلام المسيح وصلبه عند ذكرى الجمعة الحزينة وأناشيد تعذيب عيسى أو القداسات والتي لا تزال موجودة إلى اليوم بنصها وفصها في مسرحيات اللورد)، وذلك لكي ينفصل التشيع عن المذهب السني من كل نواحي المراسم والشعائر والمظهر والتمثيليات الدينية، ولا يحس الشيعي بأي وجه اشتراك مع المسلمين من غير الشيعة الذين كانوا في حالة حرب دائمة معهم وكان قيام الصفوية في الأصل ضدهم. لكن لما لم يكن للتشيع قبل الصفوية أي مجال للمظاهر المذهبية الخاصة، وعلاوة على هذا كان=

ومن هنا نرى أن الآلهة الكبار في نفس الوقت الذي كانوا فيه محوراً وطنياً لخيام مجتمعاتهم، وكانوا يمنحونها القوام والدوام

= السني والشيعي يكونان أمة واحدة، ومجتمعاً واحداً ويشتركان معاً في العقيدة والعمل والعبادة، ولا خلاف بينهما إلا في بعض مسائل ثانوية، إلا أنه بعد استقرار النظام الصفوي الذي كان عدوه الأصلي أهل السنة والنظام العثماني، بذلت جهود كثيرة لكي تنمحي الوجوه المشتركة التي تخفف من العداوة وتقوي الوحدة أو على الأقل تحد من انتشار العداوة، وذلك بحيث يحس الشيعي أنه صاحب دين مختلف ويحس السني أنه صاحب دين مختلف ويحسان أنهما نقيضان. وأحد هذه الجهود البدع والابتكارات الجديدة في الشعائر الدينية والرموز والعلامات الخاصة التي لا سابقة دينية لها، وكانوا مضطرين لهذا الأمر إلى التقليد والاقتباس من العادات والمراسم الخاصة الدينية لأوروبا الشرقية وكان الصفويون على صلة قريبة منهم ومصالح مشتركة وصداقة حميمة وتكتل ضد العثمانيين، وكان عندهم وزير خاص بأمور أناشيد الروضة كان من مهامه تقليد «الفنون الدينية»، من أوروبا واقتباسها، انظروا إلى الستائر السوداء المفتوحة التي تكتب على حواشيها أشعار محتشم، تقليد كامل لطراز ستائر الكنيسة، وتصوير الشخصيات الدينية مثل الرسول والأئمة وهو في الأسلام مكروه موجود دون زيادة أو نقصان، حتى ما يسمى بالجريدة هي تماماً الصليب المقدس، ولم يطرأ على شكله أي تغيير أو تبديل، وهذه الجريدة التي تحملها جماعات الدق على الصدور دون أن يكون لها أي دور أو معنى أو تبرير (وحتى حملة الجريدة لا يعلمون هم أنفسهم ماذا تكون هذه ومن أجل أي شيء في الأصل) وفي نفس الوقت يهتمون بها جداً ويتعصبون لها، وحيثية كل جماعة واحترامها مرهونان بثقل جريدتها وزينتها وتعقيدها وارتفاع ثمنها، وحملة الجريدة لهم ألقاب وشخصيات متميزة خاصة، ولأنهم يقومون بهذه الرسالة الدينية العظيمة التي لا تتأتى من كل إنسان توجد لهم «مجوزات لا تجوز لغيرهم»، حتى كيفية حمل الجريدة لم يغيروا أدنى تغيير، وأظن أن كلمة جريدة ليست فارسية أو عربية بل هي لفظ فارسي أو معرب للصليب في اللاتينية. ليس لدينا روحاني في الإسلام، لدينا علماء، وعلاقتهم بالناس هي العلاقة بين العالم والعامي وبين المتخصص وغير المتخصص، لا بين المقدس وغير المقدس وحامل البركة وفاقدها والروحاني والمادي والمراد والمريد.

والتناسق، كانوا أيضاً عاملاً لتبرير عبادة العرق والدم والمبدئية والتسامي القومي: جاهلية مشؤومة لم يتخلص منها الإنسان اليوم وهو في قمة حضارته.

وفي السنوات الثلاثين الأخيرة قتلت العرقية والفاشية والنازية والصهيونية ومعاداة السامية والتمييز العنصري ملايين البشر، واليوم بعون من الفلسفة وعلم الإنسان والفيزيولوجيا وعلم الأجناس وعلم الثقافة وعلم النفس والتاريخ يقوم العلماء والكتاب المرتبطون بالطبقة الحاكمة بإبراز الخرافة القذرة «عدم المساواة وعدم التجانس» بين الأجناس البشرية كواقع علمي وطبيعي، ولا يدفعون الجنس الأعلى فقط إلى الإيمان بهذه الخرافة القذرة بل والجنس الأدنى.

وفي الماضي، كانت أديان الطبقة الحاكمة تقوم بهذا الدور، وكانت الآلهة عاملاً لإثبات التفرقة والتجزئة الذاتية والنوعية بين البشر: نحن شعب يهوه المختار، نحن الأعزاء عند الله، إلهنا إله مقدس، إله أسمى، إله الخير أما الآلهة الأخرى فتخلق الشر والدنس، نحن أبناء الإله الأعظم ذاتنا وطينتنا ودمنا وبنيتنا وطبيعتنا وخميرة وجودنا وبذرتنا وأصلنا وعرقنا كلها من نوع خاص، نحن نسيج وحدنا، نحن أصحاب العرق الأسمى، الذات المقدسة، الجوهر الإلهي والأصل السماوي والماورائي والشرف الآهورائي، نحن مكلفون على الأرض بالمسؤولية والمهمة الإلهية الخاصة: حكم الأرض، السيطرة على كل الأرض وهداية كل الأمم والشعوب وإقرار إرادة الله في هذه الدنيا

والقضاء على كل الآلهة والأديان. نحن أبناء الله، نحن أقرباء الله ومن نسله، أما الآخرون فهم من خلق آلهة غريبة وحقيرة أو شريرة ودنسة، هم من صنع التراب ومن نسل الحيوان وذواتهم حيوانية، هذه هي التفرقة العنصرية، أفضلية جنسنا على الأجناس الأخرى، ليس ادعاء تسلطنا وتحكمنا في الأجناس والأقوام والملل والنحل الأخرى، ليس من أعمال القوة والنفوذ والاغتصاب، وليس أمراً غير طبيعي، ليس وليد أحوالنا وظروفنا الطبيعية أو ثروتنا أو خصب أراضينا، هذا هو اقتضاء ذاتنا وخلقتنا الاستثنائية، أليس هو «يهوه» الذي يقول في التوراة: إنني جعلت أبناء كنعان عبيداً لأبناء سلم أي قوم يهوه إلى الأبد؟ ألم أعدكم بأرضهم؟ ألسنا نحن أمة الهند قد عجنا من جوهر ذات ويشنو المقدسة؟ ألسنا نحن الإيرانيين مخلوقات اهورامزدا إله الخير المختارة، أما غير الإيرانيين فهم أبناء أهرمن ومختاريه ومن كتابة زروان المظلم عنصر الظلام؟ أليس المجد الإلهي في صلبنا وظله فوق رؤوسنا؟ هؤلاء الآلهة هم الشكل المتطور للطوطم كما أن الأمم هي الأشكال المتطورة للقبائل، وعلى طول التاريخ كانت الأديان عن طريق رفع هذه الرايات المختلفة وغير المتجانسة واللاإنسانية والميتافيزيقية، تقوم بتبرير هذا الاختلاف وعدم التجانس وعدم المساواة بين الأمم وتثبيته، كانت تبدي السمّ الجنسي وغربة الجماعات والمجتمعات والأقوام المختلفة وبالتالي الاستعمار والاغتصاب والحروب والبحث عن السلطة والامبريالية السياسية والاجتماعية والفكرية والدينية والاقتصادية

والعسكرية لأمة على أمة أو أمم أخرى أموراً طبيعية ومنطقية ومقدسة وإلهية بل وتعدها أداة لرسالة إلهية كلفت بأدائها وتفسر استبعاد أقوام آخرين والسيطرة عليهم أو القضاء عليهم واقتلاع الحضارات والمدن والمعابد من جذورها وتخريب الأراضي والقيام بالمذابح العامة بين الناس، ونهب ثروات أولئك الغرباء «الشيطانيين سيئي الدين وسيئي الأصل وسيئي الجوهر» تحقيقاً لإرادة الههم، أبيهم العظيم في السماوات على يد أبناء خاصته. لماذا نتحدث عن التاريخ؟ أليس هذا بعينه قائماً الآن؟ كما كان الحكماء والقناصل والنواب والضباط في روما يعتبرون أنفسهم مكلفين من قبل جوبيتر لنشر الحضارة الرومانية بين البدائيين والأقوام والملل والأجناس المنحطة وفوق كل البسيطة، ومنح القيصر وهو جوبيتر السلطة والنفوذ على العالم، وتقوية إرادة جوبيتر وهو نفسه في السماوات في صراع مع الآلهة الأخرى، وذلك عن طريق استعباد الأقوام وقهر الأمم الأخرى وإجبار الأجناس على الاستسلام وضم كل الممالك والقوى في الشرق والغرب إلى الامبراطورية الرومانية العالمية وتذويبها فيها، مثلهم تماماً يجاهد البابا اليوم لإقامة حكومة الأب السماوي المسيح في شرق العالم وغربه، وبقوة الاستعمار بل والحرب يجعل الأقوام والأمم الكافرة تستسلم لإرادة المسيح، ويدخل الوثنيين الأفارقة والوحشيين المنتشرين في الأرض «قطيع المسيح» أغنام الله، ليقوم برعيهم جميعاً. والصهيونية هي الأخرى تريد أن تحقق وعود يهوه إلههم لقوم بني إسرائيل مختاريه الأعزاء وحملة مهمته

الخاصة، فقد جعل لهم فلسطين «أرض ميعاد»، وقام شمعون لأداء الرسالة بمذبحة عامة في بيت المقدس، ووعدهم بأن يجتث من الجذور القوم الملعونين الغرباء عن يهوه أي الفلسطينيين، ذلك لأن يهوه كتب في لوحه المحفوظ سيادة أبنائه وزعامتهم على كل الغرباء، وحكم على أبناء كنعان بالعبودية لهم إلى الأبد. ويقرأ الجنس الأبيض في كتابه المقدس أن إلهه العظيم يكرر عدة مرات في سفر التكوين: إنني خلقت الإنسان على صورتي ونفخت من روحي في هؤلاء البشر الذين يشبهونني على الأرض، ويرى في نظامه المقدس وأرضه المقدسة أن الإله العظيم «أبانا الذي في السماوات» أبيض الصورة ناعم الشعر أشقر أزرق العينين لطيف القوام ورشيق ونحيل وطويل، وحينذاك يعتقد: إذاً هؤلاء السود ليسوا بشراً، فأجسادهم ضخمة ليست رشيقة وعيونهم سوداء وشعورهم مشعثة خشنة قصيرة سوداء كالليل، وبشراتهم سوداء، وحواجبهم سوداء وأجسادهم سوداء، ويقول: إنني لا أصدق أن دماءهم حمراء، لا بد أن دماءهم سوداء كالحبر، إذاً من أين لهم الشبه بالإله العظيم أبينا الذي في السماوات؟ هؤلاء هم أولاد الظلام من جوهر الظلمة، لم ينفخ فيهم الله من روحه قط، إنهم يفتقدون الروح الإنسانية والشرف والفضيلة البشرية والنور الإلهي واستعداد الهداية، إنهم يفتقدون كل شيء، العلم والحضارة والثقافة والفن والتقنية والتقدم والصناعة والرفاهية والفكر والاحساس والمنطق والعقل والدين ومعرفة الله، إنهم ليسوا بشراً أشباه الله، هم حيوانات تشبه

البشر. إن الله أبونا وليس أباهم[١].

إذاً، إذا كان صحيحاً أن مهمة الدين الحاكم كانت اظهار نظام التفرقة والظلم الموجود في المجتمع الطبقي حقاً وإلهياً، وإذا كانت حقيقة أن كل طبقة تختص بإله وكل عرق بإله وكل أسرة أو عائلة بإله، فإن هذا كان يبرر الارستقراطية، والتفرقة الطبقية ويظهرها ذات جذور وطبيعية وأزلية ومقدسة وميتافيزيقية، ويقوم بترسيخ الإيمان والاعتقاد بها في الأذهان، وكان عاملاً للتمكين من الجماهير والعمل على استسلامها. ومن هنا جاهدت الاشتراكية العلمية عن طريق إنكار الدين في شل هذا العامل وسحب هذه القاعدة الدينية والقواعد الميتافيزيقية للتفرقة العنصرية والطبقية من تحت قدم الطبقة الحاكمة، أما الإسلام فبإعلانه للتوحيد ونفي الشرك، واعتقاده بالأصل الواحد لكل البشر يصل أيضاً إلى هدم هذا النظام.

(١) يقول أحد الكتاب المسيحيين إن الله يقول في التوراة والإنجيل أكثر من مرة أنني خلقت الإنسان على صورتي، وبما أننا نرى المسيح الرب أشقر أزرق العينين أبيض البشرة، فلا يمكن إذاً أن يكون السود بشراً.

الوحدانية: رؤية كونية:

ومن هنا فإن رؤيتي قائمة على تفسير معنوي للكون، والوجود في رأيي ليس جهازاً مادياً بلا شعور أو هدفاً وليس جهازاً عابثاً، بل قوام حساس وحي وواعٍ ومعقول، ويتميز بقوة الإرادة والعلم والخلاقية. وبناء على هذا فقد شكل على أساس طبيعة واحدة من مجموعة الظواهر المتناسقة والمظاهر (الآيات) بنظام علمي دقيق وهو متجه إلى هدف عال سام، يتحرك نحوه في حركة تكاملية. والإنسان واحد من العناصر التي تشكل هذه الطبيعة، وعضو من أعضاء هذا القوام العظيم. ومن هنا لا يمكن أن يكون عبثاً بلا معنى ولا هدف، أو مجرد ظاهرة حدثت بالمصادفة، فهو بسبب ارتباطه بالطبيعة لا محيص له من التناسق مع نظامها ومسيرة حركتها التكاملية وهدفها الغائي ولأنه هو أكثر المخلوقات تكاملاً في السلسلة التكاملية لمخلوقات الطبيعة فرسالته الوجودية أثقل ومسؤولياته في الخلقة صعبة وحساسة.

وفي مدرستي العقائدية، الإنسان هو ممثل الله وخليفته، وهو

يحمل الخصائص الأخلاقية لله وموضع أمانته، والذي تعلم الحقائق بواسطته، وسجدت له كل الملائكة العظيمة والصغيرة وكل الوجود، والبحر والبر والأرض والسماء كلها مسخرة لإرادته وعلمه وفنه، فهو القريب الذاتي لله. ومجموعة هذه التعبيرات والمصطلحات الرمزية تريد أن تشير إلى هذه الحقيقة القائلة: إن الإنسان هو المخلوق الوحيد من بين كل مظاهر الوجود الذي يملك أربع خصائص ممتازة يملكها الله وهي ١ ـ الوعي و٢ الإرادة (الحرية والاختيار والقدرة على الاختيار) و٣ ـ المثل و٤ ـ الخلاقية.

هذه الخصائص بقدر ما تمنحه السيطرة والقدرة على الطبيعة، تجعله مسؤولاً أمام هذه الإرادة الواعية الخلاقية المطلعة والمافوق إنسانية، أي الشعور الذي تنبعث منه معجزة الحركة والنظام والحياة. ومن هنا فإن الإنسان ليس كإنسان المادية والطبيعية، والحتمية والاشتراكية، شجرة بلا إرادة تنبت في قلب الطبيعة أو المجتمع الخاص بها بمقتضى العوامل المادية للبيئة ودون دخل منها، وليس كإنسان الوجودية والليبرالية والراديكالية والإنسانية إرادة حرة واعية بذاتها، وقع في دنيا العناصر والطبيعة المادية هذه ميتاً شريداً بلا مسؤولية، وغريباً عن الوجود وعارياً من الجمال. بل هو إرادة واعية ذات قدرة على الاختيار والخلق وصنع مصيره، وفي نفس الوقت مسؤول أمام الوجود.

والاعتقاد بأن «الله في الوجود» يمنحنا رؤية شاملة كونية نرى فيها الطبيعة ذات نظام واع بذاته ومنطقي وذات هدف، والتضادات

وألوان عدم الاتساق والنظام الموجودة فيها نسبية وظاهرية، أعتقد أن في ما ورائها حقيقة متناسقة وواقعية معقولة ومتصلة. ومن ناحية أخرى أحس بنفسي في هذا الجهاز العظيم ذا معنى وهدف وفلسفة وجود، وبالتالي أحس بنفسي جدياً ومسؤولاً. وأمام إله واحد مجرد من الخصائص القومية والعرقية والطبقية ومطلق يحكم كل الوجود، وإن عالم الوجود امبراطورية ممتدة ولها ذات واحدة تابعة لخلقه وأمره، من وجهة نظر الفلسفة وعلم الإنسان يلغي كل الحدود العرقية والتناقضات الطبقية والتفرقات الأسرية وامتيازات الدم والعرق، وبالتالي الامتيازات في الحقوق. لأن التوحيد بإلغائه للآلهة المتعددة الصغيرة والكبيرة، القومية والطبقية والعرقية، وإنكاره للأجهزة الدينية والرؤية الكونية في الشرك، يحرم الشرك الاجتماعي والتعدد الطبقي والعرقي في الحياة البشرية على وجه الأرض من تبريرها الفلسفي والعلمي والديني وقاعدتها الميتافيزيقية. والتوحيد بإلغائه هذه الآلهة المصطنعة المغرضة المضادة للبشر، لا يقوم بإلغاء الإحساس الديني في الإنسان، أو الحقيقة الموجودة في ما وراء المحسوس، أو إنكار الإرادة الواعية والمدبرة في الطبيعة، حتى يعري الإنسان بالرغم منه من فضائله غير المادية وحاجياته المتسامية وتساميه المعنوي ورسالته الإلهية، وينزل به إلى مستوى حيوان اقتصادي، ويقطع صلته بالأساس المعنوي للدنيا وقرابته مع روح الوجود، ويجعل مبدئية النفع محل مبدئية القيمة فيه، أو ليظهر الإنسان «الذي هو على شاكلة الله» عاشقاً للكمال والجمال والحقيقة، والذي كان دائماً في ما وراء

الطبيعة العادية والمنفعة المادية باحثاً عن الأبدية وقلقاً في سبيل اكتشاف سر الوجود والحصول على المطلق في صورة حيوان طالب للقوة ومكافح للاستهلاك. أجل، إن التوحيد يبدي الكون أكبر من الطبيعة المحسوسة للإنسان وأكثر إدهاشاً، وأشد عمقاً مما هي عليه، وأنها ليست آلة عمياء حمقاء ذات مجموعة من الحركات المتفرقة العابثة التصادفية، ليس هذا فحسب بل يبديها في صورة شخصية واعية مفكرة ذات إرادة وإحساس وجمال وتمييز. وإن الوجود ليس مجموعة متراكمة من العناصر، وليس جسداً ميتاً بلا صاحب، بل جسد حي يرى ويشعر وله قلب ويميز بين الخير والشر والجمال والقبح والعظمة والخسة، يفهم الحب ويتأثر به وينفعل أمام ألطف الأمواج جمالاً لروح ما، وأدق نبض لعاطفة ما وأكثر الجذبات الباطنية لعشق ما خفاء، ويبدي ردود أفعاله بحساب لا يدخل لنا في وهم، وحركة أية ذرة في خضم هذه الكائنات التي لا نهاية لها ليست من قبيل المصادفة والعبث.

في مثل هذه الإمبراطورية العالمية، يبدو تقسيم العالم بين عدد من الآلهة أشبه بملوك الطوائف. وبالتالي التفرقة العنصرية والقومية، والامتيازات والاحتكارات الأسرية، والشرف والفضيلة الطبقية والجماعية أموراً متوهمة غير ذات قاعدة، ومن صنع القوة والاغتصاب والاستغلال ومؤقتة ومنحرفة، ليست أصيلة ولا سماوية، بل أمراض غير طبيعية وضد إلهية ومحكوم عليها بالزوال، والعمل من أجل جعلها تتمكن الاستسلام لنظام الشرك، وقبول حكم شخص واحد أو أسرة أو عرق أو طبقة نقض للحكم

المنحصر والمطلق لله الواحد. وقبول ثنوية الجنس الإنساني وادعاء أو قبول ادعاء وجود نوعين من البشر في المجتمع القومي أو المجتمع الدولي ثنوية في العبادة وليدة نوعين من الشرك، شرك بالنسبة للخالق أي الله، وشرك بالنسبة لمنشأ الجنس البشري. فكل البشر مخلوقون من قبل قوة واحدة، ولكل البشر حاكم واحد، وكل البشر ولدوا من أب واحد، والتراب هو الخميرة العرقية لكل البشر. والخلاصة أن الروح الإلهية نفخت في كل البشر والأمانة الخاصة بالله في أيدي كل البشر. والإنسان مخلوق ثنوي يجمع بين النقيضين والضدين، الله والشيطان والروح والطين، روح الله والطين العفن. ومن هنا فإن التضاد والتناقض الذاتي في بنية الإنسان هو الذي يكون الحركة التكاملية. هذه هي الجدلية الموجودة في خلقة البشر: الله والطين، الطين: ترسب التراب، التراب الجاف الذي يشبه الفخار، والذي يترسب من السيل (الحركة)، ثم يتجمد ويصير كالطين المحروق للإناء الفخاري ويصير حجراً لا ينبت منه نبات، يغطي الأرض كغطاء حجري، ويخنق البذور والأغصان في داخله ويقتلها، ويكتسب الطين رائحة عفنة (هذه هي الأطروحة)، وبعد ذلك «نفخ فيه من روحه» (عكس الأطروحة)، ومن الحرب الدائمة بين هذين الضدين توجد الحركة والنضال والمسؤولية، وتكامل الإنسان وذهابه نحو الله «الأوج المطلق للتكامل» هو (انعدام الأطروحة).

والصراع بين الله والشيطان ليس موجوداً في العالم، بل هو محتدم في الإنسان، الذي يستطيع بإرادة الوعي الذاتي والقدرة على

الخلق والعلم والتقنية، ومعرفة القوانين الحاكمة على الدنيا والمجتمع والإنسان، وبإستخدام هذه القوانين والتدخل في المسير الحتمي والطبيعي للطبيعة والإنسان، توجيه التضاد والحركة الجدلية التي تجري في فطرته وحياته إلى المثل المتسامية فيه وإلى إتجاه تكامله. وبهذا الشكل يتدخل في قدره الطبيعي ويغيره مما هو عليه بالفعل إلى ما يريده وما ينبغي أن يكون. وهنا تطرح قضية المسؤولية في الإنسان وعلى هذا النسق: في هذه الرؤية الكونية ـ ليس الأمر مثل الرؤية الكونية المادية ـ ليس الكون نظاماً أعمى بلا شعور ومادياً والإنسان فيه ظاهرة مادية محصورة ومسيرة، ولا مثل الرؤية الكونية الوجودية إن الدنيا بلاهة مجسدة والإنسان فيها مجنون مندهش بلا مصير ولا ملجأ وبلا هدف فاقد للماهية والمعنى، وإن ذاته وعمله فحسب هما اللذان يمنحانه الماهية والمعنى. ولما كان الكون فاقداً للإدراك والإرادة، ولأنه غير واع فهو نفسه غير مسؤول في عمله، فلا مفر من أن الإنسان نفسه هو المسؤول أمام نفسه، وأمام اختيار نفسه وهذه مسؤولية عابثة وبلا قاعدة لأنه: أولاً: الإنسان الفاقد للمعنى فاقد للمسؤولية أيضاً، وثانياً: إن المسؤولية في الأساس علاقة التزامية بين إرادة تابعة وإرادة غالبة على أساس القيم والواقعيات العينية، والمسؤولية التي يكون فيها الشخص المسؤول مسؤولاً أمام نفسه وهو نفسه يعتبر مسؤولاً والمسؤولية متعلقة به، فإن القيم والواقعيات التي تتعلق بها المسئولية أيضاً تحدد بواسطته، فماذا ستكون؟ قضية حساسة وأخلاقية بدون قاعدة منطقية وموقف كوني وضمان تنفيذ عيني أو خارجي.

إن الرؤية الكونية المبنية على التوحيد الكوني، أي الإيمان بإرادة واعية قوية خلاقة ومنطقية مسيطرة على الوجود، والثنوية الجدلية البشرية، أي الاعتقاد بأن الإنسان إرادة في حالة «تطور» دائم بوعيه وإرادته وخلاقيته. وفي هذا التطور الذي يحتوي على مسافة ما بين أدنى الأصول من التدني الذي لا تدني بعده، من الطين المترسب، إلى أعلى الذوات تسامياً، إلى ما لا يضاف بعدها شيء، إلى روح الله، في هذا التطور يعد عمل الإنسان «اختباره وتحققه» وبهذا الشكل أؤمن بهذه الرؤية الكونية مثل الماديين بالقدر العلمي والحتمية التاريخية المسيطرة على جبلة البشر ومصيرهم، وأعتبر الطبيعية والإنسان واقعيات عينية ومادية تابعة لعلية المنطق والقوانين الثابتة العلمية. وأيضاً كما في الوجودية العالمية أعتبر أن الإنسان في نفس الوقت ذو إرادة خلاقة وقدرة على الاختيار، بناء عليها فهو مسؤول، الفرق أنها ليست مسؤولية عاطفية وأخلاقية وذهنية، لكنها مسؤولية عينية واقعية، مسؤولية الإنسان أمام الوجدان والإرادة والوجود. هذه هي المعايير العقائدية التي تفسر «وحدة الإنسان مع الإنسان» و«وحدة الإنسان مع الطبيعة» و«وحدة الإنسان مع الله».

ومن هذه الرؤية الكونية التوحيدية، تتشعب أيضاً وحدة التاريخ، ففي هذه الرؤية الكونية كل ظاهرة وحركة تابعة للنظام والحركة الكليين المعتدلين والمنطقيين والعلميين المسيطرين على الوجود بأكمله. فليس التاريخ مجموعة من الحوادث والأحداث التصادفية والتي لا علة لها ولا هدف، ليس مجموعة من الحركات

المنفصلة والحلقات المتفسخة التي لا ارتباط بينها، فالتاريخ هو مسيرة الحركة المنطقية والعلمية للنوع الإنساني تحقق على أساس قوانين مسلم بها ومعينة وعلمية هي الخطة المثالية للتكامل البشري في الوجود.

في التاريخ، ليست المجتمعات البشرية مجموعات من الأفراد، تتجمع حول بعضها وتشكل نظاماً يواصل حياته مستقلاً مجرداً عن الحركة الطبيعية والهدف من الخلق ومصير المجتمعات من قبله ومن بعده، ثم يموت على أساس عامل أو عوامل تصادفية أو إرادية. فكل مجتمع له قدر علمي (ولكل أمة أجل مسمى) ومجموع المواليد والوفيات في المجتمعات يبدي حركة منطقية كلية ومتصلة نحو الهدف الغائي. هذه هي حركة التاريخ، والنوع الإنساني يطوي مسيرته من كونه طيناً إلى الله في التاريخ. ومن هنا فإن التاريخ هو صيرورة نوع الإنسان إلى علم، كما أن «السيرة» هي صيرورة الفرد الإنساني إلى علم.

الفهرس

مقدمة ٥
علي شريعتي حياة وفكر ٧

القسم الأول

العودة إلى الذات

عندما تتحد الصفوف ١٧
معجزة الإيمان والوعي ١٩
العودة إلى الذات ٣٧

القسم الثاني

العودة إلى أي ذات

مصير الأفكار ٥٥
المصلحون التقدميون ٦١

الثوريون اليساريون ٦٣
المجتمع والتاريخ ٧٧
موقعنا من التاريخ ٨٥
علم الاجتماع أو علم التاريخ؟ ١٠١
مسيرة الماركسية ١٠٩
مسؤولية المفكر بالنسبة لهذه القضايا ١١٣
الحتمية التاريخية والإنسان ١٢٤
التشبه والابتلاء بمرض التغرب ١٣٠
الإنسان وليد التاريخ ١٤٣
الضمير التاريخي ١٥٠
الاحساس بالماضي ومعرفة الذات في الشرق ١٦١
لعبة العصرية ١٦٩
الاستعمار والمتشبهون ١٧٩
الخدمة والإصلاح ١٩٣
المفكر والمثقف ٢٠٣
استعمار آسيا وأفريقيا عند الرأسماليين والاشتراكيين ٢١٠
الماركسية والبنية التحتية ٢٢٧
الماركسية والاشتراكية والقومية ٢٣٥
الفرق بين القطبين ٢٤٠

تفسيري للدين والعلموية ٢٥٤
علم الاجتماع والالتزام ٢٦٧
قواعد ثلاثة ٢٨٧
كيف فهمت الدعوة إلى العودة إلى الذات ٣١١
العلم والعمل ٣٢٤
سنوات القرار ٣٣٣
الأرضية الواقعية والمنطقية لخصائص المفكر الأوروبي ٣٣٧
العلموية ٣٥١
جغرافية الكلمة ٣٦٠
مسؤولية المفكر في مجتمعنا ٣٩٢

خلاصة البحث

الآن ينبغي أن نعلم ٤٠٥
الذوات التاريخية الثقافية ٤١٣
ثقافة إيران القديمة ٤٢١
هل الماركسية أيديولوجية؟ ٤٢٥
بين الاشتراكية العلمية (الماركسية) والاشتراكية ٤٢٥
المفكر والعلموية ٤٣١
متى تطرح المدارس المختلفة؟ ٤٥٠

المادية والماركسية ٤٦٣
الرؤية الكونية المنطقية ٤٧٨
حادثة تاريخية كنموذج ٤٨٤
طبقة واحدة ووجوه ثلاثة ٤٩١
الوحدانية رؤية كونية ٥٠٩